مختبر
Laboratoire
سبل - القيم
LCP- VALEURS

القرآن الكريم
بوصلة النفس

تأملات في الإيمان، العقل، وأحوال الإنسان

تأليف
أ.د. عبد الجليل أميم

مراجعة
د. عبد الرحيم الزماني

تقديم
د. رضوان الرواك

عنوان الكتاب

القرآن الكريم بوصلة النفس:
تأملات في الإيمان، العقل، وأحوال الإنسان

المؤلف

أ.د عبد الجليل أميم

مراجعة

د. عبد الرحيم الزمراني

تقديم

د. رضوان الرواك

تصميم الغلاف

د. رفيق جهي

سلسلة نحو مغرب عالم عامل – 10

طبعة فبراير 2026

الناشر

مختبر سبل القيم بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – مراكش

رقم الإيداع القانوني

2026MO0607

ردمك

978-9920-25-673-5

العدد

سلسلة نحو مغرب عالم عامل – العدد العاشر

المطبعة

فضاء آدم للطبع والنش

الفهرس

إهداء 1

إنه تجارة مع الرحمن الرحيم 5

تقديم 6

الفهرس 1

تأملات في سورة البقرة

التأمل القرآني الأول: سيكولوجية الاستقامة واستقالة الملحد: تأملات في ماهية التقوى و انغلاق الجحود 11

التأمل القرآني الثاني: سيكولوجية التسليم: الإيمان بالغيب كاستجابة وجودية لقصور الإدراك 13

التأمل القرآني الثالث: سيكولوجية الجحود: القرار الذاتي وتضخم الأنا في مواجهة الحقيقة المطلقة 16

التأمل القرآني الرابع: سيكولوجية الذات المنشطرة: الفشل البيداغوجي في تحقيق التطابق بين الباطن والظاهر 19

التأمل القرآني الخامس: سيكولوجية التنافر وعقدة السفه: الانفصام المعرفي والمنهج المقلوب 21

التأمل القرآني السادس: التشظي الوجداني وآليات الاستهزاء الدفاعية 23

تأملات في الإيمان بالله وثمراته

التأمل القرآني الأول: هداية الوجود: الإيمان كبناء سيكو-بيداغوجي وتسديد للعقلانية القاصرة 26

التأمل القرآني الثاني: وثنية الحواس: جدلية العقل المرتهن واليقين المشروط 29

التأمل القرآني الثالث: أنطولوجيا السكينة: المسار النفسي من اغتراب الدنيا إلى يقين المطلق 32

التأمل القرآني الرابع: ماورائيات البعث: سيكولوجيا الرهبة وبراغماتية العقل المؤمن 36

التأمل القرآني الخامس: أنطولوجيا اللُّطف الخفي: بيداغوجيا التسليم في مواجهة قصور العقل المادي 40

التأمل القرآني السادس: سيكولوجيا المدد الإلهي وبيداغوجيا الجهد المسدد 43

التأمل القرآني السابع: إبستيمولوجيا الصفاء: سيكولوجيا الأكنة وردع النفور في بيداغوجيا التلقي القرآني 46

التأمل القرآني الثامن: سيمياء الوجه: طهارة الإدراك وبيداغوجيا البصمة الوجودية 49

التأمل القرآني التاسع: فينومينولوجيا الارتحال: بيداغوجيا الموت بوصفه أفقاً لاكتمال الهوية 52

تأملات في النفس الإنسانية

التأمل القرآني الأول: سيكولوجيا النزغ: ميكانيزمات الغيرة وتهافت التبرير في بيداغوجيا التفكك الأسري 56

التأمل القرآني الثاني: لباس التقوى 60

التأمل القرآني الثالث: سيكولوجيا التحصين الجوّاني وبيداغوجيا الانفصال من أجل الاتصال 65

التأمل القرآني الرابع: الأمومة حالة نفسية. سيكولوجيا الفؤاد الأجوف و أنطولوجيا الترميم بالوحي 69
التأمل القرآني الخامس: سيكودراما الزيغ: الضحك الإبليسي وبيداغوجيا العدالة المؤجلة.....72
التأمل القرآني السادس: سيكولوجيا القطيعة مع المفعولية وبيداغوجيا الكسب السيادي 75
التأمل القرآني السابع: حال المؤمن. مرايا الظلام: فلسفة الجحود السيكولوجي واستراتيجية الغزو الأخلاقي الهادئ 78
التأمل القرآني الثامن: بين عالم معيش وعالم ينتظر سيكولوجيا الإسقاط الجاحد: أنطولوجيا الظل المظلم وبيداغوجيا الهجوم المتخلق 81
التأمل القرآني التاسع: سيكولوجيا الغطرسة المنطقية وبيداغوجيا العبور إلى النور الإضافي 84

في الاضطرابات النفسية لعبدة العجل

التأمل القرآني الأول: سيكودراما الحربائية: إبستيمولوجيا الزيف و أنطولوجيا الذات الملبوسة بالباطل.....89
التأمل القرآني الثاني: الاستثناء الزائف: سيكولوجيا الاندماج التفكيكي وبيداغوجيا اليقظة النقدية 92
التأمل القرآني الثالث: النكث: سيكولوجيا الوعود السرابية وبيداغوجيا التحرر من الارتهان الوظيفي 94
التأمل القرآني الرابع: عبدة العجل وعمق الاضطرابات النفسية 4: العناد بالمقلوب 97
التأمل القرآني الخامس: أنطولوجيا العناد بالمقلوب وبيداغوجيا الانغلاق الانتحاري 99

تاملات في صفات عبدة العجل وأحوالهم

التأمل القرآني الأول: سيكولوجيا وبيداغوجيا التحلل من الميثاق.....103
التأمل القرآني الثاني: التوحش الاستعلائي: سيكولوجيا الانتشاء بالدم والافتراء المنهج.....106
التأمل القرآني الثالث: الطهرانية بالمقلوب ومأسسة الصد عن السبيل.....110
التأمل القرآني الرابع: سيكولوجيا الهبوط العجلي، وبيداغوجيا العقلانية كقدر إلهي 113
التأمل القرآني الخامس: العمى العقدي والحجاب النفسي وبيداغوجيا التواضع المعرفي.....118
التأمل القرآني السادس: التوحش المُقدّس و النموذج العجلي كعينة مرجعية للشر 121
التأمل القرآني السابع: الابتلاء الرباني والعمى العقدي: قراءة في فلسفة الشر المقدس.....125
التأمل القرآني الثامن: أنطولوجيا الكيان الإبشري: الوحشية المنزّهة وبيداغوجيا البلاء المستمر 128
التأمل القرآني التاسع: بناء النموذج "الإبشري": من النرجسية الجماعية إلى تأليه الهوى في "أرض الرباط".....131
التأمل القرآني العاشر: الهوية المزيّفة: سيكولوجيا الأشرار الأبرياء والانفصال عن المشترك الإنساني.....134
التأمل القرآني الحادي عشر: الرعب الارتدادي: سيكولوجيا الحصون المتهاوية الردع المضاد 136
التأمل القرآني الثاني عشر: عقدة النقض والنبذ والعيش في الظلام. 139

التأمل القرآني الثالث عشر: الوهن المُصنّع: سيكولوجيا الأخلاق الرخوة والمؤامرة الذاتية 141

التأمل القرآني الرابع عشر: الفراغ المعرفي، والانحراف السيكولوجي، والتزييف التربوي.....144

التأمل القرآني الخامس عشر: النفاق المنهج: سيكودراما العملة الواحدة وبيداغوجيا التحرر من الهوان.....146

التأمل القرآني السادس عشر: الاسم المسروق والفعل الموثق 148

تأملات في ملكة التفكير

التأمل القرآني الأول: الارتداد الذاتي: سيكولوجيا الأفعال المنعكسة وبيداغوجيا الترميم الجواني 151

التأمل القرآني الثاني: الدماغ : سيكولوجيا (الدمغ المعرفي) وبيداغوجيا التدريب على الأداءات العليا 154

التأمل القرآني الثالث: فلسفة اليقظة 156

التأمل القرآني الرابع: الاستزادة: سيكولوجيا الفضول الوجودي وبيداغوجيا الابتكار المستدام.....159

التأمل القرآني الخامس: عندما يعجز المنطوق وينجح الإشاري .....

التأمل القرآني السادس: العوالم المرئية وغير المرئية. سيكولوجيا البصيرة النافذة وبيداغوجيا التحرر من القيد الحسي 164

التأمل القرآني السابع: الغواية الممنهجة: سيكولوجيا (الأبلسة الإدراكية) وبيداغوجيا التحصين الأخلاقي.....167

تأملات في أوصاف القرآن الكريم

التأمل القرآني الأول: القرآن تبيان مطلق، وهدى مؤكد، ورحمة ربانية، وبشرى للمسلمين 171

التأمل القرآني الثاني: القرآن رحمة مطلقة للمسلمين 174

التأمل القرآني الثالث: "الدعم السيكولوجي والإرشاد المنهجي 177

التأمل القرآني الرابع: النسق الاجتماعي ورحمة الكتاب المطلقة.....180

التأمل القرآني الخامس: سيكولوجيا البشارة القرآنية: من صناعة الرضا إلى هندسة السلام الداخلي.....183

التأمل القرآني السادس: من التكامل المنهجي إلى بيداغوجيا التوازن الوجودي.....186

تأملات في سيكوبيداغوجية الأسرة

التأمل القرآني الأول: سيكو-بيداغوجيا "المتعة" في التشريع القرآني: من ألم الفراق إلى استراتيجيات الانفتاح على المستقبل.....191

التأمل القرآني الثاني: أنطولوجيا القوامة القرآنية 194

التأمل القرآني الثالث: البنوة العالمة امتيازرباني 198

التأمل القرآني الرابع: أنطولوجيا الكهف النفسي: الزواج المختلط وهشاشة اليقين العاطفي 201

التأمل القرآني الخامس: سيكولوجيا الإفساد المنهجي: عمارة النفس في مواجهة تغول الباطل 204

تأملات في قيم الإسلام

التأمل القرآني الأول: التأمل القرآني الأول: التواضع أعز ما يطلب كشجاعة وجودية ضد وهم التأله 208
التأمل القرآني الثاني: »بيان الاستغناء والاعتزاز 210
التأمل القرآني الثالث: الحب الموصول والحب المفصول 213
التأمل القرآني الرابع: الحرية كصفة إلهية مطلقة وكأمانة إنسانية مسؤولة 216
التأمل القرآني الخامس: سيكولوجيا "العمى الاختياري" ورحلة الاختراق المعرفي 218
التأمل القرآني السادس: بين مد العين وغضها سيكولوجيا الاكتفاء: غض العين كدرع هوياتي ضد بؤس المقارنة 221
التأمل القرآني السابع: سيكولوجيا الانكسار العظيم وتحرير الأنا من وهم التأله 224
التأمل القرآني الثامن: العدل الإلهي مطلق وقانون وضمانة 227

تأملات في صفات المكذبين

التأمل القرآني الأول: "إبستمولوجيا المكر" و"واقعية الشهادة"..... 230
التأمل القرآني الثاني: قصور الإحاطة وفانتازم الهروب من التكليف 233
التأمل القرآني الثالث: سيكولوجيا "المارد المحسود": حتمية الإظهار الرباني وتهافت التوحش 236
التأمل القرآني الرابع: بيداغوجيا الفضح واليقظة..... 240
التأمل القرآني الخامس: سيكولوجيا الهويات النووية: اضطراب المرضى ونشوة التدمير الذاتي..... 244
التأمل القرآني السادس: سيكولوجيا الشوفينية: نقد الصفاء الموهوم وتحرير الأنا من قلق الهوية 248
التأمل القرآني السابع: بيداغوجيا الوعي التاريخي: كيف نحمي الجيل من "مخدرات" الإعلام الصهيوصليبي؟ 253

تأملات في الهدايات الإلهية

التأمل القرآني الأول: بيداغوجيا التوسط..... 257
التأمل القرآني الثاني: صورة الله كعدسة لتشكيل الذات والوجود 259
التأمل القرآني الثالث: مثلث الاستقرار الوجودي: المعيقات، الثقة، العمل..... 261
التأمل القرآني الرابع: القرب من الله والإحساس بالبعد عنه..... 263
التأمل القرآني الخامس: الكفايات المحققة للنصر 265
التأمل القرآني السادس: سيكولوجيا الفرح المتسق وتفكيك "دين اللادين" في احتفالات التفلت..... 268
التأمل القرآني السابع: سوسيولوجيا الهوان..... 270
فهرس الآيات والأحاديث..... 272

إهداء

إنه تجارة مع الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، الذي أرشدنا إلى تدبر كلام الله تعالى، وبعد:

نقدم بين يديك أيها القارئ الكريم كتاب القرآن الكريم بوصلة النفس: تأملات في الإيمان، العقل، وأحوال الإنسان. للدكتور عبد الجليل أميم، وهو الجزء الذي جاء ليواصل مشروعا تأمليا يهدف إلى الوقوف مع الآيات وقفات تأملية تتجاوز المعنى الظاهر والسطحي إلى سبر أبعاد الهداية الكامنة في النص القرآني. كما يضم بين طياته وقفات مع كتاب الله عز وجل، يواصل فيها الكاتب المسير على درب التأمل، لنلامس معه نبض الآيات من جديد، ونسائل معانيها بروح القلب، ونمنح العقل فسحة لتذوقها، لا لفهمها وتحليلها فقط.

لطالما كان القرآن الكريم نبعًا لا ينضب للهداية والحكمة، بحرًا زاخرًا بالأسرار والآيات، كلما اغترف منه المتأملون زادهم نورًا على نور. وهذا الكتاب محاولة متواضعة لالتقاط بعض تلك الأنوار، وغوصٌ في أعماق الآيات الكريمة لاستخراج درر المعاني واللطائف. إنها وقفات تأملية أراد الدكتور عبد الجليل أميم أن يشاركنا إياها، لنرتقي من قراءة القرآن إلى فهمه، ومن فهمه إلى تطبيقه، فتنعكس آياته في سلوكنا وأخلاقنا ونظرتنا للحياة.

هذه التأملات هي محاولة للغوص في أعماق كتاب الله، واستخراج بعض كنوز سورة البقرة، والكشف عن ثمرات الإيمان وأحواله عند المؤمن، وأحوال النفس الإنسانية وسبر أغوارها، كما تكشف هذه التأملات صفات عبدة العجل، واضطراباتهم النفسية التي تظهر نفوسهم المريضة، النرجسية، المتعطشة للعنف والقتل، إذ أن هذه الوقفات المتدبرة والمتفكرة تلامس قيم الإسلام من حق، وحرية، وحب، وتواضع، وعزة، وتقف عند بعض أوصاف القرآن الكريم، وثمرات اتخاذه منهاجا للحياة، كيف لا وهو تبيان مطلق، وهدى مؤكد، ورحمة ربانية، وبشرى للمسلمين، وبيان حقيقة ملكة التفكر باعتبارها عبادة، وآلية من آليات التأسيس للحق والعلم.

تبرز هذه التأملات كذلك بعض صفات المكذبين التي تترجم على شكل عداء للإسلام وأهله، وتقدم كذلك مجموعة من الكفايات للتعامل مع وضعيات النفس الإنسانية، والحياتية. كما تدقق هذه التأملات في بعض المصطلحات الفقهية المرتبطة بالأسرة، ففصل في مفهوم الأمومة، والبنوة، وما يتصل بها من مفاهيم كالزواج، والقوامة، والمتعة، والطلاق...

يشكّل القرآن الكريم منذ نزوله مجالاً خصباً للتأمل والتفكر، ومرجعاً لا ينضب للهداية والمعرفة. غير أن التعامل مع النص القرآني ظل يتأرجح تاريخياً بين القراءة التفسيرية المعيارية، التي تركز على المعنى الظاهر والأحكام الشرعية، وبين محاولات الدخول إلى عمق النص لاستكشاف أبعاده الوجودية والروحية. في هذا الأفق يندرج مشروع الدكتور عبد الجليل أميم في كتابه "تأملات قرآنية"، حيث يسعى إلى فتح فضاء

جديد للتلقي يتجاوز القراءة الفقهية أو البلاغية إلى قراءة فلسفية-تأملية تجعل من النص القرآني مرآة للوجود الإنساني وأفقاً لبناء الوعي.

غالباً ما يتوقف التفسير التقليدي عند حدود اللغة والمعنى الظاهر للنص، بينما التفكر القرآني كما يطرحه الكتاب يذهب أبعد من ذلك، إذ يجعل النص مجالاً حياً للتساؤل والتأمل. هذا التحول هو بالضبط ما يعني الانتقال من الوصف إلى استكناه الجوهر، ومن ظاهر الأشياء إلى ما وراءها، ومن الوعي الكائن إلى الوعي الممكن، بحيث إن التفكر في هذا الإطار ليس مجرد فعل معرفي، بل عبادة وجودية، أي ممارسة تنقل الإنسان من حالة التلقي السلبي إلى حالة الحوار الجدلي مع النص، بحيث تصبح الآيات القرآنية خطاباً مفتوحاً يُسائل القارئ في أعماقه، ويضعه أمام مرآة ذاته، وهو ما يحوّل القراءة إلى تجربة أنطولوجية.

لا يكتفي الدكتور عبد الجليل أميم بقراءة الآيات من حيث دلالتها الفقهية أو الوعظية، بل يضعها في سياق وجودي يكشف عن علاقة الإنسان بالوجود. ففي تأملاته حول سورة البقرة مثلاً، نجد رصداً لصفات النفس المؤمنة في مقابل النفس المريضة (عبدة العجل)، وكأن القرآن هنا يقدّم أنطولوجيا للإنسان: "إنسان منفتح على النور والإيمان، ينهل من قيم الحق، والحرية، والتواضع" مقابل "إنسان منغلق على ذاته، أسير النرجسية، والتعصب، والعنف".

بهذا يصبح القرآن نصاً يُعيد رسم خريطة الوجود الإنساني، ويفتح أمامه طريقين متقابلين: طريق النور والهداية، وطريق الظلمة والعداء، بيد أن القرآن الكريم، حين يُقرأ بروح التفكر، يلتقي مع هذه الغاية، إذ يدعو إلى استعمال العقل دون أن ينفصل عن القلب، وهو ما طرحه الكتاب من خلال تأكيده أن التفكر القرآني ليس فهمًا عقلانيًا باردًا، بل هو تذوق للقلب وتأمل للروح. وهذا يضعنا أمام مفارقة أساسية: العقل والقلب ليسا ضدين، بل رافدان متكاملان في رحلة البحث عن المعنى.

يثير الكتاب كذلك موضوعات الإيمان، والنفس، والأسرة، والقيم الإنسانية بحيث لا تُطرح كمعطيات نظرية فقط، بل كموجهات عملية للحياة. هنا نقترب من فكرة "فلسفة قرآنية للحياة"، أي تصور يربط بين النظر والعمل، بين الفكر والسلوك. بهذا المعنى، يقدم الكتاب لبنة في مشروع فلسفي-إسلامي يجعل القرآن مرجعاً لبناء "الإنسان المؤمن"، وهو تصوّر شامل للوجود الإنساني من حيث علاقته بالله تعالى وبالعالم والناس.

هذه الأبعاد تجعل من " القرآن الكريم بوصلة النفس:

تأملات في الإيمان، العقل، وأحوال الإنسان" بداية مشروع، لا نهايته. مشروع يدعو إلى إعادة التفكير في علاقتنا بالقرآن لا كتراث محفوظ فحسب، بل كخطاب حي يفتح إمكانات جديدة للفكر الإسلامي والفكر الإنساني على السواء. كما أن الكتاب بما يحمله من دعوة إلى التفكر العميق يجعلنا أمام أفق فكري جديد: أفق تتداخل فيه القراءة الروحية مع السؤال الوجودي، وتلتقي فيه القيم القرآنية مع البحث عن الحقيقة والمعنى. إنه مشروع يؤكد أن القرآن ليس كتاباً للتلاوة فقط، بل مرجعاً لتأسيس حياة

قوامها الحق، والحرية، والرحمة. وبهذا يضعنا أمام تحدٍّ مستمر: أن نجعل من التفكر عبادة، ومن الفهم مسؤولية، ومن القرآن فلسفة عيش قبل أن يكون مجرد نص محفوظ.

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يجعله لبنة في صرح فهم كتابه العزيز. وأن يبارك في هذا الجهد، بحيث يكون لبنة في تجديد العلاقة مع القرآن، وإحياء لسنة التدبر والتفكر التي تجعل منا متصلين، ومنتفعين بكلام رب العزة المنان، وهو سبحانه تعالى ولي التوفيق.

الدكتور رضوان الرواك

مراكش: السابع من ربيع الآخر 1447هـ الموافق ل: 30 شتنبر 2025

حين تصبح العقيدة عدسة للوجود

في زمن طغت فيه الروايات المبتورة، وتفشت فيه أمراض التبرير النفسي، يقف الإنسان أمام تحدي استعادة بوصلته الداخلية. هذا الكتاب ليس مجرد مجموعة من الخواطر الدينية، بل هو **محاولة لمَركزة العقيدة الإسلامية كإطارتوجيهي نسقي** يفسر العالم من الداخل إلى الخارج.

يجمع هذا العمل بين التحليل **الفلسفي** للقضايا الوجودية، و**التشريح السيكولوجي** لآليات دفاع النفس البشرية، و**المنهج البيداغوجي** العملي لتحويل القيم الروحية إلى كفايات إجرائية محققة للنصر واليقظة.

إذا كنت تبحث عن ترياق **للفيروسات الفكرية** التي تغرق أدمغتنا، وعن إطار عمل **متوازن** يجمع بين متطلبات الروح وحقائق الواقع، فهذا الكتاب دعوة لك لـ "تنقية عدسة الرؤية" واستعادة **الاستقلال المعرفي والأخلاقي** الذي هو شرط أول للنصر الحقيقي. إنه دليل للتحول من **مؤمن قلق** إلى **مؤمن متزن بوعي وإرادة**.

تأملات في سورة البقرة

التأمل القرآني الأول: سيكولوجية الاستقامة واستقالة الملحد: تأملات في ماهية التقوى وانغلاق الجحود

(الٓمٓ (1)ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ (2)ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (3)وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (4)أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (5))

الآيات من 1 إلى 5 من سورة البقرة

تبدأ سورة البقرة بحروف متقطعة لها دلالة لا يحيط بمعناها إلا الله تعالى، وكثيرون هم أولئك الذين قالوا فيها ما استطاعوا قوله، رجاء أن يكونوا قد وافقوا مراد الله فيها وبها، وسيكون لي معها إن شاء الله يوما ما تأملات إن كان في العمر بقية، لأنها ليست محل تأملي الأول في رمضانيات هذه السنة المباركة، بل سأقف أساسا مع الآيات الأربع الأولى من سورة البقرة متأملا ما يمكن أن تخفيه أو يسكنها من إشارات ربانية يلتقطها من انفتح على عالم الإيمانيات بدون عقد، فالكتب السماوية منغلقة تماما على الجاحدين بها لأن مفتاحها هو الإيمان.

تدور الآيات الأربع حول حقيقة المتقين أو ماهيتهم، فيا ترى من هو المتقي إذن في سياق هذه الإشارات الربانية؟

يبدأ الله عز وجل بتحديد مفاهيمي أولي ومركزي، مفاده أن التقوى مرتبطة بالإيمان بالغيب، وأداء الشعائر، ونفع الخلق بشرا وشجرا وحجرا، وتَبَني إيمان ممتد في الزمن الماضي ومخترق لحجب الزمن الأرضي باستشرافه لليوم الآخر، وجُماع هذا كله سماه عز وجل هدى وفلاح. وعليه، هل يمكن للملحد غير المؤمن أن يكون متقيا؟

أكيد أن الملحد يؤمن بشيء ما ولو كان إلحاده، لكنه إيمان دون إيمان المؤمن، فإيمان الملحد ضيق الأفق، لا يتجاوز خارطة فكره، ولا علاقة له بالأفق الماورائي، إنه إيمان بالمشهود المنظور، يكاد أن يكون ماديا صرفا، وهنا يصبح إيمانا أدنى مكانا ومكانة، إيمان مشدود إلى العالم المشهود، مع العلم أن الإيمان نفسه وبمعناه العقدي الصرف هو الاعتقاد في غير المشهود واللامرئي. فالذي يمسك بالمشهود ويشهد له هو العلم، والذي يمسك بالغيبي غير المشهود هو الإيمان في دلالته العقدية الصرفة. وعدم الإيمان بإله غير منظور يعني نفي الله بالاستناد على إله مجهول أو عقل مجبول على المشهود، والله فوق المشاهدة المادية. لكن رغم كل ذلك فالملحد قد يعتقد أن إلحاده نوع من التقوى الراقية التي تتعالى حتى عن المتعالي، وهنا يحل إلحاده المادي محل الإيمان المتعالي، **فيخلق المتعالي من حيث أراد نفيه أو محوه، لذلك يتحول الإلحاد إلى اعتقاد والملحد إلى إله سواء أدرك ذلك أم غاب عنه.**

إن المتقين مرتبطون بعالم يؤمنون به ولا يرونه، ويُصَلُّون إلى إله يؤمنون به ولا يرونه، وهذا هو عمق الإيمان، أي أن تصدق وتطمئن لما لا يمسك به العلم، لأن الإيمان متعلق بما هو مغيب عنا جملة وتفصيلا.

لو سلكنا مفهوم المقابلة لظهر لنا بأن الإلحاد يحيل على لطيفة تنبجس من الآيات أعلاه ومفادها، أنه إذا كان الإيمان يقتضي أداء واجبات نحو الله ومخلوقاته والسعي للأفق الأرحب في المستقبل البعيد القريب، **فإن الإلحاد معناه انتفاء الواجبات**. وعليه، **أدعي أن الملحد يختار الراحة ويهرب من المسؤولية المرتبطة بتبعات الإيمان.** لا يحتاج إلى صلاة، ولا إلى صيام، وغير معني بالصدقة إلا إذا أوحاها إليه هواه أو فرضتها عليه الدولة..... الملحد اختار جانب الاستقالة من كل الواجبات التي تصدر من أي دين، فالدين والواجبات لا ينفصلان، وعدم الإيمان معناه مزيد ومزيد ومزيد من التحرر من تبعات الأديان، بل قد يدعي أن الوجود عبث وصدفة فينادي في الناس حي على العبث والصدفة فإننا كائنات لا شيء، أو أننا كائنات هي كل شيء وتفعل ما تشاء.....أين التقوى؟

بل إن من غرائب ما قرأت عند الملحدين المسيحيين أنه لو رجع يسوع لاعتنق دين الإلحاد، ثقة عالية في دين الإلحاد حتى جعلوه دين الله ولو من باب الاحتمال. يكاد أن يكون الفرق بين المؤمن والملحد **هو أن المؤمن استطاع أن يتغلب على حالة عدم الإيمان التي تراود كل مخلوق، أما الملحد فبقي حبيس أسوارها وغو اياتها**. وما يثير الاهتمام هو أن الإلحاد نفسه يقود حملة دعوية خاصة به ضد المؤمنين مما يجعله معتقدا أو دينا عند أهله، بل وأمرا جديدا عند أهله لكنه قديم في التاريخ.

إن الملحد يؤمن حقيقة بالله أشد ما يكون الإيمان لأن الذي يتحكم في دين الإلحاد هو البعد والقرب من الله ومن تعاليمه، فتصوراته وسلوكاته وأحكامه واختيار أصدقائه وأنواع أكله وشربه.... بل ومقالاته، وندواته، وكتبه يتحكم فيه أمر واحد ووحيد: البعد أو القرب من الدين الرباني، فكل ما يقرب إلى الله يبتعد عنه الملحد، وكل ما يحرمه الله يقترفه، وكل ما يأمر به الله يخالفه، وكل ما ينهى عنه يقوم به... وعليه، لا ينفك الملحد عن الدين إلا بمعانقة نقيضه، **فيغدو الدين ومقتضياته هو المتحكم في إيمانيات الملحد وسلوكاته. لهذا جاء في بداية الآية أن الإلحاد والتقوى بالمفهوم الرباني لا يجتمعان.**

الإيمان فلسفيا بوابة وجودية تتجاوز الماديات إلى الماورائيات، والإلحاد تضييق واختزال، إذ أن معانقة الإيمانيات معناه الطمأنينة لما لا يمسك به العلم، والقبول بوجود المتعالي، وسيكولوجيا فسلوك الملحد متحكم فيه بما يعتقد أنه نقيضه أيما تحكم، إذ لا يستطيع أن يتحرر فعلياً من الدين، بل يجعل منه المحور السلبي لحياته، فسلوكاته، يتحكم فيها مبدأ واحد: **البعد عن أو مخالفة تعاليم الدين**، وبيداغوجيا أعتبر الإلحاد فشلا تربويا في تبني العقل للعالم المتعالي، وانزياحا عن الالتزام بواجبات في ظاهرها عبادات وفي باطنها علاجات، والارتماء في حبال عدم اليقين.

التأمل القرآني الثاني: سيكولوجية التسليم: الإيمان بالغيب كاستجابة وجودية لقصور الإدراك

(ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (3) وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (4))

الآيتان 3 و4 من سورة البقرة

قلنا إن من خصائص المتقين الإيمان بالغيب، لكن ما معنى الغيب؟

ببساطة غير مخلة بمقصدنا يمكن أن نقول بأن الغيب هو ما غاب عن إدراكنا، أو بالأحرى ما لا تدركه أدواتنا أي حواسنا من جهة، أو ما قد يكون غائبا عنا وبإعمال عقولنا نستحضره في أذهاننا من جهة أخرى، والغيب المقصود في الديانات هو النوع الذي يجمع بين الصنفين المذكورين أعلاه، **أي ما غاب عن الحواس وما عجز العقل عن إدراكه، أي لا هو معرفة عقلية ولا تجريبية حسية، بل معرفة تستدعي الإيمان لا العقل ولا الحواس، ولو اجتمعا لكانت نتيجة تزاوجهما منهجيا موصلة لبعض الإدراك للغيب لكنه إدراك محاط بالشك والغموض. لذلك لا أسميه إدراكا بل إيمانا.**

يحيل الغيب ضمنيا على وجود عالم آخر عجزت حواسنا عن الإمساك به، والعقل عن معرفته، بمعنى أن الغيب في هذا السياق هو عالم آخر لا نتعرف عليه هنا إلا بالتسليم به، والرجوع إلى مصادر الإخبار عنه، **بل إنه يستدعي تساميا عن الوجود المادي، ولا ندركه حقيقة إلا بمرورنا من ممر ملزم لنا جميعا ولا اختيار لأحدنا فيه، وهو حتمية الموت، فالموت على هذا الأساس موصل لإدراك يقيني مؤجل**، فلا يمكن اعتباره فراغا أو وهما... لأنه متواتر بين الناس وممتد في الزمن، ومستمر حتى الآن. إن الموت انتقال من حال إلى حال، والموت ليس ضد الحياة، بل إن الديانات السماوية لا تعتبر أن الموتى أصبحوا عدما بل إنهم أحياء، بل إننا سنحيا هناك حياة غير هذه الحياة، ولا يجب أن ننسى أنه رغم أننا نصف الموت بما نصفه به من أوصاف فإنه يبقى غيبا لا نعرف عنه إلا ما ذكرته الأديان التي نؤمن بها، فهو محض غيب في ماهيته ومآل الناس بعده، وإن كنا ندرك ماهيته البيولوجية التي نمسك بها علميا.

بقي أن نؤكد على أننا أمام الموت سواء، لكنه لا يجعلنا في الآخرة سواء.

يخضع كل شيء في هذا العالم لقوانين طبيعية، ويخضع كل شيء في العالم الآخر الغيبي لقوانين غيبية، لكنهما رغم كل ذلك عالمين غير منفصلين عند أهل الديانات السماوية. إن الآيتين الثالثة والرابعة من سورة البقرة: "ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿3﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿4﴾" سورة البقرة الآيتان: 3/ 4، تجعلان بلوغ عالم الغيب مشروطا بالأعمال في العالم المنظور. وعليه، فإن النفاذ إلى العالم الغيبي يمر عبر عتبات دنيوية يجلس على عرشها إيمان روحي عميق وغير مشروط، وعبادات تعكس حقيقته، ومعاملات تطبق أخلاقه، هذا الأداء الإيماني يخترق الدنيا ويستمر معك في عالم الغيب. بمعنى أن فكرة انفصال العالمين لا وجود لها حتى بعد الموت، لأن كل ما قمت به وأثمر، سيلحقك أثره وتستفيد منه هناك، **وكأن**

الأصل في الإيمان والعمل هو دوام الاستفادة والإفادة، بل وكأن الغاية من الإيمان والعمل الدنيويين هو تكثيف العلاقة الجدلية بين عالم الغيب وعالم الشهادة، أو بمعنى أدق أننا حينما نموت فإننا لا نموت. يهدف الإيمان بهذا الشكل إلى الرفع من منسوب الإنسانية في الإنسان ليكون نافعا لغيره ليستحق العالم الآخر في بعده الجميل، بل إن أعماله الخيرة هي التي تجعل لحياته معنى هنا، ومغزى هناك.

إن الآخرة باعتبارها من الغيبيات لا تفصلها عن الدنيا حدود جامدة، بل ترتبطان بشبكة كثيفة ومتجددة من العلاقات التعبدية والروحية الإيمانية بالأساس. ومن خصائص العالم العلوي الغيبي أنه يستقبل من أعمالنا ما اتسم في العالم الدنيوي بالعلو في الجودة أداء ومضمونا، فهو عالم عال مكانا ومكانة، لذلك كان هذا العالم في بعده الجميل من نصيب المتقين.

دائما وباستحضار الوجه الآخر للفعل الإنساني فوق الأرض يبرز إلى الوجود بعد علوي قاتم في العالم الآخر، إذ يخفي الغيب وجها أسودا في الآخرة، وجها مدمرا يعكس سواد أفعال الخلق هنا في العالم المشهود. إن الإيمان هو مفتاح الغيب، بل إنه بالفعل هبة أو لنقل قدرة مبثوثة فينا نبحث من خلالها عن النور في الظلام، والغيب في المشهود، ونرسم بها قنطرة عبور بين عالمين يسكنان دواخلنا، فلا هما انفصلا ولا هما انصهرا. وعليه، يكون الإيمان من هذه الزاوية مسكنا للألم المعرفي، **فعقولنا لا تقبل غير الفهم، وهو ممتنع عن الفهم بأدوات أرضية، إنها رؤيتي كمؤمن للغيب باعتباره مجالا مخصوصا للإيمانيات.**

إن التاريخ الإنساني في كل الثقافات لم يخل أبدا من البعد الميتافيزيقي للإنسان، واستحضاره للغيبيات ولو في شكل مخلوقات ملائكية أو روحانية أو أنوار أو أي شكل من أشكال التعالي التي يحتاجها. لقد مارس الإنسان على الدوام شجاعة وتمردا متواصلين على عقله، ذلك أن هذا الأخير في بعض أشكاله لا يسلم بالماورائيات، يحس دائما أنها موجودة حتى وإن لم يسلم بها عقله، فيعمد إلى التمرد على عقله وإلجامه في حدوده القصوى وهي عالمه المنظور، بل إنه يتساءل كذلك، أليس لهذا العقل نفسه دورا في استحضار الغيب والدخول معه في مناوشات وصراعات، تدور كلها في حلبة الرفض والقبول والشك والظن؟

يتساءل العقل كذلك، لماذا كل هذا الظلم في العالم؟ ويتساءل أيضا، لماذا كل هذه النعم والجمال في العالم؟ لا يقبل العقل بالتناقض، إنه يريدها إما جنة أو نارا، لكن عالم الغيب يقول له، إنهما في العالم الدنيوي متداخلتين، وفي العالم الغيبي منفصلتين، فلا تفصل ما لا يفصل في الدنيا، ولا تجمع ما لا يجمع في الآخرة، فمتى اخترت أحدهما سبيلا هنا أوصلك إلى صِنوه هناك في عالم الغيب، أي أنك إن اخترت هنا السير على منوال الشر والظلم والكفر مع الناس ورب الناس ومخلوقات رب الناس، وصلت إلى مستقرك هناك، وهو مستقر يوافق اختياراتك الدنيوية في شره ويتجاوزها، والعكس صحيح، إن اخترت مجال الخير والإيمان والجمال مع الناس ورب الناس وصلت إلى مستودعك هناك، وهو مستودع يوافق في الجمال والحب والخير منطلقاتك الدنيوية ويتجاوزها، وإن تذبذبت بينهما رجحت كفة الخير على كفة الشر.

يا عقل انتبه، لقد أردت الحكمة والفهم، فأنزلك الله منزلة التقاطهما، فأنت وسط أمواج من المشاكل الدنيوية ترتكب فيها أمواجا من الأخطاء، وتنتج فيها أمواجا من الحلول....، انتبه فهذا هو الطريق إلى الحكمة، فلا حكمة بدون تذوق الآلام ومعانقة الحلول التي تنقلب نفسها إلى مشاكل.... عالم الغيب لا يحتاج تأملاتك، ولا حلولك لأنه مستغن بنفسه عنك. هكذا هو الغيب يخترق عالم الشهادة بشرا وحجرا وشجرا ومخلوقات، لكنها لا تخترقه، يعرفها لكنها لا تعرفه، ومن حكمتك أيها العقل أن تستفيد من تاريخك.

ليس الإيمان هبوطا وانحدارا بل أعتقد أنه بالتمام والكمال تجاوز معرفي وفلسفي ونفسي وسلوكي لقصور أدوات الإدراك البشرية (الحواس والعقل)، حيث يُعرَّف الغيب بأنه مجال مخصوص للإيمانيات لا يمكن إمساكه إلا بالتسليم والرجوع إلى الوحي. هذا الإيمان ليس مجرد تصديق نظري، بل هو فعل وجودي يربط عالم الشهادة (الدنيا) بعالم الغيب (الآخرة) عبر شرطية الأعمال، وصدقية الأفعال، ونظافة النوايا، وعلو النظر إلى المآل.

فلسفياً، الموت هو ممر يقيني مؤجل وليس عدماً، بل ميقات محدد الزمان والمكان والهيأة، وكونه حقيقة مؤجلة معناه فرصة ممتدة للتكيف مع وضعيات الوجود والسمو بالأداء حتى إذا جاءنا كنا في مستوى الانتقال من عالم إلى عالم أعلى وأسمى، وكنا في مستوى اللقاء الرباني، الموت بهذا المعنى يثبت أن العالمين ليسا منفصلين؛ بل متصلين حقيقة، فالنفاذ إلى عالم الغيب العلوي مشروط بالجودة الملامسة للعلو في الأداء والمضمون للأفعال الدنيوية المتعلقة بالله كالصلاة، والمتعلقة بالناس كالإنفاق، والمتعلقة بالأفعال المتوجهة لكل مكونات العالم حجرا وشجرا وبشرا. العالم العلوي يعطي لأفعالنا وأفكارنا معنى، ويرفع منسوب قوة التحمل لدينا في مواجهة آلام العالم الأرضي، ويحول طبيعة أعمالنا من مستوى العمل إلى مستوى الإنجاز الإيجابي، وهذا يضع الإنسان أمام مسؤولية الاختيار التي لا تقبل تداخل التناقضات الأخلاقية في الآخرة، فالاختيار هنا (الخير أو الشر) يوصل إلى صِنوه هناك.

سيكولوجياً، يمثل الإيمان مُسكناً للألم المعرفي للعقل، الذي يطلب الفهم المطلق لما هو ممتنع الفهم بأدوات أرضية. وهو يتطلب "شجاعة وتمرداً متواصلين "على العقل لإلجامه في حدوده المشهودة، كما يمكن اعتبار الإيمان مهدئا للاضطراب النفسي، وبوصلة للسلوك الإيجابي، فالإيمان سمو وارتفاع في كل شيء. يمنح النفس توازناً عبر قنطرة عبور داخلية بين الوجود المادي والتعالي الروحي والإيجابية السلوكية.

وبيداغوجياً، يُعَد الإيمان منهجاً يهدف إلى الرفع من منسوب الإنسانية، بل إلى الرفع من منسوب الدقة في السلوك وتقدير المآلات والسمو بالذكاء الاجتماعي في الإنسان، واكتساب كفاية تحويل المشكلات إلى فرص على المستوى الفردي أو الجماعي، بحيث أن أعماله الخيّرة هي التي تمنح لحياته معنى هنا ومغزى هناك .هذا المنهج البيداغوجي يُعلِّمُ العقل أن الحكمة لا تُكتَسَبُ بالفهم المطلق، بل بتذوق الآلام وخوض غمار المشاكل والأخطاء في الدنيا، حيث لا يكون دور العقل الفهم الكامل للغيب، بل التقاط الحكمة من خضم التفاعلات الدنيوية.

التأمل القرآني الثالث: سيكولوجية الجحود: القرار الذاتي وتضخم الأنا في مواجهة الحقيقة المطلقة

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (6)خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (7))

الآيتان 6 و7 من سورة البقرة

إن قرار الكفر قرار ذاتي، قرار نفسي جواني، قرار جاء بعد صراع بين مكون الإيمان والكفر في دواخل النفس، فانتصر الجحود سيكولوجيا بشكل لم يعد معه ممكنا أن تتأثر النفس بمؤثرات خارجية وعظية أو إرشادية أو علمية ترفع منسوب الإيمان في النفس، لقد وصل الجحود إلى أعلى درجاته، لامس عمق النفس ومكوناتها، بل سيطر على قلب الإنسان الكافر سيطرة مطلقة، بل أكثر من ذلك عطل عمل الحواس جملة وتفصيلا.

لماذا يؤمن الناس بالله؟ ولماذا يكفر آخرون رغم أن آخر الإحصائيات العالمية تشير إلى أن عدد المؤمنين يتجاوز ثمانين في المئة من سكان المعمور؟

تحيل الآية أعلاه ضمنيا على لطيفة مهمة **مفادها أن الكفر والإيمان لا يمكن أن يكونا نسبيين**، أي أن قضية الإيمان والكفر قضية لا تعرف احتمالات بين الحالتين، لأنهما حالتان عميقتان في النفس بل مسيطرتان على النفس كليا وجزئيا، ولا وجود لمنزلة بين المنزلتين، **فإما أنك تؤمن بما يؤمن به غيرك، أو تؤمن بدين من اختراعك، وإله من صنعك، ولو كان هذا الإله أنت و أفكارك وقناعاتك، فلا وجود لحالة اللاإيمان، إلا تجاوزا عندما نتحدث عن الكفر بشيء ما، إذ إن الكفر جحود بإيمان معين وممارسة لإيمان بديل عنه لأن عقولنا لا تقبل الفراغ والعيش في التيهان أمام الأسئلة الوجودية الكبرى: من أنا؟ من أين أتيت؟ ما الله؟ ما الموت؟ ماذا بعد الموت؟ من أين أتى الكون؟ هل هو صدفة؟ أم أنه ضرورة؟ أم يعبر عن إرادة إلهية؟ وما الإله؟ .... كل هذه الأسئلة على عقولنا أن تحدد لها جوابا ليستمر الإنسان في التوازن، وإلا هاجمته كل أنواع الاضطرابات، المهم أن يجد جوابا وكيفما كان هذا الجواب.**

يعتبر الإيمان والكفر موقفين متناقضين من الدين لكنهما موقفين مستقلين من الحياة، وإن كنت أعتقد أن الكفر نفسه موقف ديني. إن المؤمنين يؤمنون بإله أعلى ويؤمنون بوجود القدر والخير والشر والآخرة والحساب... إنهم يصلون ويؤدون الشعائر، ولهم أمكنة مقدسة، وأزمنة مقدسة، وكتب مقدسة، وشخصيات مقدسة، هذه التطورات والحقائق الواقعية تدحض الاعتقاد القائل بأن التدين في اضمحلال، ويميل غير المؤمنين إلى التعجب من كثرة المؤمنين من حولهم وتزايدهم المستمر رغم أن الأمر محسوم علميا حسب وجهة نظرهم، لقد اعتقدوا لزمن طويل أن المسألة مسألة وقت وستلتحق جموع المؤمنين بقافلة الجاحدين، لكن وقع العكس تماما.

إن السيرورة التاريخية للأديان تؤكد أمام أعينهم أن الإيمان بالأديان قديم ومستمر بل ويتمدد يوما بعد يوم، فأبدعوا تفسيرات أبلدها ما نشره ريتشارد دوكينز من أن الأمر يتعلق بفيروس عقلي يفسد سيرورات تفكير الناس، رغم أن التواتر التاريخي يفند رأي دوكينز، وقد ندعي نحن كذلك نفس الادعاء ونرى **صدق مسمى الفيروس العقلي على حالة الكفر والإلحاد لا الإيمان**، فيغدو عقل دوكينز وغيره من تابعيه مصابا بمرض الإلحاد الشكلي ظاهرا، والغارق في دين الإلحاد حقيقة، لأنه آمن بدين يقول لا إله والحياة عبث أو مادة أو تطور. هكذا يغدو الكفر حقيقته **إيمان مضاد**.

ومن غرائب الوجود ألا يشد انتباه هؤلاء تواتر فعل إيمان الناس المستمر وبهذه الأعداد الكبيرة سواء من عامتهم أو علمائهم عبر تاريخ طويل من الزمن. لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون هذا الاستمرار خطأ وضلالا، فاجتماع الناس على الحاجة إلى الإيمان متواتر في كل الشعوب والثقافات، ولا يمكن اعتبار الناس بلداء لا يعرفون حاجاتهم الحقيقة، ووصف غيرهم من الجاحدين بأنهم أعرف وأدرى بالحاجات الإنسانية، **بل ربما أن هذا الصنف الأخير بجحوده وهجومه على الأديان هو ما يدفع الناس لتجديد إيمانهم ودياناتهم وتعميقها وكأن الإلحاد وقود لاستمرار الإيمان.**

لا أجد للفئة الكافرة إلا تفسيرا ربانيا واحدا، إنه العناد والجحود النابع من كبرياء كثيف وثقيل أحاط بالنفس واغتصب عذريتها الإيمانية. لا تستغربوا أن تجدوا أن من سلوكات كثير من الجاحدين اتهام غيرهم بالجهل، أو التخلف بل ويتهمون كل الناس بالبلادة، حتى ولو قدم الناس لهم ألف حجة وحجة، **فالعناد الجاحد فيه بلادة، ولو كانت بلادة إيمانية.**

يصاب الجاحد حسب نص الآية أعلاه بغشاوة تخفي عليه الرؤية الواضحة، وهذه الغشاوة سيكولوجية نابعة من غرور عميق وثقة عمياء ولا متناهية في النفس، فالكفر يبدأ في الداخل وينتشر إلى باقي مكونات النفس. تعجبني قولة كار بوبر عندما يعتقد أن جهلنا جسر غير مكتمل ونكمله بالاحتمالات، وهذا ما يفعله الجاحد تجاه جهله الإيماني الذي لا يمكن أن يكون العلم قنطرته الأساسية بل فقط جزءا بسيطا من مكونات هذه القنطرة المؤدية إلى عالم الغيب، فلا يمكن تأسيس الإيمان بنفس القوانين العقلانية القطعية الشائعة في العلم، لأنه متفلت منها، وبمعنى أوضح على العلم أن يبقى صامتا ومتزنا وهادئا عندما يتعلق الأمر بالإيمانيات، لأنه إذا خاض فيها بمنطق العلم ضل وأضل، **فالعلم لا يمكن أن يثبت وجود الإله كما يثبت الحقائق العلمية المادية، إلا أنه لا يمكنه أن ينفيه على الإطلاق لوجود أدلة علمية و أنطلوجية وكوسمولوجية ولغوية وفلسفية....تثبت وجوده، وعليه، فالله يدرك بالإيمان وهذا الأخير يعمق بالعلم وليس العكس، والجاحد المغرور يتمسك بما يعتقد في تمكنه منه، ويُحكمه في ما لا يتمكن منه، لأنه يريد أن يستولي بل أن يهيمن على الله بالعلم، والله لا يدرك إلا بالإيمان وهو الذي يهيمن ولا يهمين عليه.** يمثل الكفر على المستوى البيداغوجي فشلاً تربوياً في تعليم **التواضع المعرفي فيما يفوق إمكانيات العلم.**

وهكذا لا يمكن اعتبار الكفر، وفقاً تحليلنا إلا حالة سلبية من **اللاإيمان**، بل هو **قرار وجودي وفعل إيجابي داخليا عند صاحبه**، ويمثل **نظاما اعتقاديا مُنافِسا** للإيمان بالله. أي دين وكفى. إن الكافر

لم يستطع اغتصاب الحقيقة المطلقة والقضاء عليها فأنشأ حقيقته المطلقة كتعويض لملء فراغ لا يملؤه إلا المطلق، فأنشأ مطلقا حيث أراد القضاء على مطلق. وسيكولوجيا هو حالة **تجسد التضخم المرضي للأنا أو على الأقل التضخم الاضطرابي.**

التأمل القرآني الرابع: سيكولوجية الذات المنشطرة: الفشل البيداغوجي في تحقيق التطابق بين الباطن والظاهر

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8)يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9)فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ (10))

الآيات من 8 إلى 10 من سورة البقرة

تبوح الآيات أعلاه بحقيقة الإيمان بطريقة غير مباشرة، إذ تعتبره أمرًا ذاتيًا فرديًا خفيًا لدرجة أن غير المؤمن يمكن أن يدعي الإيمان، فحقيقته خفية على العيان، فالمؤمن بشيء ما، هو وحده الواعي والعارف بحقيقة إيمانه، أما من دونه فهو مراقب له بل ومصدق لما يدعيه، إذ لا يمكنك أن تنفي الإيمان عن شخص يدعيه، وبناء عليه، يصبح الإيمان أو عدمه مثيرا لكثير من الجدل، خصوصا وأن الاختيار الفردي مهم بالنسبة للأديان، فالإسلام يريد أفرادا اختاروا الإيمان بإرادتهم وغير مكرهين عليه، وفي الوقت نفسه ليس على غيرهم إقامة محاكم تفتيش من أجل اختبار إيمانهم .

اعتبر الإسلام الخداع في أمر الإيمان خداعا عكسيا أو انعكاسيا، أي أن أول مخدوع هو المدعي للإيمان نفسه، إذ الإيمان اعتقاد نفسي رصين وعميق، ومن مارس الخداع على الناس في أمر إيمانه مارس الخداع على نفسه وتوازنها، إن هؤلاء المخادعين يتصرفون ضد مبادئهم الخاصة لخداع الغير، يخفون حقيقتهم على غيرهم، يراقبون سلوكاتهم حتى لا يكتشف أمرهم، يفعلون ما يعتقدون سرا وفي الظلام، ألا يحيل هذا على اضطراب نفسي عميق؟ (هنا يمكن إضافة: "بل قد يشير إلى وجود توتر نفسي أو صراع داخلي") ألا يحيل هذا على صدق قوله عزل وجل: "وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون". ...بل أليس هذا دليل على عمق حكم الله عليهم بقوله: "في قلوبهم مرض"؟ وهذا ما قد يشير إلى تحقق قول الله فيهم.

إنهم يعيشون في ظلام عدم التوافق بين ما يقولون وما يعتقدون وما يفعلون، ما أتعس الناس الذين يعيشون ليستجيبوا للانتظارات الاجتماعية فقط، مخالفين بذلك رغبتهم وعمق إيمانهم الحقيقي والشخصي، أي نفوس هذه التي تخفي حقيقتها عن نفسها بتضخيم حضور الآخر في في دواخلهم، وهكذا تضيع شخصيتهم وذاتهم بتركيزهم على غيرهم، لذلك قال رب العزة: "فزادهم الله مرضا"، مما يزيد من حدة الصراع الداخلي. إنهم يضطرون إلى أن يعلنوا إيمانهم ويتقربوا من المؤمنين عند الحاجة إليهم، كما أنهم كذلك في الصف الآخر عند الحاجة، إنهم في منزلة مؤلمة ومفضوحة اجتماعيا ونفسيا مما يعمق مرضهم ذاتيا واجتماعيا، فلا هم كسبوا ثقة هذا الطرف ولا ثقة الطرف الآخر، فطوروا عقدا ما بعدها عقد.

إن الإيمان الصادق إيمان واعي وذاتي وظاهر وصادق، يزيد وينقص، يعرف أصحابه نقط ضعفهم، ولا يختزلون أنفسهم في أخطائهم، والإيمان المزيف أو النفاق سلوك فيه تذاكي وإخفاء، وكذب، يزيد وينقص حسب سياق التوظيف. لا تتعجبوا إن وجدتم أمامكم مخادعا يدعو الناس للإيمان، وكذابا يحث على الصدق، فهؤلاء يتلاعبون بالقيم الأخلاقية بغرض تحقيق أهداف شخصية، ويحتل اعتراف

الآخر بهم وبإيمانهم أولوية لا أولوية بعدها عندهم، إنهم يريدون أن يحافظوا على منسوب الثقة المجتمعية عاليا تجاههم، فيلبسون أنفسهم قناع الإيمان بغرض التلاعب بالناس بل والتلاعب بالله، حاشا لله، ألم يقل عز وجل: "يخادعون الله والذين آمنوا"؟ نعم إنه يعتقدون قدرتهم على خداع الحكيم العليم، يملكون ثقة عالية في مستوى ذكائهم حتى تجاوزوا فيها ربهم، عقدة تفوق بليد، ألا يحيل هذا على سطحيتهم لا على ذكائهم؟ أليس هذا مصداقا لقوله عز وجل: "في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا"؟ إن كل هذه السلوكات الاعتقادية أو العملية التي يأتي بها المخادع سماها الله كذبا، أي كذب على النفس، وعلى الناس وعلى الله، فاللهم اجعلنا من الصادقين.

تُبين الآيات الكريمة أن الإيمان حقيقة ذاتية خفية تتطلب اختياراً إرادياً خالصاً. وفي المقابل، فإن النفاق (ادعاء الإيمان مع إخفاء الكفر) هو: سيكولوجيا يمثل اضطراباً نفسياً عميقاً وجوهره خداع انعكاسي؛ حيث يمارس المنافق الكذب والتلاعب أولاً على نفسه وتوازنه الداخلي (وَمَا يَخدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشعُرُونَ). هذا التناقض بين القول والاعتقاد يخلق "ظلاماً داخلياً "ويؤدي إلى "مرض في القلب "(فِي قُلُوبِهِم مَّرَض). فيكون السلوك الأخلاقي للمنافق هو مجرد استجابة قسرية للانتظارات الاجتماعية، مما يضخّم حضور الآخر في دواخله ويُضيّع شخصيته الحقيقية، الأمر الذي يُعمّق مرضه ويزيد من حدة صراعه الداخلي (فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً).

وجوديا يتصرف المنافق بسطحية معرفية وعقدة تفوق بليدة، حيث يعتقد في قدرته على خداع الحكيم العليم (يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ) هذا الاعتقاد يكشف عن خلل في إدراكه لحقيقة الكون والإله، إذ يضع ثقة مفرطة في ذكائه وقدرته على التلاعب بالحقائق المطلقة. كل سلوكياته هي في النهاية كذب شامل (بِمَا كَانُواْ يَكذِبُونَ)، ليس فقط على الناس، بل على الذات ومرجعية الوجود، مما يجعله في منزلة بين المنزلتين؛ مفضوحاً أمام المجتمع ومرتبكاً أمام ذاته.

ومن منظور بيداغوجي تربوي، يمثل النفاق إخفاقاً بيداغوجياً في تأسيس شخصية متوازنة ذاتياً وصادقة معرفياً؛ فهو نتاج فشل في تعليم الفرد التواضع المعرفي أمام الحقائق المطلقة، مما يؤدي إلى الغرور العقلي والاعتقاد الزائف بالقدرة على التلاعب بالقيم. كما أنه انهيار في التنشئة على المرجعية الذاتية السليمة؛ حيث يتخلى المنافق عن إيمانه الحقيقي ليصبح مجرد انعكاس مزيف "للانتظارات الاجتماعية"، هذا الخلل في بناء الذات الصادقة يُترجم داخلياً إلى "مرض في القلب "يُعاقَب عليه بزيادة حدة التناقض والاضطراب النفسي.

التأمل القرآني الخامس: سيكولوجية التنافر وعقدة السفه: الانفصام المعرفي والمنهج المقلوب

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ (8)يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (9)فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ (10) ﴾

الآيات من 8 إلى 10 من سورة البقرة.

استمرارا في تفكيك نفسية المخادع إيمانيا، تطرح علينا الآيات أعلاه إشكالا نفسيا اجتماعيا آخر يسكن دواخل النفوس المخادعة، إنه التنافر الأخلاقي والمعرفي. إنها حالة نفسية عاطفية معرفية وسلوكية غير سارة تعيشها النفوس المخادعة، إدراكها للوجود ولله وللدين وللإيمان وللمؤمنين وللكفر وللخير وللشر إدراك مشوه ومتنافر ومضطرب، وعليه يكون تقييمها المبني على إدراكها غارق في الاضطراب. ودليل ذلك أنهم يرون الفساد صلاحا، والخير شرا والقبيح جميلا، والجميل سفيها، فُهومهم معكوسة ومقلوبة نتيجة التنافر الحاصل في دواخل أنفسهم بين مجموع قيمهم ومعاييرهم، **ألا ترون أنهم يتخذون قرار القرب والبعد من الإيمان بمنهج مقلوب، رغم وضوح الأمر عند غيرهم، ووجود البدائل الصارخة في البيان أمامهم. فما معنى الصلاح عندهم؟ وما معنى الفساد لديهم؟ ولماذا قال عنهم الله عزوجل: "ولكن لا يشعرون"؟ لماذا استعمل الله فعل لا يشعرون؟**

يجمع الشعور بين نشاط عقلي واع ومشاعر عاطفية إن حبا أو خوفا أو كرها... تتصل المشاعر مباشرة بمجمل الحالة النفسية للشخص، ولن أدخل هنا في مختلف دلالات الشعور فلسفيا وسيكولوجيا، لكن هؤلاء المخادعين إيمانيا فقدوا المنطق العقلي، والمشاعر، والأحاسيس العاطفية، فأضحوا كائنات جرداء معرفيا وعاطفيا لحظة ممارستهم للخداع الإيماني. إن سيرورة أنشطتهم العقلية غير متسلسلة منطقيا ومشاعرهم غير صادقة لذلك يتعذر عليهم جملة وتفصيلا تقدير ماهية الصلاح والفساد، إذ أن هذين الأخيرين لهما أبعاد قيمية معيارية أخلاقية بالأساس، ويشترطان إضافة إلى حسن المنهج وصوابه جمال الباطن وسلامته، وأنى لمضطرب شعوريا أن يحسن حكما مركبا يجب أن يكون بعيدا عن المزاجية والاضطرابات الشخصية! لا يشعر هؤلاء المخادعون لأن أحكامهم مرتبطة كذلك بالحضور القوي للآخر في أنفسهم، سلطة الآخر طغت على منطق الأشياء من جهة، وبلدت الشعور المتقد الذي يحرك عاطفة جياشة وإيجابية تجاه ما نحكم عليه بأنه جيد أو خبيث. لا ننسى أيضا أن هذا البعد الشعوري يسائل تأملنا حول الصورة التي تسكن هؤلاء حول أنفسهم وسلوكاتهم، كيف يرون أنفسهم وأعمالهم؟ ألم يقولوا: إنما نحن مصلحون؟

لا خلاف في أن الصورة الذاتية التي نحملها حول أنفسنا تؤثر أيضًا على سلوكنا، فنتصرف بشكل نعتقد أنه يوافق تصورنا حول أنفسنا، أما فاقدو الشعور المخادعون إيمانيا فقد تاهوا بين صور متناقضة يحملونها في دواخلهم، فلا هي انصهرت ولا هي افترقت، فتارة يدعون إلى الصلاح، وتارة يسبحون في الفساد، وتارة يخلطون بينهما، حتى أصبح الفساد عندهم صلاحا والصلاح فسادا لاختلاط الصور في شكل رزمة متنافرة من المشاعر. لكن رغم كل هذا فقد يصنف المخادع نفسه في المكان الصحيح في اعتقاده، وينتشي بسعادة ولو لحظية، لذلك لا يشعر ولا يستشعر كونه مخطئا أو فاسدا.

يزداد الأمر وضوحا عندما يرفض الفاسدون الإيمان لأن المؤمنين سفهاء من وجهة نظرهم، **فلم يتجه الحكم إلى الإيمان باعتباره تفاعلا مع الرسالة المقدسة، لا أبدا، بل تم تقييمه سلبيا لأن معتنقيه تم تصنيفهم في خانة**

السفهاء عندهم، فجاء الرفض مبنيا على هوى نفسي لا علاقة له بموضوع الإيمان، وفي هذا الصدد قال المولى عزوجل: "ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون"، سورة البقرة: 13، ولأن المخالفة ذات طبيعة منهجية فقد وظف الحكيم العليم فعل: لا يعلمون، إنهم في حجاجهم خارج دائرة القوانين المنطقية والعلمية. وعليه، كانوا أولى بنعت السفهاء من غيرهم من الناس، لأنهم مضطربون منهجيا، وجاهلون بالقواعد الحوارية، فهم سفهاء لأنهم يجهلون ترتيب أمورهم الحجاجية، ويجهلون تنظيم أولوياتهم الإيمانية، ويقومون بخلاف ما يقتضيه إصلاح حالهم لضعفهم البين في تقدير أمورهم. ويزداد الأمر سوءا عندما يختار أولئك نعت غيرهم من الناس بكونهم سفهاء، وهذا النعت يخفي مشاعر سلبية مليئة بالاحتقار للغير، والاعتزاز بالنفس لدرجة الكبرياء المميت، فكيف تكون نفسية إنسان جمع بين الجهل والسفه والتكبر؟ وكيف تكون سلوكاته؟ أكيد أنهم: لا يشعرون، ولا يعلمون، عديمي الشعوروسفهاء علما وخلقا. إنها عقدة السفه في أعلى تجلياتها.

من منظور يدمج الأبعاد السيكولوجية والفلسفية والبيداغوجية، يتجلى النفاق كحالة من التنافر الجواني تُفقد المنافق "الشعور"، مما يحول إدراكه للحقائق إلى نظام مقلوب يرى فيه الفساد صلاحاً .سيكولوجياً، هذا الاضطراب ناتج عن غياب المرجعية الذاتية والعيش وفق سلطة الآخر، يُعزّزه كبرياء مميت يولد عقدة السفه فلسفياً ومعرفياً، هذا السفه ليس مجرد جهل، بل هو جهل منهجي يرفض القواعد المنطقية والحوارية، ويُفقد العقل القدرة على ترتيب الأولويات الإيمانية والحجاجية. تربوياً، يعد هذا السلوك فشلاً في بناء ذات متواضعة وصادقة، حيث يتم استبدال النقد الذاتي بالغرور العقلي الذي يجعله يحكم على المؤمنين بالسفه، وهو بهذا الحكم يكون أحق به من غيره.

التأمل القرآني السادس: التشظي الوجداني وآليات الاستهزاء الدفاعية

(وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ (14)ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (15))

الآيات 14 و15 من سورة البقرة

تعتبر خاصية الكذب ملازمة لأهل الخداع الإيماني، إذ أنهم يتنفسون الكذب، ويأكلونه، ويشربونه، ويتكلمونه، يجري منهم مجرى الدم، والهواء، والأكل، والشرب، لم يترك عضوا إلا وتلبس به، والأدهى من ذلك أنهم يسمون كذبهم على أهل الإيمان استهزاء، وهو نوع من خداع النفس والآخر. يتحرك نداء ما بداخلهم يقول لهم، لِمَ تكذبون؟ فيتحرك شيطانهم الذي يسكنهم ليغير النعت من كذب إلى استهزاء، إذ أن هذا النعت أقل وقعا عليهم من الكذب الذي يتنفسونه، لكنهم لا يسلمون لأنفسهم بأنهم كذابون، اضطراب عميق مس عمق البناء العقدي والمعرفي حتى أصاب الوجدان بالتشظي، فهم في حضور المؤمنين مؤمنون، وفي حضور شياطينهم أباليس، ومع أنفسهم لا يقبلون ما يفعلون، يتذاكون تذاكي البليد الضعيف والمريض. يتظاهر المخادع من خلال هذا التذاكي بأنه أفضل بكثير مما هو عليه حقيقة، يثبت لنفسه ولغيره علو كعبه في الذكاء والتلبيس على الناس، لكنه بالطبع، يريد إرضاء الصنف الشيطاني منهم لأنه يبادلهم نفس الشعور والأهداف والخصائص، إنهم خاصته التي لها فضل عليه في تعلم أحد أركان الشيطنة وهو الخداع. وهو بذلك يعزز مكانته وسط عالم الشياطين بمنصب احترافي جيد، يعتقد في أهميته ومكانته العليا، أما شياطين الإنس والجن فلا تعتبره إلا خادما معها يوسع من دائرة الشر في الأرض. يستهزئ بالمؤمنين اعتقادا في ذكائه، لكنه يقع في مستنقع الاستهزاء الشيطاني كخادم لغيره من ملوك الشر على الأرض، يأتيه الله من حيث لم يحتسب، ويجعله محل استهزاء أسياده من صناديد الشر الذين سرعان ما سيتبرؤون منه.

لا يجب أن تنسوا أن كل مستهزئ بغيره شرير لحظة استهزائه، لأنه يحدث آثارا كبيرة وسيئة في نفوس غيره. هكذا يورط المخادع نفسه في التناقضات مع نفسه، ومع المؤمنين، ومع شياطينه، بل مع الله نتيجة معاييره المزدوجة ونفاقه العميق، أنصحكم شخصيا إن كان في محيطكم مخادعون أن تكونوا معهم ودودين لكن بعيدين، لا تدخلوهم بيوتكم، ولا تشاركوهم مشاريعكم، ولا أفكاركم، فهم مصدر الأذى، وأذاهم يعظم بدرجة القرب منهم.

يعتقد المخادعون إيمانيا أن المؤمنين سذج، وأنهم لا يعرفونهم، وهم في ذلك واهمون، لأن المؤمنين يرون بعين الإيمان، وفراسة القلب النظيف، لكن لا يصدر عنهم تجاه المخادع ما يسوؤه، لذلك يعتقد في ذكائه وسذاجتهم، والمسكين لا يعلم أن ودهم في حقيقته حكمة، لأنهم لا يهدرون طاقتهم معه ولا يعاملونه بأخلاقه. يكاد المخادع أن يكون حاملا لنفس تتصارع فيها المتناقضات لكنه ينقل المعركة من دواخل نفسه إلى علاقاته الاجتماعية أي إلى خارج نفسه. معاركه كلها فوق أراضي

أجنبية. تنتشي الأنا المريضة بالاستهزاء للتفريغ والتخفيف على نفسها من ألم ما تعانيه من اضطرابات، يمكن أن نشم من خلالها علامات النرجسية، إذ تحقق النفس المخادعة إيمانيا باستهزائها بغيرها نوعا من الاعتراف لنفسها ولو بشكل عدواني، بل إن المخادع إيمانيا ينتقم باستهزائه من الأخلاق والمثل العليا باعتبارها حدودا تؤرقه، وتحد من تمدد نرجسيته إلى غيره لأن هذا الغير مسيج بأطر معيارية وقيمية تحميه من شقاوة المعتوهين إيمانيا.

لكن رغم ذلك يمكن أن نعترف لهم بقدرتهم على إخفاء ميولاتهم العدوانية بنوع من التذاكي خصوصا على من لا يعرف معادن أهل الخداع الإيماني، فخداعهم يظهر من كلامهم، ونبرة صوتهم، وشكل ابتسامتهم، وردود أفعالهم، يكاد الجسد كله يتكتل ضد اللسان ويقول له اسكت أيها المخادع، أعضاؤه لا تتحمل خداعه الإيماني، **فالخداع الإيماني هو التجسيد الحقيقي للفشل الذريع في اتباع القواعد والمبادئ الأخلاقية الربانية. ويعتبر نموذج المؤمنين والمخادعين إيمانيا انعكاسا لعظمة الإنسان عندما يعانق الأخلاق، والإنسان عندما يتشرب الدناءة والإساءة.**

يفصل الله جل جلاله بين المؤمنين والمخادعين، ليخبر المؤمنين أن الاستهزاء بتمامه وكماله من نصيب من أساء إلى نفسه، وغيره، وربه، وعانق شياطين الإنس والجن، وسمى الله عز وجل كل هذه السيرورة بالطغيان المتمدد، وجعل فعل (عمه) حاملا لسيرورة تمدد الطغيان، وكأن المخادع إيمانيا أصابه العمه حتى أطغاه، بل إن الأمر يتعلق بطغيان وعمه متمددين في النفس والمحيط.. إنه تصوير غاية في الدقة اللغوية والسيكولوجية، فهؤلاء طغاة تائهون، وتيههم مس دواخل نفوسهم، ومشاعرهم، ومعرفتهم، ومنهجهم، وسلوكاتهم مع أنفسهم وغيرهم. إنهم لا يشاركون أهل الإيمان معاني الحياة. فأهل الإيمان لا مشكل عندهم مع الفشل في الامتثال لكل القيم والمثل العليا لأنه أمر غير ممكن، وإذا استطعنا أن نمتثلها كلها فلن تستحق أصلا مسمى مثل عليا، بل إن المشكل عندهم هو دوام إظهار عكس ما تعتقده أيها المخادع إيمانيا لأنه عين النفاق.

يتناول هذا التأمل العلاقة بين الكذب المستمر للمنافق وسلوكه العدواني المتمثل في الاستهزاء، والجزاء الإلهي المتمثل في العمه والطغيان.

سيكولوجياً وقيمياً، يعيش المنافق حالة من التشظي الوجداني والكذب الملازم، حيث يلجأ إلى تسمية كذبه "استهزاء" لخداع نفسه وتخفيف وطأة الجحود. الاستهزاء هنا ليس مجرد سخرية، بل هو آلية تفريغ عدوانية ناتجة عن الأنا المريضة والنرجسية المتمددة التي تسعى للانتقام من المُثل العليا التي تحدّ من غرورها. هذا الاضطراب ينقل الصراع الداخلي إلى معارك خارجية ضد المؤمنين، معتقداً سذاجتهم، بينما هو في الحقيقة خادم ذليل لشياطينه الذين سينقلبون عليه.

لغوياً ومعرفياً، يُعد سلوك المنافق "طغياناً متمدداً"، حيث أن فعل "يَعمَهُونَ "يصور جزاءً إلهياً يُطابق فعلهم: فكما تاهوا في الإدراك، يتم مدّهم في تيههم. هذا العمه هو تيه شامل يمس دواخل نفوسهم ومنهجهم المعرفي، ويؤكد أن الاستهزاء الحقيقي الكامل يعود في النهاية على من أساء إلى نفسه وربه، مجسداً الفشل الذريع في اتباع المبادئ الأخلاقية الربانية.

تأملات في الإيمان بالله وثمراته

التأمل القرآني الأول: هداية الوجود: الإيمان كبناء سيكو-بيداغوجي وتسديد للعقلانية القاصرة

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (9))

الآية 9 من سورة يونس

من خلال التأمل في الآية الكريمة أعلاه يبرز عز وجل أهم فائدة للإيمان في كلمة واحدة وهي التوجيه والهداية، أي أن الإيمان يعتبر عامل توجيه وتأطير للإنسان في خضم عالم و اقعي متذبذب ومؤلم من جهة، وعالم نفسي مضطرب، وعالم عقلي متسائل على الدوام، وعالم طبيعي مترامي وجميل ومدمر ومظلم ومضيء، وكأن الإنسان يعيش دائما في حيرة وجودية، وو اقعية، ونفسية، وعقلية. حيرة ترتبط بأسئلة الوجود الكبرى، وأسئلة التعايش مع الآخر، والحقوق والواجبات، والخير والشر، فكل الوضعيات المعيشية تحتاج منا موقفا معينا مبنيا على معتقد معين نطمئن إليه ويريحنا نفسيا.

لقد كان الإنسان منذ الأزل متدينا أو روحانيا يسعى على الدوام بشكل فردي، أو ثنائي، أو في مجموعات صغرى إلى التسامي على العالم المنظور، لأنه يحس بأن هذا العالم الو اقعي لا يشبع كل ما يخالجه، ولأنه يحس بنفسه ضعيفا أمام الو اقع أو أمام الطبيعة، أو أمام بني جلدته أو أمام الحيو انات، أو يحس أنه أقوى منها جميعا، يعيش هذا المخلوق كل أنواع التناقض من أعلاها حدة إلى أخفها. تخترق حياته أزمات مالية، وصحية، واجتماعية، وسياسية، وحروب...يرى بأم عينيه أن الإنسان قد يصبح في لحظة ما وحشا ضاريا ويفقد خصائص الإنسانية، وقد يرتقي في لحظات ما إلى ملاك ويفعل الأشياء الجميلة. يرى أمامه الفقر المدقع والغنى الفاحش، يرى الشجار والمصالحة، يعايش الأخوة وجرائم القتل...**وغالبا ما يحتمي المسلم بربه، بدينه من هول الوجود وكذلك من هول ملذات الوجود. لا تسعفه آراء الناس، ولا فلسفاتهم في إقناعه عقليا أن كل شيء يمكن التعامل معه بعقلانية عالية**، يرى أن دعوة العقلانية نفسها تحتاج إلى تسديد عقلاني من نوع آخر، إذ أن عقول البشر تتوقف عند حدودها القصوى في مواقف الحياة على العموم من أبسط موقف إلى أعقده. يفر إلى الله، يناجيه، يا رب إن عالمي الصغير غلبني، إن نفسي التي تسكنني لا أفهمها، إن محيطي مضطرب عجزت عن فهمه، إن هذا العالم لا أدري لِم أشعر فيه بالاغتراب، أحس أني أجهله، أما الكون الفسيح فأنا فيه لا شيء.

أجد راحتي عندما أناجيك، عندما أدخل بيوتك، أو أقرأ كتابك. كل كتب الدنيا أجدها كتبا ألفها أمثالي من الناس على علاتهم، وضعفهم، ومعاناتهم، وقناعاتهم، و أنا لا يمكن أن أسلم عقلي لعقل غيري، أريد عقلا أكبر من كل العقول. أريد هدايتك فاهدني صراطك المستقيم، واجعلني ممن يهدون بهدايتك غيرهم، فالتائهون أمثالي كثر. هكذا يغدو الإيمان هداية، يغدو الإيمان طريق توجيه وتأطير للتائهين، للذين فقدوا معنى الحياة، أكلوا، وشربوا، ونكحوا، وناموا، وملكوا، ويريدون الزيادة

ولا شيء يشبعهم، ويفقدون معنى الوجود بعد كل إشباع، يرتقون في درجات أو دركات الإشباع لكن لا يحسون أنهم وصلوا أقصاه.

إن الإيمان يهدي إلى الله، ويهدي إلى الخير، ويهدي إلى العلم، ويهدي إلى التعاون، ويهدي إلى التحرر من ربقة الناس، ويهدي إلى العالم الآخر، ويهدي إلى القناعة، بل إن الإيمان يهدينا إلى تفقد دواخل أنفسنا، يهدينا إلى التفتيش في أفكارنا، في مناهج تفكيرنا، يهدينا الإيمان إلى أنفسنا ومجتمعنا وربنا، فننظر إلى النفس نظرة المتأمل في منحنياتها، وإلى المجتمع نظرة رفق وتعاون، وإلى الله نظرة حب ورجاء. يهدينا الإيمان إلى الألفة مع النفس والناس، ويقزم في دواخلنا النرجسية، والأنانية، والجشع، وحب التصدر، والاعتزاز المفرط بالمنجز، يهدينا إلى التوسط، والتوسط نفسه يصبح موضوع تأمل إيماني من نوع عميق، يهدينا كذلك إلى التفكير خارج مقتضيات العالم المنظور، تحس مع الإيمان أنك وكل الوجود متحدين ووجهتكم هي واجد الوجود، وكما أنه يهدينا إلى كل أشكال الخير، فإنه يبعدنا عن كل أشكال و أنواع الشر. إن الإيمان نفسه هبة ربانية لكل باحث عن الخير فوق الأرض.

يوجهنا إيماننا في سياق هدايته لنا في نسق علاقاتنا مع غيرنا بتوجيهات عملية عالية القيمة، عميقة المعايير، مفصلة الضوابط، لا تسرقوا، ولا تكذبوا، ولا تخونوا ولا تشهدوا الزور، ولا تزنوا، ولا تقتلوا، ولا تفسدوا، إيماننا يقول لنا تصدقوا، تعاونوا، تحابوا، اعدلوا، تعلموا، دافعوا الظلم، علموا غيركم، تعلموا، تعايشوا، تداووا، ابتسموا..انتبهوا إلى آبائكم وأمهاتكم و أبنائكم وجيرانكم بل إلى البعيد عنكم الملتجئ إليكم....لكن هناك شيء آخر يسكننا يريد على الدوام التمرد على هذه القيم والأعمال النبيلة، بل قد نجد منا من لا يأتي إلا عكس هذه القيم.. إن الإيمان يقي من التيهان، يعطي إجابات مريحة عن طرق مواجهة اضطراباتنا وأزماتنا.... يهدينا إليه ربنا ليقوي جهازنا النفسي أمام ما مورس على قواعده من تجاوز، يريد إيماننا منا ربط علاقة إيجابية مع أنفسنا، ومحيطنا، وعالمنا، بل والكون كله...فهل كلنا ننجح في ممارسة الإيمان الإيجابي المعالج المنفتح الباني؟

لا ينفعك الإيمان إلا إذا سلمت قبل الإيمان أنه سينفعك، لن ينفعك أي إيمان إن كنت تتحايل على مقتضياته..... توضح الآية الكريمة نوع الإيمان الذي يهدي به الله هنا وهناك، إنه الإيمان الإيجابي والمرتبط بالعمل الصالح، والعمل الصالح هو كل ما ذكرنا سابقا، وبناء عليه، فكل مؤمن يأتي أعمالا سلبية مدمرة، فاعلموا أن إيمانه ليس إلا وسيلة توظفها نفسه المريضة من أجل تحقيق مآربها، كل إيمان ينتج عنه سلوك فاسد فيه قول وفي الصحة النفسية لحامله ألف قول. هدانا الله جميعا لأفضل إيمان، إيماننا يساعدنا حتى في حالة ما أخطأنا في حقنا أو في حقوق غيرنا، إيماننا كمسلمين يقوينا أمام ضعفنا وهفواتنا ويقول لنا تمسكوا بربكم فهو الغفور الرحيم.

يتناول التأمل القرآني وظيفة الإيمان الجوهرية كعامل توجيه وتأطير للإنسان في خضم حيرة وجودية، ونفسية، وعقلية دائمة، حيث يجد الفرد نفسه متذبذباً بين عالم واقعي متناقض (الخير والشر، الغنى والفقر) وعالم نفسي مضطرب لا تشبعه الفلسفات البشرية المحدودة.

وجودياً ومعرفياً، يمثل الإيمان الفرار إلى الله بحثاً عن "عقل أكبر من كل العقول "قادر على تسديد العقلانية البشرية التي تتوقف عند حدودها. الإيمان هنا هو هبة ربانية تقي من التيهان، وتُوحّد الإنسان والوجود نحو "واجد الوجود"، وتُقدم إجابات مُريحة عن الأسئلة الكبرى، محققة شعوراً بالألفة مع الذات والكون.

سيكولوجياً وأخلاقياً، يهدي الإيمان إلى تفقد دواخل النفس ويقوّي الجهاز النفسي ضد الاضطرابات، حيث يعمل على تقزيم النرجسية والأنانية والجشع، ويدعو إلى التوسط كقيمة تأملية عميقة، وإلى ربط علاقة إيجابية مع الذات والمحيط. هذا التوجيه يُترجم عملياً إلى ضوابط سلوكية عالية القيمة (العدل، الصدق، التعاون، الدفاع عن المظلومين).

ختاماً، يشترط النص لثمار الهداية أن يكون الإيمان إيجابياً ومرتبطاً بالعمل الصالح؛ فكل إيمان ينتج عنه سلوك فاسد ومدمر هو مجرد وسيلة توظفها النفس المريضة لتحقيق مآربها، مؤكداً أن صدق الإيمان يقوينا أمام هفواتنا ويوجهنا إلى التوبة والرجاء.

من منظور تربوي، يمثل الإيمان إطاراً مرجعياً متكاملاً يتجاوز قصور العقلانية والفلسفات البشرية في توفير مرجعية ثابتة للتعامل مع الحيرة الوجودية والنفسية .حيث يقدم الإيمان برنامجاً تربوياً يسعى لتهذيب النفس عبر تقزيم النرجسية والأنانية والتربية على التوسط، مع توفير ضوابط سلوكية عملية (العدل، الصدق، التعاون). ويُعد العمل الصالح هو الشرط البيداغوجي لنجاح هذا البرنامج؛ فكل إيمان لا يُنتج سلوكاً إيجابياً وفعالاً هو مؤشر على فشله كأداة تربوية، وتحوّله إلى مجرد وسيلة توظفها النفس المريضة بدلاً من أن يكون هدايةً.

التأمل القرآني الثاني: وثنية الحواس: جدلية العقل المرتهن واليقين المشروط

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111)إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (112)قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (113)قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (114)قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (115))

الآيات من 111 إلى 115 من سورة المائدة

يبدو أن موضوع الإيمان في تاريخ الأديان واجه قوة العقل والحواس على الدوام، والآيات أعلاه من سورة المائدة تؤكد هذا الأمر ويتجلى فيها في أبهى صوره، فما أن تأتي معجزة منظورة أمام العقل إلا واندهش وقبل بها ثم بعد ذلك ينتفض عليها ولو بعد حين، ما لا يراه العقل منطقيا يثور عليه ولو كانت مصادره الحواس. تزود الحواس العقل بالمعلومات من العالم الخارجي لكنه ليس آلة صماء، بل يحللها، يبنيها، يرتبها، يقبلها أو يرفضها، رغم أن تصوراتنا الحسية تشكل الأساس الموثوق لكل القرارات التي يتخذها عقلنا، لكن رغم كل معجزات عيسى عليه السلام التي رآها قومه ككلامه في المهد، وسيدنا أبراهيم وصناعة الطيور من طين والنفخ فيها ودعوتها إليه، وشفاء الأكمه والأبرص.، وإحياء الموتى.. حالات منظورة لكن يظل العقل حائرا لا يريد أن يقبل بسهولة بإله لم يدركه بشكل ملموس. يقوم العقل بانتقاء الأجزاء من الكل، لا ينظر إلى المعجزات في كليتها، لا ينظر إليها أنها دليل الله، بل يريد الله دليلا على نفسه وبشكل مباشر وملموس، بل يطلب معجزة جديدة في كل لحظة جديدة. وقد يتساءل العقل مع نفسه: ألم تخدعني حواسي؟ ألم أكن ضحية تفكير خاطئ؟ يجد صعوبة في فهم أمر علوي إيماني يريده منطقيا، ومحسوسا، ومحسوبا، وواضحا لا غموض فيه، وربما قد يشك فيه، وكأن الشك يسكن العقل على الدوام.

لكن الحواس لا تستدخل فقط تأثيرات الطبيعة وما تكتنفه من أنواع الكائنات، بل هناك أمر آخر له أثر بالغ في فعل العقل، في شك العقل، إنها التأثيرات الاجتماعية، إنها تأثيرات مهمة وتغدي فعل الحواس وتعاضده أو تناقضه، يستدخل العقل كيف يقبل الأشياء؟ كيف يرفضها؟ كيف يحكم عليها بالقبح والجمال. قد تكون مثلا من الذين طوروا حبا للون الأخضر لكن محيطك الاجتماعي يحكم على لباسك الأخضر سلبيا بتقييم خاص به، ويخبرونك بأنه لون لا يناسبك، فتتخلى عنه رغم أنك كنت تحبه، بل قد تطور كرها له مبنيا على آراء الغير، وقد تكون من عشاق الفلسفة، أو علم النفس، أو التربية الإسلامية، لكن أحكام الناس ونظرتهم إلى هذه التخصصات قد تزيد من تعلقك بها، أو الابتعاد عنها، أو كرهها، وقد تميل إلى الإيمان وممارسة الشعائر، لكن يمكن أن يشكك محيطك الاجتماعي في كل شيء وتتخلى عن كل ذلك والعكس صحيح. وعليه، فعقلنا متأثر بمعايير وقيم وقواعد سياقاتنا الثقافية والاجتماعية. **إن إدراكاتنا اليومية للأشياء وأحكامنا على الأشخاص والأفكار والأشياء متعلقة بعاداتنا**

اليومية وعلاقاتنا الخاصة والعامة. إن تصوراتنا منذ الولادة تتأثر ببيئتنا الاجتماعية وتتغير في سياق حياتنا، فكلما زاد انفتاحنا، وتشابكت علاقاتنا، وتنوعت لغاتنا وثقافاتنا، كلما انخرط العقل في سيرورات معقدة من عمليات الانتقاء لإصدار أحكام القبول والرفض لكل ما يحيط به. ومن جهة أخرى يمكننا أن نوطد ارتباطاتنا مع الأشياء والأفكار والأشخاص الذين نجد فيهم قبولا لآرائنا، وكأننا كائنات تبحث عن مكافأة اجتماعية تعزز اختياراتنا بالمفهوم السلوكي للفعل الإنساني. **وعليه، فأصدقاؤك، وقراءاتك، و أفلامك.. كلها تشكل أحكامك. إن كنت في وسط يزكي الإيمان فسيربو عندك والعكس صحيح، لكن انتهوا ليس كل وسط متدين أو غير متدين هو من يتحكم في إيماننا، بل طريقة تعامل عقلنا مع محيطنا بكل مكوناته.**

بناء على ما سبق، يعمل العقل في تعامله مع الإيمانيات بنفس طريقة تعامله مع الماديات يريد مزيدا من المكافآت الدنيوية، والأخروية الذاتية، والجماعية. ألم تر أن الآية تحيل على طلب الزيادة من التعزيز لتحقيق الإيمان المطلق، إذ لم تكف العقل كل المعجزات السابقة بل يريد مكافأة أعلى تجمع كل مصادر المعلومات، البصر، والسمع، واللمس، والشم، والذوق، إنه يريد مائدة إلهية من السماء. وفقط بهذه المائدة التي جمعت كل مصادر المعرفة يحصل حسب زعم القوم الاطمئنان بإيمانهم والقرب من ربهم، ويتأكدون من صدق نبيهم، فالعقل يشك ويشك ويشك "ونعلم أن قد صدقتنا"، سورة المائدة: 113، بل ويصبح علمنا اليقيني شهادة خالدة "ونكون عليها من الشاهدين"، سورة المائدة: 113.

لكن رغم كل شيء سيشك العقل مرة أخرى، **فأي عقل هذا الذي يشك في مصادره كاملة بما فيها هو نفسه؟ هل يمكن في هذا المستوى أن نتحدث عن العقل؟ عقل لا يعقل شيئا؟ عقل لا يعقل نفسه عن الزلل؟ هنا بالضبط سنخرج من دائرة العقل إلى دائرة العبث والهوى**. ولا تتعجبوا إن وجدتم أن من وضعت أمامه كل الاستدلالات والحجج التجربية ولم يؤمن بها **أن عقله يمارس الغواية المعرفية**، ومعلوم أن هذه الأخيرة هي الانهماك في الباطل والشهوات النفسية والسلوكية مع **العلم** بالحق. إنه عقل يعرف يقينا أنه لا يساير نفسه بل يساير شيئا آخر فوق العقل وهو الهوى، ولا شيء يقابل الحكمة والعقل فلسفيا إلا الهوى، لذلك كان وعد الله لمن لم يؤمن بعدما حشد الله أمامه كل أنواع الحجج العقلية والمادية التجريبية **أن عذابه سيكون استثنائيا وخاصا**، لأنه بالفعل أشرك عن علم، وعطل عقله عن قصد، **أو استعمل العقل من أجل تكذيب العقل أو الالتفاف عليه.**

فالعقلانية في أبسط دلالاتها تعني القدرة على تقدير سلسلة السبب والنتيجة، وهؤلاء أساؤوا التقدير عن إصرار، كما أن العقلانية تستدعي أن يكون الفعل الذي اختاروه تجاه الإيمان فعلا صحيحا يمكن تبريره. ورغم أن الإيمان أمر غيبي فإن حجج الله، وآياته، ومعجزاته قربته من سكان الأرض، خفضت مستوى أو درجة تساميه، وعلوه، وتجريده، وجعلته متجليا قريبا من إدارك من يريد الإدراك، زد على ذلك أن روح العقلانية براغماتيا تقول لنا أن العقلاني في هذا الإطار هو كل ما هو جيد، ومناسب، ومسؤول. لا

شيء من هذه الخصائص أصابه عقل الجاحدين من قوم عيسى عليه السلام. وحتى إن سلمنا بأن فعلهم عقلاني فإن كون الفعل عقلانيا لا يعني أنه مرادف للنجاح الأخروي لأن هذا الأخير مرتبط بالإيمان.

لا يُعد الاختيار الذي مال إليه المشركون عقلانيا، لأنه زاد موقفهم الدنيوي والأخروي سوءا. أكيد أن هذا التحليل تحليل أهل الإيمان، وإلا فإن النظر إليه يمكن أن يكون من زوايا أخرى. لكن الشيء الذي أومن به وأطمئن إليه هو أن الإيمان بالعالم الغيبي ربا، وسماء، وآخرة، وجنة، ونارا، وملائكة... لا يمكن إدراكه وبناؤه على ما هو عقلاني وعلمي وإلا خرج من دائرة الإيمان والغيب إلى دائرة العلم والتجربة، هذا بالضبط ما أراد الله أن يخفيه ليميز بين المؤمن وغير المؤمن، **رغم تقريبه إلينا بواسطة معجزات متنوعة تتضمن جزءا أرضيا مفهوما، وجزءا سماويا غير مفهوم. خاطب بالأول العقل وبالثاني الإيمان، ومائدة قوم عيسى عليه السلام من هذا النوع.**

فلسفياً ومعرفياً، نعتبر أن العقل البشري يميل إلى التشكيك المنهجي وطلب المكافآت المادية الملموسة حتى في الأمور الإيمانية، فهو لا يكتفي بالمعجزات كأدلة كلية، بل يطالب بدليل مباشر في كل لحظة (المائدة الإلهية). هذا الطلب يعكس رفضاً لمبدأ الغيبية الذي أراده الله ليميز بين المؤمن وغير المؤمن. عندما يتجاوز العقل حده، فإنه يخرج من دائرة العقلانية والحكمة ويدخل في دائرة الغواية المعرفية والهوى، حيث يتعمد تكذيب نفسه بنفسه رغم وضوح الحجج.

سيكولوجياً واجتماعياً، يتبين أن قرارات العقل ليست صماء؛ بل تتأثر بشكل كبير بالتأثيرات الاجتماعية وطلب التعزيز. يسعى الإنسان إلى توطيد قناعاته مع الوسط الذي يمنحه مكافأة اجتماعية وقبولاً لآرائه، وهذا النزوع نحو المكافأة يفسر لماذا يتجاهل العقل معجزات سابقة (كشفاء الأكمه) ويطلب دليلاً جديداً يشبع غرائزه المادية ويُطمئن دوافعه الحسية (نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا).

بيداغوجياً وتربوياً، يمثل طلب المائدة فشلاً تربوياً في فهم حدود العلم والإيمان؛ فالعقل يصر على التعامل مع الإيمان بنفس منطق الماديات والحساب الدنيوي، ويتجاهل أن الإيمان بالغيب يحتاج إلى تسليم جزئي إرادي .هذا الفشل يُعد سوء تقدير للسبب والنتيجة، ويجعل الاختيار غير عقلاني بالمنظور الأخروي، مما يبرر الوعيد الإلهي بالعذاب الاستثنائي لمن يُصر على تعطيل عقله ويسلّمه للهوى بعد أن حشد الله أمامه كل أنواع الحجج.

التأمل القرآني الثالث: أنطولوجيا السكينة: المسار النفسي من اغتراب الدنيا إلى يقين المطلق

(إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ (7))

الآية 7 من سورة يونس

يعتبر الاطمئنان شعورا داخليا/جوانيا نفسيا يحس المرء معه بالأمن، والراحة، والسلام الداخلي، فالاطمئنان فيه أمن، والإحساس بالأمن المانح للثقة، والهدوء، والدفء، والراحة النفسية مطلب إنساني. ينعكس هذا الشعور على سلوكاتنا التي نأتيها بكل ثقة اعتقادا في جدواها، وصلاحها، وجمالها بالنسبة إلينا، بل تتدفق سلوكاتنا إلى العالم الخارجي بانسياب فيه كثير من الثقة في فعاليتها، وصلاحيتها لغيرنا. أما مدمرات الطمأنينة فهي انعدام الأمن، والخوف، والشك الموصل للتذبذب، والتوتر، والقلق. إن الطمأنينة شعور فردي للغاية، **ولكل شخص مصادره الخاصة لشحن حاجته للأمن**. وغالبا ما تكون مصادرنا للطمأنينة أفرادا نحبهم ونطمئن لكلامهم، أو وجودنا وسط عائلة طيبة أو أصدقاء محبوبين، أو وجودنا في بيئة طبيعية جميلة هادئة، لكن كذلك قد نشعر بالطمأنينة مع أنفسنا فقط بشرط أن نكون قد طورنا موقفا إيجابيا من الحياة والناس والأمكنة، واقتنعنا داخليا بأن كل الخلق معذورون في أخطائهم، نظرا لكونهم تحت رحمة حتميات بيولوجية ونفسية، وحتميات اجتماعية وتربوية، إلا أنهم كذلك أهل إرادة وحرية، ومسيرتهم الناجحة تقتضي تدبير هذه المتناقضات بحكمة بالغة. وقبلنا أنفسنا ومحيطنا كما هو دون أن نضع له شروطا ومنوالا معينا لكي نقبله، **بمعنى أنه يصبح مصدر الطمأنينة عوامل داخلية وليست خارجية، وهذا مرتقى عالي وعميق.**

يمكن فوق كل هذا أن يكون الإيمان موصلا إلى الاطمئنان، وليس شرطا أن يكون إيمانا بعينه، فأي إيمان كيفما كان ولو كان في حكم إيماننا باطلا يوصل أهله إلى الاطمئنان، لذلك قال عز وجل: "إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها"، سورة يونس: 7. **فجعل الله الاطمئنان ممكنا حتى عند من لا يرجو لقاءه عز وجل، وهو اطمئنان بالدنيا وابتعاد عن الله. لقد أوصل هذا الإيمان أهله إلى ذاك الشعور الداخلي الجواني النفسي المريح. وعليه، يمكن أن نحس بالاطمئنان والأمن الداخلي بأي إطار توجيهي معياري كيفما كان إن بلغ منا درجة عالية من العمق، فلا نرى إلا به، ولا نحكم إلا وفقا لمقتضياته، ولا نحب إلا به، ولا نكره إلا وفقا لمعاييره. يستبطن هذا الأمر حقيقة مفادها أننا في جميع الحالات نحن بأنفسنا من يتخذ القرار، والإجراءات العملية من أجل الحصول على مشاعر الأمن في إطار معياري إيماني معين، ونتحمل تبعات اختيارنا للإطار الذي ارتحنا إليه وفيه.**

يتمظهر الاطمئنان ذو الأصل الاجتماعي في أشكال مختلفة من التواجد الجمعي، ويختلف الناس فيه بشكل كبير، إذ يتعذر على بعضنا فهم اطمئنان بعض الناس في رحاب المصلين، واطمئنان آخرين في مرافقة فنانين، واطمئنان غيرهم في الجلوس مع المفسدين، واطمئنان آخرين في مصاحبة الملحدين،

وآخرون يصلون أعلى مراتب الاطمئنان مع فلاسفة ومفكرين، وغيرهم مع الابتعاد عن كل هؤلاء والاكتفاء بالنفس، وآخرون في مرافقة الممارسين للهوايات من رقص، وغناء، ورياضة، وتزحلق....وآخرون أخذوا اطمئنانهم من خليط من هذه المجموعات، فلا يطمئنون إلا في تنوع مجموعات انتمائهم، لكن وجب التنبيه على أن إطارهم المعياري هو الذي يحكم حدود اندماجهم في هذه المجموعات وغيرها. كثيرة هي مصادر الاطمئنان، وتختلف باختلاف ميولات الناس. لكن الإطار العلوي الاعتقادي هو الذي يؤطر المصادر الاجتماعية للاطمئنان، **بمعنى مجموع ما آمنت به من أفكاروقناعات واعتبرتها حقيقة أو الحق بذاته هو مصفاة اطمئنانك الاجتماعي.**

يتشكل اطمئناننا من خلال سيرورة تطورية من التعامل مع عالم المعتقدات والأفكار التي نجدها أمامنا فور ولادتنا، فما أن تخرج من بطن أمك حتى تهاجمك الثقافة المحيطة بك في شكل أقوال، وسلوكات الناس، وأحكامهم، وممنوعاتهم ...، إن التحدي الذي يواجهه الإنسان في معترك تطوير إيمان مؤد إلى اطمئنان من نوع معين، هي أن تجربة الإنسان الذاتية تتم في كل ثقافي سابق عنه، بحيث يجد نفسه في خضم واقعه، في العلاقات بين الآخرين ومع الآخرين والأشياء، وما يجده فلان أمامه، قد لا يجده علان أمامه، وكأن ما حولنا هو التحدي الذي أمامنا، **ولدنا في سياقات مليئة بالأفراد والجماعات والرمزيات والمعاييروالقيم والقواعد... إنه عالم متنوع فيه اختلاف وتناقض، لكنه في الوقت نفسه هو وسيلتنا لفهم و اقعنا، هذا يعني أن تشكل وعينا لا يتم في مجال ذاتي مغلق لا يعرف إلا نفسه، وبتعبير أدق، نحن لا نفهم أنفسنا أولا، بل نسعى لفهم محيطنا، وفي مرحلة متأخرة نفكر في فهم ذواتنا، لأن وسائل فهم ذواتنا نستعيرها ونتعلمها من خارج ذواتنا. وعليه، ليس من السهل الوصول إلى اكتفاء الذات بالذات إلا في أواخر أعمارنا، إذ نعمل على تضييق دوائر التأثير إلى أقصى حد ممكن، ألا ترون أن اطمئنان كبار السن يكون مع القلة من الناس، أو فرادى، جالسين على كراسي يتأملون ولا يتكلمون؟ وإذا سئلوا أجابوا بحركة الرأس أو باقتصاد كبير في الكلام، وكأني بسيرورة نمو التطور الروحي تأخذ اتجاها تصاعديا من الصغر إلى الكبر، ومن الخارجي إلى الداخلي، ومن الكثرة إلى القلة، ومن المادي إلى الرمزي، ومن الكلام إلى السكوت والتأمل.**

دعوني أدعي في تأملي هذا أن الاطمئنان في الآية أعلاه هو اطمئنان وصل ذروته ومنتهاه، أي أن الذي اطمأن للحياة الدنيا واستغنى عن الله، **وصل في نموه الإيماني أعلى درجات التسليم واليقين غير المقرون بشك من أن الحياة الدنيا هي كل شيء وأن الله لا نحتاجه**، فجاء حكم الله عليه بغرض إيضاح أن من وصل به منتهى تفاعله مع محيطه، وواقعه المليء بالآيات إلى نفي وجود الله فقد خسر دورة حياته، ووضع اطمئنانه حيث لا يجب أن يضعه. إن غرضي هو أن أوضح أن الاطمئنان سيرورة سيكولوجية قابلة للتطور والتغير حسب درجة إعمال عقولنا وقلوبنا في محيطنا الذي هو عدونا وصديقنا في نفس الوقت، فالأصل بالنسبة للمؤمنين أن سيرورة الحياة يجب أن توصل إلى الاطمئنان بالله، لكن لا تستغربوا أن توصل الغير للاطمئنان بالدنيا مالا أو سلطة أو متعة أو... **يوصل الاطمئنان في أعلى مراتبه إلى حب مطلق واحد ووحيد هو للمحبوب الذي اطمأننا له، سواء كان الله جل جلاله أو ما دونه من دنيا**

ومتاعها وغيرذلك. ألا ترون أن كبار السن يصلون إما إلى تخلص تام من الدنيا، أو جشع لا نهائي تجاهها؟ ألا ترون أن منهم من زهد في كل شيء حتى في صحته، وأهله، ومتاعه؟ واختلى إلى رب يحس به ويحبه حبا لا حب بعده، لأنه أيقن بعد سنين طويلة ألا يطمئن إلا لله. **إن الاطمئنان في هذه الحالة هو منتهى التطور الروحي بحيث يصبح حبا متفردا للخالق سبحانه.**

غريب أمر الإنسان، إنه لا يصل إلى الاطمئنان العالي إلا عندما يستطيع تجاوز معيقات المحيط من جهة، بل وتجاوز نفسه من جهة ثانية، **أي يتعالى بنفسه عن نفسه**، ويرتقي في عالم الميتافيزيقا الذي تمثله الأديان السماوية بالخصوص بدلالتها كما نفهمها. وكأن الإنسان في أواخر عمره ومن كثرة حواراته، وتجاذباته، ونقاشاته، وصراعاته مع الآخر يريد أن يتجه إلى عالم فيه كثير من الصمت قليل من الكلام (الكتب السماوية)، فيه حرية أكبر للفهم، والتخيل، والتفكر، عالم مفتوح ومغلق، متكلم وساكت، متحرك وجامد، ظاهر وخفي... **كأني بالإنسان يتبنى توجها طفوليا بريئا من أجل معرفة ألغاز العالم العلوي كما يريد الطفل اكتشاف محيطه، يريد أن يطمئن بشكل راديكالي وبراغماتي لأنه على يقين من أن ما وراءه معروف، وما أمامه مجهول ومسكون بالألغاز. إنها الطبيعة الإنسانية الساعية للاستزادة من المعرفة حتى في المراحل النهائية من أعمارنا. ألا ترون أن الإنسان باطمئنانه لله يعمل على تجاوز حقيقة نهايته الدنيوية لينفتح بذلك في اعتقاده اليقيني على بداية أخروية، يسلم نفسه للمطلق ولا يتقيد أبدا بحدود العالم المنظور.**

تعطي الطمأنينة بهذه الدلالة معنى لما بعد النهاية المحتومة، والثقة المطلقة في الله هي الضامن الأساسي لتحقق ما وراء الموت. **أليس الإنسان بهذا المنطق مشروع هوية لم تكتمل في الدنيا، وتسعى للاكتمال في الآخرة؟ هوية تبني في عالم من المتناقضات وفق إرادة حرة موصلة إما إلى الاطمئنان إلى الله أو الاطمئنان لغير الله، فإن اطمأنت لله وبالله استكملت هويتها في العالم الآخر بو اقع جديد يو افق مقتضيات الإيمان، وإن اطمأنت لغير الله استكملت هويتها في العالم الآخر بو اقع جديد يو افق مقتضيات من لا يرجو لقاء الله كما في الآية محل التدبر. اللهم اجعلنا من المطمئنين إليك وبك.**

وعموما، يُعرّف الاطمئنان بأنه شعور سيكولوجي فردي أصيل، يمكن تحصيله بأي إطار معياري (ديني، دنيوي، أو ذاتي) متى بلغ مرحلة اليقين، كما تشير الآية باحتمالية الاطمئنان بالدنيا لمن لا يرجو لقاء الله.

سيكولوجياً، يمثل الاطمئنان ذروة التطور الروحي، حيث يبدأ الإنسان رحلته من الخارج (الاجتماعيات) ثم يتجه نحو الداخل (الذات) مع تقدم العمر، ساعياً لتجاوز معيقات المحيط ونرجسية النفس. الوصول إلى الاطمئنان العالي يتطلب بناء موقف إيجابي من الحياة وقبولاً غير مشروط للذات والآخر.

فلسفياً ووجودياً، الاطمئنان ليس مجرد راحة نفسية، بل هو قرار وجودي يحدد غاية الإنسان. هذا القرار هو الذي يؤطر المجموعات والمصادر التي يرتاح إليها الفرد، ويمثل نهاية سيرورة الهوية الإنسانية. فمن اطمأن بالله تجاوز حدود العالم المنظور ليُسلم هويته للمطلق، مُؤمناً بالاكتمال

في الآخرة. أما من اطمأن بغير الله (بالدنيا)، فقد أخذ قراراً بخسارة دورة حياته ووضع يقينه في غير محله.

بيداغوجياً (تربوياً)، يكمن التحدي في توجيه الفرد ليجعل الإيمان مصفاة لاطمئنانه الاجتماعي، وتعليمه أن الاكتفاء بالذات (دون الله) يمثل مرتقى لا يمكن بلوغه بسهولة إلا في أواخر العمر، وذلك عبر تضييق دوائر التأثير والسعي نحو التأمل والصمت، مميزاً بين الاطمئنان الذي يقوّي الإرادة ويفتح على عالم الميتافيزيقا (المرجو) والاطمئنان الذي يغلق على الذات ويقيدها بحدود الدنيا.

التأمل القرآني الرابع: ماورائيات البعث: سيكولوجيا الرهبة وبراغماتية العقل المؤمن

(زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ (7)فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (8))

الآيتان 7 و8 من سورة التغابن

تعتبر قضية البعث من القضايا الإيمانية المطلقة، ولأنها كذلك فإن كل من يتبنى منهجا عقليا أو تجريبيا لا يستطيع أن يمسك بحقيقة أية قضية إيمانية لأنها قضايا مخصوصة وخاصة بالمؤمنين. **فلا طريق لفك لغز البعث لمن أغلق باب الإيمان على نفسه**، لذلك جاءت الآية مبتدئة بفعل (زعم) للدلالة على القول الذي يفتقد الدليل، خصوصا أن الدليل لا يمكن لأدوات الحس، ولا لآلة العقل أن تمسك به، **فإدراكه أمر إيماني، ومن لم يؤمن لن يدرك**، وبالتالي لن يعتقد بالبعث أبدا، وما دام الأمر زعما، فقد كان التأكيد الرباني واضحا بأن البعث حقيقة والحساب تابع له والطريق لإدراكه هو قوله تعالى: **"آمِنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا"**، سورة التغابن: 8، ولأن أمر الغيب مظلم أمام العقل والحواس، أرشدنا الله إلى وسيلة واحدة هي اتباع النور الذي أنزل على أنبيائه، إنه نور الرسالات الذي يفكك حلكة ظلام الجهل الإيماني دون غيره، بل إن البعث لا يمكن التأكد منه تاريخيا، أو لغويا، أو سيكولوجيا بالمطلق، لأنه لا يدرك إلا بالإيمان وكفى، وأمره يسير على الله أيسر مما تتصورون، والخلق والبعث وجهان لعملة واحدة، بل الخلق أصعب.

يعتبر البعث إذن لغزا إيمانيا، وليس موضوعا علميا أو عقليا، إنه لغز لأنه ينتمي لدائرة أكبر هي الإيمان، لغز لأننا نجهل كثيرا من متعلقاته، كما أننا نجهل ما سيحدث لنا في الحياة الدنيا القريبة منا، نجهل كذلك البعث، وهو أمر مستقبلي وبعيد عنا، رغم أنه بداية مرحلة جديدة تفصل بين منعطفين كبيرين في حياتنا الممتدة بين وجود منظور، ووجود مستور، وجود لا يمكن للحواس والعقل إدراكه إلا إذا تسلحت بالإيمانيات. إن البعث يحيل على أمر اختلف فيه بين العلماء اختلافا كبيرا، وهذا دليل على كونه خارق للطبيعة، بل ينتمي لما ورائها، إنه انفصال الجسد عن الروح، ورجوع الروح إلى الجسد، إنه يحيل بذلك على بداية محكمة إلهية عادلة عدلا لا عدل بعده.

يقرر الله عز وجل لغير المؤمن أنه سيكون هناك بعث، لأنه هو الدليل المادي الذي يبحث عنه هؤلاء ليعرفوا أنهم أخطؤوا التقدير، لأنهم عمدوا إلى استثمار العلم التجريبي والعقلي حيث كان عليهم تفعيل القوة الإيمانية في محلها، ومحلها هو الغيب. ستلاحظون أن أمر البعث، والإيمان، والدين عموما يكون محل استهزاء غير المؤمنين، ويقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا، رغم اعترافهما بكونهما مختلفين، يستهزؤون لأنهم لا يتطلعون لأمر الآخرة، اكتفوا بالدنيا لأنهم أدركوها بالحواس رغم أن دواخل أنفسهم تقول لهم: **<u>هناك شيء ما غامض؟</u>**

إن القيامة باعتبارها مسرحا وجوديا مستقبليا لأحداث الدنيا التفصيلية، والمنطقية في ذاتها، المتفلتة في حقيقتها، بمعنى أن هناك غموضا ربانيا مقصودا لا توافقه إرادة الوضوح المطلق التي يريدها الإنسان، التي هي نفسها قد تحرك نزعات انزياح جديدة باتجاه الكفر، كما حدث مع جميع المعجزات. فوضوح الله المطلق لا يعني إيمان الإنسان بالمطلق، لأن خاصية الحرية التي مكن الله منها الإنسان قد تنتج الإيمان أو الجحود حسب كيفية معالجة الإنسان لمعطيات العالم الخارجي والداخلي له. **إن البعث هو عملية رفع وخفض، رفع لمن رفع عدد أدوات الإدراك بأن أضاف إليها ما يو افق عالم ما فوق المادة أي الإيمان، وخفض لمن خفض من عدد أدوات إدراك العالم الطبيعي وفوق الطبيعي بأن نزع منها أداة الإيمان، بمعنى آخر أضف إلى أدوات العقل والتجربة المولدان للعلم أداة نوعية أخرى لتفهم وترتفع وتسمو، أضف الإيمان لتدرك ما بعد العقل والتجربة والإيمان. إن إضافة الإيمان كأداة نوعية هي في الو اقع إعادة تعريف لمفهوم المعرفة ذاته. إن الإيمان ليس مجرد أداة إدراك، بل هو وسيلة للوصول إلى "ما بعد العقل والتجربة والإيمان "ذاته. إني أضيف و أقترح هيكلاً ثلاثي المستويات للمعرفة، حيث يكون الإيمان هو المستوى الأخيروالأعلى الذي يقود إلى التحررمن الأدوات نفسها.**

يحيل البعث كذلك إلى المستقبل بل إلى أمل مستقبلي لتحقيق عدل استحال على الإنسانية الإتيان به على وجه الكمال فوق الأرض. إن البعث بناء عليه، ليس مجرد نهاية زمنية أو مصير فردي أو جماعي، بل هو **إحالة ضرورية** لإكمال المنظومة الأخلاقية والوجودية الناقصة فوق الأرض، حيث لا يكتمل العدل ولا يكتمل معنى الحياة دون الإيمان بكماله في مستقبل مطلق.

أعتقد كذلك أنه من العقلانية أن يطمع الإنسان وبحس براغماتي في ربحه من إيمانه، ذلك أن النظر إلى الجانب النفعي من الإيمان الثابت في علم النفس يمكن الاستئناس به لخلق راحة نفسية، وإطار توجيهي إيجابي من جهة، رغم أننا إذا نظرنا لأمور الإيمان على كونها موصلة إلى ربح أعظم، هو الجنة، يصبح الفعل الديني وما يرتبط به من إيمانيات مطلبا لا يمكن إلا أن نفكر فيه بجدية من جهة ثانية، وهذا مطلب يقتضي تطوير الاستعداد لامتلاك كفاية الصبر المسكونة بطول الانتظار والخالية من الشك، وكأن الإيمان الذي تبتغيه الأديان، ويريده الله عز وجل مبني على الغيب من جهة، ولا يناله أي كسول دينيا من جهة أخرى، فالجنة ليست للجميع، ليست مشاعا عند خالقها والمؤمن بها، لكن الدنيا فقط هي للجميع بدرجات، وتفاوتات، وقرارات ذاتية، وتحكم رباني. **وجماع قولنا هو أن الإيمان عقلاني لأنه مفيد نفسياً، وبراغماتي لأنه يضمن ربحاً لا نهائياً، لكنه ليس سهلاً، إذ يتطلب اختبار الصبروالاجتهاد لتمييز المستحقين للنعيم الأبدي.**

إن التطلع إلى المستقبل عند المؤمنين تطلع إيماني يسكنه طمع وخوف، وهذا ما قد يعتبره البعض استبدادا في الدين، وتأجيلا لإشباع الرغبات المؤدي إلى عقد واضطرابات، لكنه في الحقيقة خوف مشروع لأن الموت لا ينفيه إلا جاهل، وطمع مباح لأنه متعلق بنظرة دينية مستقبلية مرتبطة بالعمل لا بالانتظار. وكما أن الخوف له سلبيات، فإنه له إيجابيات أهمها أنه يدفعك لتجنب ما يخيفك، ويساعدك على تطوير آليات الدفاع، لكن ما يجب الانتباه إليه عند المؤمنين أن خوفهم من

البعث، أو من الله، ذو خلفية عقدية واقعية عادلة، تؤدي إلى التوازن لا إلى الاضطراب، هذه الخلفية تحميهم من الخوف المرضي، فمنسوب الخوف لا ينخفض عند أي أحد منا إلا بارتفاع وجودة الخلفية العقدية، والفكرية، والواقعية التي نعانقها من جهة، وعمق اختراقها لذواتنا من جهة ثانية. إن أول مراتب الانتصار على الخوف المرضي هو تكسير مسبباته، وربطه بأسباب تعانق خلفيتنا العقدية.

بصيغة أخرى، نرى أن الإيمان يوفر "نظارة" واضحة لرؤية العالم. فعندما يرى المؤمن مصدر خوفه (البعث) كشيء عادل ومبني على أعماله، يتحول الخوف من عائق إلى حافز للعمل الصالح وبدون عقد واضطرابات نفسية بل باطمئنان جواني عقلاني إيماني.

يريد الله منا أن نرى الوجود والأشياء بواقعية، لا بمثالية حتى يتحول هذا الشعور إلى آلية بناء كما هو آلية تدمير سيكولوجي، وليكون كذلك يزينه الله بتعميمات عميقة، وقوية أهمها قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا"، سورة النساء: 48، أي أن الإيمان بالله كاف ليتجاوز الله عما سواه.

بهذا المعنى، يصبح الإيمان هو **نقطة الثقل** التي إذا استقامت، استقامت معها كل الموازين السيكولوجية والوجودية، لأنه يمنح الإنسان شعوراً عميقاً بأن **خطأه نسبي ومرحلي** ما دامت **عقيدته مطلقة وثابتة**.

إن الخوف هو شعور أساسي يعبر عن نفسه باعتباره قلقا، وإثارة غير سارة في المواقف التي يُنظر إليها على أنها تهديد، وكما أن الخوف مهم وأساسي لنا في صراع البقاء حسب علم النفس، فإنه كذلك مهم وحافز لنا للإتيان بأفضل الأعمال للفوز بالجنة، إنه خوف دافع للعمل، وطمع مفجر للأعمال الطيبة كما يريد الله تعالى. **خافوا واطمعوا و أنتم مؤمنون**، فالخوف هنا آلية لتحرير الإيمان من ضبط العقل، ومادية الحواس، **عليك أن تخاف مما لا ترى، ومما لا يدركه عقلك، ولا تفسره حواسك، يريد منا الله عزوجل أن نثق فيه بالمطلق، نثق في مضامين كتبه، و أنبيائه، ولن يدخل الجنة، وينجو من البعث من يشك في الله مثقال ذرة، خصوصا وأن شكه له من القوة ما لنقيضه من القوة، أي أن الاحتمالات جد متوازنة بين أدلة الكفر، وأدلة الإيمان. وعليه، ومن منطق نفعي خالص، وخوف موضوعي ظاهر يكون الإيمان عقليا أفضل وأصوب طريق، ويكون الجحود إجراما في حق النفس، وإن كان فعلك متعديا أضحى إجراما مضاعفا.**

فلسفياً ومعرفياً، يُعتبر الإيمان بـ "النور الذي أنزلنا "هو الأداة النوعية الوحيدة لفك لغز البعث والغيب المظلم، وهو إعادة تعريف لمفهوم المعرفة نفسها، حيث يصبح الإيمان المستوى الأعلى الذي يضيف إلى أدوات العقل والتجربة. البعث ليس مجرد لغز، بل هو ضرورة وجودية وأخلاقية لإكمال المنظومة الأخلاقية الناقصة فوق الأرض ولتحقيق العدل المطلق المستقبلي. إن الإيمان بهذا الغيب هو اختيار عقلاني وبراغماتي (منطق نفعي خالص)، لأنه يضمن ربحاً لا نهائياً، بينما الجحود هو إجرام في حق النفس لعدم إحسان تقدير الاحتمالات المتوازنة بين أدلة الكفر والإيمان.

سيكولوجياً، الإيمان يعالج الخوف والقلق من المجهول عبر توفير "خلفية عقدية واقعية عادلة ." هذا الإطار يحوّل الخوف من البعث من شعور مرضي إلى خوف دافع للعمل الصالح وطمع مفجّر للأعمال الطيبة، مما يؤدي إلى التوازن النفسي بدلاً من الاضطراب. الخوف هنا هو آلية لتحرير الإيمان من ضبط العقل ومادية الحواس، ويمنح المؤمن شعوراً عميقاً بأن خطأه نسبي ومرحلي ما دامت عقيدته مطلقة وثابتة.

بيداغوجياً (تربوياً)، البعث يمثل اختبار الصبر والاجتهاد لتمييز المستحقين للنعيم. الرسالة التربوية هي أن الإيمان ليس سهلاً أو مشاعاً للجميع، بل يتطلب كفاية الصبر وطول انتظار خال من الشك. الأداة التربوية هي التعامل مع الوجود بواقعية لا بمثالية، مع الإيمان بأن نقطة الثقل التي تستقيم بها كل الموازين هي العقيدة المطلقة، التي تتيح تجاوز الأخطاء ما دام الأصل (الإيمان بالله) مستقيماً.

التأمل القرآني الخامس: أنطولوجيا اللُّطف الخفي: بيداغوجيا التسليم في مواجهة قصور العقل المادي

(قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (78)أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79)وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا (80)فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81)وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (82))

الآيات من 78 إلى 82 من سورة الكهف

يكشف لنا التدبر في آيات الله التي تفيض حكمة، وعمقا، وعلوا، أصنافا من كنوز المعرفة الثاوية وراء الحروف والكلمات الربانية، وبنظرة فيها تأمل مقصود غايته الفهم تبدو قصة موسى والخضر قصة غزيرة المفاهيم والسلوكات، بل لها أبعاد فلسفية، ونفسية، وتربوية، واجتماعية غاية في العمق والنبل. آيات للاعتبار الفردي والجماعي الفريد. يبرز إلى السطح إشكال فلسفي جوهري عميق من خلال نظرة إجمالية لمجموع أحداث القصة، وتفكيك لمضامين الآيات الربانية، **وهو إشكال المعرفة، وأصلها، و أنواعها، وحدودها،** معرفة الخضر ذات الأصل الميتافزيقي المتعالي، والمطلق، ومعرفة موسى ذات الأصل الأرضي الإنساني، الملموس، والمسيجة بالمحدودية، والنسبية. معرفتان مختلفتان في المصدرية، وتبدوان متناقضتين، فما هو ممكن، ومتاح، ومشروع في عالم الملكوت الأعلى قد يكون مستهجنا، وغامضا، ومضطربا في حكم الإنسان ولو كان نبيا. إنها صورة تتقابل فيها منهجيتان مختلفتان في النظر للموجودات، الأولى متعلقة بالدنيا وحساباتها، والثانية متعلقة برب الأرباب، حيث لا حدود، ولا نسبية، ولا حسابات، لأنه هو واضع كل هذه الضوابط، **الأولى تحاول التوسل بالعقل، والثانية تقول للعقل إن لك حدودا نحن من يحددها لك، وإنك مهما بلغت من العمق، والشك، والتفكيك، والتدبر فإنك عاجز عن اختراق عمق عالم الميتافزيقا إلا إذا تسلحت بشيء تشك فيه أصلا وهو الإيمان.**

توسل أيها الإنسان للوصول إلى المعرفة بالعقل، وتوسل أيها الإنسان للوصول إلى الميتامعرفة بالإيمان. تبحر بنا أحداث القصة في مجال مجرد فلسفيا هو مجال العقل، مجال الإدراك، وعلاقته بالمحسوسات، وعلاقته كذلك بالماورائيات التي تبدو مصادمة لتعقلنا، هل عندما نستعمل العقل لوحده نكون أقل منه تعقلا إذا أعملنا عقلنا وإيماننا؟ أم أن إيماننا لوحده يكفي؟ أم أن عقلنا لوحده يكفي؟ إن الآيات تفصح لنا أنه لتحصيل معرفة أقرب إلى الحقيقة، **وجب تجاوز الصدام بين العقل والإيمان، وجب تجاوز المصادمة الموهومة بين مكونين لا ينفصلان في عمق كينونتنا، وبنيتنا العميقة كبشر. إن الاستغناء عن أحد المكونين يعني تلبس طريقة تفكيرنا الأحادية بنسبة معينة من الجهل، فمن كان متعقلا فقط بالعقل ففيه جهالة إيمانية، ومن كان مؤمنا بدون عقل فيه جهالة عقلية. يسيج الجانب**

الإيماني جانب العقل، ويهذب الجانب العقلي جانب الإيمان، فلا نسقط في تعقل كافر، ولا في إيمان بليد.

إن من خصائص القصة أعلاه جمعها للمتناقضات، إذ يبدو فيها الإفساد إصلاحا، والقتل إحياء، والمنع عطاء. تكتنز هذه العناصر لوحدها من العبر ما لا يسع هذا التأمل الضعيف أن يأتي به على أحسن وجه. إنها قصة تحمل من الرمزيات الدالة على المطلق الإلهي ما يعجز العقل غير المسدد بالإيمان عن استيعابه، فحادث مؤلم اليوم هو سعادة في الغد، وخسارة اليوم هي ربح الغد، ومنع اليوم هو عطاء الغد، أي أن الأحداث الثلاثة أحداث تتجاوز إدراك موسى المتوقف على أداة العقل بحساباتها وقواعدها، لكن سرعان ما يستوعبها عندما يضيف إلى الجهد العقلي الجهد الإيماني. إن كثيرا من أحداث حياتنا المؤلمة تحمل في جيناتها بذورسعادة، وأحداث مستقبلية مفرحة لا علم لنا بها، وفي هذا التسليم بحدود العقل، وإدراك المتناقض من عالم الملكوت، اعتراف مهم وجوهري في حدود المعرفة الإنسانية.

تؤكد قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح على أن الشيء الأكيد هو أن تعترفوا أنكم لا تعرفون شيئا، ويمكنكم أن تعرفوا بعض الأشياء إذا **قمتم بتنشيط دورة عقولكم، ودورة إيمانكم، وأن منسوب معرفتكم، وعمقها، وجودتها ينحدر، ويتلاشى بتخليكم عن أحد هذين العنصرين.**

يشير سياق وأحداث القصة إلى إمكانية تناقض ظواهر الأشياء، والأشخاص، والأحداث مع بواطنها، وهي حقيقة مسددة بالتجربة الواقعية، فكم من مرة كنا نحن أنفسنا أشياء غير التي يرانا بها وعليها الآخرون، لدينا مظاهر تخفي بواطن، وبواطن تكشف مظاهر أفعالنا الوجودية، فنحن وتفاعلاتنا دليل حقيقي ملموس على تناقض الظاهر والباطن. تغوص بك القصة أعلاه في دوامة من الأسئلة البديهية التي تبرز إلى السطح مع أول وهلة في تأملك لأفعال العبد الصالح الخضر، فهل يا ترى قتل الغلام، وخرق السفينة، وتشييد الحائط تعكس عدل الله المستقبلي المبني على ما يعتقده البشر ظلما في حق الغلام والمساكين؟ هل التدبير الإلهي المطلق مشدود إلى ضوابط تعقلنا؟ أم أنه يحترم عقولنا في حدود معينة، ويتجاوزها في أحايين أخرى ممارسة للألوهية في أبهى صورها؟ إنها تعهدات ربانية عادلة مؤجلة لا يفقهها العقل، لكن يفقهها الإيمان، هل هي مما يمكن أن يعيه العقل المسدد بالإيمان بوضعها في خانة الفعل الإلهي، والرعاية الربانية للملكوت في جزئياته التي لا نحيط بها علما؟ فمن هم الفتية يا ترى؟ ومن هما هذين اليتيمين؟ ومن هو هذا الغلام؟ من يعرفهم؟ وما قيمتهم؟ وما.....؟

أسئلة تحيل على لطيفة مهمة جدا، **وهي أن الله يهتم بكل شيء في الوجود ولو كان غير معروف، ولا معلوم، ولا مهم لنا نحن كبشر، وأن الأحداث في هذا الوجود تمشي على عين الله...** القصة تبرز أن التدبير الإلهي لا يقتصر على الملوك والأنبياء والقضايا الكبرى (ما نهتم به نحن)، بل يمتد إلى **مساكين** بسفينة، **ويتيمين** لا يعرفهما أحد، **وغلام** لم يبلغ الحلم. قيمتهم في عين الله تتجاوز تمامًا قيمتهم أو معرفتنا بهم كبشر. وعليه، تغدو **العدالة والرعاية الربانية غير محصورة** على من يملك القوة أو الشهرة

أو الجاه أو السلطان..، بل تشمل كل جزء مهمل وغير معلوم في الكون. هذه هي أبهى صور **التعهد الرباني المطلق** الذي يطمئن كل كائن، مهما كان ضعيفاً أو منسياً، بأن مصيره ليس متروكاً للصدفة.

فلسفياً ومعرفياً، الإشكال الجوهري هو صدام المنهجيتين؛ فالعقل الأرضي يعجز عن استيعاب المنطق الإلهي الذي يقلب فيه الظاهر إلى باطن (الإفساد إصلاح، والقتل إحياء). الحل يكمن في تجاوز هذا الصدام وتفعيل الميتامعرفة عن طريق الإيمان، الذي هو الأداة النوعية لتهذيب العقل وتحريره من الجهالة الأحادية، والاعتراف بأن المعرفة المطلقة تكمن في التسليم بأننا "لا نعرف شيئاً "أمام المطلق.

سيكولوجياً، تُعد القصة نموذجاً لـ "الصبر على الغيب"، حيث أن كثيراً من الأحداث المؤلمة في حياتنا (المتناقضات) تحمل في جيناتها بذور سعادة مستقبلية، وخسارة اليوم هي ربح الغد .هذا الإيمان بالرعاية المطلقة يؤدي إلى اطمئنان جوهري، لأنه يكشف أن التدبير الإلهي لا يقتصر على القضايا الكبرى، بل يمتد إلى كل كائن مهمل ومنسي (المساكين، الأيتام، الغلام)، مؤكداً أن العدل والرعاية الربانية شاملة ومؤجلة، وأن مصيرنا ليس متروكاً للصدفة.

بيداغوجياً (تربوياً)، القصة تعلم الإنسان أن الرعاية الإلهية لا تتحدد بقيمتنا البشرية أو شهرتنا، بل بحكمة الله المطلقة، وأن الإيمان المسدد هو الذي ينجح في استيعاب التعهدات الإلهية العادلة المؤجلة. هذا يستدعي تربية الذات على الجمع بين العقل والإيمان (لا تعقل كافر ولا إيمان بليد)، وعلى الصبر (مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا)، كشرط أساسي للانتقال من الإدراك المادي المحدود إلى الفهم العميق للعدل المطلق.

فاللهم عليك برعاة البقر وعبدة العجل فإنك تعلم ما لا نعلم، وتخطط لما لن يخطر على بال أحد، وتستدرجهم لإنفاذ قرارك، وقدرك العادل. قولوا آمين.

التأمل القرآني السادس: سيكولوجيا المدد الإلهي وبيداغوجيا الجهد المسدد

(وَٱصنَعِ ٱلفُلكَ بِأَعيُنِنَا وَوَحيِنَا)

الآية 37 من سورة هود

قد يخطر على بالنا في بعض الأحيان، أو في كثير منها أن ما نفعله، أو ما ننتجه هو على إطلاقه فعل ذاتي لا دخل لله فيه، وقد يخطر على بالنا خاصة في حالات الضعف، والهوان، وهبوط منسوب الإيمان أن ما يصيبنا عقاب لنا، أو تخلي الله عنا نظرا لسوء أعمالنا، هذا من طبيعة الحال إن كنا على علاقة إيمانية بربنا، أما إن كنا لا نؤمن به أصلا فالأمر على نحو آخر لأننا نُخضع جميع تصرفاتنا، وأحداث وجودنا فقط إلى حساباتنا المنطقية أو غير المنطقية. أعتقد أنه بالنسبة لله تعالى أن كل واحد منا مهم، ومهم في الوجود ولديه واجب ودور في ملكوت واجد الوجود. أعتقد أن الله يهتم بنا، بل يهتم بكل شيء في هذا الوجود، والنصوص القرآنية الدالة على تدبيره الدقيق واللامتناهي لكل شيء كثيرة جدا، فكل شيء هو تحت عين الله، "وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة" سورة يونس: 61، حتى ما نفكر فيه، ما ننتجه من مصنوعات، وعلوم، وأساطير...لا يتخلى الله سبحانه عن أي أحد منا كيفما كان، بل لا أبالغ بل أومن أنه عز وجل يتابع خلاياك، وحركتها، جريان دمك، وتطوره، أفكارك، وتموجاتها...أليس هو محرك روحك، خالقها، وقابضها، بل هو عز وجل من يجعل أعضاءك تشهد لك أو عليك...**الأمر مذهل بالفعل، فقد أحاط بكل شيء علما...**

في كثير من الأحيان نعتقد أنه لا أمل، لا تغيير، ولا... فتتغير الأمور إلى ضدها، ويغدو ما أخافنا هو ما أفرحنا، وما ظننا أنه مدمرنا غدا هو ما يطورنا.... تصيب حساباتنا في بعض الأحيان وقد لا تصيب، بل إذا بحثت في منطق الأحداث تجدها معقدة وعصية على الفهم، ومتغيراتها لا عدد لها، بل تبدو غير ذات منطق ويسكنها العبث. فترى انبعاث النظام من رحم الفوضى، والفوضى تخرج من رحم النظام. ويتوقف عقلنا وقد يستسلم أمام كل هذا. هذا الوصف هو في الحقيقة انعكاس **لقصور أداة العقل** في استيعاب نظام **أعلى و أكثر شمولية**.

وكأني بالله عز وجل يعتني بمجالنا المعرفي، والسلوكي، والوجداني عناية تدقيق وتصويب. تجد آثار علاقتك به عز وجل في يومك وليلك، في ماضيك، وحاضرك، ومستقبلك، في جزئيات حياتك، هذا من طبيعة الحال، إن كنت تمارس التفكير في أفعالك، وتنظر في أفكارك، وتتابع وجدانياتك. ما يصيبك لم تضع له حسابا، ما تريده لم يحدث كما تريد، ما حدث شيء جديد، كل حدث فيه سعادة أو ألم، فيه وضوح وضبابية، تستيقظ بعد موت، وتموت بعد حياة، ولا تضمن لا موتا ولا حياة. تتغير أمامك أحداث العالم بشكل عميق ومتسارع، لا تجد لك حيلة ولا قوة، لم تساهم في أي شيء، وقد يحدث أن تتغير أمور كثيرة في حياتك، وحياة الناس، بل في حياة الأمم بفعل بشري واحد.

يصطفي الله عز وجل يوميا أناسا لفعل أشياء، وأناس آخرون لأشياء أخرى، وقد يكون الذي اصطفاه الله لهذا الشي أراد الشيء الآخر الذي يقوم به غيره. هذا الاستسلام هو الذي يفتح الباب للأداة الثالثة (الإيمان)، التي تتلقى هذا التعقيد وهذه الفوضى الظاهرية، وتضعها ضمن إطار **التدبير الإلهي المطلق** الذي يرى المنطق الشامل وراء المتغيرات اللانهائية. الإيمان هنا هو الذي يحول العبث الظاهري إلى **أمل مستقبلي** ومستقر.

تحيط بنا التحديات من جانب، ويجب أن يكون الفاعلون فينا في مستوى تحديات وجودنا، يرى الله تعالى كل شيء، وخلق كل شيء بقدر، يرى ما لا نرى، يرى ما نرى، يرانا ولا نراه، يرى سعادتنا وتجلياتها، وبؤسنا وتمدده، وعلمنا ونتائجه، وظلمنا وآثاره. يهتم بجزئيات حياتنا، ويحملنا مسؤولية اختياراتنا، يساعدنا إن توجهنا إليه، يستجيب لنا إن استحضرناه، وينسانا إن نسيناه، واعتمدنا على حساباتنا، فيتركنا لقرارنا الذاتي لأنه اختيارنا. يريد منا استحضاره في لحظات قوتنا وانتشائنا، وفي لحظات ضعفنا واحتياجنا، فاستحضارنا له عز وجل هو طريق معيته لنا، وغفلتنا عن استحضاره يهدد علاقتنا معه ما لم نتراجع. إنه **ثقل المسؤولية الوجودية ولطف العناية الإلهية الشاملة. جماع القول هو أن العلاقة مع الله سبحانه هي علاقة مشروطة بالاستدامة الواعية وليست مجرد إيمان لحظي نفعي جاف.**

لا أخفيكم أنني أومن أنه يعلم عمق آلامنا، ونسبة ماء دموعنا وملوحته، يعلم كم ذرفنا من دموع الفرح والألم، كم ذرفنا من دموع التماسيح، كم هي أشكال وأنواع ضحكاتنا الصادقة، والمخادعة، والبريئة، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور سبحانه وتعالى، يلهمنا أفكارا وحلولا، يواجه وحي الشيطان لأوليائه بإلهام المؤمنين ما يواجهون به الشر في الوجود، يُخرج الكافر من المؤمن، والمؤمن من الكافر، والحي من الميت، والميت من الحي، وفي هذا لوحده تجاوز لكل منطق العلم، يعفو عنا لضعفنا بالتجاوز، والخطأ، لعلمه بصدق النية، وضعف الإرادة، والحيلة. **في الوقت الذي تغلق فيه كل الأبواب، تفتح أبواب لا قبل لك بها، ولم تدخل أبدا في حساباتك. إن اللحظة التي يراها العقل نهاية، هي في التدبير الإلهي نقطة انطلاق لتدفق حلول غير متوقعة.**

تركيب وتعقيد عميق في سيرروة الأحداث والتغيرات. إنها **الشمولية المعرفية والرحمة الربانية التفصيلية.**

يلبي الله عزوجل بنسب مختلفة وبأشكال متنوعة رغبات كل واحد منا سواء كان مؤمنا، أو كافرا، أوفاسقا، يعدل بين عباده حسب إرادته عزوجل. لا تعييه رغباتنا الجميلة، والكثيرة، والمتغيرة، التي تنشأ في كل لحظة عند ملايير الناس بمختلف معتقداتهم، وإمكاناتهم، وتموقعهم في الزمان والمكان، والفترة العمرية، ما أعظم قدرة الله. يدبر حياتنا البيولوجية، والنفسية، والطبيعية بطرق لا نعلم منها إلا ما وصلت إليه أبحاثنا، وهي نفسها قابلة للتغيير. لا يعرف الإنسان ربه إلا إذا استحضره في الظروف المأساوية في حياته، إلا إذا تأمل، ونظر، وفكر في أحداث حياته تفكيرا علميا، ودينيا، وربط بينهما لتكتمل له الصورة، وفي الآية أعلاه وصل نوح عليه السلام نفسيا إلى درجة عالية من الألم، وعانى من سخرية قومه، بل من أقرب الناس إليه، ابنه، زوجته. إنه شعور مؤلم أن تحس أنك في وسط قومك

لكنك وحدك في معتقدك الصادق، لكن ربك معك يقول لك اصنع الفلك بأعيننا ووحينا، أي ابدأ وسنوجهك حتى تكمل المهمة على أتم ما يجب، ولم يخرق الله عز وجل سنن الوجود، بل ترك لسيدنا نوح الوقت للنجارة، والصناعة، لسنوات حتى أتم صناعة سفينة يحمل عليها من المخلوقات ما يحمل. تكفيني هذه الآيات لوحدها لأتأكد كمؤمن أن الأعمال الكبرى لا يمكن أن تكون إلا بمعية الله وتحت عينه. إن الأعمال الكبرى تبدأ صغيرة، إن **المعجزة لا تعني إهمال الجهد البشري**، إن العمل الكبير يتطلب وقتاً طويلاً وجهداً عظيماً حتى تحت عين الله أي ولو كنت نبيا مرسلا. إنها سفينة الحياة أيها الناس، سفينة إنقاذ البشرية، إنها عمل كبير وجبار أخذ وقتا طويلا، وجهدا لا جهد بعده. وعليه، إذا أنجزت أيها المؤمن عملا رائعا في مجالك، فاعلم أنك بعين الله وتوفيقه، ولا تتفاخر، بل اسجد تواضعا لمن اصطفاك، وألهمك ما ألهمك، وميزك عن غيرك، واعلم أن إنجازك الكبير بدأ صغيرا وصغيرا جدا. اللهم اجلعنا وأعمالنا، وأهلنا، وعلماءنا، وطلبتنا. تحت عينك ورعايتك. آمين

يكشف الأمر الإلهي لنوح بصنع الفلك تحت "أعيننا ووحينا "عن حقيقة فلسفية مفادها أن الأعمال الكبرى هي نتاج توفيق إلهي لا فعل ذاتي مطلق .هذا المنظور يعالج سيكولوجياً شعور الإنسان بالوحدة والعجز أمام فوضى الأحداث، حيث أن الإيمان بالعناية الإلهية الشاملة والمفصلة (التي تحيط بأدق أفكارنا وحركاتنا) هو الأداة التي تحوّل الفوضى الظاهرية إلى أمل مستقر وتفجر حلولاً غير متوقعة . بيداغوجياً، تعلمنا القصة أن المعجزة لا تلغي الجهد البشري الطويل الأمد، وأن الإنجاز العظيم يجب أن يقابله تواضع مطلق، بنسبة الفضل إلى الاصطفاء والتوفيق الإلهي، وليس إلى الذات، مما يرسخ الاستدامة الواعية في العلاقة مع الخالق.

التأمل القرآني السابع: إبستيمولوجيا الصفاء: سيكولوجيا الأكنة وردع النفور في بيداغوجيا التلقي القرآني

(وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا (46))

الآية 46 من سورة الإسراء

أن تفقه القرآن يعني أن يكون قلبك متحررا من الأكنة أي من الغشاوات النفسية، ومتخلصا من القيود السيكولوجية، والفكرية، التي غطت قدراتك التأملية، وسحبتك إلى المواقف النفسية المسبقة، والمتعجلة. وعليه، ففقه القرآن ليس معطى جاهزا، بل يحتاج لتنظيف النفس أولا من أدران الكبر والتعالي، والانفتاح على الوجود المتعالي بتواضع العلماء لا بانتفاخ الجهلاء، وأن يتحرر جهازك السمعي من الأصوات الطفيلية، والأقوال المزعجة، التي تسبق إلى الأذن قبل التمحيص، ولكي تتحرر من ذلك وجب أن تشتغل أولا على جهازك النفسي، وتنظفه ليفتح الله عليك ولك ما لم يخطر على قلبك وعقلك. فالقرآن مستغلق على المتكبرين، مبهم وملتبس على المستلبين عقلا، وقلبا، وسمعا. فالقرآن غير معروض على قارعة الطريق، بل إنه معلق في ثريا العلم والصفاء النفسي، لذلك يكون تأثيره على المتعجرفين والمضطربين عكسيا، ألم يقل ربنا عز وجل: **"يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا"**، سورة البقرة: 26، ألم يقل ربنا جل جلاله: **"ولا يزيد الظالمين إلا خسارا"**، سورة الإسراء: 82. فقه القرآن هو عملية **نفسية/روحية** بقدر ما هي عملية **عقلية/لغوية**، وتطهير القلب هو الشرط الأساسي لإتقان هذه العملية.

يحتاج فهم القرآن على الأقل إلى حياد معرفي، وصفاء أخلاقي، لأنه ينطوي على قداسة من نوع خاص، ومصدر خاص، وقداسته ليست مثالية بل مرتبطة أشد ما يكون الارتباط بالحياة والواقع، وتكتنز حقائق علمية، واجتماعية، ونفسية، وميتافزيقية لا يستحق الوصول إليها إلا من تدبر بحياد العالم، وأخلاق العلماء. يشترط النقاء والبر والابتعاد عن الشرور للولوج إلى كنوز كتاب ربنا الصافية والصادقة. لكي تتلقى معرفة من مصدر **مطلق** (الله) حول **حقائق مطلقة** (الوجود، المصير، العدل...)، يجب أن تكون أدواتك الداخلية (العقل والقلب) في حالة من **الحياد والصفاء** لتقليل التشويش البشري (الذاتي والنفسي). بدون هذا التطهير، يصبح الفهم مجرد قراءة سطحية أو تلاعب عقلي، لا يصل إلى مستوى الفقه العميق الذي يغير الحياة.

إن الأشرار لا علاقة لهم بالنظافة الجوانية، فالشر قذارة جوانية أي نفسية عميقة، والطريق إلى الله وآياته لا يمر عبر الشر والعجرفة والنجاسات السيكولوجية والمعرفية، بل عبر البر، والخير، والصفاء. إن الولوج إلى عالم الكلمات الربانية فيه انفصال عن الرذائل، فيه نظافة نفسية، فيه استعداد للتخلص من الأكنة، وفيه انفتاح من أجل التعلم والفهم. **إن التأمل في كتاب الله هو اصطفاء من الله، فمن يسر الله له السبيل للنظر في كتابه، فقد رفعه ليستخدمه في شرح كلماته بشرط وضوح النية، وصوابها، وصدقها. بمعنى أن الدوافع النفسية التي تكون ثاوية وراء تأملنا لا يجب أن تتلبس إلا بالسعي للفهم**

الصادق، أي أن فهم كلام مقدس يستدعي نية تستحضر قداسة فعلها، وقداسة طريقها، وقداسة هدفها، وقداسة موضوعها. إن التأمل في هذا الكنز الرباني يمنحنا الزاد الضروري لمواجهة ضعفنا على جميع مستويات شخصيتنا معرفيا، ووجدانيا، وسلوكيا، واجتماعيا، بل ويسلحنا ضد هجمات الشياطين من الإنس والجن. هكذا يصبح عندنا التأمل في القرآن عملية بناء شاملة تحولنا من كائنات ضعيفة تحيط به التحديات إلى **فاعلين أقوياء متحصنين**، جاهزين لمواجهة الوجود بأدوات إيمانية ومعرفية قوية.

لا أبالغ إن قلت بأن التأمل في القرآن يحتاج منا خوض نضال نفسي داخلي حرج مع نوازعنا لتصويب وجهتنا. إن معاشرة كتاب الله توصلك إلى حقيقة أن هذا الكتاب عظيم وعظيم جدا، وبه يمكنك أن تعرف من هو الله عز وجل، وكيف تعيش مطمئنا، لأنه خارطة طريق واضحة صريحة بيضاء. إن منطوق الآية أعلاه يقول لنا بوضوح: إن قراءة القرآن لوحده تبعد عنك كثيرا من المضطربين، ولا يخفي الله عز وجل أن ابتعادهم نفور، أي أنهم يفرون منه، ينفرون منه، إنه هروب الكاره، أو الخائف، أو الحاقد، أو الجاهل، وكما نعلم فإن النفور فيه انقباض للنفس من موضوع النفور، وفيه عدم رضا عن مضمونه، وشكله، وهدفه، **وسبحان الله الذي استعمل مصطلح النفور الذي يعني فيما يعنيه أنه ردة فعل مشمئزة من شيء ما، وما أجمل أن نعرف أن هذا السلوك ليس فطريا بل نتعلمه، أي أنه مما يكتسبه الإنسان، إنه سلوك ناتج عن الأكنة والغشاوة التي أصابت نفوس هؤلاء، إن مصطلح النفور امتد في هذه الآية إلى شيء معنوي، فكري، علوي، معرفي رغم أن الاشمئزار في أصله يكون تجاه ما نكره من الحشرات، والفضلات، والروائح. تمتلئ نفوس المشمئزين بفضلات الفكر والرذائل، حتى أضحى الفكر النظيف والفضيلة مما تشمئز منها نفوسهم، قال تعالى: "أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون"**، سورة النمل: 56. هكذا هي النفوس التي تنجست وحملت الخبث حتى تجاوز العنق إلى مجمل حواس الوجه. أن النفور من القرآن لا يحل على نقص في كتاب الله، بل هو **ردة فعل دفاعية من "نفس متنجسة" تدافع عن قذارتها الفكرية والروحية، وتعتبر الصفاء الأخلاقي تهديداً لوجودها.**

أضحت محفزات المشمئزين شريرة، ومعاييرهم مقلوبة حتى غدت نفوسهم تنفر من القرآن بل من أي ذكر للفضيلة، والخير، عاملين على تعويضها بأسماء، ومسميات تخذيرية لا تصلح فردا، ولا تطور أمة. ومن طبيعة الحال من كانت مصفاته بغيضة، فردة فعله على الفضيلة ستكون معكوسة. تعلمت نفوسهم التي في الأصل كانت على الفطرة، وتكيفت مع النفور من مصادر الأخلاق، وجميل القيم. بل إن نفوسهم ومناهجهم أصبحت تقيم كل شيء حسب درجة بعده أو قربه من الأخلاق، أي من الدين، أي من القرآن، فتسمع كلمات من مثل: "إن رأيك مشحون بالأخلاق" و"تكاد تجن". أليس الإنسان كائنا أخلاقيا؟ ولولا الأخلاق لانتهى العالم. فالأخلاق تفضح الغارقين في اللاأخلاق لذلك فهي من القول الثقيل عليهم، لقد طوروا موقفا سلبيا من مضمون الدين ناتج عن تقييم سلبي ناتج عن سيرورة تنشئتهم، وتوقفهم عن مساءلة مسلماتهم. **نحتاج في علم النفس إلى سيكولوجيا الفرار من الحق والفضيلة. وجماع ما نقول** إن النفور من الدين ليس مجرد اختلاف في الرأي، بل هو نتاج **آلية نفسية دفاعية** طورتها النفوس

المريضة لحماية "قذارتها" الداخلية، مما جعلها تعادي الأخلاق وتعتبرها عبئاً أو تهمة. أتحدث هنا بالضبط عن الجاحدين الفاشلين الفاسدين وليس على المنكرين الذين يبحثون عن الحق وإن عارضوا الدين والتدين.

إن النفور حالة نفسية مبنية على موقف سلبي مؤسس على قناعات فاسدة، جعلت النافر غير متوافق كليا مع موضوع النفور، وأضحت المسافة بينهما شاسعة وعميقة. لا يمكن الولوج إلى القرآن في حالة التنافر معه إلا في حالتين، الأولى هي الانسجام معه ومع مقتضياته، والثانية وهي على الأقل الحياد الساعي للاكتشاف والفهم. لا ينفر من القرآن إلا من لا حظ له من العلم، لأنه لم يبن موقفا، بل تبنى موقفا جاهزا، **فالنافر لم يقم بـ "النضال النفسي الداخلي الحرج" اللازم لتصويب وجهته، بل اكتفى بتقليد قناعات فاسدة جاهزة. إنها المنهجية السطحية الاستهلاكية في عالم الأفكار والمعتقدات.**

أتصور في بعض الأحيان أن الناس تتعامل مع عالم الأفكار والأخلاق مثلما تتعامل مع الأشياء والأشخاص، فيجرها المظهر الخلاب، ويخفى عنها العمق المظلم، ويجرها الكلام المعسول، وإن كان يخفي الاضطراب والدمار، تثيرها السهولة، وترهبها الصعوبة، تريد النفوس النتيجة، وتنفر من الجهد والعمل، تحب المتعة، وتنفر من الألم. وهذه المنهجية لا تتو افق مع القرآن، لأنه الظاهر والباطن، والصعوبة والسهولة، {ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا} سورة الإسراء: 41.

سيكولوجياً وأخلاقياً، النفور هو هروب الكاره أو الخائف، وهو ردة فعل مشمئزة (اشمئزاز روحي) ناتج عن "الأكنة" (الغشاوات النفسية) و**"الوقر" (القيود السمعية والفكرية)**. تُعد هذه الغشاوات "قذارة جوانية "(شر) طورتها النفوس المريضة؛ حيث أصبحت الفضيلة والأخلاق بمثابة تهديد وجودي تحاول النفس تجنبه، مما يفسر النفور من ذكر الله وحده. النفور هنا هو تتويج لسلوك مكتسب ومنهجية سطحية استهلاكية في التعامل مع الأفكار، تبحث عن المتعة وتنفر من الجهد والنضال النفسي الداخلي الحرج اللازم لتصويب الوجهة.

فلسفياً ومعرفياً، فقه القرآن ليس معطى جاهزاً، بل يتطلب حياداً معرفياً وصفاءً أخلاقياً للولوج إلى حقيقته المطلقة. القرآن مستغلق على المتكبرين والمستلبين، كونه معلقاً في "ثريا العلم والصفاء النفسي ."بدون هذا التطهير القلبي كشرط أساسي، يصبح الفهم قراءة سطحية لا تزيد الظالمين إلا خساراً (يُضل به كثيراً)، مما يؤكد أن القرآن يعمل كمصفاة إلهية للنيات والأخلاق قبل أن يكون مصدر معلومات.

بيداغوجياً (تربوياً)، التأمل في القرآن يمثل عملية بناء شاملة تتطلب خوض نضال نفسي داخلي حرج لتصويب وجهة الذات والتحصن ضد هجمات شياطين الإنس والجن. الرسالة التربوية هي أن الطريق إلى هذا الكنز الرباني لا يمر عبر العجرفة والنجاسات السيكولوجية، بل عبر البر والخير والتواضع، وأن على المؤمن أن يعمل بجد على تنظيف جهازه النفسي أولاً ليتم الاصطفاء له ويُفتح له ما استغلق على غيره.

التأمل القرآني الثامن: سيمياء الوجه: طهارة الإدراك وبيداغوجيا البصمة الوجودية

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)

الآية 6 من سورة المائدة

تبدو الآية في ظاهرها آية وضوء، آية توضح للمؤمن ما عليه فعله قبل الصلاة، وهي بذلك تشكل مقدمة ضرورية للاستعداد للقاء الله، للدخول معه في علاقة تعبدية تقربنا منه، بل أكثر من ذلك للحديث معه عز وجل بكلامه ودعائه، بل بما علمك من دعاء من كلامه عز وجل. إن معرفة الله ممكنة فقط بالإقبال عليه، وبالضبط بالإقبال على كلامه المقدس المنزل. هكذا نفهم من خلال مضامين الآيات كيف يحدثنا الله، ونعرف مضمون ما يريده منا، وكيف يبسط حبه ورحمته لنا، بل كيف يتواضع وهو في عليائه لنا على ضعفنا وأخطائنا، بل وحماقاتنا، نتعلم منه عز وجل كيف نتكلم، وكيف نرحم، وكيف نغسل، ونغتسل، وكيف نصلي، وكيف نغضب، نتعلم كيف نتصرف وقت الضعف، ووقت القوة، نتعلم ببساطة كيف نكون حكماء بتعلم الحكمة من رب الأرباب. تتناول الآيات أعلاه أمرا يبدو بسيطا بل عاديا، وهو النظافة التي يمكن اعتبارها مما يعرفه جميع الناس، لكن دعونا نتساءل، لماذا بالضبط يحثنا الله عز وجل على نوع خاص من النظافة، وبحركات خاصة ولأعضاء بعينهم؟ ليس اعتباطيا تخصيص الله للوجه، واليدين إلى المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين. لماذا نبدأ بالوجه في الآية؟ وفي السنة يتم تفكيك مكونات الوجه بدءا بالفم ثم الأنف...؟

إن الوجه هو الجزء الأمامي الأعلى من الرأس، الذي يتضمن العينين، والأذنين، والأنف، والفم، والجبهة. ألا ترون أن هذه الأجزاء هي الأكثر تعبيرا، وحركة، والأكثر استعمالا من غيرها؟ أليس الوجه هو أول جزء نعبر به عن الخوف، والفرح، والاضطراب، والصبر، والكلام، والشم، والتذوق، والسمع، والبصر، اجتمعت فيه على الأقل أربع حواس، بينما اللمس، وهو الحاسة الخامسة التي تستعمل في تنظيف الحواس الأخرى، سبحان الله. **يبدو أن حكمة الله عزوجل أن نبدأ قبل لقائه بتنظيف حواسنا أولا، أي تنظيف أدوات إدراكنا، فالقذارة تحجب الله عن حواسنا لأنه جميل، وحتى لو لم يكن الماء فتيمموا صعيدا طيبا، وهذا مما يزيد الأمر وضوحا، والتيمم نفسه لا يتوجه إلا إلى اليدين والوجه مركز الحواس، فلا لقاء مباشر، وكلام مع الله بدون نظافة الجزء الأمامي بمجموع حواسه. وبما أن الحواس هي مصدر المعرفة، وطريق العقل، فيغدو الوجه معبرا عن حالاته انبهارا، وفهما، وتعجبا، وضمورا، وخوفا، وتساؤلا، وكأن الوجه هو الإنسان وباقي الأعضاء في خدمته. إن ما نعتبره جزءا فزيائيا منا هو مدخل منهجي وروحي لعمقنا.**

{قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون} سورة البقرة :144

{ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب} سورة البقرة : 177

{ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} سورة آل عمران: 106

{قل أمر ربي بالقسط و أقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون" سورة الأعراف: 29

" وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما" سورة طه: 111

يشتمل القرآن الكريم على آيات كثيرة تتحدث عن الوجه، فتظن أن الوجه هو الإنسان، والحقيقة أن الوجه هو الذي يجعلنا نميز بالدرجة الأولى بين الناس على العموم، فهو واحد ووحيد لا يتعدد وقد يتشابه، فوجوه النساء تختلف عن وجوه الرجال، ووجوه الأطفال، ووجوه كل عرق بشري لها خصائص تميزها عن غيرها. **إن آية الوضوء تبدأ بتنظيف ما يميزك عن غيرك، لنقل تبدأ بتنظيف بَصْمتك التي تميزك عن غيرك وما يجعلك متفردا في شكلك، وما يتضمن مميزات شخصيتك. إن إمكانية ربط الصلة بالله تبدأ بتنظيف واجهتك مما غطاها من درن الأوساخ المادية وصولا إلى الأوساخ المعنوية، الوضوح محول لسجل ذنوب واجهتك وأدو اتك الإدراكية. أقبل على ربك بفرح، و ابتسامة، وخوف، وتضرع، وأمل، بدون رو ائح في الفم، وبعينين مفتوحتين، وحواجب غير مقطبة، وبأذنين منتبهتين، وبلسان ذاكر، لا يتذوق وقت الصلاة أكلا إلا التسبيح، والتهليل، والتكبير، وكلام ربه. إن ربك يريد وجهك الخاشع المتفرد، الذي نظفته بالوضوء مادياً، ثم طهرته معنوياً ليكون أداة إدراك صافية ومركّزة في رحاب العبادة. لا يجب على حواس الوجه أن تنشغل عن معبودها بسواه، فكما أنها تنظفت من القذارة، فعليها ألا تنشغل بغيره، وتسهو في عوالم الدنيا، وإن سهت، وجب عليها ترقيع صلاتها بسجود السهو. لا يريدك ربك أثناء الإقبال عليه بعد تنظيف هذا الوجه، إلا أن تضع تركيزك معه لا مع غيره، فذنوبك تتساقط مع الوضوء، وصلاتك ترفعك درجات. نبدأ بالوجه مركز الذنوب سمعا، وكلاما، وتذوقا، وبصرا. فنبدأ بغسله لتتساقط ذنوب كتاب الوجه، ومركز الفعل، وتجلي أفعال باقي الأعضاء. تتساقط مع الوضوء ذنوب العينين، والأنف، والأذن، والفم، واللسان.**

إن نقاء ونظافة وجهك بالماء طريق للسمو بك أخلاقيا، وترقيع يومي لملفك العملي، فكلما تنظفت من أجل الله، ارتفع منسوب الجمال بدواخلك، بل وزادت نضارتك عند من يعرفونك، بل ومن لا يعرفونك، ثم ألا يحق لنا أن نعتقد أن إحساسنا بنظافة وجوهنا، يزيد من ثقتنا في أنفسنا، ويمنح عقولنا مساحات للإبداع والتفكير بدون حواجز نفسية؟ يدعو الوجه النظيف إلى الجمال، إلى الآخرة لأنه يستجيب لشرط لقاء الله. فالوجه النظيف شرط بداية للدخول إلى العالم الرباني. لا يريد الله وجوها

اسودت بذنوبها، فوجهك يعكس حقيقتك المتغيرة، لذلك توجه إلى واجهتك، وأزل ذنوبها لتستحق لقاء ربك.

فلسفياً ومعرفياً، يمثل الوجه مركز الهوية ونقطة البؤرة المعرفية؛ فهو يحتوي على غالبية الحواس، مما يجعله مدخلاً منهجياً وروحياً لعمقنا الإنساني. تخصيص الوجه بالبدء في الغسل، حتى في حالة التيمم، يؤكد أن تنظيف أدوات الإدراك هو شرط أساسي للسمو؛ فالقذارة الروحية تحجب جمال الله عن الحواس، وعليه، فإن الوضوء هو تطهير لكتاب الوجه من ذنوب السمع والبصر والكلام.

سيكولوجياً، يمثل الوضوء آلية ترقيع يومي ورفع للمنسوب الجمالي الداخلي .الإحساس بنظافة الوجه ونضارته يزيد من الثقة بالنفس ويمنح العقل مساحات للإبداع بدون حواجز نفسية. كما أن الوضوء يعمل كطريقة للتخلص من سجل الذنوب؛ فكلما تساقطت الذنوب مع ماء الوضوء، تحقق التطهير المعنوي، مما يهيئ القلب للخشوع ويركز الحواس على المعبود، مانعاً إياها من الانشغال بعوالم الدنيا.

بيداغوجياً (تربوياً)، الوضوء هو درس في الأولوية والحكمة؛ فهو يبدأ بالعضو الذي يميزنا (بصمتنا) وبمركز الذنوب والأفعال (الوجه)، ليعلمنا أن بداية العلاقة مع الله هي بتنظيف الواجهة الإدراكية أولاً. الرسالة التربوية هي أن الله لا يريد وجهاً اسودّ بذنوبه، بل يريد الوجه الخاشع المتفرد، الذي نُظِّف مادياً ونُقِّي معنوياً، ليكون شرط بداية للدخول إلى العالم الرباني.

التأمل القرآني التاسع: فينومينولوجيا الارتحال: بيداغوجيا الموت بوصفه أفقاً لاكتمال الهوية

(وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ (19))

الآية 19 من سورة ق

يعتبر الموت حقيقة الحقائق، حقيقة لا يختلف حولها الناس، علماؤهم، وعامتهم، ومتعلميهم، حقيقة ثابتة بالعقل والتجريب، لكنها في الوقت نفسه هي الحقيقة التي لا نعيرها اهتماما وكأننا خالدون، بل هي الحقيقة التي نعرفها يقينا، ولا نعرف ما يليها، إلا من خلال الأديان السماوية، أي من خلال الوحي الرباني. وما أن نستحضر الموت حتى تتداعى أفكار متنوعة ومتناقضة حول هذا الحدث المحوري في حياة الإنسان، حدث يقلب كل شيء، وينهي استمرار كثير من الأشياء، تتداعى أمامنا أفكار حول الحياة وجدواها، حول الآخرة وحقيقتها، حول الأديان ومضامينها، حول الجنة، والنار، والقبر. تنتقل به الملكيات، والزيجات، والأفكار، يُحدث الموت تحولات جذرية في العلاقات والأوضاع الدنيوية، إنه عالم نعرفه من مصدر واحد ووحيد وهو الوحي. فالعلم عاجز عن معرفة ما بعد الموت، والعقل كذلك، والإيمان هو الحل والطريق الوحيد لتكتمل دورة الحياة الدنيا والآخرة بسلام وأمان. إن الموت يقينا هو انتقال من حال إلى حال، وعند المؤمنين من عالم إلى عالم آخر، ومن حال إلى حال، بل ومن حياة إلى حياة أدوم وأصدق و أقوى، ليس الموت نهاية مطلقة في عالم المؤمنين، بل خادم للمخطط الأزلي الإيماني. إن الحقيقة الإيمانية تستدعي عند المؤمنين تغيير النظرة الدنيوية للموت من نهاية مخيفة إلى جزء حيوي من رحلة الوجود الإنساني، وأن المعرفة الحقيقية عن هذا الانتقال لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال الإيمان والوحي، وليس بالعقل أو التجريب وحدهما.

ينتهي مع الموت الزمن وتختفي أهميته، لا تصبح للمواعيد الدنيوية، والثروة، والجمال، والمنصب، والسلطة أية قيمة، يحولك الموت عند الأحياء إلى ذكرى سيئة أو حسنة حسب نوعية الأثر الذي تركته خلفك، ويحولك من لحم، ودم، وعظام، إلى رفات وتراب، يتغير شكلك، وهويتك، وكينونتك. يمحو الموت الزمن الفردي، فيتوقف الإنسان عن كونه كائنًا في "الزمن"، ليغدو أثرًا في "الذاكرة." لكن عند المؤمنين فالأموات أحياء. فالمنظور الحسي العقلي يرى الموت اختفاء وانتهاء، والمنظور الإيماني لا يعتبر أن **الموت يمحو شيئًا، بل يكشف عن طبقة جديدة من الوجود** كانت مستترة خلف الجسد والزمن. إنه ما بعد الوجود المادي، إنها الحياة الآخرة.

إن الموت في الإسلام بداية وليس نهاية، وهو التصور الذي يختلف مطلقا عن كل الفلسفات الوجودية التي تختزل الإنسان في العالم الموجود المنظور، بحيث يمكن أن تكون حقيقة الموت التي لا خلاف حولها، وسيلة لتعلم فن الحياة قبل الموت، وسيلة بيداغوجية تلطف العلاقات بين بني البشر، تطور نظرتهم لوجودهم باعتباره وجودا للعيش المشترك والجميل، لأنه مرحلة منتهية ولا يحتمل كل ما

نتجه، ونسببه من الآلام للآخرين، يمكن أن يعلمنا الموت إدارة خوفنا، وتدبير قلقنا، ويقوي لدينا القدرة على تحمل الصدمات الكبرى في الحياة، نفهم معه معنى خسارة الأهل والأصدقاء، وفقدان الأحبة، يمكن بيداغوجيا أن نتعلم من مصيبة الموت كيف نتأمل في ماضينا كبشر وكأشخاص، وفي حاضرنا، وفي مستقبلنا، يصبح الموت مع التأمل دافعا لتطوير معارفنا بأنفسنا، ومآلاتنا، ومن جهة أخرى يطور لدينا إحساسا دقيقا وقويا بالزمن الذي نحياه، وكيف نستغله في إسعاد أنفسنا وغيرنا. يدفعنا الموت للتساؤل عن الشر ومدى احتياجنا له في حياة منتهية لا محالة في أية لحظة، يمكن أن يدفعنا تأملنا في الموت أن نسائل أنفسنا عن قيمة كل ما نقوم به. ألا يكون بهذا قدر الموت **مفتاحًا للحكمة، وبيداغوجيا للرحمة، ودعوةً دائمة إلى أن نحيا كما ينبغي للخلود حياة جميلة وهادئة نجرب فيها حلاوة السعادة الأخروية ولو في أبسط أبسط تجلياتها. يكاد أن يكون بعيدا عن اعتباره تهديدًا، بل درسًا في الحبّ والتواضع المؤديان للتعايش. أنا واع جدا بمثالية ما أقول لكنني مومن أيما إيمان بقوة تأثير الإيمان في سلوك الأفراد.**

إن الموت في الإسلام **بدايةٌ لا نهاية**، عبورٌ من ضيق الزمن إلى سعة الأبد، ومن ظلال العالم المنظور إلى نور الحقيقة اللامنظورة. وعندما نقول الظلام المنظور فهو ما نصنعه من مآسي فوق الأرض وإلا فإنها أرض للتعايش والتعاون، أرض غايتها "لنبلوكم أيكم أحسن عملا"، وليس أسوأ عملا. فالموت في الرؤية الإسلامية، ليس خصمًا للحياة، بل معلّمها الأول، حكيمها الذي لا يهتم به من يعيشون فوق الأرض.

وإجمالا يساهم الموت في تطورنا الوجداني بشكل رهيب، خصوصا في مواجهة المصائب، ولا مصيبة أقوى من مصيبة الموت، أما ما دونها فيدخل في مجالها، وعليه من ذاق آلام الفراق يهون عليه كل ما دون ذلك. هكذا نتعلم التحمل، والصبر، والعطف على المصابين، وهكذا تتطور معرفتنا بوجودنا، وأنفسنا، وواقعنا، ومآلاتنا. إن الموت بهذا المعنى مصدر للتطور المعرفي، والوجداني، والسلوكي، والاجتماعي. إن درس الموت والتقتيل في غزة المكلومة مثلا أخرج من أهل رباط عسقلان رجالا ونساء لا قبل لنا بقوتهم، وصبرهم، وأدائهم، ونفسياتهم التي تتحدى الموت صباحا ومساء، كما أن درس غزة الأبية أظهر لنا خبث القتلة وشرذمة المتصهينين، يكشف الموت معادن الناس، درس الموت عند أهل أرض الإسراء تجاوز كل ما ذكرته سابقا، وأضحى الموت هناك حياة، قَرَّبهم من الله، وأبعد غيرهم عنه، يموت جيل ليحيى جيل آخر. فالموت قاس، لكنه فاضح، ومقرب، ومبعد، ومعلم. اللهم انصر إخواننا ودمر أعداءهم، وأعداءنا. الموت، إذن، ليس تهديدًا، بل **معلم صامت** يربّي القلب والعقل، ويعلّمنا **الحكمة في التعامل مع الحياة والمصائب والعلاقات الإنسانية**.

فلسفياً ووجودياً، الموت هو انتقال من حال إلى حال ومن عالم إلى عالم، وليس نهاية مطلقة. إنه يمحو الزمن الفردي ويحول الكائن من الوجود في "الزمن" إلى كونه "أثراً في الذاكرة" عند الأحياء، بينما يراه المؤمنون بداية للحياة الأدوم أو الحياة السرمدية وهي الحياة الأصدق .هذا التحول يضع الحياة الدنيا في سياقها المنتهي ويجعلها مرحلة اختبار (لنبلوكم أيكم أحسن عملاً). مما يدفع المؤمنين للتساؤل عن جدوى الشر في حياة مصيرها الزوال.

سيكولوجياً، الموت يعمل كأداة حكيمة لإدارة الخوف والقلق الوجودي. التأمل فيه يدفع الفرد لتطوير معارفه بنفسه ومآلاته، ويقوي لديه القدرة على تحمل الصدمات الكبرى والمصائب (مثل الفراق). الموت ليس تهديداً، بل مصدر للتطور الوجداني؛ فمن ذاق آلام الفراق يهون عليه ما دون ذلك، مما ينمي التحمل والصبر والعطف، ويكشف معادن الناس (كما في مثال غزة).

بيداغوجياً (تربوياً)، الموت هو المعلم الأول لفن الحياة؛ فهو وسيلة بيداغوجية تلطف العلاقات بين البشر وتدعو إلى العيش المشترك والجميل والتواضع. إنه يدعو إلى استغلال دقيق للزمن في إسعاد النفس والغير، ويعلم أن الموت هو مفتاح الحكمة والرحمة، ودعوة للارتقاء في الحياة الدنيا (التي يعتبرها ضيقاً) استعداداً لسعة الأبد.

تأملات في حالات النفس الإنسانية

التأمل القرآني الأول: سيكولوجيا النزغ: ميكانيزمات الغيرة وتهافت التبرير في بيداغوجيا التفكك الأسري

(لَّقَد كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٞ لِّلسَّائِلِينَ (7) إِذ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحنُ عُصبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَـٰلٖ مُّبِينٍ (8) ٱقتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطرَحُوهُ أَرضا يَخلُ لَكُم وَجهُ أَبِيكُم وَتَكُونُواْ مِن بَعدِهِۦ قَوما صَـٰلِحِينَ (9) قَالَ قَائِل مِّنهُم لَا تَقتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلقُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلجُبِّ يَلتَقِطهُ بَعضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُم فَـٰعِلِينَ (10))

الآيات من 7 إلى 10 من سورة يوسف

غالبا ما يتم التركيز في قصة يوسف على قصة هذا النبي الكريم مع امرأة العزيز، لأنها تعالج قضية حميمية ومهمة تدخل في ثقافتنا العامية في مجال الطابوهات، لكن القصة لها أبعاد أخرى ذات بعد سيكولوجي مهم كذلك. لقد بدأت برؤيا، وانتهت بتحققها، لكن وفي سيرورة التحقق هذه، نجد إشارات أو آيات ربانية كثيفة وعميقة بخصوص النفس الإنسانية.

بدأت معاناة نبي الله يوسف عليه السلام مع إخوته نتيجة ما لاحظوه من اهتمام خاص لنبي الله يعقوب بيوسف وأخيه، وبتأويل خاطئ لما اعتقدوا أنه تفضيل وظلم لهم. وقد تحول هذا الاعتقاد إلى غيرة عميقة ستتجلى في كل الأفعال الكيدية التي لامست نبي الله يوسف وأخيه. إن المشكلة لم تكن في الأب يعقوب (الذي كان حكيماً ومحبوباً)، بل في **الاستجابة النفسية السلبية** للإخوة تجاه ظنهم بالتفضيل الزائد لأخيهم عليهم.

من لطائف هذه الآيات أنها بدأت بتأكيد إخوة يوسف لشعورهم بالمرارة النفسية المبنية على اعتقاد تفضيل أبيهم ليوسف وأخيه. إن السياق الاجتماعي جد مهم لتطور مثل هذا الشعور حتى في نفوس أبناء الأنبياء، فعدد الأبناء أحد عشر نفرا بدون احتساب يوسف عليه السلام، وطبيعي أن تنشأ الغيرة بين الناس عموما، وبين الإخوة في مثل هذا السياق الذي يستحيل معه على الأب ضبط كل أشكال التعامل مع الأبناء وفق عدل لا متناهي، يغار إخوة يوسف لخوفهم من فقدان حب أبيهم لهم، والأب عزيز ونبي من أنبياء الله، وعلى أخلاق النبوة، ومحال أن يفرط في حب أي من أبنائه، هذا الخوف الذي تجلى في الغيرة متفاوت بين أبناء نبي الله، فمنهم من أظهر حقده، ومنهم من سكت وأذعن للجماعة، ومنهم من توقف، ومنهم من ندم، فعتبة الغيرة ومنسوبها يختلف بين الناس. إن طريقة تأويلنا لسلوك آبائنا هي التي تنتج سلوكاتنا تجاههم، ولأن التأويل كان سلبيا وموغلا في الخوف والتوجس من فقدان حب الأب النبي، فقد تجلى في هوس السيطرة على الوضع بإبعاد عناصر التهديد، فإخوة يوسف يريدون أن يكونوا محبوبين، ويخافون من خسارة حب أبيهم، لذلك أرادوا تملكه. تقترن غيرتهم بالخوف من فقدان حبه لهم، ومتلبسة كذلك بمشاعر الدونية، أي الاعتقاد أنهم دون يوسف عليه السلام مكانا ومكانة عند أبيهم، بل إن هذه المشاعر السلبية المقرونة بالخوف جعلت إخوة يوسف يصفون موقف نبي الله بقولهم: "**إن أبانا لفي ضلال مبين**"، سورة يوسف: 8. إنها ردود فعل عاطفية مقرونة بالخوف، وممزوجة بالغضب،

والاضطراب الموصل إلى مسلك الاعتداء الرمزي بالحكم على أبيهم أنه غير عادل في تعامله مع أبنائه، بل إنه في ضلال مبين. أكيد أنهم لا يقصدون بالضلال هنا الكفر، بل يقصدون **الخطأ الواضح جداً** في الحكم على الأمور وفي توزيع المحبة أو الاهتمام، فهم يتهمون أباهم (النبي) بالجور وعدم الحكمة في التعامل مع أبنائه، **لتبرير سلوكهم المستقبلي تجاه يوسف. إن هذا الحكم كان بداية الفعل، أي هنا بالضبط تجاوزت نفوسهم حاجز الخوف للمرور من الشعور بالمرارة إلى الكيد ليوسف وأخيه. الحركة النفسية كانت أول شيء، والسلوك جاء مصدقا لها. إن الحكم على أبيهم بالضلال المبين فيه قفزة سيكولوجية كبيرة فوق المكانة الرمزية لنبي الله، ولأن الفعل يحتاج إلى شرعية قوية كان حكم الضلال كافيا لإخراج ضلال أكبر وأعلى و أقوى، رغم أن الأول كان تأويلا لا حقيقة.**

في هذا الإطار، يرتفع منسوب المشاعر السلبية مباشرة في الآية التي تليها بقولهم: **"اقتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطرَحُوهُ أَرضا يَخلُ لَكُم وَجهُ أَبِيكُم وَتَكُونُواْ مِن بَعدِهِۦ قَوما صَٰلِحِينَ"**، سورة يوسف: 9. تحولت الغيرة إلى نار داخلية أضحى معها جرم قتل طفل صغير، أو إبعاده أمرا مشروعا، بل واجبا مع نية الرجوع إلى الصلاح، مشاعر متناقضة تختلج دواخل أبناء نبي الله، وتخيلوا معي الموقف العصيب نفسيا واجتماعيا، لكن الغيرة لا تبقي ولا تذر، هذا الوضع النفسي الصعب قد يدفعنا للتساؤل: هل الأمر يتعلق بحب نبي الله؟ أليس من حب نبي الله حب ما يحب نبي الله؟ ألا تخفي غيرة إخوة يوسف من أخيهم حبا للتملك لأبيهم دون غيرهم؟، إنه حب فيه سوء فهم وتقدير، وتملك مسكون بإرادة الإقصاء. هذا هو ما سماه يوسف عليه السلام: **"من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي"**، سورة يوسف: 100، وهو نفسه ما قاله نبي الله يعقوب عليه السلام: **"لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا، إن الشيطان للإنسان عدو مبين"**، سورة يوسف: 5. والنزغ وسواس شيطاني يتحرك في دواخل النفوس، أي أن سلاح إبليس في هذه القصة كان سلاحا سيكولوجيا بالأساس، غايته إفساد العلاقات الخارجية بتدمير العلاقات الداخلية بين الأبعاد العقلية، والوجدانية، والسلوكية في دواخل نفوس إخوة يوسف، بحيث ترى القتل إنجازا أو دفاعا، والإبعاد انتصارا، ومخالفة الأب برا حقيقيا. هذه الجملة هي ذروة **الاضطراب الأخلاقي والنفسي**، وهي تمثل آلية تبرير خطيرة. وجماع القول أن هذه الآية تُظهر سيرورة processus التحول من **الغيرة الداخلية (الحالة النفسية)** إلى **الفعل العدواني المخطط له (السلوك الإجرامي)**، مع استخدام **آلية دفاع نفسية فاسدة** لتسويغ الجريمة (الصلاح بعد ارتكاب الإثم).

انتبهوا، فإننا إزاء أبناء نبي من أنبياء الله، وهذا الفهم يمكن أن يفتح الباب لنا للتساؤل عن ماهية الشيطان؟ لكن ليس هذا هو هدف هذا التأمل.

لقد كان نبي الله مدركا لأبعاد الغيرة المرضية وخطورتها على تماسك أسرته الكريمة، لذلك أمر يوسف ألا يحكي رؤياه لأحد، لكن رغم كل ذلك فقد لاحظ أبناء يعقوب عليه السلام اهتمامه بأخيهم. إن خوفه عليه، واهتمامه به **ولد لدى الإخوة عدم يقين عميق في مدى حب أبيهم لهم جميعا**، وهو ما أدى سيكولوجيا إلى الاعتقاد في انخفاض قيمتهم عند أبيهم، واعتبروا اهتمام نبي الله بنبي مستقبلي على أنه معاملة غير عادلة، مما أدى إلى انتكاس قيم التسامح، والحب بين الإخوة وأخيهم. كما أن هناك لطيفة لم

ننتبه إليها في طفولة يوسف إلا في مرحلة شبابه، **وهي جماله، ولا أستبعد شخصيا أن جماله في الطفولة كان بينا واضحا، وقد جلب له متاعب مع إخوته الذين رأوا أنفسهم أقل بهاء**، وهذه فرضية تحتاج مزيدا من التدقيق، كما أن الذكاء الذي أبان عنه نبي الله يوسف في كبره عند عزيز مصر كانت تجلياته واضحة في صغر هذا النبي الكريم، فقد لاحظ إخوته نباهته كذلك. هذا التراكم لعوامل الغيرة المادية والنفسية هو ما يفسر شدة رد فعلهم الإجرامي.

إنه نبي رأى رؤيا، كما أنه جميل وذكي، زد على ذلك أنه ليس أخا شقيقا لإخوته، بل أخوهم من أبيهم، إضافة إلى أنه أصغرهم، كما أن إخوته الأكبر سنا يريدون باعتبارهم كذلك الريادة، والاهتمام، والقيادة في الأسرة. اجتمعت في يوسف عليه السلام خصائص لابد أن تثير الغيرة في نفوس إخوته، التي عبرت عن نفسها من خلال سلوكيات عدوانية وصلت حد محاولة القتل، ومن خلال حالة القلق والإحباط التي كان يعيشها أبناء يعقوب عليه السلام من خلال مقارنتهم بأخيهم، كما تجلت الغيرة عندما أرادوا الكيد ليوسف وقتله، فلم يتقنوا الخطة أبدا، وأعادوا على أذن يعقوب عليه السلام ما تنبأ به بدون زيادة أو نقصان، فقد قال لهم :"أخاف أن يأكله الذئب"، ولما فعلوا فعلتهم قالوا له: "إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب". لقد قلصت غيرتهم مستوى ذكائهم لدرجة أنهم لم يبدعوا في جريمتهم، رغم نقاشهم الطويل حول خطتهم. وطبيعي أن الذي يغار يفقد التوازن المعرفي، والعاطفي. إن قصة يوسف عليه السلام هي تفكيك سيكولوجي قرآني عميق لكيفية تحول الشعور بالدونية والخوف من فقدان الاهتمام إلى سلوك إجرامي، وكيف أن الغيرة المرضية تقزِّم الذكاء وتُفقد الفرد القدرة على التفكير المنطقي السليم. إنها قصة تقول لنا إن للنفس قوانين فابحثوا فيها، وهي تسري على كل إنسان ولو كان نبيا من أنبياء الله.

أصيبت علاقة الأخوة التي من المفترض أن تكون خاصة، وطويلة الأمد باعتبار سيرورة التطور المشتركة، والنسق الاجتماعي المشترك، باختراق إبليسي في شكل اضطرابات نفسية مست عمق شخصية أبناء يعقوب عليه السلام، مما أدى إلى تفكك أسري نسبي، وأتت الغيرة بعكس نتائجها، فلن يحصل أبناء يعقوب على حب يعقوب عليه السلام، بل باختفاء يوسف زاد تعلقا به، ولم يعد يهتم بغيره، بل أضحى يطيل البكاء عليه، ويذكره على الدوام، قال تعالى: **" قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ"**، سورة يوسف: 85، **وقال تعالى: " وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ"**، سورة يوسف: 84، بل أصبحت كل قرارات نبي الله يعقوب تجاه أبنائه تقودها مرارة فقدان يوسف عليه والسلام، قال تعالى: **" هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل"**، سورة يوسف: 64. وبناء عليه، تؤدي الغيرة المرضية إلى عكس مراد صاحبها، إلى فقدان من يغار عليه. فالغيرة المرضية تفكك نفسي يؤدي إلى تفكك اجتماعي. فربوا أبناءكم بمراعاة نفسياتهم، وتحسسوا خطورة التعامل غير العادل معهم.

سيكولوجياً، الغيرة هي نتيجة لسوء التأويل المعرفي لاهتمام الأب (اعتقاد خاطئ بالتفضيل والظلم) ممزوجة بالخوف من فقدان الحب ومشاعر الدونية لدى الإخوة. هذه الغيرة تعمل كـ "نزغ

شيطاني "(سلاح نفسي) يدمّر التوازن الداخلي بين العقل والوجدان، ويدفع إلى هوس السيطرة بإبعاد مصدر التهديد (يوسف). تتجلى ذروة الاضطراب في آلية التبرير النفسي الفاسدة (اقتُلُوا... وتَكُونُواْ مِن بَعدِهِۦ قَوما صَٰلِحِينَ)، حيث يسوّغون الجريمة بنية الصلاح اللاحق. الأدهى أن الغيرة تقزّم الذكاء وتفقد الفرد القدرة على التفكير المنطقي السليم (حيث فشلوا في إتقان خطتهم الكيدية).

فلسفياً وأخلاقياً، تكشف القصة أن الخلل ليس بالضرورة في الطرف المُتَّهَم (يعقوب النبي الحكيم)، بل في الاستجابة النفسية السلبية للطرف الغيور. الغيرة هنا ليست مجرد شعور، بل هي إرادة إقصاء وحب تملك مُشوّه، قادت الإخوة لارتكاب اعتداء رمزي خطير بالحكم على أبيهم ب "الضلال المبين " لتسويغ فعلهم. هذا الحكم كان قفزة سيكولوجية تجاوزت المكانة الرمزية، وشرّعت ضلالاً أكبر.

بيداغوجياً (تربوياً)، التأمل يقدم درساً قوياً بأن الغيرة المرضية تؤدي دائماً إلى عكس مراد صاحبها؛ فبدلاً من الاستئثار بحب الأب، زاد اختفاء يوسف من تعلّق يعقوب به ومن مرارته. لذا، فالقصة هي توجيه تربوي بضرورة مراعاة نفسيات الأبناء والتحسس الشديد لخطورة أي تعامل غير عادل (أو يُظن أنه غير عادل)، لأن هذا يهدد التماسك الأسري ويفتح الباب للتفكك الاجتماعي.

التأمل القرآني الثاني: لباس التقوى

(يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (26))

الآية 26 من سورة الأعراف

ماذا يعني لباس التقوى؟ لماذا سمي لباسا؟ وهل من لم يلبس لباس التقوى عار؟ وما أنواع اللباس أو أنواع العري؟

كلما كبر الإنسان بحث عن الهدوء والصمت لممارسة التأمل في ذاته، ومحيطه، والكون، والمتعالي، ويزداد شعوره بالمتعالي، وبالدين، وبالتقوى أكثر منه في مرحلة الشباب. تعني التقوى أن تكون منفتحًا على القناعات الدينية، ومفكرا فيها، ومعايشا لها، ومطبقا لما تستطيع منها، هذه السيرورة من الانفتاح، والتفكير، والمعايشة، والتمثل لها في الواقع سيرورة متواصلة في الزمن، وتعرف حركة مد وجزر، حركة تمدد وتقلص، لكنها في ازدياد مع تقدم العمر، تتميز هذه السيرورة بسلوكات عقلانية، وبسلوكات نحاول عقلنتها، وبسلوكات غير قابلة للعقلنة، بل هي محض إيمان وكفى. يتجلى في التقوى التسامي على كل ما في العالم بما فيها العقل في أبهى صوره. مع التقوى تتفقد الشيطان في كل شيء حتى في التقوى، تريد الوصول بمعتقدك وسلوكاتك إلى عمق الإخلاص حيث لا أثر للشيطان، تصبح واعيا بأن الشيطان يتدين من أجل إخراجك من عمق تساميك، وتدينك، يتشكل لك في هيئة أفكار، ووساوس، وأشخاص. يمكن للشيطان أن يصبح ورعا لإخراجك من ورعك، أو متقيا لإخراجك بتلبيسه من تقواك، فتبدأ مع مرور الزمن في تفكيك أشكال التلبيس، فلا ترتاح حتى تصل إلى قناعة مفادها أن ما قمت به، لم تقم به إلا تفعيلا لتقواك من أجل الوصول إلى أعلى مدارج الإخلاص لله عز وجل.

يعتبر لباس التقوى سترا روحيا وأخلاقيا (خير من اللباس المادي)؛ وهو سيرورة متواصلة من الانفتاح والتفكر في القناعات الدينية تقود إلى الإخلاص لله والتسامي عن الدنيا، بما فيها العقل. وبلغة الفلسفة تكون التقوى هي المخرج الوجودي من العري، حيث تتجسد كفعل "تسامٍ" يتجاوز الحتمية العقلية والمادية، مما يُرسّخ الإخلاص المطلق كغاية وجودية قصوى. أما سيكوبيداغوجيا فيمكن أن نقول أن "لباس التقوى" هو حالة نفسية من الوعي العميق تقي الذات من "العري الروحي"؛ وهي عملية نمو مستمرة تُفعّل يقظة الفرد ضد التلبيس الشيطاني (الذي يتقمص هيئة التدين)، لضبط بوصلة السلوك نحو أعلى مدارج الإخلاص.

تصبح غير مكترث كثيرا بشكل العبادات بل بعمقها، تبحث عن فعاليتها فيك، في عمقك، في سلوكك، في خارج ذاتك، في جمال هيأتك. إن التقوى في مرحلة بلوغ الأشد أو الحكمة تأخذ الشكل الذي اطمأن إليه المؤمن، تصبح عند المتقين في سن ما بعد الشباب غارقة في حب الله، وإرادة لقائه، لا ينتبه المتقي إلى الموت، ولا يهابه، بل يريده وفق مراد الله. تصبح قضايا الغاية من الوجود منتهية الصلاحية عند المتقين، فتتجلى تقواهم في الزهد في كثير من مغريات الدنيا مع التلبس بنسبة عالية من التسامح مع الآخرين، وفي اتجاه آخر تجد المتقين مستعدين لبذل مزيد من التضحية لإسعاد غيرهم، وخدمتهم صغارا وكبارا. إنها تصبح نوعا من الإخلاص لحقيقة الخلق المرتبط بالاستخلاف كما يؤمن به المتقي. لا يمكن أن تكون تقيا متدينا في هذه المرحلة بدون أن تكون مؤمنا متقيا، فالإيمان ينصهر مع الذات، والدين جوهره.

فلسفيا، يمكن أن نقول: أن التقوى بمقتضياتها المختلفة في مرحلة الحكمة تعانق تحوّلا وجوديا للمؤمن من السؤال عن الغاية من الوجود إلى حالة "يقين معرفي" لا يكترث فيه للموت؛ حيث تتجسد كفعل "تسامٍ" يتجاوز في عمقه ومقتضياته الجدلية المادية والعقلية ذات المنزع التفسيري، ويُرسّخ "الزهد العميق" كمنهج لإثبات الإخلاص المطلق والوفاء الكثيف لعقد الاستخلاف الرباني المبني على عمارة الأرض الذلول إيمانيا.

وسيكولوجيا، تُمثّل هذه المرحلة اندماجاً كاملاً لجوهر الدين في الذات، حيث تتحول العبادات إلى طاقة نفسية فعّالة تُخرج المؤمن من "مرض الأشكال والمظاهر" إلى حقيقة الجوهر النفسي العميق؛ وتتجلى هذه الطاقة في السلوكيات الإيجابية (التسامح والتضحية)، مؤكدةً أن اكتمال الإيمان يُعبّر عن نفسه بجمال الهيئة وتكريس الذات لخدمة الآخرين (الإيثار) بدلاً من تملُّك الدنيا والعبث فيها.

لا يجب أن ننسى أن غير المتدين، أو المؤمن بدين آخر، أو الملحد قد يعتبر نفسه متقيا، فالإلحاد تقوى متطرفة في اتجاه تقوى مضادة. يطور كل مؤمن بشيء ما، ولو كانت شخصيته، نوعا خاصا من التقوى، تقوى خاصة تقيه من تقوى المؤمنين، تحميه من الدين، تقيه من التوحيد، فالتدين وعبادة الله كما هو في الأديان ضلال، أو أساطير، أو ...، يعمل متقي التقوى على تجنبها، يعني ذلك أن هناك من يعتقد بإمكانية أن يكون متقيا بدون أن يكون مؤمنا بأي دين، لقد تحدث Hubertus Halbfas عن استخدام كلمة «التقوى» حتى للعلمانيين، وقال بأن العلماني يمكن أن يعيش روحيا متقيا، وسبق لمثل هذا الطرح أن قال به نكلاس لوكمان لكن من زاوية نقدية بالأساس. ومن طبيعة الحال فإن الغاية هي إنهاء الدين، لكن الذي وقع هو تدين العلمانية.

التقوى تمثّل الغاية العليا لنمو الشخصية الإيمانية؛ عبر الانتقال بالوعي من "شكل العبادة" إلى "عمق فعاليتها"، مما يُنشئ فرداً متوازناً اجتماعياً (بالتسامح وخدمة الآخرين) ووجودياً (بالاطمئنان)، ومُكرِّساً ذاته لخدمة الخلق كدليل عملي على الاستخلاف.

إن التقوى لباس روحي، نفسي، سلوكي، اعتقادي، لباس لامس المعتقد، وتجلى في السلوك، فلا تقوى بدون سلوكات تقية، وكلام تقي، وعلاقات تقية، واعتقاد عميق موصل إلى تقوى الذات جوانيا

وخارجيا. ومن لم يتلبس بتقوى موصلة إلى الجميل من الأقوال والأفعال، عاش عاري الأفكار والسلوكات والجسد. يشير اللباس إلى الغطاء الظاهر للعيان، أي إلى الثوب، وكل متعر جسديا في تقواه كلام، واللباس السلوكي هو الأخلاق، والمعايير، والقيم، واللباس العقلي هو العلم، والمعرفة، ومناهجها، ويكون الإنسان عاريا إذا تجرد من هذه الألبسة أو بعضها، فهناك عري العقل، وعري السلوك، وعري الجسد. وما أصعب أن يجتمع في الإنسان كل أنواع العري، حيث لا تقوى جملة وتفصيلا، وهذا جوهر الآية منطلق التأمل.

إن مفهوم التقوى ليس مجرد مفهوم واحد، بل هو منظومة من "الألبسة" التي يجب أن تكسو الإنسان. وعليه نعتقد أن **لباس التقوى** هو منظومة نسقية وجودية سياقية متكاملة تتجسد في الإخلاص الاعتقادي للباري بنفس إيجابي تجاه الكون وعيال الله، متجاوزة العري في أشكاله المعرفية والسلوكية والمادية التي اختزلت الإنسان في طبيعته المادية التي هي جزء منه وليست هي هو؛ وعبارتنا هذه تنشد النظرة المتكاملة المركبة للإنسان وتتجاوز النظرة التفقيرية الغربية له. إنه بالنسبة لنا كائن متعالي بالمعنى العميق لهذه الدلالة الانثربولوجية، موصول بالروح، ومفتوح على اللانهاية. إنه في كينونته وأفعاله بمثابة "الحقيقة العارية" للإنسان المُلزَم بتحويل الإيمان الجواني إلى قيم وسلوكيات تحكم حقيقة الخلق والاستخلاف في بعدها التركيبي التكاملي.

وسيكولوجيا، **التقوى تمثّل الوعي الذاتي الأعلى، تمثل عمق الضمير ومضمونه وبنيته المعيارية والمعرفية، حيث تعمل كآلية وقائية عليا سامية تكسو النفس وتحميها من عري الأفكار والسلوكات السلبية المدمرة والمختزلة للتركيب السيكولوجي للنفس الإنسانية؛ إنها تُنشئ سلوكاً إيثارياً وتوازنا جوانيا، وتتطلب يقظة معرفية دائمة ضد تلبيس الأنساق المضادة والمدمرة، لتتحول العبادات إلى طاقة سلوكية ضابطة لجمال الهيئة والأفعال .**

وقد أدعي أن التقوى تجسّد الهدف الأسمى للتربية، حيث تتطلب نمواً متواصلاً ينقل الفرد من التركيز على "شكل العبادة" إلى "عمق فعاليتها السلوكية"؛ وتُنشئ هذه التربية فرداً متوازناً اجتماعياً (بالتسامح وخدمة الآخر)، ومُتجاوزاً لأزمة الأسئلة الوجودية عند بلوغ سن الحكمة. بل إنها تشكل خزانا بيداغوجيا لبناء السلوكات البيداغوجية في مختلف المؤسسات الاجتماعية.

أكيد أن تقوى المتقي نافعة له، وإلا ما استمر فيها ودافع عنها، إنها تجربته الذاتية مع المتعالي، تجربة لا يحتاج معها لأدلة عقلية، أو تجريبية لأنها متعالية، هو وحده ومن على شاكلته من لمس عمقها فيه، إن نفسيا، أو وجوديا، أو سلوكيا. إن التقوى بما أنها مسلك عميق في التلبس بالدين تتلون بألوان المتقين، فترى متقين يتفانون في تعليم الناس، وآخرون في التصدق على الفقراء، وآخرون في خدمة المحتاجين، وغيرهم في رعاية الأيتام، وآخرون في تطوير ما يسعد الناس. فالتقوى مصدر إلهام لما تتميز به شخصية المتقي، فيتزود من التقوى للاجتهاد فيما يتقنه ويحبه. ألا يمكن أن نطرح سؤالا مفاده: أليست التقوى أعلى درجة من التدين؟

إننا عندما نسعى إلى الصعود عاليا في مدارج التقوى نسعى حتما لإرضاء من نعتقد في ربوبيته وألوهيته، وبالتالي إرضاء أنفسنا، فالتقوى تجعل رضانا تابعا لرضى معبودنا، تأخذ الحاجات الروحية مع المتقين شكل مثلث تتشكل رؤوسه الثلاث من الله، والعبد، والعمل، إذ يتفانى العبد بالعمل لإرضاء الله، وبالتالي إرضاء نفسه، فيمر إشباع حاجات الروح عبر التفاني في العمل المتعدي النافع المقرب إلى الله. أكيد أن الغاية فردية، وفيها أنانية، لكنها مرت قبل وصولها إليك من مصفاة الرحمن. أي أن إشباعك لأنانيتك لا يتحقق إلا بعد أن يكون قد تخلص من شوائب الأنانية الدنيوية بمروره بمرحلة العمل الموجه للغير من جهة، ومرحلة التوجه به إلى الله من جهة ثانية، لتصلك بعد ذلك نتائجه في شكل إشباع نفسي، وراحة روحية معجلة هنا، وأخرى مؤجلة هناك، لذلك لا ينظر المتقي لشعائره وأعماله على أنها إلزامية وقهرية بل ينظر إليها نظرة علوية رفعت عنها نفسيا صفة القهر والإلزام، ومنحتها صفة الطريق الموصل إلى الهدف المنشود، فكل الشعائر لها حلاوة رحلة سفر من الذات إلى رب الذات.

وعليه، فإن مفهوم التقوى كما أعتقد لا ينزع عن الإنسان عقله ولا قوته، بل يرشده إلى استثمارهما في كل أشكال الخير والجمال، ويقيهما التوظيف السلبي في كل أفعال الشر والقبح، لذلك كانت للتقوى في الأديان وصل بالعلاقة بالله، والناس، والحيوانات، والطبيعة، أما الشعائر الدينية فليست إلا وسيلة للرفع من منسوب التقوى. ولا تستغربوا إن وجدتم من يتق الخير بالشر، ويتق الجميل بالقبيح، ويتق العلم بالجهل، ويتق العدل بالظلم. فتقواه مقلوبة، وفهمه معكوس، وسلوكه مدمر، لكنها عنده تقوى، أو ربما سماها أسماء جديدة رنانة تجد قبولا ورواجا في سوق البلاغة والأفكار. التقوى الحقيقية إذن هي توجيه للطاقة العقلية والجسدية والنفسية والسلوكية نحو الخير الشامل، والتقوى المقلوبة هي الخطر الوجودي الذي يحول الشر إلى فضيلة باسم التدين أو الفكر، فكم من مقلوب يعتقد أنه سوي.

فلسفياً ومعرفياً، التقوى هي الغاية الوجودية القصوى التي تتجسد كفعل "تسامٍ "يتجاوز الحتمية المادية والعقلية في أبهى صورها، وصولاً إلى اليقين المعرفي وحالة من الإخلاص المطلق لله. هذا اللباس يمثل منظومة من الألبسة (العلم والمعرفة، الأخلاق والقيم، السلوك المادي)، ومن يتجرد منها يعيش عري الأفكار والسلوكيات والجسد .التقوى الحقيقية هي توجيه للطاقة العقلية والنفسية نحو الخير الشامل، على عكس "التقوى المقلوبة" (أو تقوى الأنساق المضادة) التي تحول الشر إلى فضيلة.

سيكولوجياً، تُعد التقوى الوعي الذاتي الأعلى وآلية وقائية عليا تكسو النفس وتحميها من عري الأفكار والسلوكيات السلبية المدمرة. هي عملية نمو مستمرة تُفعِّل اليقظة ضد التلبيس الشيطاني (الذي قد يتقمص هيئة التدين)، لضبط بوصلة السلوك نحو الإخلاص. في مرحلة الحكمة، تتحول العبادات إلى طاقة نفسية فعّالة تخرج المؤمن من "مرض الأشكال والمظاهر" إلى جمال الجوهر، ويصبح إشباع الأنانية والراحة الروحية الفردية يمر عبر التفاني في العمل المتعدي النافع للغير (الإيثار)، مما يجعل الشعائر حلاوة رحلة من الذات إلى رب الذات.

بيداغوجياً (تربوياً)، تجسّد التقوى الهدف الأسمى للتربية؛ إذ تتطلب نمواً متواصلاً ينقل الفرد من التركيز على "شكل العبادة "إلى "عمق فعاليتها السلوكية ."هذه التربية تُنشئ فرداً متوازناً اجتماعياً

(بالتسامح وخدمة الآخرين) ووجودياً (بالاطمئنان)، وتجعله مُكرِّساً ذاته لخدمة الخلق كدليل عملي على الوفاء بعقد الاستخلاف الرباني، مما يجعل التقوى خزاناً بيداغوجياً لبناء السلوكيات الإيجابية في مختلف المؤسسات الاجتماعية.

التأمل القرآني الثالث: سيكولوجيا التحصين الجوّاني وبيداغوجيا الانفصال من أجل الاتصال

(وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا (16))

الآية 16 من سورة الكهف

(وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا (48)

الآية 48 من سورة مريم

(فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا (49)

الآية 49 من سورة مريم

بالرغم من أن العزلة التي تحدث عنها فرويد باعتبارها آلية من آليات دفاع الأنا، والتي يمكن أن تكون علامة على اضطرابات نفسية عميقة، عصابية وغيرها، فإن الحديث عنها وتناولها كان قبل فرويد، وسأتناول دلالاتها من خلال تأمل قرآني لآيات أثارت انتباهي أثناء قراءتها والاستماع إليها. وعليه أقول ما يلي:

جاءت آيات كثيرة وأحاديث متنوعة تتحدث عن الاعتزال أو الخلوة وآثارها الإيجابية، وعلى العموم، فإن أي اعتزال لا يكون من فراغ وبدون سبب، فكل معتزل اجتماعيا لديه أسبابه الوجيهة، وهي غالبا المحيط المثبط المؤدي إلى الوجود المتأزم، محيط مؤذ بشكل عميق وكثيف، لكنني أميز في هذا الصدد بين عزلة واعية، وعزلة غير واعية، فالأولى غايتها التخلص من تأثير الأوضاع والمخلوقات السامة مرحليا، والاستعداد للمواجهة المستقبلية بآليات عملية، ونفسية أقوى وأعلم، وأكثر مرونة. أما النوع الثاني من العزلة فهي العزلة الانسحابية غير الواعية التي لا هدف لها غير العزلة، والانزواء في هوامش المجتمع.

وعليه، فكل انعزال واع غالبا ما تكون آثاره مرضية، والعكس صحيح. والآيات القرآنية أعلاه تفيد أن العزلة كانت آلية نفسية اجتماعية اجتهادية زكاها الله، واعتبرها قرارا له نتائج جد إيجابية على أنبيائه، وغيرهم من الصالحين، والمؤمنين، أو أي إنسان يتغيا التركيز والتفكير خارج الصناديق. إنها ليست حالة معبرة عن قلق، أو رهاب اجتماعي، بل فرصة للإبداع، واعتزال الرداءة، لأنها تلهي وتضعف حس التأمل في أي مجال كان كالدين، والسياسة، والمجتمع، والفن، والتأليف... إنها مساحة حرة خالية من الطفيليات المعيقة لتعميق النظر والفهم، إنها فرصة لاكتشاف الموارد الذاتية، وتفعيلها، واستثمارها لأنها لحظات تجميع التركيز، وتفجير ينابيع التفكر والنظر، وانفجار عيون صافية تتفتق منها لطائف فكرية، وإيمانية، وسلوكية عالية التشكل والتشبيك، لحظات نقف فيها مع نقط قوتنا وضعفنا، ونعمق القوة، ونضعف الضعف. إن سلوك الانعزال الواعي يحيل على

خاصية إنسانية بامتياز، وهي أن هذا المخلوق لا يمكن أن يكون كله قطيعا أبدا، بل فيه ميالون إلى الاستثناء والتميز، والعزلة الواعية هي إحدى طرق التميز، بمعنى أن اعتبار الإنسان كائنا اجتماعيا ليس على إطلاقه، والعكس صحيح. تشكل الجماعة بالنسبة إلينا عنوان متعة وألم، لأننا لا يمكن أن نعيش كلنا بدون اختلاف، وتنازع يؤديان إلى خلافات تحدث اضطرابات لدينا، إذ لا يمكن أن نعيش بدون صدامات أبدا، فدينامية المجتمعات تؤدي لا محالة إلى تصادمات. العزلة هنا هي ما نعتقد أنه نوع من التسامي الوجودي الذي يمارسه العقل الواعي والنفس المتزنة للإفلات من حتمية الوجود الحالي في بعده السلبي والضغوط السيكولوجية للأنانية والقهر، ليتحقق بيداغوجياً كمسار تربوي يوجه القوة والطاقة نحو الإبداع، التميز، والعمل المتعدي النافع.

إن الوحدة التي استثمرها أنبياء الله ليست انعزالا سلبيا، لأنهم هربوا من خلالها من مكان ما خوفا، أو انسحابا، وليس هروبا من الزمن الحاضر إلى المستقبل، بل إنها لحظات تنظيم للنفس جوانيا، لحظات شفط للسلبية والمعاناة، **إنها ابتعاد بناء**. وفي اعتزال الرسول صلى الله عليه وسلم تجربة وجودية خاصة، فيها كثير من التأمل والتحنث، والعزلة بهذا المعنى هي مدرسة بناء النبوة على عين الله. إن الانفصال عن المجتمع من خلال الاختلاء بالنفس، والابتعاد عن المؤثرات السلبية جزء من كينونتنا لأننا مخلوقات مزدوجة الماهية، تتصل وتنفصل، تتصل مع مجتمعها، وتحب في نفس الوقت أن تستقل عنه، وفي لحظات أن تنفصل عنه.

إن الانعزال والتواصل تأكيد **للماهية الوجودية للإنسان "يتصل وينفصل" في آن واحد. إنها عملية إثبات للإرادة الحرة والاستقلال عن حتمية ما يسمى "القطيع" والذي نعتبره حالة نفسية ووجودية يمكن نعتها بحالة الإمعة أو الإذعان، إن العزلة تُشكل "تجربة وجودية خاصة" تهدف إلى "بناء النبوة" أو تحقيق الذات العليا المتسامية عن الإمعية، بعيداً عن الهروب السلبي من الواقع. وسيكولوجيا هي آلية "تحصين نفسي" و"تنظيم جوّاني" وليست انعزالاً مرضياً، حيث تُمارَس كـ "شفط واعٍ للسلبية والمعاناة" الناتجة عن المحيط المؤذي. إنها توفر فرصة ضرورية لإعادة هيكلة النفس وتقويتها، مما يضمن أن يكون الانفصال عن المؤثرات السلبية جزءاً صحياً ومُتوازناً من الكينونة الإنسانية. أما في البعد البيداغوجي (التربية على التحنُّث) فالخلوة "مدرسة" تدريبية تُعلِّم الفرد كيفية "التحنُّث والتأمل" وتنظيم ذاته. وهي تُرسّخ قيمة "الابتعاد البناء" كأداة تطويرية، استعداداً للمواجهة الإيجابية والعودة إلى المجتمع بآليات نفسية وعملية أكثر مرونة ووعياً وقوة وتحملا.**

عطفا على كل ما سبق من تأملات في آيات القرآن الكريم ستلاحظون **<u>أن الاعتزال ارتبط فيها بآليات التغيير</u>**، إذ حدثت أمور عميقة في حياة المنعزل، قال تعالى: **"فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا"**. سورة مريم: 49. وكأن العالم العلوي وهنا هو الله عز وجل يتفاعل إيجابيا مع كل انعزال بغاية سامية وعميقة، فقد رافق الاعتزال هنا عطاء عظيم لامس النفس، والمحيط، والسيرة، والتاريخ مدى الحياة، وبعد الممات. إنه انعزال بطعم التغيير الدائم ناتج عن ثورة

هادئة عن المراجع الاجتماعية الخاطئة، والمسيطرة على المحيط، أضحت هذه المراجع عبئا على العقل، والتفكر، والتحليل، لا تمده إلا بما يعيقه، بل ويؤكد له أن الانفصال عنها أوجب الواجبات للخروج من حبالها، لم يعد المحيط يمارس دوره الحقيقي في مراقبة النمو الأخلاقي، والقيمي بل يدمرهما، ولا يفيد في مقاومة الظلم بل يزكيه، ولا ينفع في فهم الوجود، بل يدلس على العقل، فحق عقلا وشرعا الانفصال الجميل بالعزلة البانية المغيرة للأحوال. إنها عزلة بطعم الحرية، والسلام الداخلي، والتطعيم النفسي، والتفرغ للتأمل في الوجود للوصول إلى واجد الوجود، هكذا كانت العزلة مسلكا للتفرغ من أجل الوصول إلى أعلى مراتب الانفصال من أجل الاتصال الروحي بعالم ميتافزيقي يكون بعيدا المنال بطغيان العالم المادي. إن **العزلة الواعية هي فعل "ثورة هادئة" تتجاوز الحتمية الاجتماعية المُتمثلة في فساد "المرجعيات الخاطئة"، وهي تُشكِّلُ "انفصالاً وجودياً" ضرورياً للوصول إلى "الاتصال الروحي" بواجد الوجود، وتُثبِتُ أن الحرية هي في "الانعزال الجميل" الذي يُنتج تغييرات عميقة وفردية ذات نتائج تاريخية كبيرة وليس في معانقة <u>الإمعية</u> باعتبارها معطى وجودي جاهز. إنها تطعيم تلقيح وتطهير نفسي من أدران المحيط المُدَمِّر للأخلاق والقيم والموصل للاضطرابات النفسية الخفيفة والعميقة، وهي ضرورية لـ"التفرغ للتأمل" وتعميق الإدراك وتفكيك البنيات المعرفية وإعادة ترتيبها. هذا الانفصال الواعي عن العبء الاجتماعي يُحوِّلُ القلق إلى "سلام داخلي أو توازن سيكولوجي" ويزوِّد النفس بالطاقة اللازمة لإجراء ثورة معرفية وسلوكية تقود إلى الإبداع والتغيير الدائم في النفس والمحيط.**

وبناء عليه، يجب أن نعطي للخلوة باعتبارها آلية بيداغوجية الفرصة لتصبح موردا بل مدرسة مسلكها هو التفرغ لبناء القدرات القيادية والروحية (على غرار بناء النبوة)، حيث تُدرَّبُ الذات على "التأمل خارج الصندوق" وتقييم المحيط نقديًا. هذا المنهج التربوي يرسِّخ أن الانفصال المرحلي هو "أوجب الواجبات" للخروج من حبال الرداءة وبدء مشروع التغيير الفردي المتعدِّي نفعه للآخرين. الخلوة طريق تجاوز الإمعية.

إن الانعزال طريق سلكه المرضى عن غير وعي، لكنه طريق العظماء بوعي تام، ومنظم، ومقصود، وإيجابي، لأنه فعل تربوي بالأساس. يصبح الانعزال اجتماعا من نوع خاص، اجتماع النفس بنفسها، وبالعالم العلوي، فعندما ننفصل عن الشركاء، نفصلهم عن تفكيرنا، وبذلك نرجع إلى التوحد مع أنفسنا، وكأن أنفسنا عندما تكون غارقة في الجماعة تكون مسكونة بالشركاء الذين نستحضرهم عند كل فكرة، أو سلوك، فلا نقرر إلا باستحضارهم، وكأن أفكارنا وأفعالنا ليست إلا إرضاء لغيرنا، لا لأنفسنا، وبالاعتزال نتخلص من الشركاء، فلا نفكر إلا بنا ولنا، ولا نعمل إلا بنا ولنا، وغايتنا تجاوز ذواتنا إلى ما فوق ذواتنا.

فلسفياً ووجودياً، الاعتزال الواعي هو فعل "ثورة هادئة "ضد حتمية الوجود الاجتماعي السلبي وهيمنة "القطيع" (الإمعية). إنه يمثل تساماً وجودياً ضروري لتفكيك المرجعيات الاجتماعية الخاطئة التي أصبحت عبئاً على العقل والتفكر. هذا "الانفصال الوجودي" عن الشركاء والمؤثرات يهدف إلى تحقيق

"الاتصال الروحي" بواجد الوجود، وتُثبت آيات القرآن (كقصة إبراهيم) أن هذا الاعتزال الإيجابي يُنتج عطاءً وتغييراً تاريخياً (وهبنا له إسحاق ويعقوب).

سيكولوجياً، الاعتزال هو آلية "تحصين نفسي "وتنظيم جوّاني بامتياز، وليس هروباً سلبياً. يُمارس كـ "شفط واعٍ للسلبية والمعاناة "الناتجة عن المحيط المؤذي. هذه الخلوة هي فرصة لإعادة هيكلة النفس وتجميع التركيز وتفجير ينابيع الإبداع، حيث يتحول القلق والاضطراب الاجتماعي إلى "سلام داخلي وتوازن سيكولوجي"، ويُصبح الانفصال عن المجتمع جزءاً صحياً ومتوازناً من الماهية الإنسانية التي "تتصل وتنفصل" في آن واحد.

بيداغوجياً (تربوياً)، الخلوة هي "مدرسة تدريبية "لبناء القدرات القيادية والروحية (على غرار بناء النبوة والتحنُّث). تُعلِّم هذه المدرسة الفرد كيفية "التأمل خارج الصندوق"، وتقييم المحيط نقديًا، وتُرسِّخ أن "الابتعاد البناء "مرحليًا هو "أوجب الواجبات "للخروج من الرداءة وبدء مشروع التغيير الفردي. وهي عملية تُحوّل الطاقة الجوانية وتُجهّز الذات للعودة إلى المجتمع بآليات نفسية وعملية أقوى وأكثر مرونة لتحقيق العمل المتعدي النافع.

التأمل القرآني الرابع: الأمومة حالة نفسية. سيكولوجيا الفؤاد الأجوف و أنطولوجيا الترميم بالوحي

(وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (10))

سورة القصص الآية (10)

تعتبر الأم هي علاقتنا الأولى في الحياة، علاقة بدأت في الرحم، وليس في المجتمع، علاقة لم تشوش عليها عادات المجتمع، وقواعده في بدايتها، لأنها علاقة منسوجة بيولوجيا، وسيكولوجيا، وعصبيا. أما الحب الأمومي فهو حب عذري عميق له وصل بماهية هذه العلاقة، إنه حب طفولي في براءته، عميق في مستوياته، يعبر عن رابطة وجدانية ذات أسس بيولوجية، ونفسية، واجتماعية، حب يغرق فيه قلب الأم، ويفرغ مما سواه من أمور الدنيا في حالة التهديد بفقدان الوليد، قال تعالى: **"وأصبح فؤاد أم موسى فارغا"**. إنه تعبير غاية في الدقة، والعمق، والبلاغة أو الرشاقة اللغوية والنفسية، ماذا يعني أن يكون فؤاد أم موسى فارغا؟ هل الأمر يتعلق بفراغ داخلي من كل المشاعر إلا مشاعر الحب والتعلق بابن مهدد بالقتل؟ كيف هو هذا الفراغ الداخلي؟

إنه بالتأكيد فراغ من كل شيء جميل، صمت داخلي مسكون برعشة الإرهاب الفرعوني للمواليد وأمهاتهم، إنه القلق، والشك في النفس، والاضطراب العميق الموصل إلى فقدان التوازن، اضطراب ممزوج بشوق للابن المبعد، إنه فراغ شبيه بثقب كبير في فؤاد أم موسى لن يداويه إلا التدخل الرباني، قال تعالى: "إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها"، إنها حفرة نفسية وجدانية عميقة سدها الربط الرباني. وكأن الربط فعل رباني رفع الأمومة فوق حتمية الغريزة وسلطة العاطفة المهدِّمة في لحظة الأزمة المطلقة وجعلها فوق ما تعجز عنه باقي الأمهات في كل الأزمنة والأمكنة. إنه الاختراق الرباني للغرائز والبيولوجيا بالشكل الذي جعل أم موسى مؤمنة الإيمان المطلق بأن ابنها تحت عين الله. إنه ليس مجرد تصديق نظري، بل هو القدرة على الثبات في وجه التهديد الوجودي الأقصى.

هكذا يصبح الربط هو الشرط الوجودي الذي مكن أم موسى من أداء دورها التاريخي (رسالة موسى) حتى لو تعارضت مقتضيات الدور مع بقاء الذات الفردية. بل إن الربط سيكولوجيا يحيل كذلك على إعادة بناء للبنيات النفسية وتشكيلها وفق ما يستدعيه دور النبوة من تحديات على مختلف المستويات المعرفية والوجدانية والاجتماعية والسلوكية. وعليه يغدو الربط هنا آلية ربانية منعت من التداعي النفسي المؤدي إلى الانهيار أمام التحدي و إفشاء سر النبي موسى عليه السلام. مع الربط يختفي الهلع والاندفاع والشك والقلق والإحباط...الربط معناه إيقاف السيرورة النفسية الوجدانية الاندفاعية وتحويل المشاعر السلبية بل قلب المشاعر السلبية إلى مشاعر قوة وتحمل وإصراروكأن الربط أعلى درجات التكيف الواعي مع وضع مخيف ومدمر.

يعتبر القلب عضوا من أعضاء الجسم، لكنه ليس موطن الطعام، بل مجال التفكر، والتدبر والعاطفة، وفراغه يعني فراغه من وظائفه المهمة، لا يمكننا أن نتخيل الفراغ الوجداني الداخلي إلا إذا تخيلنا القلب إناء أفرغناه من محتواه، وأصبح ممتلئا بالهواء، انفطر قلب أم موسى، وأصبح حفرة عاطفية عميقة مملوءة بالهواء، لم تعد تدرك ما عليها فعله، ولا كيف تتصرف، الفؤاد أصبح كياناً أجوفاً عاجزاً عن احتواء الصبر أو اليقين، فعمق الهوة أدى إلى العجز النفسي والسلوكي التام مما استدعى تدخل الرحمن الرحيم. **ونتعلم بيداغوجيا من هذه الوضعية أن هناك حدوداً لقوة التحمل الإنساني. وأن العجز التام في مواجهة الأزمة هو نقطة البداية لتعلم التوكل المطلق على المعين المطلق، وكأن الأزمات فتوحات و اقعية تسمو بالإيمان سموا لا سمو بعده.**

إن سبب الفراغ الداخلي لقلب أم موسى مفاجأة مؤلمة مفادها فقدان الابن، تجربة مؤلمة ومبكرة وفي فترة الرضاعة، يزيد من عمق ألمها، وكثافة مشاعر الغم فيها أن الفقدان سيكون بقتل طفل بريء لا حول له ولا قوة، فقد قيمت أم موسى الوضع عقليا، ووجدت التحدي الفرعوني أكبر منها، وقيمت الوضع داخليا سيكولوجيا، فأدركت أن ألم الفراق أعلى وأقوى من سلطة فرعون، لذلك قال رب العزة: " **إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها**"، ألم استدعى وحيا إلهيا بإلهامات ربانية للخروج من حالة الاعتقاد النفسي بهلاك موسى الطفل الرضيع، قال تعالى: "**فإذا خفت عليه فألقيه في اليم**"، على الأم أن تصدق ما خطر على قلبها، وتقوم بالموازنة بين وضعين خطيرين: إبقاء موسى عندها مع يقين قتله، أو إلقائه في اليم مع احتمال نجاته. أكيد أن الحل الثاني احتمالي عند أم موسى، لكنه يقيني عند رب موسى، لكن نواميس الكون وقوانينه تجري وفق ما تقتضيه وضعية فرعون وزوجته، ليحكم الله في الأخير بقوله: "**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا**"، ويحقق رجاء أم موسى قال تعالى: "**إنا رادوه إليك**".

إن "الربط" الإلهي يُمثّل تدخلاً رحيما يُعلِي اليقين الإلهي في النفس على حساب الاحتمالية البشرية التي لا تنتهي ولا يقين معها، مُنشئاً تسامياً وجودياً في لحظة الأزمة المطلقة .سيكولوجياً، يُعتبر هذا الربط آلية إنقاذ وتطهير تُعالج الانهيار الوجداني المُتمثّل في "فراغ الفؤاد "(الانفصال الداخلي عن كل شاغل)، مما يُحوّلُ العجز إلى سكينة فعالة وقوة اتخاذ قرار .وبيداغوجياً، يمكن اعتبار أن الإيمان الحقيقي لا يُختبر إلا في قدرة الفرد على ترجمة الوعد الإلهي إلى سلوك قيادي تقود به نفسك في أزمتك مؤمن بأن مع العسر يسرا، مما يُعلِّمُ المؤمنين منهج الثبات والتسليم عند مواجهة ما يتجاوز قدرتهم البشرية.

هكذا تخلصت أم موسى من فراغ فؤادها، وانقطاعها عن نفسها إذ أضحت أم موسى في لحظات الأزمة لا تشعر بنفسها، لأن قلبها أضحى فراغا في فراغ لولا لطف الله، لأن الفراغ الداخلي موقف ساحق، ومرهق، عاطفيا، وسلوكيا. ومن لطائف تدخل الله في هذا الموقف النفسي أن ألهمها ثلاثة أمور باعتبارها أما: لا تخافي، ولا تحزني، وألقيه في اليم. بدأ بما هو نفسي حتى تطور عند أم موسى توازنا سيكولوجيا، وانتقل إلى ما هو عملي، ألقيه في اليم، وبعدها انتظري بقية حلقات تدخل الله عز وجل. وعليه، إذا اعترضنا أي مشكل في حياتنا كائنا ما كان، وجب علينا أولا أن نسعى للهدوء سيكولوجيا، وإبعاد أحاسيس

الخوف، والحزن للوصول إلى قرارات متزنة، ثم ننتقل بعدها إلى تطبيق ما قررناه، ونحن في كامل توازننا، وأخيرا ننتظر النتائج. وبناء عليه، إذا نجحت هذه الخطة للتصدي لمصيبة القتل مع فرعون، وجنوده، وهامان، فاعلم أنها ناجحة مع ما دونها من المشاكل التي ستكون قابلة للحل بنفس المنهج النفسي الرباني. اهدؤوا، ولا تخافوا، ولا تحزنوا، ثم قرروا، وطبقوا، وستنجحون بإذن الله تعالى.

وعليه، يمكن أن أقول بناء على مجريات القصة الربانية أن الهدوء شرط النجاح، فهذه الآيات تقدِّم نموذجاً بيداغوجياً يقوم على الأولوية السيكولوجية والتي مقتضاها أن التغلب على أي مشكلة، كائنة ما كانت، يبدأ بالسيطرة على "الفراغ الداخلي" من خلال "الهدوء السيكولوجي" ونبذ الخوف والحزن. هذا الهدوء هو الشرط الضروري للوصول إلى "قرارات متزنة" والبدء بالفعل العملي (التطبيق)، لتكتمل الخطة بعدها بالتوكل على الله في استقبال النتائج، هذا هو المنهج الإيماني الرباني الناجح مع كل ما يواجه الإنسان.

تُعد الآية (القصص: 10) نموذجاً لتحليل الأمومة كحالة نفسية تتعرض لتهديد وجودي، وكيف يتدخل الوحي لرفع الغريزة إلى مستوى الرسالة.

سيكولوجياً، يُمثّل "فراغ الفؤاد "حالة من الانهيار الوجداني المطلق، حيث يصبح القلب "كياناً أجوفاً" فارغاً من كل شاغل ومشاعر إلا مشاعر الحب والتعلق بالابن، مما يؤدي إلى العجز النفسي والسلوكي التام (كادت لتبدي به). هنا يتدخل "الربط الإلهي" كآلية إنقاذ وتطهير؛ حيث يوقف السيرورة النفسية الاندفاعية ويُعيد بناء البنيات النفسية، قلبًا للمشاعر السلبية إلى قوة تحمل وسكينة فعالة، مما يمثل أعلى درجات التكيف الواعي مع الوضع المخيف.

فلسفياً ومعرفياً، يُعتبر "الربط" الشرط الوجودي الذي يُعلي اليقين الإلهي على حساب الاحتمالية البشرية والقيود البيولوجية والعاطفية المهدّمة في لحظة الأزمة القصوى. إنه الاختراق الرباني الذي مكّن أم موسى من أداء دورها التاريخي كجزء من رسالة موسى، حتى لو تعارض ذلك مع غريزة بقاء الذات الفردية. هذه التجربة تؤكد أن الإيمان ليس تصديقاً نظرياً، بل هو القدرة على الثبات في وجه التهديد الوجودي الأقصى.

بيداغوجياً (تربوياً)، تقدم الآيات نموذجاً بيداغوجياً يقوم على الأولوية السيكولوجية للنجاح. درس الأزمة هنا هو أن التغلب على أي مشكلة، كائنة ما كانت، يبدأ بالسيطرة على "الفراغ الداخلي "من خلال "الهدوء السيكولوجي "ونبذ الخوف والحزن (لا تخافي ولا تحزني). هذا الهدوء هو الشرط الضروري للوصول إلى قرارات متزنة (ألقيه في اليم)، ليتم بعدها تطبيق الفعل العملي والتوكل على الله في انتظار النتائج (إنا رادوه إليك)، مما يعلّم المؤمنين منهج الثبات والتسليم عند مواجهة ما يتجاوز قدرتهم البشرية.

التأمل القرآني الخامس: سيكودراما الزيغ: الضحك الإبليسي وبيداغوجيا العدالة المؤجلة

(إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ (29))

الآية 29 من سورة المطففين

(فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ (47))

الآية 47 من سورة الزخرف

(فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ (34))

الآية 34 من سورة المطففين

أعتقد أن طريقة ضحك الإنسان يمكن أن تكشف عن شخصيته، عن حقيقته، خصوصا إذا كانت طريقته في الضحك متواترة في مواقف معينة، لذلك يتحدث المغاربة عن الضحكة الجميلة، والصادقة، والصفراء، و...، ويتحدثون عن الابتسامة، والضحك بصوت جميل، والقهقهة، والتهراط... والتهراط نوع من الضحك القريب من صوت الحمير، إنها تجليات ما يعتمل في أنفسنا لحظة الضحك. وبناء على ذلك، فالضحك استجابة وجدانية تجاه موقف معين، أو أشخاص معينين، أو أقوال، وأفعال معينة، فلا وجود لضحك بدون سبب، فقد نعتقد أن فلانا ضحك بدون سبب، لكن السبب لا يعرفه إلا هو، أو أن ادعاءنا يخفي ضمنيا سبب ضحكه. إن طريقة ضحكنا هي تجل لمشاعرنا التي سمحنا لها بالظهور للآخر، والخروج إلى العلن .

تتحدث الآيات أعلاه عما يمكن أن نسميه الضحك الإبليسي بلغة دينية، والضحك الشرير بلغتنا العادية، يحيل هذا النوع من الضحك على إرادة الاستهزاء، وقصد الإذاية، فهو ليس ضحكا متلبسا بمشاعر ووجدانيات إيجابية، بل مليء بالمشاعر السلبية الكثيفة الأذى، والغارقة في الخبث والدالة على النوايا السيئة لأهل الباطل تجاه المؤمنين. أعتقد أن الضحك في هذه المواقف هو نوع من السخرية المتعمدة، يهدف من خلالها المستهزئ إلحاق الضرر النفسي بالمؤمنين، إذ أن هذا الضحك يحدث بالنسبة للشخص المتضرر شعورا مهينا، وعندما ينضاف إليه طريقته المقززة، فإنه يوحي بعدم الاحترام، وكذلك بالازدراء. بالتعمق شيئا ما في هذا السلوك، نلاحظ أنه تعبير عن عدم رضا الضاحك بتميز المؤمنين بطرح جديد، يخالف ما وجدوا عليه آباءهم وعشيرتهم، ضحك غرضه الخفي هو الدفاع عن تقاليد، وأفكار، ومعتقدات تجاوزها أهل الإيمان إلى معتقد أقوى وأصلب. يتوسل المستهزئون بالضحك لتصحيح الوضع اجتماعيا، وفكريا، وعقديا على منوالهم، إنها إرادة الإبقاء على التنميط أو النمطية السائدة. إن الضحك هنا تعبير عن نقص، وخوف يراد لهما أن يختفيا تحت قهقهات، وابتسامات ماكرة، وخادعة. حتى وإن كان أصل الضحك المتعة، فإنه عند هؤلاء ألم يختبئ وراء بياض الأسنان، وفتحة الفم، وتوسيع فتحة الشفتين، لكن غالبا لن تلاحظ فرحة على أعينهم، وعندما لا تبتسم الأعين، فالضحك ألم، أو خداع، أو

تأدب استثناء. والأصل أنه كان عليهم أن يحملوا دعاوى المؤمنين على محمل الجد، ويتعاملوا معها بالنظر والمنطق، والحوار، لكن حيث لا يوجد الحوار، لا يوجد إلا الحصار، ولو بالضحك الإبليسي. ويتكرر هذا الوضع في كل المجتمعات عندما يأتي مصلحوها بنية الإصلاح، ويجدون الفساد قد تمكن من الناس، فيأتي الضحك ليعبر عن الرفض لما يدعو إليه الآخرون.

ولا أبالغ إن ادعيت أن ضحك غير المؤمنين على المؤمنين قد يكون تعبيرا عن عدم اقتناعهم بشخصيتهم، ومكنونها العقدي، وطريقة لإخفاء عدم رضاهم عن أنفسهم بتوظيف فتحة الفم لتوفير فرصة للتنفيس عن ذواتهم، والشعور ولو جزئيا بتحسن نفسي عند رؤية المؤمنين يتألمون من السخرية الضاحكة. إنه نوع من الدفاع عن النفس بدون بذل جهد للإقناع، بل باللجوء إلى الإقماع الوجداني. ليس من السهل على المؤمنين في الجهة المقابلة أن يتعاملوا مع سخرية المستهزئين، وهم متضررون نفسيا من آثارها، لكنهم غالبا ما يتجاهلونها، ولا يلقون لها بالا، وهذا مسلك قوي في الرد، لأنه يقلل من الآثار الظاهرة لسلوك السخرية مما يصيب المستهزئين بالخيبة، إلا أنه لا يبعد عن المؤمنين آثارها السلبية بالإطلاق، وإن خفف منها نسبيا، لذلك ترى المؤمنين في بعض الحالات يردون بقوة في مستوى سخرية الساخرين قال تعالى: **"وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ"**، سورة هود: 38.

وعليه، فإن التزام الهدوء في التعامل مع سلوكيات الساخرين الضاحكين أمر نسبي، ويخضع لموازنات النازلة، والطريقة الأنسب للتعامل معها. لكن من لطائف القدر الإلهي أن هذا السلوك الدنيوي تجاه المخالف لا يعتبره الله سلوكا منتهيا في الدنيا، بل له امتدادات في الآخرة أهمها أن المؤمنين سيضحكون على المكذبين قال رب العزة: **"فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ"**، سورة المطففين: 34، أي أن ما سببوه من ألم نفسي للمؤمنين سيتذوقونه، لكن في أعلى مستوياته مجتمعا مع غيره من أشكال الجزاء الدنيوي. ولا يفوتني أن أذكر بأمر مهم أيضا، وهو أن الاستهزاء مرفوض حتى بين المؤمنين، قال تعالى: **"يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ "**. سورة الحجرات: 11.

الضحك الإبليسي هو تجلٍ سيكولوجي لما يعتمل في النفس من خبث ونقص وخوف؛ وهو آلية دفاع عدوانية ومنطقية قاصرة تُستخدم لفرض التنميط الاجتماعي ومحاربة الإصلاح عبر استبدال الحوار المنطقي بالاستهزاء المحاصِر والمُهين، حيث يُخفي الألم الداخلي وراء قناع الفرح الزائف. بل يخفي كذلك رفض أصحابه "للاستثناء وتميز المؤمنين بإيمانهم ويقينهم فيه"، وإرادة لفرض "التنميط الاجتماعي باتجاه اللادين أو الإلحاد أو أي شيء ينتصر له المستهزئ" عبر الاستهزاء. إنه هروب من المواجهة المنطقية والقضايا الجادة، حيث يستبدل المستهزئُ "النظر والحوار" بما يعتقد في كونه سلاحا وهو الحصار الوجداني، مما يكشف عن قصور في أدواته المعرفية وعدم قدرته على التسامي فوق التقليد المُتوارَث منذ أن بدأ المستهزئون في الظهور ولا يخفى ما يحمله الاستهزاء آلية سيكولوجية من عدوانية غايتها إيذاء نفس

المومن لكن النظر الدقيق والعميق في أعين المستهزئين يفضح متعتهم الظاهرية باعتبارها قناعا للألم الداخلي. وعلى المستوى البيداغوجي يحيل الاستهزاء على فشل ذريع للسيرورة البيداغوجية والأهداف التربوية التي خالفت في مخرجاتها خاصية الجدية والصلاح والنقد البناء. ولا أستبعد أن أدعي أن كل مستهزئ سطحي في عمقه وفكره وفعله.

فلسفيا، أعتبر الضحك الإبليسي محاولة يائسة لتغيير الواقع أو الحقيقة على منوال ما يريده الضاحكون، وأن الأمر يتعلق بتغيير مكان السلطة المعنوية من أصحابها الحقيقيين إلى أهل الضحك الإبليسي، لأن الضاحك هنا لا يكتفي بالاستهزاء بأهل الحق لوحدهم بل يتأسس ويستهدف رؤيتهم العقدية الكونية ورزمة قيمهم ومعاييرهم وقواعدهم، وغاية سعيهم هو إثبات جدارة الرؤية الكونية الإبليسية لا بمضمونها وقواعدها بل باستهداف منافستها لتجميد وعي معتنقيها عند وضع وحالة معينة، يكاد يكون سلوك الضحك إخفاقا عميقا وفشلا ذريعا للعقلانية لأنه هروب من الأدلة إلى الاستهزاء، وهو بذلك إعلان إفلاس واضح وعميق للحجج وتجل واضح لمأزق وجودي منمط خابت فيه الملكات وامتلأ بالألم الذي تجلى عمليا في ضحك إبليسي.

سيكولوجياً، الضحك الإبليسي هو تجلٍ سيكولوجي للخبث والنقص والخوف الداخليين؛ فهو ليس متعة حقيقية، بل ألم مختبئ وراء قناع الفرح الزائف، يهدف إلى إلحاق الضرر النفسي بالمؤمنين. يمثل هذا السلوك آلية دفاع عدوانية قاصرة تُستخدم لـ "الإقماع الوجداني "بدلاً من الإقناع المنطقي، حيث يجد المستهزئ متنفساً مؤقتاً وشعوراً زائفاً بالتحسن النفسي عند رؤية ألم المؤمن، مما يكشف عن عدم رضاه عن نفسه وعن موقفه العقدي المهزوز.

فلسفياً ومعرفياً، يُعد الضحك الإبليسي إعلاناً واضحاً وعميقاً لإفلاس العقلانية ومأزقاً وجودياً. هو هروب من الأدلة المنطقية والحجج إلى الاستهزاء، ومحاولة يائسة لفرض التنميط الاجتماعي ومحاربة الإصلاح عبر استبدال الحوار المنطقي بالحصار الوجداني المُهين. هذا السلوك يمثل محاولة لتغيير السلطة المعنوية من أهل الحق إلى أهل الباطل، ويستهدف الرؤية الكونية للمؤمنين لا بجدلية منطقية، بل بتجميد وعي معتنقيها. هذا الضحك هو دين مؤجل، حيث يتحول دور السخرية في الآخرة ليصبح المؤمنون هم الضاحكون على المكذبين، تذوقاً لجزاء الألم النفسي الذي تسببوا به.

بيداغوجياً (تربوياً)، يحيل الاستهزاء على فشل ذريع للسيرورة البيداغوجية التي تخالف خاصية الجدية والنقد البناء. المؤمنون يتلقون درساً تربوياً حول التوازن في الرد على هذا السلوك (الهدوء النسبي أو الرد بالمثل كما فعل نوح عليه السلام)، لكن الدرس الأهم هو أن هذا الضحك يكشف عن سطحية عميقة في فكر وسلوك المستهزئ وعجزه عن التسامي فوق التقليد المتوارث، مما يؤكد أن الاستهزاء هو سمة من سمات من خابت فيهم الملكات الإيمانية.

التأمل القرآني السادس: سيكولوجيا القطيعة مع المفعولية وبيداغوجيا الكسب السيادي

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

الآية 134 من سورة البقرة

أعتبر هذه الآية فارقة وعميقة في بناء النفسية المؤمنة المتزنة، والقوية، والمرنة، وتتجاوز كونها خاصة بالمؤمنين إلى تعدي نفعها لغير المؤمنين، لأنها تحمل قاعدة نفسية، واجتماعية، وسياسية دقيقة، ورصينة. إنها آية مفصلية في بناء القناعات الجوانية الموصلة إلى التوازن النفسي من جهة، والمؤطرة لأفعالنا من جهة ثانية. إنها تحملنا المسؤولية الكاملة عن أفعالنا، ونتائجها، وتحيل ضمنيا على أن قوة الإنسان تتأسس على قدرته النفسية على تحمل تبعات أفعاله، وعدم الركون إلى الماضي، أو إلقاء اللوم عليه، لا شيء مسؤول عن وضعك كفرد، أو كجماعة إلا نفسك، إذ غالبا ما تستهوينا مشاعرنا النابعة من تمثلنا لماضينا، أو تأويلنا لحاضرنا، وتقودنا هذه الحالة الشعورية إلى إلقاء اللوم على غيرنا ممن لم يعاصروننا، ولم يعرفوننا، ونحن نعرفهم، بل وقد نصل إلى حد تحميلهم مسؤولية ما يقع لنا، وكأننا كائنات حدد لها السابقون حركة تاريخها، ولم يتركوا لها فسحة للحركة، وإعمال عقلها، وبناء أفعالها.

وضح رب العزة في الآية أعلاه حقيقة مفادها أن لدى الإنسان في أي زمان، وأي مكان مجاله الخاص والكبير للمناورة، والإبداع، والفعل في الواقع والتغيير، وهو غير معني بما فعله غيره ممن سبقوه وليس مسئولا عنهم، يعني أن الآية تعمق في دواخلنا إدراكا بالمسؤولية الذاتية عن واقعنا، ومستقبلنا بغض النظر عن ماضينا، وإذا لم نُفَعِّل نظامنا الكسبي فإننا نفوض واجبنا للفراغ، ولأن الفراغ مستحيل فإن الذي سيقودنا ويتحكم فينا هو من يفعل، ويتحرك، ويتحمل مسؤوليته في زمانه، ومكانه أيا كان، وإن كان عدونا. ولو عمقنا النظر أكثر لظهر لنا بأن الآية تحيل كذلك على حقيقة مفادها ألا أحد يمكن أن يحل محلك لحل مشاكلك، سواء تعلق الأمر بالفرد، أو الجماعة، أو الدولة، أو الأمة. لا يريد منا الله عز وجل أن نتوقع التغيير، ونحن نقف منه موقفا سلبيا، وعاجزا، ليس الإنسان بناء على مضمون الآية في موقف الطلب والانتظار، بل المفروض أن يكون في موقف الفعل والكسب، أي في موقف تحمل المسؤولية الذاتية كاملة مكتملة، وهذا يعني أن التغيير وإحراز التقدم مرتبط بالفعل النشط في الذات والواقع، وأنه لا وجود لمبرر للسكون والركود. وكأني بالله عز وجل يقول لنا لا تعتمدوا على الظروف الخارجية، سواء في الماضي القريب، أو البعيد، بل افقهوا واقعكم فهو مجال كسبكم، ولا تفوضوا مسؤولياتكم لأمم سبقت، أو أمم ستأتي بعدكم، أو أمم أخرى تساكنكم الجوار مكانا وزمانا، فأنتم من تكسبون وكفى. لا تنتظروا تغير الماضي لأنه مستحيل، ولا تغير الآخر إلى ما تريدون فهو وهم وسراب، بل غيروا ما يجب تغييره الآن، الآن، الآن، حيث وقت كسبكم. لا تكونوا أمة الظل، ولا أمة مسلوبة الحاضر، ولا أمة مسلوبة الكسب بإرادتها التي سلبتها لنفسها بنفسها. إن قوة النفس المؤمنة تكمن في قدرتها على **دمج اليقين الديني الفلسفي**

بالحرية الوجودية مع التوازن النفسي الناتج عن تحمل المسؤولية المطلقة، مُنتجةً في النهاية **فعلاً بيداغوجياً نشطاً** في الحاضر يرفض التبعية ويحقق السيادة.

ينبهنا الله عز وجل من أن نسقط في أشكال التفكير التثاقلي، السلبي، ويؤكد لنا أن الذي يفعل فينا فعله الحقيقي هي طرق تفكيرنا السلبية، التبخيسية، الإسقاطية، والتآمرية، إن موانع حركة تاريخنا هي منهجيات تعاطينا مع أنفسنا، وتاريخنا، والأمم المحيطة بنا. لا توجد منطقة وسطى بين الفعل واللافعل، فإما أنك فاعل أو أنك مفعول بك. إن تحملنا لمسؤوليتنا من أجل الكسب الإيجابي يعني ضمنيا اتخاذ القرارات، وتحمل التبعات، والعمل على التعديلات، فقد وصلنا إلى مرحلة لا نتخذ فيها قرارات خوفا من سقوطنا في اتخاذ القرارات الخاطئة، وإن استمرت معنا هذه الحالة من وضع المفعول به حتى وصلنا إلى مستوى لم نتخذ فيه أي قرار حقيقي على الإطلاق، ونلوم من يتخذ القرارات الجريئة الدافعة نحو التغيير.

لا بد من اتخاذ قرارات وتحمل المسؤولية في حياة الأمة، والجماعات، والأفراد، وإن كانت هذه القرارات خاطئة، لأن اتخاذ القرار جزء أساسي في مسيرة التغيير، والكسب الإيجابي. ولا يجب أن ننسى أن عدم اتخاذ أي قرار هو نفسه قرار لكنه كارثي. وعندما يكون حاضرنا سيئا فإن ذلك يعني أن معرفتنا لم تنفعنا، وأن ماضينا لم ينفعنا، وأن جيراننا لم ينفعونا، وأن الانتظار هو نفع لهؤلاء بدون سعي نحو الكسب وهم لا وهم بعده، إننا كائنات تنتظر أن يقرر لها غيرها ما عليها فعله، وهذا بالضبط ما أراد الله أن يجنبنا إياه بقوله: "ولكم ما كسبتم"، لا ما انتظرتم. لا يريد لنا أن يحجب الماضي حاضرنا، ولا أن نكون دمى في يد غيرنا، فالله عز وجل ينبهنا إلى أن التغيير بيدنا من خلال كسبنا، لا انتظارنا، وأن نعطي لحياتنا الاتجاه الذي يستجيب لتحديات زماننا، لا زمان غيرنا، وأن نقود حياتنا بأنفسنا، لا أن يقودنا غيرنا فرادى وجماعات. اللافعل خيانة لوجودنا الذي من المفترض أن يكون حركيا لبناء السيادة الذاتية. إن **الخطر الوجودي** على الأفراد والجماعات والدول والثقافات والذي تنبّه إليه الآية ليس خارجياً، بل هو "**التفكير التثاقلي**" الذي يُحوِّلُ الإرادة إلى سلبية مُعطّلة، مُفضيًا إلى "**اللافعل**"؛ هذا هو الجوهر **الفلسفي** للمشكلة.

الحقيقة الصارخة التي تُرسِّخها الآية هي **الثنائية الحادة**" :**إما أنك فاعل أو أنك مفعول بك**"، حيث لا وجود لفراغ أو حياد؛ فالفشل في "**الكسب الإيجابي** "يُترجَم مباشرة إلى "**تفويض للقيادة** "للآخر النشط. هذا يُمثّل قطيعة جذرية مع أي مبررات للحتمية التاريخية أو الظروف الخارجية، مُعلنةً أن **الحاضر** هو **المركز الوجودي الوحيد** الذي يُحدِّد المصير.

على الصعيد **السيكولوجي**، فإن شلل الحركة ينبع من "**شلل القرار**"، وهو ظاهرة نفسية تتغذى على "**الخوف من اتخاذ القرارات الخاطئة** ."هذا الخوف، إلى جانب **التفكير الإسقاطي** الذي يلوم الماضي أو الآخرين، يُحوِّلُ الفرد إلى "**دمية**" تُحجَبُ حياتها بعبء ماضٍ لا يملكه. العلاج السيكولوجي يكمن في إدراك "**قرار الكارثة**": **أن عدم اتخاذ أي قرار هو نفسه قرار، لكنه كارثي**؛ وهذا يُحطّم وهم الأمان في التجنب، ويُوجِّه الطاقة نحو الداخل.

أما **المنهج البيداغوجي**، فيقوم على التخلي عن "**الانتظار الوهمي**" وبناء **القيادة الذاتية** .هذا المنهج يُعلِّمُ أن "**اتخاذ القراروتحمل التبعات**"، وإن كان مصحوباً بالخطأ، هو **الجزء الأساسي والضروري في مسيرة التغيير والكسب** .فالخطأ يُنتج "**التعديلات**"، بينما اللافعل لا يُنتج سوى الركود. الهدف التربوي الأسمى هو أن **نُعطي لحياتنا الاتجاه الذي يستجيب لتحديات زماننا**، وأن نقود حياتنا بأنفسنا، مُحققين بذلك السيادة الكاملة المترتبة على **الكسب الفردي في الحاضر**.

التأمل القرآني السابع: حال المؤمن. مرايا الظلام: فلسفة الجحود السيكولوجي واستراتيجية الغزو الأخلاقي الهادئ

(قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ (33))

الآية 33 من سورة الأنعام

(وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (108))

الآية 108 من سورة الأنعام

لا يخلو زمان ولا مكان من بروز أعداء متخفين، وأعداء صريحين للإسلام والمسلمين سواء من بني جلدتنا أو غيرهم، وغالبا ما يمارس هؤلاء كل أشكال الإهانة للمسلمين ودينهم تحت رايات متعددة يصبغونها بفكر معين يدعي العقلانية، أو الحرية، أو الديموقراطية، أو غيرها من الأسماء التي لا تعني عندهم أي شيء، وفي الوقت نفسه يريد هؤلاء أن تعني عند المسلمين كل شيء، فيعمدون إلى مهاجمة كل شيء، وبث الفتن بين أبناء الأمة لتفكيكها، وتسهيل السيطرة عليها، وتسخير كل مكوناتها لخدمة أسيادهم من أعداء الأمة. وقد تثير هذه الإهانات ردود فعل معقدة، وقوية، وضعيفة، ومعتدلة عند أبناء الأمة الإسلامية، وهي ردود فعل طبيعية يسكنها الخوف، والألم، والعار، والغيرة... ردود فعل تعبر عن حساسية أبناء الأمة تجاه كل ما يحاك ضد وحدتها، ومقوماتها.

لقد وصلت هذه الإهانات مستويات ربما غير مسبوقة فيما مضى من الأزمنة، إهانات فيها إذلال، وتحقير، بل وإرهاب، وتدمير سواء معنويا أو ماديا، وتحس وأنت تتابع الهجمات المتتالية بحجم الطاقة المدمرة الرهيبة، والكره العميق الذي يسكن هؤلاء تجاه أمة قدمت للبشرية خدمات، ولا زالت تفعل ذلك على ضعفها وهوانها، لكن مواجهة هؤلاء بأذكى الأفكار، وأقوى الأدلة لا ينفع في شيء، فهم والإهانة والتدمير لا يفترقون، ولا يبحثون عن حقيقة، ولا عن حق، لذلك فأهم وأقوى ما يمكن اللجوء إليه هو الخروج من وضعية الدفاع إلى وضعية الهجوم ،لكن مع البقاء على أخلاق المؤمن، استجابة لقوله عز وجل: "وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا".

إنه هجوم متخلق بالحق، وللحق، وبدون هرج، ولغط، لكن في الوقت نفسه يجب تطوير الاستعداد النفسي لتحمل إهانات، واعتداءات أعلى، وأقوى، فالساعي للإهانة يجتهد في تعميقها، وتطويرها على الدوام. إن دفاع المسلمين عن أنفسهم دفاع متخلق، لكنه قوي، يؤتي أكله على المدى البعيد، يزحف بهدوء على أرض المعتدي، ويقلل من أتباعه من ذوي العقول العادلة، والمنفتحة، فمحال أن يبقى الناس أبدا عميانا. يجب أن تكون في ردود المسلمين صلابة، وليونة حسب النوازل، وأنواع المعتدين. فتوجه الصلابة لمن لا يمكن التسامح مع اعتداءاتهم لكونها خارج الأعراف الإنسانية، لا يريدون

بها إلا الإهانة، والتدمير، والليونة لمن يريد الفهم، والتفهم، وإيجاد الحلول تعاونيا، وبشكل يحفظ الحقوق والكرامة.

إن وجود هؤلاء بيننا، يعني وجود الأضداد لكنهم مدمرون لا خلاق لهم، لكن من حسنات وجود المناقض لك هو توليد الطاقة بداخلك للصدع، والدفاع، والتطوير، إنهم لا يقدمون بديلا عن الإسلام في علوه الأخلاقي، وعدله وتغطيته للدنيا والآخرة، بل هم مقلدون، فيهم كثير من البلادة، قليل من الفطنة، كثير من التقليد، لا شيء من الإبداع، وإن أبدعوا ففي الشر لا في الخير. لا تسكنهم المنافسة بل العداوة المولدة للعدوانية، يتسلحون بمدمرات ذاتية قبل أن تكون مدمرات للآخر، فالعداوة شر يجلب البؤس، والدمار لهم قبل غيرهم. أتساءل دائما هل جلس هؤلاء، وسألوا أنفسهم بصراحة، وصدق الباحث عن الحق: ما سبب عدائي للإسلام؟ ما هي أحكامي المسبقة؟ ما مدى صدق نيتي في البحث للوصول إلى الحق؟ أليست عداوتي نفسية، لا علمية أو دينية مبنية على أصول؟

أكاد أجزم أن الذي يحارب الإسلام خصوصا من بني جلدتنا يحارب شيئا يوجد فيه هو، يحارب مسلماته هو، فهو يرمي الإسلام يقينا بما يوجد في نفسه، وفي معتقده. ذلك أنني كلما نظرت في اعتراضاتهم، وإهاناتهم، وتحيزهم وجدت أن ما يقولون هو بالضبط ما يتصفون به، لكنهم يسقطونه على دين أبسط قيمة فيه تعلو فوق الثريا. اعرفوا أنفسكم أولا، ثم انظروا لغيركم بعد ذلك. فاتهاماتكم لهذا الدين، ولفقهائه، وعلمائه، ومضامينه، وشعائره اتهامات تعكس وجودكم النفسي، إنها خيالاتكم، وأوهامكم السيكولوجية، بل إنها ظلكم الذي لا يفارقكم لأنه انعكاسكم لأنفسكم المظلمة، وكيف لمظلم أن يرى النور ونفسه هي ظله الذي يضيء له؟ تنظفوا جوانيا لتروا الأنوار الربانية، وتأكدوا من أنها ليست في متناول المرضى، والمعتوهين، والمتكبرين، والمظلمين، والجاهلين.... فأنواع اليقين الإلهي منغلقة على الأشرار الذين يعتقدون أنهم أخيار، قال ربي الكريم: **"قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"**. سورة الكهف: 104.

ما أصعب القناعة الخاطئة المنشئة للفعل السيئ، والحاكمة عليه بالخيرية. يتمتع هؤلاء بخاصية رديئة تضعفهم على الدوام، وهي قدرتهم على صناعة الأعداء وتكثيرهم، وإنه لأمر مفهوم إذا كان الأصل مقلوبا أن يكون الفرع معكوسا. إنهم يهابون هذا الدين، ويرهبونه رهبة لا حدود لها، ودوا لو انتهى بل لو أنهم أنهوه، إنهم بدافع الرغبة في الانتصار على الإسلام يسقطون من الأعلى، وبدافع إرادة أن تعيش أوهامهم على حساب الإسلام يقتلون أحلامهم. يملك الإسلام الحركة الذاتية، الثبات الجيد، والاستمرار في الزمن، ويجدد نفسه ويضع الكل تابعين ومتبوعين أما تحدياته التي لا تنتهي. إنه الحفظ الرباني، ففي كل محنة يخرج بمزيد من الأتباع والقوة، ويخرج غيره بمزيد من الخسارة، لكنه يسقي كل ذلك بدماء أبنائه الزكية، وأفكارهم النيرة، وثباتهم اللامشروط، فمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان في ظل هذا الدين، فاعلم أنهم ودعوا كل ما دونه إلى يوم القيامة.

إن حال المؤمن مع أعدائه هو حال هابيل مع قابيل، يريد له الخير، ويريد الآخر السطو عليه. لا يا أعداء الإسلام، فقد استفاد أبناء الإسلام من تاريخ أجداهم الأوائل هابيل وقابيل، وتطورت الإنسانية،

وجاء الإسلام، وأضحى معادلة فوق كل المعادلات، وماردا له صولات وجولات، من المستحيل القضاء عليه، لأنه يقوى ويتقوى بالأعداء. لا يراهن على القوة المادية فقط، بل ينشد القوة العقلية، والمعرفية، والأخلاقية. وما دام الناس يملكون عقولا فالدوام للإسلام رغم حقد الحاقدين. حياكم الله يا مؤمنين وهداكم الله يا تائهين، وخيب الله ظنكم يا أعداء هذا الدين.

سيكولوجياً، يرى التأمل أن العداوة للإسلام، خصوصاً من "بني جلدتنا"، هي في جوهرها "إسقاط نفسي"؛ حيث يرمي المحارب للإسلام بما يوجد فيه هو نفسه من ظلم وظلام (ظلّه الذي لا يفارقه). فالإهانات والتحيز تعكس الأوهام والخيالات السيكولوجية للعدو نفسه، الذي يحارب شيئاً يوجد فيه. هذا الجحود ليس ضعفاً في الحجة، بل مرض نفسي مُعتم لا يسمح برؤية الأنوار الربانية، مما يجعل صاحبه يتمتع بـ "خاصية رديئة "هي صناعة الأعداء وتكثيرهم، ويسوقه إلى البؤس والدمار الذاتي قبل غيره.

فلسفياً ومعرفياً، يُسلّط التأمل الضوء على حقيقة أن الأعداء "لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون" الأنعام: 33؛ فالعداوة ليست نقصاً في الحق، بل جحوداً مع سبق الإصرار، يعوزه البحث عن الحقيقة. الرد على هذه العداوة يجب أن يكون بـ "هجوم متخلق بالحق "يتجاوز وضعية الدفاع، يعتمد على القوة العقلية والمعرفية والأخلاقية، مع اليقين بأن "الدوام للإسلام" لقوته الذاتية وتجدده، فالمحن لا تزيده إلا قوة وأتباعاً.

بيداغوجياً (تربوياً)، يقدم القرآن للمؤمنين منهجاً مزدوجاً في التعامل مع الأعداء:

- قاعدة تربوية عليا (الأخلاق الضابطة) :النهي عن سب آلهة الأعداء حتى لا يسبوا الله عدواً بغير علم (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله)، وهو درس في التحمل الوجداني والذكاء الأخلاقي لقطع دورة العنف.
- خطة المواجهة: تطوير "الاستعداد النفسي لتحمل إهانات أعلى"، مع التزام الصلابة في مواجهة من يريد التدمير، والليونة لمن يريد الفهم وإيجاد الحلول. الهدف البيداغوجي هو الصدع بالحق بهدوء، مع البقاء على أخلاق المؤمن حتى يزحف الحق على أرض المعتدي ويكسب "ذوي العقول العادلة والمنفتحة".

التأمل القرآني الثامن: بين عالم معيش وعالم ينتظر

سيكولوجيا الإسقاط الجاحد: أنطولوجيا الظل المظلم وبيداغوجيا الهجوم المتخلق

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا (4)وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا (5))

الآيتان 4 و5 من سورة الفرقان

لا يخلو زمان من مكذبين وكذابين، فالتكذيب خاصية إنسانية بامتياز، لا توجد ربما في باقي المخلوقات حتى في أقرب الحيوانات لهذا المخلوق، فهو مكذب وكاذب، وأكيد أن التكذيب هو نتاج لتلاعب الكذابين بغيرهم، مما طور خاصية الشك عند الإنسان، بل وتنقلب عنده من شك إلى تكذيب ولو بالهوى، وقد يتحول الضحية إلى كذاب أو مكذب، لذلك نفى المعارضون للدين صفة الصدق عن الدعوة والرسالة. فالإسلام بالنسبة إليهم كذبة اخترعها محمد صلى الله عليه وسلم وعليه، فهو اختراع بشري بامتياز، بل هو اختراع بشري تضافر على إخراجه إلى الوجود محمد وأتباعه، وهذا موقف متشكك من الوحي جملة وتفصيلا، وأصل التكذيب ومصدره هو عقول المكذبين الذين انقلب عندهم الشك إلى يقين كاذب، وهنا تتضارب مقاربتين ضمن الآية الكريمة أعلاه، وهما ما تتوسل به عقول المكذبين، ومصدرية الوحي الرباني، فالنبي مصدر معرفته هو الوحي، وعقول المكذبين لا تعترف بمصدرية الوحي، وفي إطار توظيف العقل وإخراجه من غشاوته تدعوهم الآية إلى إعمال عقول على منوال آخر غير ما ألفوه، فتفسيرهم ذاتي وغارق في التحيز للذاتية، وإن بدا أنهم يعملون عقولهم، خصوصا وأن أمر الوحي لا يحيط به العقل، لذلك اعتبر هذا التكذيب ظلما لأنه أخضع المتعالي للعقل، وهو فوق حدوده، واعتبره زورا لأنه شهد بما لا يعلم، فالعقل شهد بالكذب محل الصدق، أو على الأقل كان على العقل إن شك ولم يصدق، أن يتوقف، لا أن يُكذب لذلك مارس الزور على نفسه، وعلى الحقيقة العلوية، فمقتضى العقل هو أن يقبل ويعترف إن علم، أما إن جهل فما عليه إلا أن يتوقف، وما دامت عقولهم تجاوزت فعل التعقل، وغيرته إلى التكذيب بدون استيفاء شرط التعقل فقد مارست الظلم والزور.

إن نفي الآية بمفهوم المخالفة للكذب نفي آخر للأسطورة، بمعنى أنها تؤكد أن القرآن متميز عما تعرفون، وفريد لا نظير له بين كل ما تحيط به عقولكم لأنه وحي، والوحي ليس أسطورة بل شيء مغاير تماما، اختلطت عليكم خصائصه بخصائص الأسطورة، لأنكم أحجمتم عن إعمال عقولكم على الوجه الذي يوصلها إلى الفهم، فالوحي شيء مغاير تماما لكل ما تعرفون، إنه ينتمي لعالم نؤمن به، ولا نسيطر عليه بالعلم الذي يمكن لعقولكم أن تنتجه. إن الوحي فوق عقولكم وهو محل إيمان، ولا مدخل لفهمه وتفهمه إلا بعد الإيمان به أولا. ورغم أن المكذبين أعملوا عقولهم لنفي صحة الوحي، إلا أنهم وظفوا أدواتهم العقلية بشكل لا يفي بغرض الدحض، فمن يريد تفنيد الشيء يأتي عليه من قواعده، وبالأدلة لا بالادعاء والنفي، فالنفي لوحده دليل عجز عقولكم، وليس تفوقها، لأنها لم تقدم أدلة، بل أحكاما

وتكذيبات نفسية. إذ لا توجد لديهم أدلة تحيل على كذب الوحي، ولا أدلة تثبت صدق كذبهم وتكذيبهم. وعليه، ففحص منهجية تعامل المكذبين يحيل على تهافتها حتى النخاع، وعند اعتماد أدق منهج، وبأعلى درجة من الموضوعية لن تكون أقوالهم إلا ادعاءات، أو افتراضات لا دليل عليها، لأن الوحي واقع مؤطر لوجود غيرهم، فاعل في واقعهم، يزاحمهم، ويشكل لهم عما بالليل والنهار.

ولا نستغرب أن يكون للتكذيب وصل بتنشئة المكذبين الاجتماعية، وبنائهم النفسي، وسيرورة تثقيفهم، فموجة الرفض للدين في المجتمعات الجاهلة إن في الماضي، أو الحاضر تؤثر على سيرورة استيعاب مضامين الوحي، ومقتضيات الإتيان به على وجهه الصحيح. إن الوحي الجديد يعني ضمنيا سيرورة تغيير جديدة، وتحولات اجتماعية، واقتصادية، وثقافية عميقة قد تقلب موازين المجتمع، وهذا الموقف الرافض بهذه الخلفية هو نفسه الذي تقوده فوبيا الإسلام في الشرق والغرب. فالإسلام يغير عميقا مختلف مستويات ومناحي الحياة، ومحال لمستفيد من وضع رديء أن يقبل تغييرا يقلب موازين القوة، ويصحح الفهوم. أكيد أن نفي الله للأسطورة، والأسطورة تعني ضمنيا أن الوحي هو حقيقة، بل حقيقة علوية، وإلهية بامتياز، ولا علاقة لها باجتهادات البشر بما فيهم الأنبياء، قال تعالى: "**ما قلت لهم إلا ما أمرتني به**"، سورة المائدة: 117. لكن البشر محترفون في صناعة الباطل بشك عجيب وغريب، بل يعيشون به، وعليه، وفي اطمئنان، وانتشاء، لكن مصدر الوحي هو الله، ومصدر الباطل البشر. ورغم قصر الآية فهي لا تفصل العلم عن الأخلاق، رغم أن هذا هو مسعى الكثيرين في هذا الزمن الشاذ، يريدون أن يفصلوا كل شيء عن الأخلاق، لكي يتسنى لهم فعل أي شيء بدون حسيب، ولا رقيب، ولو كانت ضمائرهم، فإماتة الضمير تمر عبر إماتة وحذف وإنهاء الأخلاق والقيم.

ربطت الآية معرفتهم بالزور والظلم لكي تحيي في دواخلهم ما يريدون إماتته بالنفي والتغاضي، وكأنها تقول لهم كفاكم ظلما، وكذبا، وكونوا صادقين، وقولوا بأمانة، وإخلاص أن عقولكم عاجزة عن نفي الوحي، وفي أقصى درجات شكها سيكون نفيها فرضية لا أقل ولا أكثر، فكيف تسلمون أنفسكم لفرضية لم تتأكدوا من صحتها، وليست لديكم أدلة للتكذيب ولا للإثبات، وهذا يعني ضمنيا أن موقفكم هذا لا أخلاقي لأن معرفة هذه الحقيقة والتسليم بها هو عين العدل المفضي إلى عمق الصدق مع النفس، والله، والناس، بل إن العقلانية التي تدعون هي نفسها قيمة أخلاقية، وكأني به عز وجل يحملهم مسؤولية عدم الاعتراف بعجزهم من جهة، وعدم استطاعتهم تجاوز تمركزهم حول أنفسهم واستمراء الكذب، والتكذيب من جهة أخرى. يقدم القرآن أمامنا واقعين اثنين وليس واقعا واحدا، الأول هو الواقع الذي نعيش فيه، والثاني هو الواقع الذي ينتظرنا للانتقال إليه، ومحطة الانتقال هي الموت، فالتصور الوجودي القرآني ثنائي، الأول تدركه الحواس والعقل، والثاني لا طريق له إلا بالإيمان والوحي. وعليه وسعوا مدارك عقولكم، فأنتم مسؤولون عن الحجب التي تغطي على عقولكم حقيقة الوحي.

يمكن القول أنه من **الناحية الفلسفية**، يمكن اعتبار التكذيب **ظُلماً معرفياً** ناتجاً عن تجاوز العقل المحدود لحدوده، ومحاولته حصر **ثنائية الوجود** (عالم معيش وعالم ينتظر) في نطاق التجربة المباشرة، بدلاً من الاعتراف بعجزه والتحلي بالعدل المعرفي، ولزوم مكانه ومجاله. أما من **الناحية**

النفسية، فيمكن القول أن التكذيب ليس دحضاً منطقياً، بل **آلية دفاعية** تنبع من **التمركز حول الذات** وفوبيا التغيير، والخوف مما يخالفك أو يختلف عنك، حيث يتمسك المكذبون بتحيزهم ورغبتهم في أن يكون عقلهم هو المصدر الوحيد للحقيقة، رغم أن للآخرين عقول غير عقولهم، مما يستدعي **إحياء الضمير** والصدق الذاتي. وأخيراً، نحتاج إلى **بعد بيداغوجي** والمنهج التربوي لمواجهة ذلك، ونعتقد أنه هو **التربية على الأمانة المعرفية** وتقديم الدليل، وتوسيع مدارك العقل ليتجاوز الحصر التجريبي، ويتحمل مسؤوليته الأخلاقية والفكرية في الوصول إلى حكم عادل لا يتبنى مسلك الإقصاء والاختزال والظلم.

التأمل القرآني التاسع: سيكولوجيا الغطرسة المنطقية وبيداغوجيا العبور إلى النور الإضافي

(فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ (79)إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ (80)وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (81))

الآيات من 79 إلى 81 من سورة النمل

لا يشك المؤمن بالإسلام أنه على الحق بل على الحق المبين، ولا يشك المؤمن كذلك أن كل من وافق أي فكر كيفما كان، إلا ويعتقد أنه على الحق المطلق، فقد أخبر ربنا الكريم أن الناس في الاعتقاد طرائق قددا، **لكن قوة معتقدنا الديني تكمن في كونه يخبر بهذا التعدد، ويعتبره جزء من حقيقته، ويخبر بتميزه، ويتحدى المختلفين عنه عبر التاريخ**، ثابت عبر الزمن بمجمل مكوناته، وتحدياته، تكمن قوته في ذاته لا من خارجه، دينامي بشكل مثير، يخترق مجمل مناحي الحياة، وله بعد مستقبلي في المنظور من الوجود وغير المنظور، فاعل في الوجود بشكل قوي، متواجد دائما وأبدا في كل الأحداث، يأبى الاختفاء، أو الاختباء، أو الانمحاء. يستند على قوته الذاتية، وعلى بنيته المنطقية المعرفية، والوجدانية، والسلوكية، يعترف بالعقل لكنه يضع له حدودا لا يتجاوزها، ومنها أمر الدين نفسه، يؤكد على قوة العقل لكنه يأمره بالتواضع أمام عظمة الخالق، وعليه أن يقر بصغارته ولا ينتفخ انتفاخا واهما، وأن يدرك أنه لا يدرك كل شيء، ويعترف بهذا النقص الذي هو طريقه إلى الإيمان، ويُعمل نفسه في تعقل نفسه حتى يعلم حدود قوته، ويتموقع في مجاله الممكن، ويسلم أنه جزء من ذات، وهي الأخرى جزء من كل بسيط الذي هو نفسه جزء من كل لا متناهي التعقيد. ومحال أيها العقل أن تدرك مكونات وجزئيات ما فوقك، وفوق ما فوقك، فتواضع لربك واستنر بالحق المبين، وإلا دخلت بمجموع أدواتك في زمرة العُمي الذين ضلوا وأضلوا.

فلسفيا؛ يضع الإسلام حدودا للعقل لكي لا يقع في الظلم المعرفي أي يجعله يتمحور حول تحديد **حدود ما يستطيع ويذكره** بضرورة تواضعه، فالإيمان بالوحي يمثل عدلاً معرفياً يستوجب الاعتراف بـ "عجز العقل" عن إدراك الحقائق المتعالية أو تجاوز **ثنائية الوجود** المعيش البين الظاهر، والمنتظر الغائب المجهول. أما رفض الوحي وتكذيبه دون دليل إلا عدم الاستيعاب المبني على احتمال يلغي احتمالا يناقضه فهو **ظُلم معرفي**، وتسلط نابع من محاولة فرض سلطة العقل المحدود على المتعالي غير المحدود، مما يؤدي إلى فصل المعرفة عن الأخلاق، وإماتة للضمير بل والتصرف ضد العقل نفسه ومقتضيات تعقله. يكاد العقل أن يسلك مسلك الهروب بالنفي المستند على العجز ربما بغاية أو بدافع التمركز حول نفسه وجعل نفسه المصدر الواحد والوحيد والأوحد للحقائق التي يدرك والتي لا يدرك، هنا بالضبط ينفك العقل عن ضميره وأخلاقه ويلجأ إلى البلطجة في التفكير بإقصاء ما يخالفه بل يتجاوز ذلك إلى قمعه واضطهاده واعتبار ما يقول أساطيرا أو أوهاما.

لا تعتقد أنه بانزياحك عن نور ربك ستنير طريقك لوحدك، فالتنوير هنا تعمية، وظلام لأنه مفصول عن نور أكبر منه، فالاكتفاء الذاتي هنا يُعتبر "تعمية" و"ظلام" لأنه مفصول عن **نور الوحي الأعظم**. فمحال أن تنير ذاتيا إلا في حدود حدودك، فنورك يمتد لمسافة وجودية معينة، لكنه لا يخترق حجب الغيب، ولتقترب من الصواب أنر عقلك بنور إضافي هو الإيمان، وهنا سيزداد امتداد نورك، ويخترق بعض الحجب لا كلها، ويسعد بالتسليم بما يتجاوزه تسليم الموقن به، المرتاح إليه، لا الشاك فيه، والمضطرب في التعامل معه. إن **الإيمان** هو النور الإضافي الذي يوسع هذه المدارك، ويسمح باختراق "بعض حجب الغيب"، ويدعو إلى **الانسجام المعرفي** بين ما يُدرك بالعلم وما يتعذر بلوغه بالأدوات الحسية وحدها.

يريد ربك منك أيها العقل أن تعيش منسجما مع باقي مكونات محيطك مما تستطيع اختراقه بالعلم، وما يتعذر عليه بلوغه بنفسك، وأدواتك من سمع، وبصر، وفؤاد. إن مزج التعقل بالإيمان يفتح أمامك الأفق اللامحدود، وإن اكتفاءك بنفسك، وانغلاقك عليها يضيق عليك مكان وجودك، وزمانه، وماهيته، فلا تدرك إلا ما تحت حاجز الإيمان، إنه فقط بعض آيات العالم المنظور. يصلك الإسلام أيها العقل بشكل قوي بمنطقك، وما فوق منطقك، وله وصل بالعلم، والتجربة، كما أن مصدرية الوحي لا ينفك عنها، وله سطوة في التاريخ، واللغة، كما له وصل بما يعتمل في نفوس الناس من شعورهم في عمق أنفسهم ببعدهم الميتافزيقي، فيدعوك للتأمل في كل هذا وغيره، وعليك فقط أن تعلم بأنك لن تكون فوق ما أنت عليه، فاستعمل الأدلة، والأسباب، وفكك البنيات، والسيرورات، والديناميات، هذا ما يمكنك فعله وهو جزء من الحقيقة لا كلها، أما أغلبها وليس كلها فلا يتأتى إلا بمعانقتك للجزء الذي تتهرب منه تحت تأثير غطرستك وهو الإيمان، فكن عقلا قويا بأدواتك، عميقا بإيمانك، فإيمانك إذا لم ينفعك لن يضرك، لأنه في أقصى سلبياته سيمنعك من رذائل الأفعال والأقوال، وهذا في حكمك أنت أيضا من موانع الإنسانية، والتعايش الجميل، والعادل.

إن جوهر الرسالة الإلهية للعقل هو تحقيق **الانسجام الوجودي** عبر **مزج التعقل بالإيمان**، حيث يفتح هذا المزيج **الأفق اللامحدود**، بينما الاكتفاء الذاتي يضيق على العقل مجال إدراكه لما دون "حاجز الإيمان". يؤكد النص على أن الإسلام يتصل بالعقل بقوة المنطق وما فوق المنطق، ويرتبط بالعلم والتجربة والبعد الميتافيزيقي للنفس البشرية. فالعقل مدعو لاستعمال أدواته في التحليل والتفكيك لإدراك **جزء من الحقيقة**، لكن **أغلب الحقيقة** يتطلب التخلي عن "الغَطرسة" و**معانقة الإيمان**، الذي لا ينفع فقط في كشف الغيب، بل يقي العقل من رذائل الأفعال والأقوال، ويضمن له التحلي بالعدل وتعزيز التعايش الإنساني.

يحنو عليك ربك إن اكتفيت بنفسك لأنك تعتقد بقوتها، وستسعى بناء عليه للتسيد والتأله، وقد حكى ربك والتاريخ بعض النماذج من العقول السابقة عنك، التي كانت عاقبتها خسران نفسها، وربها، ووجودها، وما بعد وجودها. يعلم ربك أن نفسك تسطو عليك، فتدفعك إلى قلب الأدوار، وإلى التأله، واستعباد غيرك ممن تعتقد أنهم دونك، بل ستدفعك نفسك إلى تضخيم ما يجب التوسط فيه، بل إلى

تبخيسه، وإلى خرقه، وحذفه، فترفع ما يجب خفضه، وتخفض ما يجب رفعه، لأن معيارك داخلي، ولا يحتكم إلى ما هو أعلى منه، وستسحبك حيلك المنطقية إلى تبرير ما لا يبرر حتى تأتي على نفسك بنفسك، ستبيح القتل بداعي المصلحة، وتبيح السطو بداعي الحاجة، وتنفي الأخلاق بدافع أنها مخدرات، وتحل المخدرات بداعي أنها حاجات، ستنقلب أيها العقل إلى حاسوب بدون أخلاق، لأن مصدر الأخلاق علوي، ومرتبط بالإيمان، وأنت انفصلت عنه، فأنى لك بالسداد؟ بل إنك ستسعى إلى محاولة قلب الأخلاق الربانية بتبني نقيضها، والادعاء بأنك تبدع قيما جديدة، هي في الحقيقة قديمة، ما جاء الإيمان إلا لدحضها، وتعديلها بما يسمح للعقول المتناقضة بالعيش المشترك وفق مصدرية علوية، ليست من إنتاج أي واحد منهم.

إن خطر **اكتفاء العقل بذاته** وعاقبة غطرسته ظاهر بين، فهذا الاكتفاء يقود العقل إلى **التسيد والتأله** ومحاولة **استعباد الغير**، وهو مسار يؤدي إلى "خسران النفس والوجود". إن العقل المنفصل عن الوحي يسعى لـ **"قلب الأدوار "** وتضخيم ما يجب التوسط فيه، حيث يصبح معياره **داخليًا ومقلوبًا**، مما يجعله يستخدم **الحيل المنطقية لتبرير اللامبرر**، ويتحول إلى **"حاسوب بدون أخلاق** عبارة عن خوارزميات منطقية لا إنسانية فيها لأنها لا يقودها إلا منطق العقل الذي لا يعقل خطورة تعقله المنزاح عن التوسط والتخلق المبنيان على الإيمان لأنه افتقد المصدر العلوي للأخلاق المرتبط بالإيمان، وبالتالي يسعى لتبني ونشر نقائض الأخلاق الربانية بدلاً من إقامة **العيش المشترك العادل** القائم على مصدرية علوية متفق عليها.

هكذا ستسقط أيها العقل المكتفي بذاته في العمى المنهجي، والمعرفي، والسلوكي مع الاعتقاد في أنك على صراط مستقيم لأن معاييرك مقلوبة، منغلقة ممركزة حول نفسها. ولو نظرت غي مسيرتك عند المكتفين بك دون غيرك لوصلت إلى أنك لم تعد تتألم حيث يجب الألم، ولم تعد تحس حيث يجب أن تحس، ولم تعد تبكي حيث يبكي الوجود كله، ولم تعد ... حتى أضحيت عقلا غريبا بين الموجودات التي هي نفسها تنظر إليك، وتتعجب منك، ومن غطرستك، وما آل إليه وضعك. إنك أضحيت آلة حساب ليس لها وصل بالعيش وفنه، والرحمة ومقتضياتها، والعدل وتبعاته. لأنها آلة لا تعرف إلا منطق الربح والخسارة، وتصور أن الناس كلهم يحملون عقلا من هذا النوع مشدودا إلى الحساب بعيدا من الأخلاق والإيمان. كيف سيكون العالم آنذاك؟ وأختم بالقول إن عقلا من هذا النوع سيخرب الوجود، لذلك أوجد واجد الوجود العقول المتسلحة بالإيمان، لكي تدافع الحساب الآلي بالحساب الآمن والمؤمن.

يُشخّص التأمل قوة الإسلام في كونه نظاماً معرفياً يعترف بالعقل ويضع له حدوداً، محذراً من خطر اكتفائه الذاتي الذي **يقوده إلى العمى المنهجي وخسران الوجود.**

فلسفياً ومعرفياً، يمثل الإيمان بالوحي "عدلاً معرفياً "يستوجب تواضع العقل واعترافه بعجزه عن إدراك الحقائق المتعالية التي تتجاوز الوجود الظاهر. إن رفض الإيمان والتوهم بالاكتفاء الذاتي يُعد "ظلماً معرفياً"، ومحاولة "بلطجة في التفكير"، حيث يسعى العقل إلى التأله على المتعالي، مما يؤدي إلى

فصل المعرفة عن الأخلاق. الإيمان هو "النور الإضافي "الذي يوسع مدارك العقل ويسمح له باختراق "بعض حجب الغيب"، محققاً الانسجام الوجودي والمعرفي.

سيكولوجياً، نحذر من "غَطرسة العقل "و"إرادة التسيد والتأله" التي تدفع النفس لقلب الأدوار والمعايير. فالعقل المنفصل عن مصدر الأخلاق العلوي يصبح معياره داخلياً مقلوباً، يستخدم الحيل المنطقية لتبرير ما لا يبرر (كإباحة القتل بداعي المصلحة)، مما يقوده إلى "خسران النفس والوجود ."كما يُنبه إلى أن العقل المكتفي بذاته يفقد الوصل بالرحمة والفن والعدل، ويتحول إلى "آلة حساب "أو "حاسوب بدون أخلاق "لا يعرف إلا منطق الربح والخسارة.

بيداغوجياً وأخلاقياً، يشدد التأمل على أن جوهر الرسالة الإلهية للعقل هو تحقيق التوسط والتخلق عبر مزج التعقل بالإيمان. الإيمان هو الحصن الذي يقي العقل من "العمى المنهجي والسلوكي"، ويضمن له عدم السقوط في رذائل الأفعال والأقوال. إن العقول المتسلحة بالإيمان هي التي أوجدها واجد الوجود لـ"مدافعة الحساب الآلي "بالعقل "الآمن والمؤمن"، الذي يضمن بقاء الوجود وعدم تخريبه.

في الاضطرابات النفسية لعبدة العجل

التأمل القرآني الأول: سيكودراما الحربائية: إبستيمولوجيا الزيف و أنطولوجيا الذات الملبوسة بالباطل

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

الآية 42 من سورة البقرة

تحيل هذه الآية على خاصية سيكولوجية عميقة يتلبس بها عبدة العجل تلبسا كثيفا، وثقيلا، ووافرا، أسميها بخاصية الحربائية، أو التمويه، والتضليل، وهي خاصية تلاحق مقدار الصدق، والحق الذي يحرص عليه عابد العجل في تعامله مع غيره أيا كان هذا الغير، وسواء في حياته العادية، أو في فترات الأزمات. يصف العلي الحكيم هؤلاء القوم بكونهم يلبسون الحق بالباطل، أي أنهم يتميزون بحيل ماكرة تجعل الحق باطلا، لبلوغ هدف جعل الباطل حقا، فيعيدون بذلك صياغة الحق صياغة باطلة جاعلين الباطل حقا، سعيا لجعل معتنق الباطل مقتنعا أيما اقتناع أنه معتنق للحق، وهذا ما يحدث، وحدث، وسيحدث في أرض مسرى نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو نفسه ما يلامس التاريخ، والجغرافيا، والسياسة، والاقتصاد، والسلم، والحرب و...، يسعى عبدة العجل ومن يدور في فلكهم إلى إعادة صياغة الحق لجعله باطلا، وإعادة صياغة الباطل لجعله حقا، موظفين كل أشكال التمويه المتاحة في الوجود من أجل السيطرة على عقول ونفوس غيرهم، وسجنها في اعتقاد فاسد، لكنه تلبس بالحق، وقلب المواقف، فينقلب الفساد صلاحا. والسبب الذي نعتقد أنه وراء كل تلك الحربائية التمويهية، هي أنهم لا يتحملون الحقيقة كما هي عارية عذراء، ونظيفة، لأنها تفضح أساطيرهم، ولا شيء فضحهم، وفضح كل خزعبلاتهم مثل الإسلام فضحا عراهم من كل لباس، لذلك سيعمدون ما بقي الزمن زمانا لكتم صوته، وقهر أهله وإلباسه لباس الباطل. وحقيقتهم التي وضعهم الإسلام أمامها تجعلهم مذعورين، مكتئبين، مفضوحين بين مختلف الثقافات، وعليه كان لزاما أن يتعلق هؤلاء باستراتيجية التمويه، والخداع، والكذب المرضية، ويعتبرونها ملجأ آمنا ليواري عبدة العجل سوءاتهم الأخلاقية لأنه أصلا لا أخلاق لهم.

إن القدرة على الكذب والخداع هي مؤشر على إفلاس أخلاقي عميق، وكثيف، وصلب قد يعتقد صاحبه أنه مؤشر على ذكاء اجتماعي للاستحواذ على الغير، فالصادق عندهم غبي، والعادل عندهم ظالم، والكذب عندهم خلق حسن، والقمع نظام، والدفاع اعتداء، والاعتداء دفاع. لكن هذا لا يعني أن الحربائيين عبدة العجل غير أذكياء، بل بالعكس تماما فالحربائية والتمويه مؤشر حقيقي على نظرة عميقة وثاقبة للنفس أي الذات، وللمحيط، والأصدقاء، والأعداء، والإمكانات.

تتحول حربائية عبدة العجل إلى شهوة نفسية يتم إشباعها بمزيد من التمويه، والتضليل الذي بدأ ينكشف لكل حر انكشاف الصبح في يوم مشمس، وهي إنما شهوة بنكهة خداع الذات من أجل تخفيف وقع الحياة، والتاريخ الماضي، وبعبارة أخرى، إنها طريقة يتجنب بها عبدة العجل الإحساس بالاستياء، والأذى، والألم، والدونية، والمسكنة، والخوف... إن التمويه والحربائية هي نوع من إعادة التفسير، وإعادة الاتصال بالإدراك، أو الذاكرة غير المرغوب فيها عند أصحاب عقدة البقرة،

وربما لتجنب معاني غير سارة أو أحاسيس مؤلمة، ولا أدري كيف ارتبط اسمهم بالبقرة من جهة، والعجل من جهة أخرى، وقد يأتي تأمل آخر نحاول فيه تعميق التأويل في هذين الحدثين، والحيوانين في علاقتهما بنفسية من تعرفون. ولا تستغربوا أن يكون التمويه والحربائية وسيلة لغوية لقلب المعاني، والدلالات في كل ميادين الحياة، فكل تمويه يبتغي تضليلا، أو ضبابية، أو تغييرا للمعنى الحقيقي الظاهر، لكنه في عمقه إخفاء للحقيقة، وإظهار لغيرها بإلباسها لباسا يحول بين الناس، ورؤيتها على حقيقتها كما تُظهِر هي نفسها بنفسها. وإذا كان التمويه عند بعض الحشرات وسيلة حماية ودفاع، فهو عند عبدة العجل وسيلة سيطرة وسطوة على حقوق الغير.

يلجأ عبدة العجل في إطار الاستراتيجية الحربائية إلى تغيير لون جلودهم، و أفكارهم، بل ومشاعرهم حسب كل سياق ثقافي، و أينما وجدوا في أي بلد للحيلولة دون معرفة أفكارهم، وألوانهم، ومشاعرهم الحقيقية، التي لا تخرج إلى العلن إلا بعد السيطرة التامة، وقتل الأعداء المحتملين، أي أنهم يسعون أن يكونوا غير مرئيين للآخرين على حقيقتهم كما هم، مكتفين بالظهور على حقيقة كيف يريدهم غيرهم، متماهين مع ما ليس منهم، لقلب الرؤية لدى الآخر، وسجنه في معتقد الانسجام، والاندماج، والتآخي، والديموقراطية، والعدالة، والحرية... وكلها وسائل تمويه، وتضليل، والحقيقة غير ذلك مطلقا. إنه نوع من التكتم عن الهوية الحقيقية المرضية لأنها هوية مهزوزة تاريخيا، ومسكونة بالخوف، والأساطير غير المبنية، إنهم بارعون في التمثيل الحربائي المسكون بالمظلمة، والمتسلح بالمسكنة، والموظف للغير ضد الغير، من أجل الأنا المرضية. وعليه، لا تبحث عن الحقيقة معهم فيما ترى بل فيما لا ترى، وكن متأكدا من أن وصولك إلى الحقيقة مع هؤلاء القوم تكمن أساسا في قدرتك على إزالة كل وسائل التمويه الحربائية التي جعلت رؤيتك تتيه، ولا ترى من الصورة إلا ما يراد لها رؤيته.

يتناول التأمل سلوك التمويه والتضليل كاستراتيجية نفسية معرفية تهدف إلى السيطرة على العقول والنفوس عبر إعادة صياغة الحقائق وقلب المواقف، وتُعتبر مؤشراً على إفلاس أخلاقي عميق.

سيكولوجياً، تُعد "الحربائية "خاصية تمويهية عميقة الجذور، هدفها خداع الذات أولاً وقبل كل شيء لتجنب الإحساس بالاستياء، الألم، الدونية، والخوف الناتج عن حقيقتهم المفضوحة أمام الإسلام. هذا السلوك هو "شهوة نفسية "مرضية يتم إشباعها بمزيد من التضليل، وهو مؤشر ذكاء ثاقب لكنه موظف بشكل سلبي ومرضي. الحربائيون يسعون ليكونوا "غير مرئيين على حقيقتهم"، فيتماهون مع محيطهم (تغيير لون الجلود والأفكار) لإلباس أهدافهم الحقيقية (السيطرة والسطوة) لباس الكذب والخداع، مستغلين الشعارات الإيجابية (كالعدالة والديمقراطية) كوسائل تمويه وتضليل.

فلسفياً ومعرفياً، يمثل "لبس الحق بالباطل "محاولة لإعادة صياغة الوجود، حيث تُوظف حيل ماكرة لجعل الباطل حقاً، وقلب المفاهيم: (الصادق غبي، العادل ظالم، الكذب خلق حسن، والقمع نظام). هذا السلوك هو إفلاس أخلاقي ومعرفي عميق؛ لأنهم لا يتحملون "الحقيقة العارية العذراء النظيفة "التي تفضح أساطيرهم. لذا يلجؤون إلى "الكذب المرضي "كملجأ آمن يوارون به سوءاتهم الأخلاقية، سعياً لكتم صوت الحق وقهر أهله.

اجتماعياً وأخلاقياً، يشير التأمل إلى أن هذه الحربائية، التي هي في أصلها عند بعض الحشرات وسيلة دفاع وحماية، تتحول عند هؤلاء إلى وسيلة سيطرة وسطوة على حقوق الغير .الوصول إلى الحقيقة مع هذه الجماعات يتطلب من الآخرين "إزالة كل وسائل التمويه "الحربائية والبحث عن الحقيقة "فيما لا يُرى "(في النوايا والعمق) بدلاً مما يُرى (في الشعارات والمظاهر).

التأمل القرآني الثاني: الاستثناء الزائف: سيكولوجيا الاندماج التفكيكي وبيداغوجيا اليقظة النقدية

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

الآية 42 من سورة البقرة

لا يخرج تأملنا الثاني في حربائية عبدة العجل عن الأول إلا في تفكيك مزيد من مكونات خاصية الحربائية لدى هؤلاء القوم العراة أخلاقيا، ومن متعلقات حربائيتهم حسب نص الآية أعلاه أنهم يعلمون أنهم مخادعون، لكنهم مستعدون للكذب على الناس، وعلى أنفسهم، فهم فنانون حقيقيون في تغيير ألوانهم، وأفكارهم متى استدعى الأمر ذلك، فحربائيتهم عن علم، وقصد، ولها أهداف موصلة إلى كل شيء إلا إلى الحق والعدل. فهم ليسوا هم عندما يلتقون مع الأصدقاء، والأعداء، والمحايدين، وحالتهم النفسية تجاه مخاطبهم، وطبيعته تحدد لهم نوع المبادئ، والأفكار، بل الأخلاق، والأشكال التي سيظهرون بها أمامه بما يوافق، ويستدرج الآخر محل التمويه، لذلك كانت لهم لحظات عصيبة في التاريخ خصوصا عندما تنكشف حربائيتهم لمن آمنوهم، ونصروهم، وآووهم، فإذا بهم يتحولون إلى مستهدفين، ومتألمين من سلوكات الحربائيين، وتكون ردة فعل الضحية بعد استرداد قوته عنيفة تجاههم إما تنكيلا، أو قتلا، أو تهجيرا، أو حشرا في مكان في زوايا خاصة بهم فقط، وكأنهم أذى، أو مرض معد يجب الابتعاد عنه، والحذر منه بأخذ كل أشكال الحيطة والحذر.

وإذا كانت للناس حاجة مستمرة إلى الانسجام، والاندماج في محيطهم، فإن عبدة العجل عكس ذلك تماما، إذ إنهم يظهرون الاندماج من أجل الانعزال، والتميز عن الغير، ويظهرون الانسجام من أجل الوصول إلى التنافر والتباين، وهذا يسري على أشكال العيش المشترك، والتجارة، والصناعة، والفلاحة، وكل نشاط دخله قوم البقرة والعجل، فغاية سعيهم الاندماج من أجل التفكيك، والتشتيت، ليسهل الانقضاض والتدمير، فاعتقادهم الدائم في الأفضلية الخلقية الممنوحة لهم من ربهم بناء على اعتقادهم تجعلهم متحررين من كل الأنظمة، والقوانين، والضوابط التي سنتها البشرية لأنهم شعب اختاره الله، ليتميز عن كل الشعوب بل لتخدمه وتتبعه. إنهم لم يتركوا خداعهم حبيس الأرض بل وظفوه مع رب الأرباب، وفي هذا الأمر قصص كثيرة لا مجال لسردها في هذا المقام، ولهذا يعتبر كتاب المسلمين أكبر فاضح لنفسية عبدة العجل، وحيلهم، ورذائلهم، ولذلك يعتبرون المسلمين أعدى أعدائهم على الإطلاق. لا تتعجب من ابتسامتهم، ومساعداتهم، وانفتاحهم، وتقابل كل ذلك بالمثل، بل تساءل قبل الإقبال على التماثل مع سلوكاتهم. ما غايتهم؟ ما أهدافهم غير المعلنة؟ إنهم لا يفعلون شيئا حبا فيك، ولا حبا في بلدك، ولا لأنهم يريدون العيش في انسجام مع ثقافتك، بل لأنهم يريدون بلوغ شيء مضمر بواسطة شيء معلن.

وعليك أن تتأكد أنه ليس أمرا إيجابيا لك لكنه نافع لهم، لذلك ابحث في لغتهم تجاهك، وضواضائهم وراءك وأمامك، وحركاتهم أمامك، وسرعتهم وبطئهم معك، ونغمة أقوالهم معك، ومظهرهم وهم يزورونك، وأنت تزورهم، وما يركزون عليه، وما تركز عليه أنت، أين يكمن حرصهم؟ وأين يظهر

تباطؤهم.... إنهم محترفون في تغيير كل ذلك بحربائية مخادعة ظالمة، ومدمرة، وتأكد أنهم لو اكتشفوا أنك اكتشفتهم، فإنهم مستعدون لتدميرك بأية طريقة متاحة أمامهم، لأنك لا تعدو أن تكون حشرة في خدمة قوم فضلهم الله على جميع الأقوام في اعتقادهم، ألم يجعلوا معاداتهم التي ليست إلا انتقادهم جريمة يعاقب عليها في كثير من دول العالم، ألم يوظفوا آلام أجدادهم في خلق آلام عند غيرهم، فالتاريخ عندهم ليس عبرة نحو الاندماج في الانسانية، بل خزان من الأحداث التي يجب أن توظف لخلق حالة استثائية، لشعب استثنائي، بطرق استثنائية، في أرض استثنائية، بقوانين استثنائية، وقرارات استثنائية، وأسلحة استثنائية... لقد أوصلتهم الحربائية إلى الاستثناء من كل شيء، وفي كل شيء.

تتمثل الخلاصة الجامعة للأبعاد الثلاثة في أن التكذيب والتمويه أي الحربائية هو ظاهرة مركبة ومتكاملة الأركان:

فلسفياً/معرفياً :هي إفلاس أخلاقي وظُلم معرفي ينطلق **من أيديولوجيا الاستثناء والأفضلية المزعومة**، حيث يرى العقل المتحصّن بها نفسه مُطلقاً ويُبرّر قلب الحقائق (لبس الحق بالباطل) كحق طبيعي له، ليُصبح الكذب منطقاً والفساد صلاحاً.

سيكولوجياً :**هو آلية دفاعية مَرَضية نابعة من التمركز حول الذات**، حيث يُظهِر الفرد الاندماج والانسجام كقناع للهروب من حقيقته المأزومة تاريخياً، وتكون الغاية الحقيقية هي التفكيك والسيطرة والانعزال، **مع الجاهزية التامة لتدمير من يكشف خداعه.**

بيداغوجياً/منهجياً :العلاج والمواجهة تتطلب التربية على اليقظة النقدية والأمانة المعرفية، وعدم الاكتفاء بالظاهر، بل تحليل السلوكيات المعلنة بدقة (اللغة، الأفعال، المظهر) للوصول إلى النوايا والأهداف المُضمرة، وتأهيل العقل لامتلاك بصيرة نافذة تُميّز الحق من الباطل وتُحصّنه من خداع الحربائية.

التأمل القرآني الثالث: النكث: سيكولوجيا الوعود السرابية وبيداغوجيا التحرر من الارتهان الوظيفي

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (40))

الآية 40 من سورة البقرة

ماذا يعني أن ينادي الله عز وجل في عليائه عبدة العجل بنداء تذكير خاص بالكم الهائل من النعم التي أسبغ عليهم، ويربطه بضرورة وفائهم بعهده عز وجل ليقابله وفاء الله لهم بالجزاء الحسن؟

أكيد أن هذا الربط يحيلنا على سؤال ماهية الوعود أصلا؟ ولماذا يأمر العلي القدير عبدة العجل بالوفاء بها؟

ليست الوعود في جوهرها إلا اتفاقات ملزمة، أو عقود ملزمة تستند في إلزاميتها إلى عمقها المعياري بحكم صدورها عن الله العلي القدير في سياق الآية التي نحن بصددها، وهي بذلك اتفاقات لها تبعات أهمها الوفاء بها. وعليه، فهي بحكم طبيعتها هذه تقع في عمق وجوهر الأخلاق، وعبدة العجل لا أخلاق لهم. والله عز وجل عليم قدير، حكيم في أمره ونهيه، ويتوجه لكل قوم بما ينقصهم عسى أن يرتقوا بمستواهم ويلامسوا مراد الله لهم، ولأن قوم البقرة أوتوا بعمق وقوة من جانب أخلاقهم، فإنك ستجد القرآن الكريم كله يفضح انزياحاتهم الأخلاقية تجاه الله، والأنبياء، والناس، والحجر، والشجر...، ولا تستغربوا من عدم وفائهم لأنبيائهم، بل من عدم وفائهم لربهم لأن الوعود العجلية وعود حيوانية لا ترقى إلى مستوى الإنسانية، فالوعد مرتبط بالوفاء، وهذا الأخير يحيل على مغالبة الهوى الحيواني الذي يسكنهم، وهو بالضبط ما لا يتقنونه عن قصد، وهوى، وإصرار.

إن الشخصية العجلية مسكونة بالطبيعة الحيوانية الغلابة، أكل، وشرب، ومتعة، وسلطة، وقهر... تماما كما في الغابات الحيوانية، بل تستهدف جعل باقي المخلوقات تابعة، وخادمة لها تماما كما هو في قانون الغاب، بل لا تطور شعورا بالذنب، ولا بالألم، ولا بوخز الضمير عندما تخادع، وتقتل، وتغتصب، وتعري، وتسطو على الحقوق تماما كما تفعل الحيوانات. ولاحظوا أن توجيه الله توجيه مستقبلي أي أنه توجيه يلامس ما عليهم أن يقوموا به في مقبلات الأيام كي ينالوا وفاء الله وجزاءه، وقد أظهر لنا التاريخ المعاصر أن هؤلاء لا ولم ينفعهم الخطاب الرباني المستقبلي، الذي يحمل ضمنيا نوعا من الأمل بأنهم سيغيرون من سلوكاتهم، ويرتقون بأقوالهم وأفعالهم إلى مرتبة تستحق رضا الله. يذكرهم الله تعالى بقوته لكي يساعدهم في الاشتغال على أنفسهم، ويأمرهم أن يرهبوه لأن لهم في تاريخهم من الشواهد والأحداث ما يكفي للدلالة على قوة، وجبروت، وانتقام العزيز الحكيم. يؤكد التاريخ المعاصر والأحداث التي نعيشها في مسرى نبينا أن عبدة العجل تألهوا، وتربوا، ولا يرون في الكون إلا أنفسهم، ولهذا تبعات يقينية ربانية بعد انتهاء مهلة الرحمن الرحيم، ودخول مرحلة الشديد الانتقام ذي الطول.

لذلك وبحكم خلفيتي الاعتقادية أتعجب من منسوب الثقة التي يضعها البعض في الشخصية العجلية، ويعقد معها الاتفاقات، وهي أصلا لم تف بأي اتفاق لا في الماضي، ولا في الحاضر، لا مع الناس، ولا مع الأنبياء، بل ولا مع الله. وللإشارة فإن الحالات الاستثنائية منهم لا أدخلها في قطيع الأبقار والعجول، بل ارتقت يقينا إلى مستوى الإنسان ولا يسري عليها ما أدونه بخصوصهم، ولقد استغربت من صدفة أو ربما قدر مفاده أن من يرعى هذا القطيع اليوم هم رعاة البقر بالضبط، فقلت سبحان الله، لقد التصقت بهم خاصية البقر حتى أن الله سخر لهم قوما يسمون أنفسهم برعاة البقر، فوافق الراعي رعيته في الجنس والكنه، والشكل، والدور..

لا تتعجبوا أنكم لو تابعتم قراءة الآيات في سورة البقرة، وركزتم أو لنقل عمقتم النظر في توجيه الله لهؤلاء القوم بأن يوفوا بعهودهم تجاهه عز وجل، وهو غير محتاج لهم، أن هذا التوجيه ربما فهمه القوم على أن الله يطلب منهم شيئا يحتاجه، وبذلك فإنهم يقومون بشيء لصالحه وهم من هم، فالإطار المعياري الذي يحكمهم غابوي بقري لا يحمل أخلاقا، ولا منطقا حتى تجاه الله. وهكذا وبحسب كل ما نراه من السلوكات المعاصرة لهؤلاء القوم يدخل قوم البقرة في معضلة أخلاقية مع وعودهم، والالتزامات المتعلقة بها، لكنهم غالبًا لا يرون أنه من السيئ عدم الوفاء بها، فهم شعب خاص، وله مكانة خاصة حتى في عدم الوفاء، وسيجادلون غيرهم بيقين العجل القوي في الحظيرة بأن العواقب ليست سلبية للغاية، وأننا استثناء حتى في تعامل الله معنا، قال تعالى: "قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق"، سورة المائدة: 18.

يرى التأمل أن نداء الله لعبدة العجل بالوفاء بالعهد هو محاولة للارتقاء بهم من "الإطار المعياري الغابوي" إلى المستوى الإنساني والأخلاقي، لكن هذه الشخصية مسكونة بـ"الطبيعة الحيوانية الغلابة "التي تجعلها عاجزة عن الوفاء بالوعود.

سيكولوجياً، تُوصف الشخصية العجلية بأنها مسكونة بـ الطبيعة الحيوانية الغلابة ، وتستهدف جعل الآخرين تابعين وخادمين لها تماماً كما في قانون الغاب .الأهم سيكولوجياً هو أن هذه الشخصية لا تطور شعوراً بالذنب أو وخز الضمير عند الخداع، القتل، أو السطو على الحقوق. هذا التجرد من الشعور الأخلاقي هو ما يجعل الوعود تُعامل كـ "وعود حيوانية" لا ترقى إلى مستوى الإنسانية، حيث أن الوفاء يتطلب مغالبة الهوى الحيواني الذي يتقنونه عن قصد وإصرار.

أخلاقياً ومعيارياً، الوعود هي في جوهرها "اتفاقات ملزمة" تقع في عمق الأخلاق، لكن قوم البقرة لديهم معضلة أخلاقية مع التزاماتهم. فهم لا يرون أن عدم الوفاء سيئ، ويعتقدون أنهم "شعب خاص " و"استثناء "حتى في تعامل الله معهم. هذا الانزياح الأخلاقي هو ما يفضح انزياحاتهم المتكررة تجاه الله والأنبياء والناس. توجيه الله لهم بالوفاء يُفهم من قبلهم بشكل معكوس، وكأن الله يطلب منهم شيئاً يحتاجه، مما يؤكد أن إطارهم المعياري "غابوي بقري" لا يحمل أخلاقاً حتى تجاه الله.

فلسفياً ووجودياً، يشير التأمل إلى أن الوفاء بالعهد هو الشرط الضروري للارتقاء إلى مرتبة تستحق رضا الله وجزاءه. لكن تأله عبدة العجل وتربيهم (لا يرون في الكون إلا أنفسهم) يقف حاجزاً أمام

هذا الارتقاء. هذا التأله يقودهم إلى الاعتقاد بأنهم استثناء، وهي تبعات يقينية تستدعي في النهاية "قوة وجبروت وانتقام العزيز الحكيم "بعد انتهاء مهلة الرحمن الرحيم. الثقة المطلقة في هذه الشخصية المعجونة بعدم الوفاء، كما يراها التأمل، هي ثقة في غير محلها، لأنها لم تف بأي اتفاق لا في الماضي ولا في الحاضر.

التأمل القرآني الرابع: عبدة العجل وعمق الاضطرابات النفسية 4: العناد بالمقلوب

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (61)).

الآية 61 من سورة البقرة

تتضمن هذه الآية خصائص متعددة للشخصية العجلية كما وصفها الله عز وجل في كتابه العزيز، لذلك أقول دائما إن القرآن هو السيرة الذاتية الحقيقية التي تفضح سلوكات عبدة العجل، وهي سيرة ربانية، وهذا معناه أنها تمثل عندي منتهى الصدق، والحق، والعدل. أستطيع بدون أي شك أن أقول بأن عبدة العجل ظاهرة بشرية خاصة اجتمع فيها من الشر ما تفرق في كل شعوب الأرض. وسأقف هنا فقط عند قولهم لنبيهم موسى عليه أفضل الصلاة والسلام: "ادع لنا ربك". إن القوم وهم يستمتعون بنعم الله، ويرون الآيات، والمعجزات، ويخالطون الأنبياء لا يعتقدون رغم كل ذلك بأن رب موسى هو ربهم، فصيغة الخطاب تحيل على عدم الإيمان، وتحيل على رفضهم لرب موسى، إنهم مستكبرون وهم في حالة ضعف، ومنكرون وهم أمام النبوة، وغير مؤدبين لا مع نبي الله، ولا مع الله عز وجل، ولقد قلنا في التأمل السابق أنهم لا أخلاق ولا خلاق لهم، ولقد كرروا صيغة الخطاب التشكيكية تقريبا في كل حواراتهم مع موسى عليه السلام، "قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي....".

إن هذه الصيغة في الخطاب تحيل كذلك على العناد كسمة ملازمة لهؤلاء القوم، ولاتزال تتجلى في كل قراراتهم أمام كل شعوب الأرض، وأمام كل مؤسسات العالم، وكيف لا وقد عاندوا ربهم وأنبياءه. إنه عناد مرضي يتمسك فيه صاحبه برأيه، وقناعاته، ولو كانت هي الباطل بعينه، لا يظهرون أمام توجيهات أنبيائهم، ومواعظ ربهم أي قدر من المرونة التي تحيل على التفكير النسبي، فهم دغمائيون، ولو على الباطل، وبالباطل، وفي الباطل. وهذا العناد هو سبب انغلاقهم، وكآبتهم، وتعاستهم المؤجلة عبر التاريخ. ولا يخفى أن المعاند يعاني يقينا من تنافر معرفي بخصوص موضوع العناد، إذ أن معتقداته، وأفعاله، وتصوراته غير منسجمة مع بعضها، ويخاف عبدة العجل بناء على ذلك من أن تهتز صورتهم التي بنوها حول أنفسهم. وعليه، فالأسلم لهم أن يعيشوا متنافرين على أن يعيشوا متصالحين مع خصوصياتهم كبشر، إذ لا يتحمل عبدة العجل أن يعتقدوا بتفوقهم، وفي الوقت نفسه أن يكونوا تابعين، أو شاكين، أو نسبيين، أو مخطئيين، فهم البشر الكامل الذي يعتبر نفسه شعبا لا شعب فوقه، وأنه اختيار الله للبشر فوق الأرض، ولذلك لا يمكن أن يتحمل أن يكون ضعيفا، أو مخطئا في مواقفه حتى أمام رب الأرباب، إذ أن ذلك يحيل يقينا في عمق اعتقادهم على انخفاض احترامهم لذواتهم، وهويتهم المتفوقة خلقة، إنها نوع من الحماية لاعتقاد الكمال الموهوم، وربما خوفا من مجهول إذا تساوت البشرية معهم في اعتقادهم، واضطروا لتقديم تنازلات لغيرهم من الأمم.

لا يخفى ما لهذا العناد من مساوئ على القوم، ومحيطهم، وكل من يعاشرهم، بل ربما على البشرية جمعاء في الظروف المعاصرة حيث الاصطفاف، والتدمير بالأسلحة، والأفكار الخطيرة. إن عنادهم دليل على عدم قدرتهم على التكيف، وضعفهم في فهم غيرهم، والاندماج معه أيا كان، ومن أية ثقافة، فلا يجتمع عندهم العناد، وبناء التفاهمات، والتشارك، والتواصل. وعليه، يكون مصير المعاند أن يدمر نفسه بنفسه، وقديما قالوا إن أسرع طريقة للسقوط هو العناد الجامد، بل إنه من علامات الحمق في بعض الثقافات، لأنه يحول بينك وبين التغيير. ومن سوء حظ هؤلاء القوم أن جذور عنادهم تكمن في طريقة تشكل شخصيتهم التي بحكم معتقداتهم أصابها تضخم مرضي في الأنا، حتى أنها أضحت شخصية نرجسية، متطرفة، مرضية بامتياز، تدمر نفسها معتقدة أنها تطورها، تتجاهل النصيحة لظنها أنها مستغنية عنها، تضيع مكانتها بين الأمم لوهمها أنها فوق الأمم، بل وتتجاهل بذلك نتائج هذا كله مع الله، والناس معتقدة أنها شعب الله الذي لا شعب فوقه، وأنها تستحق أن يتعامل الله معها بالاستثناء، لأنها من أحبائه، وأبنائه.

وجماع القول أن العناد بالمقلوب هو اضطراب تتشابك فيه النرجسية النفسية (تضخم الأنا) مع الدغمائية الفلسفية (رفض الحقيقة النسبية)، مما ينتج عنه عجز بيداغوجي/اجتماعي يتمثل في فقدان المرونة وفشل التكيف. هذا العناد هو في حقيقته **حماية وهمية** لـ "هوية متفوقة خِلقة"، ولكنه يؤدي عملياً إلى الانغلاق والكآبة، ويُعتبر أسرع طريق **للسقوط والتدمير الذاتي**.

سيكولوجياً، العناد هو اضطراب مرضي ملازم للشخصية العجلية، وجذره هو تضخم مرضي في الأنا جعلها شخصية نرجسية متطرفة. هذا العناد ليس مجرد تمسك بالرأي، بل هو حماية وهمية لـ "اعتقاد الكمال الموهوم "و"هوية متفوقة خِلقة"، حيث لا تتحمل هذه الشخصية أن تكون تابعة، شاكة، أو مخطئة، حتى أمام رب الأرباب، خوفاً من انخفاض احترام الذات. هذا العناد يؤدي إلى التنافر المعرفي (عدم انسجام المعتقدات مع الأفعال) لكنهم يفضلونه على التصالح، ويؤدي بهم عملياً إلى الانغلاق والكآبة والسقوط.

أخلاقياً وفلسفياً، يظهر العناد في صيغة الخطاب "ادع لنا ربك"، والتي تكشف عن الاستكبار وإنكار الإيمان وعدم الأدب مع النبي والله، مما يؤكد أنهم لا أخلاق ولا خلاق لهم .هذا العناد بالمقلوب هو دغمائية على الباطل، حيث يرفضون أي مرونة أو تفكير نسبي، مما يحول بينهم وبين التغيير الإيجابي، ويجعلهم يعتبرون أنفسهم "شعب الله الذي لا شعب فوقه "والمختار للاستثناء.

بيداغوجياً (اجتماعياً)، يُعتبر هذا العناد عجزاً عن التكيف وفشلاً في فهم الآخرين والاندماج معهم، مما يفقدهم القدرة على بناء التفاهمات والتشارك والتواصل. نتيجة هذا السلوك هي أن "المصير تدمير الذات بالذات"، وقد قوبل هذا الاستبدال للأدنى بالذي هو خير (البقل والبصل بالمن والسلوى) بـ "ضرب الذلة والمسكنة "عليهم، كجزاء رباني على كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء واعتدائهم.

التأمل القرآني الخامس: أنطولوجيا العناد بالمقلوب وبيداغوجيا الانغلاق الانتحاري

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ (25))

الآية 25 من سورة المائدة

تحيل هذه الآية على وصول نبي الله موسى إلى حدوده القصوى مع عبدة العجل، ودعوني أتساءل معكم كيف يمكن لقوم أن يوصلوا نبيا مؤازرا من أخيه، ومؤيدا من ربه إلى دعوة ربه للتدخل أمام تعنت، وانحراف، وفسوق قومه، لا بد أن يكونوا على درجة عالية من الخداع، والتقلب من حال سيء إلى أسوء، دون تخلق بأي خلق ضابط للسلوك، أكيد أنهم بنص الآيات السابقة واللاحقة للنص أعلاه مارسوا كل أشكال التمرد على نبيهم وأخيه، وليس المجال هنا للتفصيل في جزئيات ما فعلوه لأنه متاح في نص الآيات القرآنية بالتفصيل الدقيق، لكن كل ذلك يحيل على قدرة هؤلاء القوم الخارقة على الاحتيال على أنبيائهم، سواء بسلوكاتهم، أو حواراتهم العبثية لغويا، واللامنطقية بنائيا، والمتعالية، أو المستهزئة أخلاقيا، يتبعون أهواءهم بتوظيف وسائل غير شريفة، فيها كثير من الخداع والاحتيال. ألا يكون للقوم بناء نفسي خاص بهم فيه كثير من الإبليسية، وقليل من الإنسانية، وهي بذلك شخصية زاوجت بين الذكاء الإنساني، والخبث الإبليسي، لدرجة أنهم ناجحون بشكل كبير في مهمتهم التمردية لتملكهم لمهارات كاملة، وقدرات عالية معرفيا، ووجدانيا، واجتماعيا، وسلوكيا، ذات مصدرين مختلفين: الأول إنساني، والثاني شيطاني. وتبعا لذلك، فإنهم يعرفون بشكل جيد كيف يتمردون، كيف يوصلون الناس إلى حدودهم القصوى، كيف يختارون ضحاياهم المحتملين، متى يسكتون، ومتى يتحدثون، وما الصورة التي يقدمون للآخر لإغرائه وإيقاعه في مصيدتهم؟ .... إنها نفس استراتجيات الأبالسة، يأتون الناس من كل الجهات كل حسب طبيعة شخصيته، فهذا من جانب المال، وذاك من جانب المصلحة، والآخر من جانب الجنس، والرابع من جانب السلطة... .

أعتقد أنهم يتقنون فن الفهم، ويلتقطون الإشارات الاجتماعية لكل الطبقات، والفئات التي يتعاملون معها بما في ذلك أنبياء الله، وهم في هذا لا يخافون كثيرا من المجتمع، ولا من الله، بل يمارسون على الكل كثيرا من الكذب، والتضليل مع القدرة على إيهام الناس بأن الكذب حق، والضلال هداية، كما أنهم لا يعترفون بالولاء الدائم لأي أحد حتى لله عز وجل، ونبيهم عليه السلام. فولاؤهم لإشباع حاجاتهم الإبليسية التي تسكنهم، أعتقد أن هذا له وصل كبير بتنشئتهم الاجتماعية، وشتاتهم الطويل، وتعدد مشاربهم، واختلاف معتقداتهم حتى داخل دينهم، وبشكل عميق. ولا تستغربوا من قدرتهم على التموقع مكان الضحية، وتقليدها، بل الإتيان بمشاعر المسكنة، ودموع المظلومية بطريقة احترافية، مع اعتقادهم اليقيني بأنهم يضللون الآخرين لا غير، إنها احترافية وجدانية، تضليلية، عالية لا تستحضر أبدا أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. انظروا إلى قولهم: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون...." وانظروا إلى قولهم: "لن ندخلها ما داموا فيها...." وإلى قولهم: " لن ندخلها أبدا ما داموا فيها..." وقول نبيهم في

آخر الأمر: "فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين.." إنه نداء استغاثة نبوي بالعزيز الحكيم للتدخل، لقد وصل فيه نبي الله وأخوه حدودهما القصوى...

إنهم هم بالضبط من نزل فيهم قوله عز وجل: "وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ". سورة المائدة: 32، أي أن غالبيتهم ستكون مسرفة في الأرض في كل مجالات الحياة، تمتعا، ومالا، وقتلا، وبناء، وتدميرا... ولأن الإسراف تبذير يتضمن جميع الأفعال التي تتجاوز الحد المتعارف عليه، بل فيها إفراط عميق وكثيف يتجاوز حد الاعتدال، جاز أن نقول بناء على كل ما سبق أن قوم العجل لا ينفصلون عن الإسراف في كل شيء حتى في الشر، لذلك لا تتعجبوا أن يكون شرهم هو الشر المطلق على رأي طه عبد الرحمن حفظه الله. كما أنهم بعيدون كل البعد عن الوسطية التي هي خاصية المسلمين التي تميزهم بجدارة عن غيرهم من الأمم.

الخلاصة: من جميل الذكاء الاصطناعي أنه جمع لي هذا النص في الجدول التالي: الشخصية العجلية تُعاني من نرجسية تدمر نفسها داخلياً عبر العناد، وتُجيد تدمير محيطها خارجياً عبر فسقها المُنظّم والذكي، مما يفرض على الطرف الآخر (كما حدث مع النبي موسى) طلب تدخل إلهي لفض النزاع، لعجز القواعد البشرية عن التعامل مع هذا المستوى من التمرد المطلق.

البُعد	الوصف المُركَّز	العمق الفلسفي/النفسي	العو اقب البيداغوجية والاجتماعية
النفسي	تضخم الأنا والتنافر المعرفي	العناد هو نتاج **تضخم نرجسي مرضي في الأنا**، يُنشئ **تنافراً معرفياً** حيث تتعارض الأفعال والمعتقدات. يتخذ العناد وظيفة **آلية دفاعية** للحفاظ على "صورة الكمال الموهوم" والهروب من وصم الذات بالضعف أو الخطأ، مما يؤدي إلى انغلاق الذات والتعاسة المُؤجلة.	**التدمير الذاتي**: يؤدي العناد إلى رفض النصيحة وتجاهل النتائج، مما يجعل الفرد يدمر نفسه ذاتياً معتقداً أنه يُطوّرها، فيفشل في تحقيق النضج الذاتي.
النفسي	الازدواجية الإبليسية-الإنسانية	الشخصية الفاسقة هي شخصية **مُزدوجة** تزاوج بين "الذكاء الإنساني" و"الخبث الإبليسي"، وتمتلك مهارات كاملة في جوانبها المعرفية والوجدانية والسلوكية. هذا المزيج يمنحها قدرة فائقة على **الاحتيال العالي** على الآخرين.	**فقدان الولاء والتضليل الوجداني**: تتميز هذه الشخصية بعدم الاعتراف بالولاء الدائم لأي مبدأ أو ذات (حتى لله)، واستبداله بالولاء **لإشباع الحاجات الإبليسية**. كما أنها محترفة في **تقليد دور الضحية** وتقديم "دموع المظلومية" باحترافية وجدانية عالية لإيقاع الآخرين.
الفلسفي	الدغمائية ورفض النسبية	يتمحور العناد حول **رفض التفكير النسبي** والتمسك المطلق **بالدغمائية** (اعتقاد الصواب المطلق للرأي، حتى لو كان باطلاً). يرتكز هذا الموقف على **فلسفة تفوق وجودي** تمنح الذات حقاً إلهياً في الصواب ("شعب لا شعب فوقه")، مما يُبرّر العناد كسلوك منطقي للحفاظ على هذه الهوية المتفوقة.	**تبرير الكذب**: تتقن هذه الشخصية إيهام الناس بأن **الكذب حق والضلال هداية**، وهذا خلط متعمد بين المقاييس الأخلاقية والمعرفية (الخير والشر، الصدق والكذب)، مما يُلغي الأساس الفلسفي لتقييم السلوك.
الفلسفي	الإسراف	تقوم الممارسة الفسقية على قاعدة **الإسراف المُطلق** في كل	**الفشل الاجتماعي**: يودي العناد بالذات إلى

البُعد	الوصف المُركَّز	العمق الفلسفي/النفسي	العو اقب البيداغوجية والاجتماعية
	والعبثية اللامنطقية	مجالات الحياة (تمتعاً، ومالاً، وقتلاً، وتدميراً)، وهو تجاوز للحد المتعارف عليه يتنافى مع **مفهوم الوسطية** الإسلامي. ينعكس هذا الإسراف في **الحوارات العبثية واللامنطقية** التي تهدف إلى الاستهزاء وتعطيل الحقيقة.	الفشل في بناء علاقات صحية، ويصبح سبباً في "عدم القدرة على التكيف" مع ثقافات وأمم أخرى، جاعلاً المعاند يختار الاصطفاف والانعزال بدلاً من التشارك.
البيداغوجي	التمرد المُنظَّم وفن الفهم	يتمتع القوم بمهارة عالية في **"فن الفهم "**و"التقاط الإشارات الاجتماعية" للآخرين. هذا الفهم يُوظَّف بيداغوجياً (بطريقة سلبية) **كاستراتيجية تمرد كاملة** تُمكّنهم من معرفة كيفية: اختيار الضحايا، توظيف الوسائل غير الشريفة، ومتى يسكتون أو يتحدثون، وكيف يوصلون الآخرين إلى **حدودهم القصوى**.	**اختراق الحدود :(Pushing Limits)** السلوك الفاسق هو نقيض للضبط السلوكي، فهو يتجاوز كل خلق ضابط ويستغل مهاراته المعرفية في **التمرد المُنظَّم** لتحقيق أهدافهم الخاصة.

تأملات في صفات عبدة العجل وأحوالهم

التأمل القرآني الأول: سيكولوجيا وبيداغوجيا التحلل من الميثاق

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا (156)وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (157)بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158)﴾

الآيات من 155 إلى 158 من سورة النساء

تتضمن هذه الآية لائحة من بعض الجرائم الأخلاقية/العملية التي حكاها الخالق عز وجل عن عبدة العجل، وأبدؤها بما يلي:

إذا جاز أن نقسم الناس باستحضار معيار الوفاء، والنزاهة، أو بالأحرى الصدق إلى ثلاثة أصناف، الصادقون، والصادقون نسبيا، والمخادعون، فلا يمكن أن ينتمي عبدة العجل في عمومهم إلا إلى الصنف الثالث، مع بعض الاستثناء أي أننا لا نعمم بالإطلاق، لكن بناء على الواقع المعيش، والتاريخ القريب، وحتى البعيد فإن الخداع من أهم جرائم هؤلاء القوم تجاه الله، والأنبياء، والناس. فالالتزامات الأخلاقية التي من المفترض أن تعطينا أسبابا عملية، وتمنحنا شرعية القيام بشيء محدد، أو الامتناع عنه تخضع عند هؤلاء الناس إلى الهوى غير المنضبط بأي ضابط، حتى ولو كان ضابط المصلحة الخاصة، لأن في كثير من قراراتهم تدمير لمجتمعهم، وعلاقاتهم الداخلية، والخارجية، بل والميتافيزيقية.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن نتيجة أفعالهم ستكون وبالا عليهم، لأنهم يخلون بقاعدة الالتزام، ويعوضونها برذيلة الخداع، مع العلم أن الالتزام، سواء كان أخلاقيًا أم لا، سواء كان دينيا أم لا، سواء كان عقليا أم لا، لا ينفك عن كونه مؤسسة اجتماعية تجريدية مؤطرة لأفعال الخلق. وتتضمن بناء على ذلك معايير معززة إلى حد كبير بالجزاءات، والعقوبات الاجتماعية، أو السياسية، أو الدينية الأخروية. لكن يبقى بناء على ذلك سؤال الدافع إلى عدم الالتزام بالصدق، وتبني الخداع سؤالا مشروعا وقويا في حالة هؤلاء القوم. ما هي الحوافز أو ما هي الأرباح التي يجنونها من الخداع ليصبح منهج حياة؟ وما هي الموانع التي تجعلهم يفرون من الصدق؟ نحتاج بالفعل إلى تفسير هذه الاختيارات المدمرة، ألا يكون لديهم ميزان خاص لمعنى الاختيار العقلاني، والاختيار غير العقلاني، الاختيار الأخلاقي، والاختيار غير الأخلاقي؟ أم أن التفكر في هذا الإشكال باستحضار العقل والأخلاق قاصر ولا يستجلي بشكل كافٍ الخصائص النفسية، والعمليات الوجدانية الكامنة وراء الاحتيال، والخداع عند هؤلاء القوم؟ هنا بالضبط أستحضر قولهم لرسول الله: "قلوبنا غلف"، وهو تعبير إلهي عميق أجراه على ألسنتهم، إنها قلوب محمية ضد الصدق، عليها غشاوة لا يخترقها نور الصدق، إنهم يدعون أنهم خلقوا ممانعين جوانيا لما لا يريدون، ولو كان الصدق والحق في تمام كماله وبهائه. وفي هذا التبرير نفسه تحايل على الله واتهام له بكونه خلقهم هكذا، أو تطوروا حتى أصبحوا هكذا. إنه تبرير خِلْقي غايته تحويل المسؤولية عن الذات إلى الخالق. دهاء في التبرير

يوحي بذكاء إنساني إبليسي فيه كثير من التيه والقلب في الموازين. إنها استراتجية سيكولوجية للهروب من الضغط النفسي، ووخز ما تبقى من الضمير الإنساني لخلق حالة راحة نفسية، اصطناعية، ووهمية سيكذبها الواقع بعد حين.

لا أخفي عليكم أني أعتقد أن لهذا كله وصل بعقدة التفوق الخلقي التي يعتقد بها عبدة العجل، فالمعتقد بالتفوق مولع بتجاوز الحدود التي يخضع إليها من يعتقد في دونيتهم، إذ أنها دون مستواه، ولا تليق بجنسه المتفوق، فهم ناجحون، وأذكياء، ومتفوقون على الدوام. إنه تمرد بالخداع من أجل حماية الصورة الذاتية لأنفسهم عن أنفسهم. كما أعتقد أنها دوامة نفسية لا خروج لهم منها إلا بصدمة أقوى مما يتخيلون، ومن قوم أضعف مما يتخيلون، وبطرق أذكى من يعرفون، وبانقلاب أصدقائهم عليهم بسرعة أسرع مما يتخيلون.

إن لائحة الجرائم الطويلة لدى القوم، وعلى رأسها نقض الميثاق وقتل الأنبياء، ليست مجرد أفعال عارضة، بل هي نتائج منطقية لمنهج حياة يقوم على الخداع .هذا المنهج مُغذّى نفسياً بعقدة التفوق الخلقي التي تبرر للفرد تجاوز كل الحدود الأخلاقية التي يلتزم بها الآخرون. وللتخفيف من الضغط النفسي الناتج عن هذه الجرائم، يلجأ القوم إلى استراتيجية نفسية-فلسفية داهية عبر التذرع بـ "قلوبنا غلف"، ليُحوّلوا المسؤولية عن أفعالهم من الذات إلى الخالق، مُرسّخين بذلك دوامة من التيه والتدمير الذاتي.

أدرج إليك أيها القارئ الكريم كيف جمع لي الذكاء الاصطناعي هذا النص على شكل جدول:

البُعد	الوصف المُركَّز	العمق الفلسفي/النفسي	العواقب الأخلاقية/البيداغوجية
النفسي	عقدة التفوق الخَلْقي	الجريمة والتمرد هنا هما آلية لحماية **الصورة الذاتية** وتأكيد **عقدة التفوق الخلقي**؛ حيث يعتقد القوم أنهم متفوقون، ولذلك فهم "مولعون بتجاوز الحدود التي يخضع لها من يعتقدون في دونيتهم". هذا التمرد هو تمرد بالخداع من أجل حماية الذات الموهومة	يتم استخدام استراتيجية **الهروب السيكولوجي** "قلوبنا غلف" لتبرير الجريمة والهروب من **الضغط النفسي ووخز الضمير الإنساني**، لخلق حالة راحة نفسية زائفة ووهمية عبر **تحويل المسؤولية عن الذات إلى الخالق**.
الفلسفي	ميزان الاختيار المُختل	تتجاوز أفعالهم دائرة الاختيار العقلاني والأخلاقي، فهم يخلون بقاعدة **الالتزام** (كمؤسسة اجتماعية تجريدية مؤطرة لأفعال الخلق) ويستبدلونها **برذيلة الخداع** والدافع للخداع هو **الهوى غير المنضبط**، حتى أنه يدمر مصلحتهم الخاصة وعلاقاتهم الميتافيزيقية، مما يدل على أن لديهم **ميزان خاص** ومُختل لمعنى الاختيار العقلاني.	**تبرير إلهي داهية:** التبرير بـ "قلوبنا غلف" يمثل "دهاء في التبرير يوحي بذكاء إنساني إبليسي"، وهو تبرير خِلْقي غايته **التحايل على الله واتهامه** بكونه خلقهم ممانعين للصدق والحق
الأخلاقي/البيداغوجي	تصنيف الإخلاص ونقض الوفاء	يُصنّف الناس إلى: الصادقون، الصادقون نسبياً، و**المخادعون**، ويُقرر أن عبدة العجل ينتمون في عمومهم إلى الصنف الثالث، لكون **الخداع** منهج حياة و**نقض الميثاق** هو جريمتهم الأولى.	**فشل الالتزام الأخلاقي:** يتمثل الفشل البيداغوجي/الأخلاقي في إخضاع **الالتزامات الأخلاقية** (التي تمنح شرعية القيام بشيء أو الامتناع عنه) **للهوى المطلق**. هذا الإخلال بقاعدة الالتزام، سواء كان دينياً أو عقلياً، هو سبب للوبال لأنهم يفرون من الصدق ويتبنون الخداع كمنهج حياة.

التأمل القرآني الثاني: التوحش الاستعلائي: سيكولوجيا الانتشاء بالدم والافتراء المنهج

(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا (156)وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (157)بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158))

الآيات من 155 إلى 158 من سورة النساء

تعرف سيرورة تطور الإجرام لدى أعداء الإنسانية المعروفين تطورا في درجة العنف، إذ تنتقل من العنف المعنوي إلى المادي بالتدريج، أو دفعة واحدة، فلا تحكمها وثيرة معينة، بل تقع تحت تأثير النفوس المضطربة. وعليه، لا يمكن التنبؤ أبدا بمنحنيات تطورها، إلا أنها دائما في منحنى تصاعدي في الفعل، وشكله، وأدواته، والمعنيين به، فمن نقض المواثيق، إلى التمرد على الله، إلى قتل أنبيائه. يرتبط فعل القتل هذا بقوم العجل في كل عصر سيطروا فيه، بحيث يحسون بانتعاشة غريبة عندما يسمعون صراخ الأطفال، وبكاء النساء، وأنين العجائز، وأتخيل وأنا أراقب عنفهم المعاصر مستحضرا عنفهم ضد أنبياء الله، أنهم يشعرون بانتفاخ أجسادهم مقابل تقلص رؤوسهم، بل ربما تضمحل أدمغتهم، وتغدو أفرغ من الفراغ، وينابيهم الإحساس بضخامة أجسادهم إلى مزيد من القتل، والعنف، انتفاخ يحس معه عابد العجل أن الأرض تهتز تحت قدميه رعبا منه، وينابيه الفراغ الدماغي بصوت مرتفع مزيدا من القتل، مزيدا من القتل، إنك أنت الأقوى، والأشرف، والأفضل، والأعلى في الوجود، والبقية من البشر أهداف لك، وليسوا بشرا، هكذا ينتج عبدة العجل الفظائع، والقتل، والتدمير، والتصعيد المضاعف لكل أشكال التدمير، مع انعدام الإحساس بالذنب من طرف هؤلاء الجناة، بل بتطوير الإحساس بالانتشاء، والانتفاخ، وازدياد الرغبة في القتل والتدمير، ما السبيل أيها الناس لإعادة تأهيل هؤلاء القوم ليعودوا إلى الإنسانية؟

إن الأخلاق والثقافة والإنسانية ليست إلا مجرد هراء عند هؤلاء، وهي موجهة للشعوب من أجل التخدير لا من أجل تحقيقها كقيم إنسانية جامعة، فلا أخلاق ولا ثقافة إلا ما وافق هواهم، وهو يقينا غير معروف لأي أحد بل غير معروف لهم أنفسهم، فلا يمكن لمضطرب معرفة حدود الحق والواجب. تفشل عندهم كل القيم الجميلة في البروز والتسيد، وتعلو فوق البسيطة كل أشكال الدمار والسوء، لأنهم الشر المطلق. لا يمكن لمن هو سيء جدا أن ينتج سلوكا جيدا جدا، بل لا يمكن أن ينتج ولو سلوكا مقبولا. ولا تنسوا أن دم ولحم المسلم عند هؤلاء، ومن ينصرهم لذيذ، وتمزيقه ممتع، وحرقه عبادة، يكاد يكون قتل المسلمين عند هذه العصابة الصهيوصليبية حافزا، أو مولدا للإحساس بالنجاح العقدي، والسياسي، والاقتصادي، وكلما قتلوا ازدادوا جوعا للقتل، وإحساسا بعلو الإنجازات، وتأمينا يقينيا لاستمرار سيادة نموذجهم المتوحش لتأمين مستقبل أحفادهم، وتلقينهم عقيدة القتل والتقتيل، وتحويلهم إلى آلات قتل لاستمرار السيادة والتسيد، تأكيدا للذات، وصونا من منافسة النموذج الإنساني.

تفشل كل النظريات التربوية، والفلسفات الإنسانية، والاستراتيجيات التعليمية في خفض منسوب التوحش الذي يسكنهم ربما جينيا، نظرا لتلبسهم بجزء من جينات الأبالسة. إنهم يقتلون يمينا وشمالا، وكأنهم في فراغ قانوني إلهي وبشري، بل ربما يعتقدون بحكم قناعتهم أنهم شعب اختير في السماء، وعليه، لا يسري عليهم القانون الأرضي لأنهم هم أنفسهم القانون. يتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ عن قتلهم، وجبنهم أنهم جمعوا كل متعلقات الجبن في قتلهم لغيرهم، فلا يقتلون إلا أعزلا، ولا يقتلون إلا بمساعدة رعاة البقر، ولا يقتلون إلا من وراء جدر، أو من فوق الأبنية بالطائرات، أو.... وهم يعلمون أنهم لا استمرار لهم إلا بحبل من الله وقد انقطع، أو حبل من الناس وهو حتى الآن باق ومستمر، وسينقطع يوم ما.

تبعا لذلك، فأي انتصار حققوه أو سيحققونه لا يمكن أن يكون انتصارا خالصا أبدا أبدا... وربما هذا من مولدات عقدهم، إذ إن وجودهم متعلق بغيرهم لا بهم، ورغم ذلك يشعرون بأنانية غير مقيدة ولا محدودة، في مناحي الحياة من تجارة، وصناعة، و... فغناهم وقوتهم معناها إضعاف وتفقير غيرهم. ألا يمكن بعد كل هذا أن ندعي أنهم يعتقدون أنهم هم الصورة البشرية التي تجلى فيها الله فوق الأرض؟ ألا تحيل تصرفاهم على أنهم تألهوا وتربوا؟ إنهم يقتلون خارج كل السلط، وبشذوذ غير مسبوق بغاية الهيمنة المطلقة، وبدوافع العدوانية، والكراهية، والجشع، والاستغلال. ألا إنهم عَلوا عُلوا كبيرا كما قال رب العزة، والنصر لأهل الرباط.

تتضمن هذه الآية أيضا عنصرا آخر لا يجب أن نمر عليه بدون وقفة تأملية، وهو الافتراء، وعليه نقول:

يعتبر الافتراء من بين جرائم عبدة العجل تجاه الله، وأنبيائه، والصالحين من عباده، وهو آلية من آليات التفكير لدى هؤلاء القوم، يسهل عليهم عملية التخلص ممن يعتقدون أنهم أفضل منهم، أو أتقى منهم، أو أقرب إلى الله منهم، أي أنهم بممارسة الافتراء يقومون بعملية إزاحة للواقع غير المرغوب فيه، ويبتعدون عن التصورات الحقيقية التي لا يجب أن تكون حقيقية في حكمهم، بمعنى أن الافتراء فيه ضمنيا معنى الإنكار الموجه للواقع، والوقائع الخارجية التي تفاجئهم، وتصدمهم في خيريتهم الموهومة في شطحاتهم، وأساطيرهم. وفي هذا الإطار، تدخل افتراءاتهم على مريم عليها السلام، وعلى كل الأنبياء الذين بعثوا فيهم دون استثناء، فالافتراء عند عبدة العجل تشويه مقصود، وقذف ممعن تستعمل فيه كل أنواع الشائعات، والحيل للاستحواذ على رأي عموم الناس، وتأليبهم ضد الحقيقة، والصدق، وصاحبهما. إن الافتراء نوع من التلاعب من أجل فرض إرادتهم، وتحوير الواقع ليغدو على الشكل الذي يريدونه، إنه نوع من دفع المحيط كله ليتصرف وفق الطريقة التي يريدونها، ليحققوا أهدافهم بحشر من يخالفهم في زاوية الضعف والهوان. ويعتبر كم الافتراءات والأكاذيب في أحداث أرض الرباط أكبر دليل على تأصل وتمكن آلية الافتراء من نفسية شعب البقرة.

إن غاية عبدة العجل من الكم الهائل من الافتراءات هي إضفاء الشرعية على ما سيأتي بعد الافتراء من احتيال، وتدمير، وتغيير، وجعل كل ذلك أمرا مشروعا بل واجبا، وضروريا، ولا ننسى أن الافتراء فعل مقصود، ومتسلح بالباطل قصد تشويه الفهم، أو قلبه، أو عكسه لسحب المشروعية من

تحت من يستحقها بواسطة من لا يستحقها، والإضرار، والتشهير بالغير قصد تنحيته، وتحييده، أو القضاء النهائي عليه، وهذا سلاح يوظفه عبدة العجل دائما وأبدا حتى يومنا هذا، وتعلمته أقوام كثيرة منهم، وأضحى سلاحا ضد المعارضين الناجحين لتدمير تميزهم، وتفردهم، وتأثيرهم، ومعلوم أن المفترين يجلسون على النقيض من الصدق، وفوق أشواك الباطل التي لا يحسون أبدا بوخزها لفقدانهم حاسة الإحساس، وموت ضمائرهم.

إن الغيرة والاعتقاد بالعلو دافعان أساسيان لدى قوم العجل لإنتاج السلوكات الافترائية، وإشباع الحاجة إلى الفرح المفقودة جراء وجود منافس أنظف وأقرب إلى الله. وعليه، فإن طريقتهم لخلق الابتهاج والسعادة نفسها طريقة شريرة، يسعدون فقط بما يؤلم غيرهم. ولا تنسوا أن الافتراء عملية منظمة تقتضي بذل الجهد في خلق الأكاذيب باعتبارها السلاح الأساسي في سيرورة الافتراء، وترتيبها، ونشرها، والدفاع عنها... إنه عمل دؤوب يقوم به المفترون ضد الصالحين في كل زمان ومكان، ويقودهم في ذلك أبالسة عبدة العجل، أصحاب نظريات تدمير النفوس، والاستحواذ عليها. إن آلية الافتراء له قوة تأثيرية عميقة على الأفراد والمجتمع، تقلب الترتيب الطبيعي للأشخاص، والأفكار، والأشياء، فيغدو الصالح مفسدا، والمفسد صالحا، والجاهل عالما، والعالم جاهلا، والمظلوم ظالما، والظالم مظلوما... يستحيل على أي قوم أن يتقنوا مثل هذا السلاح كما يتقنه عبدة العجل. فهو أداة للتمكن من السلطة، وتدمير المنافسين المحتملين، وإن كانوا أنبياء، وصالحين. وتبعا لذلك، لن تجد صالحا مسلما، ولا عالما مسلما، أو غير مسلم، ولا قائدا عادلا نجا من تنمر عبدة العجل بمحاورة حشره في الزاوية بالافتراءات، والبحث في حياته العامة والشخصية لتدميره، بغاية محو تأثيره المحتمل على برامجهم، وأفكارهم، وسياساتهم، بل إنهم يعملون من خلال أدوات وآليات الافتراء على تدمير المجتمعات بإدخالها في دوامة صراعات، وحروب أغلبها مبنية على افتراءات مصنوعة في مختبرات الافتراء الصهيوصلبية لإدخال مكونات المجتمعات في حالة فوضى، وانعدام ثقة، ودمار يسهل عليهم عملية الاختراق والسيطرة. لكن مع هذا كله فالافتراء يتسلح دائما بالكذب، والكذب عمره قصير، يفتضح مهما طال الزمن، ودوام الحال المبني على الافتراء من المحالات، بل من المستحيلات، قال تعالى: "قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون"، سورة يونس: 69.

إن الإجرام العجلي هو نموذج سلوكي ينطلق من **العبثية المطلقة (فلسفياً)** عبر **الإسراف** والتأله الموهوم، ويتغذى نفسياً على **انتشاء القتل** وغياب الضمير، ويتجسد عملياً في **آلية الافتراء المُنظّم** لقلب الحقائق والسيطرة على المحيط. ورغم أن هذا المسار يؤدي إلى "العلو الكبير" في الأرض، إلا أن وجود القوم يظل **متعلقاً بغيرهم**، ما يولد لديهم عقداً داخلية عميقة، ويجعل مصيرهم المحتوم هو **انعدام الفلاح** لأن البناء على الكذب محال.

هكذا جمع الذكاء الاصطناعي هذا التأمل على شكل جدول عميق بعدما وجهته بيداغوجيا ونفسيا وفلسفيا.

البُعد	الوصف المُركَّز	العمق الفلسفي/النفسي	العواقب الأخلاقية/البيداغوجية
النفسي	**متلازمة القتل والانتشاء**	الجرائم (القتل والافتراء) هي **سيرورة إجرامية تصاعدية** تقع تحت تأثير **النفوس المضطربة**. القتل يولد **انتشاءً غريباً** و**شعوراً بالانتفاخ وضخامة الجسد** يقابله **فراغ دماغي** واضمحلال للعقل، وهذا التضخم الوهمي يولد رغبة جامحة في مزيد من القتل لـ "تأكيد الذات" و"صون مستقبل السيادة."	**فقدان الإحساس بالذنب:** تنعدم لديهم قيمة الإنسانية والأخلاق والثقافة، بل تُعتبر مجرد "هراء موجه للتخدير". وهذا يؤدي إلى تطوير **الإحساس بالانتشاء** والنجاح العقدي بدلاً من الشعور بالذنب تجاه الضحايا.
النفسي	**الغيرة كدافع للافتراء**	الافتراء عملية منظمة لإشباع **الحاجة إلى الفرح، المفقودة** جراء وجود منافس أنظف وأقرب إلى الله. هذا يعني أن سعادتهم مشروطة بما يؤلم غيرهم، مما يؤكد أنهم يعيشون على نقيض السعادة الطبيعية.	**إزاحة الواقع:** الافتراء آلية سيكولوجية **لإنكار الواقع** والوقائع الخارجية التي تفاجئهم وتصدمهم في "خيريتهم الموهومة"، وهو وسيلة للتخلص ممن يعتقدون أنهم أفضل أو أتقى منهم عبر الإزاحة والتشويه.
الفلسفي	**التألُّه والتمرد القانوني**	يربط النص بين قتل الأنبياء والاعتقاد بأنهم **فوق القانون الأرضي والبشري**، وصولاً إلى فكرة **التألُّه والتربب** ("هم أنفسهم القانون"). هذا التصور الفلسفي المتطرف يمنحهم شرعية مزعومة للقتل خارج كل السلط، بدوافع الهيمنة المطلقة والجشع.	**هدم الوسطية:** أفعالهم تضعهم في خانة **الشر المطلق**، نقيضاً **للوسطية** التي هي خاصية المسلمين، وتؤكد أنهم لا يمكن أن ينتجوا سلوكاً جيداً أو مقبولاً، كون الأخلاق والقيم مجرد هراء يخضع لأهوائهم.
الفلسفي	**الافتراء كأداة لقلب الموازين**	الافتراء هو سلاح يُستخدم **للتلاعب بوعي الناس** و**تحوير الواقع** ليغدو على الشكل الذي يريدونه. هدفه الفلسفي هو **سحب المشروعية** من أهلها (الأنبياء والصالحين) وإضفائها على أفعالهم الإجرامية، مما يؤدي إلى **قلب الترتيب الطبيعي** للأشياء: الصالح مفسد، والظالم مظلوم.	**انعدام الفلاح:** النتيجة الحتمية لهذه الفلسفة هي **انعدام الفلاح**، فدوام الحال المبني على الكذب والافتراء من المستحيلات، ووجودهم "متعلق بغيرهم لا بهم" رغم شعورهم بالأنانية غير المقيدة، مما يولد لديهم **عُقداً داخلية عميقة**.
البيداغوجي	**الافتراء كبناء مُنظَّم للهيمنة**	الافتراء ليس عملاً عشوائياً بل "عملية منظمة" و"سلاح يُوظَّف دائماً وأبداً" يتطلب **بذل الجهد** في خلق الأكاذيب ونشرها. الهدف البيداغوجي/الاجتماعي منه هو **تدمير المجتمعات** بإدخالها في دوامة صراعات وفوضى وانعدام ثقة يسهل عليهم عملية **الاختراق والسيطرة**.	**فشل النظريات التربوية:** تفشل كل النظريات التربوية والفلسفات الإنسانية والاستراتيجيات التعليمية في خفض منسوب **التوحش الذي يسكنهم**، مما يجعله تحدياً لا يمكن حله عبر الأطر التربوية التقليدية.

التأمل القرآني الثالث: الطهرانية بالمقلوب ومأسسة الصد عن السبيل

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا (160)وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161)﴾

الآيتان 160 و161 من سورة النساء.

لا يكتفي مجرمو البشرية من عبدة العجل عبر التاريخ فقط بالافتراء، والقتل، بل لم يتركوا حظهم من أية رذيلة إلا وأخذوها، ووظفوها، بل واجتهدوا فيها، اجتهادا لا اجتهاد بعده، ومن جملة ما اعتنقوا من الرذائل الصد عن سبيل الله، بمنع الناس بكل الوسائل من الوصول إلى الله، من الوصول إلى الإيمان الصحيح، واستعملوا في ذلك وبطريقة مقصودة كل أدوات التضليل، والمكر، والكذب، فشخصيتهم دينامية تجاه الشر، لأن تضليلهم تضليل واع، ونشيط، وله أهداف، أهمها صرف الناس عن الحق إلى الباطل. وأعتقد أنهم حتى في حالة صدقهم يكذبون، وفي حالة هديهم يضلون، كذبهم حقيقي، وحقيقتهم كذب.

لا أستبعد أنهم يتزودون بأدوات التضليل في طفولتهم بطريقة واعية، وغير واعية، فيرضعهم آباؤهم وأمهاتهم من ثدي بيولوجي لا حليب فيه، لينضح تضليلا، وكذبا، وإن كان لونه أبيضا، ويعلمونهم في أديرتهم، ومدارسهم أنهم شعب لا شعب فوقه، وأنهم الأعلى، وكل البشر دونهم، فكيف ستكون نفوس هؤلاء الذين لم يتعلموا، ولم يرضعوا حس الإنسانية أبدا. إن رسالتهم الأساسية في الحياة هي التضليل، وهو تضليل يلامس الدين، والدنيا، والعقيدة، والاقتصاد، والسياسة، والسلم، والحرب، وغاية سعيهم منع الناس من الحق أيا كان، والعمل على أن يعيشوهم في خدعة دائمة ما دامت السماوات والأرض، وهم يعتقدون أنهم على صواب.

يعني مسعى التضليل ضمنيا أنهم ضلوا، ثم أضلوا كثيرا، مع ما يرافق ذلك من أحاسيس، واضطرابات لا تشفيها أية مصاحبة سيكولوجية، ولا أي دواء نفسي. صراعات حتمية أهمها تقييمهم السلبي لأنفسهم، رغم اعتقادهم في علوهم، نظرا لواقعهم الاستثنائي بين الأمم، واحتياجهم الدائم لغيرهم، وقلة عددهم، وكثرة أعدائهم. إنها أمة تبدأ منذ الطفولة في تضليل أبنائها، ومن يعاشرهم، ولو أجريت أبحاث على كتبهم المدرسية وما يتلقاه أبناؤهم في مؤسساتهم لوجدنا أن التضليل المقصود هو المقولة التربوية التي تنتظم فيها مناهجهم. وهو ما تجلى مع أحداث أكتوبر في أرض الرباط من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، وتعجب البشرية من حجم التضليل الذي يتعرض له الأطفال، بل ما تعرضت له أمم أخرى بمكر لا حدود له، وكذب فاق كل التوقعات. ولذلك لا بأس من أن أدعي أن الرذائل عند عبدة العجل تحولت إلى قيم أخلاقية، يسعى إليها المربون في سياقهم، وأن القيم الأخلاقية الحقيقية انتقلت إلى أداة لتكبيل الآخر المخالف ثقافيا لهم، أي أنهم يحاكمون الناس بالمثال، والنموذج الإنساني، والقانون الدولي، ويحاكمون أنفسهم بمعاييرهم الخاصة.

لكن رغم كل ذلك فالتضليل ليس عملا بسيطا، لأنهم يقومون به بشكل محترف، بل لا أبالغ إن قلت أنهم حاولوا تحويله إلى علم غايته التحكم في الغير، وتوجيه فكره، وسلوكه، بل والتحكم حتى في ذوقه إن أكلا، أو شربا، أو لباسا ... وتشهد الساحة الأكاديمية تشكل كثير من التخصصات تحت مسميات براقة، غايتها فهم الإنسان، وسلوكاته قصد التحكم فيه، وتضليله بعلم. لا يلعب عبدة العجل في الملاعب غير المناسبة، ولا يخونون أنفسهم عندما يمارسون التضليل، فيحددون ملاعبهم بدقة، وينتقون أهدافهم بعلم يستند إلى قواعد التضليل. ولا أستبعد أن يكون مضمون كتبهم الموجهة لأطفالهم، أن تضليل الآخرين جزء من عقيدتهم من أجل الحفاظ على تميزهم، وتفوقهم، وأنه يجب أن يكثر الضالون الطريق هنا وهناك. وعليه، يتعلم الطفل أن مخالفة الأخلاق الإنسانية مباحة فقط تجاه غير عبدة العجل، ومحرمة في المجتمع العجلي، لأنه مجتمع الطهر، والطهرانية بالمقلوب. وهكذا تتم عملية مأسسة التضليل عقائديا ومؤسساتيا. إن ازدواجية المعايير مبدأ مقبول، بل مطلوب في عقيدتهم التي تنبني عليها سياستهم. ينتقد عبدة العجل كل الأقوال، والأفعال المخالفة للعقل، والقوانين الإنسانية عندما تهم غيرهم، ويوفرون في الوقت نفسه الظروف لضدها بالتمام والكمال للنمو، بل يخلقون لها طقوسا تقلل من حجم التنافر والاضطراب النفسي، الذي سيعاني منه عقلاؤهم إن وجدوا نتيجة العيش بين الشيء وضده.

إن غايتهم إذن هي الوصول بأنفسهم إلى إنتاج تضليل مقنع جدا لأنفسهم، ولغيرهم ممن تم تضليلهم، وهو سعي غرضه طمأنة الوجدان، لا العقل، لكن حقيقته أنه لا يطمئن لا وجدانا، ولا عقلا. ومن أهم أدوات التضليل التي يتسلح بها هؤلاء القوم، الانزياح بالنقاش مع المستهدفين بالتضليل من التركيز على الفكرة، ومنطقها، وقوتها إلى مهاجمة الشخص الحامل لها في ذاته، انظروا إلى قصصهم مع كل الأنبياء، ومع مريم عليها السلام، بل مع الله عز وجل، فلم يتركوا أحدا إلا وهاجموه واتهموه، وألحقوا به كل أنواع السباب. أعيت نفوسهم كل لبيب، وأتعبت كل طبيب، ألم يقل ربنا في عليائه: "**فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين**"، سورة الزخرف: 55. لقد أغضبوا الله فكيف لا نغضب نحن؟ اللهم النصر لأرض الرباط.

الشخصية العجلية تُشكّل نموذجاً للشر المطلق: ذكاء إنساني مُجنّد لخبث إبليسي. هذا النموذج، بنرجسيته المُتضخمة ورفضه المطلق للحقيقة، يتجاوز حدود الضبط البشري والقانوني، مما يفسر اضطرار النبي موسى عليه السلام إلى الدعاء بالفرقة والتدخل الإلهي، اعترافاً بأن الأطر الأخلاقية التقليدية غير كافية للتعامل مع هذا المستوى المُنظّم والذكي من الفسق.

هكذا جمع الذكاء الاصطناعي عناصر هذا التأمل وفق الأبعاد التي طلبت منه ووجهته إليها.

البُعد	الوصف المُركَّز	العمق الفلسفي/النفسي	العو اقب البيداغوجية والاجتماعية
النفسي	**التضليل كفطام بيولوجي**	الشخصية دينامية تجاه الشر، إذ تتشكل لديها **صدمات واضطرابات** لا تشفيها أي مصاحبة نفسية. يربط النص التضليل بـ "رضاعة" الآباء لأبنائهم من "ثدي لا حليب فيه، لينضح تضليلاً وكذباً"، مما يشير إلى أن التضليل هو **بناء نفسي متأصل** يبدأ منذ الطفولة.	**إشباع الحاجة بالشر:** الغاية من الصد والتضليل هي **طمأنة الوجدان**، لكنها في الحقيقة لا تطمئن عقلاً ولا وجداناً. فهم يسعون لخلق ابتهاج وسعادة **شريرة** يتم إشباعها فقط بما يؤلم غيرهم، نتيجة لتقييمهم السلبي لأنفسهم (لقلة عددهم واحتياجهم لغيرهم) رغم اعتقادهم في علوهم.
الفلسفي	**مأسسة ازدواجية المعايير**	التضليل يقوم على مبدأ **ازدواجية المعايير (Double Standards)**، حيث "الرذائل تحولت إلى قيم أخلاقية" يسعى إليها المربون في سياقهم الخاص. بينما تتحول القيم الأخلاقية الحقيقية إلى "أداة لتكبيل الآخر"؛ فهم يحاكمون الناس بالقانون الإنساني، ويحاكمون أنفسهم **بمعاييرهم الخاصة**.	**الانحراف الفكري والأكاديمي :** يسعى القوم لتحويل التضليل إلى **علم غايته التحكم في الغيروتوجيه فكره وسلوكه**، مما يؤدي إلى تشكيل تخصصات أكاديمية براقة هدفها الحقيقي هو **التضليل بعلم**.
البيداغوجي	**التضليل كمنهج مؤسساتي**	**رسالتهم الأساسية** في الحياة هي التضليل، وهو تضليل **واعٍ ونشيط** وله أهداف واضحة (صرف الناس عن الحق). يتم **مأسسة التضليل** عقائدياً ومؤسساتياً عبر المناهج المدرسية، حيث يُعلّم الطفل أن "مخالفة الأخلاق الإنسانية مباحة فقط تجاه غير عبدة العجل"، وهي محرمة داخل مجتمعهم (مجتمع الطهرانية بالمقلوب).	**تدمير حامل الفكرة:** من أهم أدوات التضليل البيداغوجية هو **الانزياح بالنقاش** من التركيز على الفكرة ومنطقها إلى **مهاجمة الشخص الحامل لها في ذاته**، وإلحاق كل أنواع السباب به، مما يهدف إلى تدمير تأثيره المحتمل بدلاً من مناقشة صحة حجته.
البيداغوجي	**الصد عن سبيل الله**	الصد عن سبيل الله هو **هدف عملي ومنهج حياة**، ويشمل منع الناس "بكل أدوات التضليل، والمكر، والكذب" من الوصول إلى الإيمان الصحيح، أو إلى الحق أياً كان، وجعلهم يعيشون في **خدعة دائمة** مع الاعتقاد أنهم على صواب.	**فشل القيم الجميلة:** تفشل كل القيم الجميلة في البروز والتسيد أمام هذا المنهج، وتُعتبر **الأخلاق والثقافة والإنسانية** موجهة للشعوب الأخرى من أجل التخدير، مما يوضح فشلاً تاماً في تلقين القوم أي حس إنساني أو أخلاقي.

التأمل القرآني الرابع: سيكولوجيا الهبوط العجلي، وبيداغوجيا العقلانية كقدر إلهي

تأملوا من الأعلى وابتعدوا عن القاع :

(وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ (7))

الآية 7 من سورة النجم

(سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (1))

الآية 1 من سورة الأعلى

(إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ (20))

الآية 20 من سورة الليل

إذا كنت سأتحدث عن العلو، عن السماء، فمع الأسف يجب أن أسلم لنفسي، ولكم بأنني سأتكلم عليهما، وأنا فوق الأرض، يعني سأتحدث من موضع أدنى على موضع أعلى، ومعلوم أن الذي ينظر من الحفرة لا يرى كل ما هو خارجها، ويعلو عليها. وبناء عليه، لن يكون قولي إلا تأملا يستجيب لفضولي في التفكير، وطرح الأسئلة، وإن لم أجب عنها.

تحيل السماء على النجاح، على الأحلام، على ما نبتغي تحقيقه، ونتأمل رافعين رؤوسنا من نوافذ بيوتنا إلى السماء حيث لا حواجز تحول بيننا، وبين اللامتناهي، كما تحيل نظرتنا إلى الأعلى على الأمل، والآمال، والآلام، والأحلام، وعلى إرادة لا واعية لمفارقة العالم الأرضي المؤجلة، والحنين للعالم العلوي حيث بدأ الخلق.. لكن كيفما كانت الدلالات لحظة نظرتنا إلى الأعلى فهي نظرة تبتغي مفارقة التفكير الأرضي، والسعي لولوج عالم التفكير العلوي المفارق للحسابات الملموسة، وقد تكون نظرتنا غايتها البحث عن حل علوي لمشكل أرضي بوحي علوي، قال عز وجل: "قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا"، سورة البقرة: 144، أو البحث عن حل علوي لمشكل أرضي طبيعي، قال تعالى : "وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" سورة الأنعام: الآية 99.

قد تكون السماء مصدر الحلول للأرض، وقد تكون عكس ذلك، إنها تبعا لذلك، أقوى وأعمق، وأكبر، وربما هي الأصل، والأرض تابعة لها. لماذا ننظر إلى الأعلى عندما نريد أن نتنهد؟ أو أن نركز؟ أو أن نتأمل؟ أو أن ندعو الله؟ ولماذا يتولد لدينا شعور غريب عندما ننظر إلى الأعلى؟ أو من أعلى؟ ولماذا نتحدث عن فهم أعلى، وفهم أدنى؟ ولماذا نصبو إلى الصعود إلى الأعلى؟ أليس في محاولتنا للصعود دليل على سعينا للاقتراب بوعي، أو بدون وعي إلى من نتوجه إليه؟ إلى من نعتقد بأنه في الأعلى؟

إن العلو سمو في المكانة والمكان، تحيل سلوكاتنا مؤمنين وغير مؤمنين على عملنا المتواصل لبلوغ مكان، ومكانة أعلى نبتغيها، ونريدها أجمعين: إنها القرب من الأعلى، وقد نسعى لتحقيقها هنا فتتحقق، ولكن ما أن نبلغ علوا حتى يبدو لنا بأن هناك من هو أعلى، وبأننا أدنى، ثم نعاود المحاولة في التسلق وهكذا دواليك، وتبقى النظرة إلى الأعلى متواصلة معك، ولو بلغت عنان السماء، لأنك تعتقد بوعي، أو بدون وعي أن علوك ليس إلا علوا نسبيا فوقه علو أكبر، وهكذا يغدو السعي إلى العلو سعيا لبلوغ السراب، فكلما اقتربت منه ابتعد منك، لأن العلو المطلق خاص بالعلي القدير، ومستحيل بلوغه.

لكن إذا كان هناك أعلى، ونسعى كلنا لهذا الأعلى مكانا، ومكانة فلماذا نفر من الأسفل؟ من الأدنى؟ نفر من الأسفل في المال، في الترتيب، في المجتمع..... إذن فهناك أسفل وأعلى في كل شيء، وحتى هذا الأسفل دركات، لا درجات، فيمكنك أن تنحدر إلى أدنى دركات السقوط، لكن الأكيد أن غيرك ممن تبنوا مسعى السقوط، واعتبروه علوا سيبدعون أكثر منك في السقوط إلى قيعان أعمق، وأظلم، وأبرد، فالهاوية عميقة لا قرار لها، وما نراه من أعمال عبدة العجل يؤكد كفاية الإنسان العجلي في الهبوط إلى هاوية الهاوية، وحضيض الحضيض، وقعر القعر، وقاع القاع، وحدهم عبدة العجل ومن تبعهم من يتقنون الانحدار، والتهتك، والهبوط حد الانهيار، وهؤلاء لا ينظرون إلى الأعلى أبدا بل إلى الأسفل، لقد قلبوا بوصلتهم، واعتبروا أن الأرض منافسة، ومتحكمة في السماء.

ويقينا أن التفكير في الملكوت الأعلى أعلى شكلا، ومنهجا، ومضمونا من التفكير فيما دونه لكن لا يلغيه. لا تسعوا لعلو يطغي أو يختلط بفساد كما هو الحال مع قوم البقرة. إن الناظر من أعلى إن كانت نظرته منشؤها تموقعه في مكان أعلى، وغير مرتبطة بشعور استعلائي، فتلك غاية أهل العلو العقلاني الأخلاقي الإيماني، وإن كان علوه مولدا للشعور بالاستعلاء، فقد صدق عليه قوله عز وجل: "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" سورة القصص: 4، وقوله تعالى: "تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" سورة القصص: 83.

قد يورث العلو الفساد والظلم أيا كان نوع هذا العلو، ولو كنت مسؤولا فقط عن أسرتك، أو نفر قليل من الناس يعتبرونك أعلى. وعموما، فإن قدرنا هو أن نسير في سيرورة متواصلة من الأعمال المتصلة والمنقطعة الناجحة والفاشلة، الجيدة والسيئة، وجُمَّاعها يشكل الماهية النهائية التي تتخذها شخصيتنا يوم لقاء الله. لنقل أن جُمّاعها يؤلف الهوية الأخروية التي نلقى الله بها. وعليه، فهويتك المتعالية الأخروية آخذة في التشكل في عالم مزدحم من الهويات غير المكتملة، التي تتموقع بشكل مختلف قربا وبعدا بين العلو والحضيض. إن هويتنا لا تكتمل نموا إلا عندما تكتمل دورة الحياة، وتصل إلى منتهاها. ولا يمكن أن تكون دورة ناجحة إلا إذا خلت من كل علو متلبس بالاستكبار، واحتقار الآخرين، فالعلو الإيماني يورث التواضع، وتعرف من خلاله أن فوق علوك علوا أكبر، وأعظم، وأوسع لا يقارن به أصلا. فرحماك يا رب، واجعلها اللهم دورة تؤهلنا لرؤية العالم العلوي، فنحن كائنات ميتافيزيقية بامتياز.

تعتبر الأحوال القلبية حالات جوانية عميقة نسافر من خلالها في عوالم ما بعد الخيال، في سماء عوالم العلو القريب من العلي المتعال، عوالم يصبح معها العالم المادي الأرضي، وما يحتويه طفيليات الوجود لا غير، فما تراه من الإنسان، يتحكم فيه ما لا تراه منه. إنه باطنه الناظر إلى الأعلى، والمرتبط بالأدنى. وتبعا لذلك، لا تجعل نظرك يدور في فلك نفسك، ومحيطها الضيق، لأنها تصلك بالتراب أكثر من النجوم، بل تجاوزها إلى أفلاك النفوس الأخرى إحسانا، وتنبيها، وتعاونا. فنفسك هي عالم الضيق، ولا تتسع إلا باستحضار عوالم أخرى، هي من حيث العدد، والنوع، والجنس، والحجم أكبر وأغنى، وتكون طريقك إلى السمو والعروج بها إلى ما بعد التراب وفوقه. وعليه، فالتمركز يُفقر، والانفتاح يغني، والعلو مرتبط أيما ارتباط بسعة الأفق لا بضيقه، لأن العلو نفسه اتساع في عالم لا متناهي.

تتدافع القيم عبر الذوات في الفضاء العام، تؤثر على بعضها البعض، لذلك ليس السؤال هل هذه القيمة عقلانية أو غير عقلانية؟ بل هل هذه القيمة أخلاقية أم غير أخلاقية؟ لأن العقلانية نفسها قيمة أخلاقية، فنحن لسنا أخلاقيين أبدا إذا لم نستعمل عقولنا فينا، وفي غيرنا، وفي محيطنا الظاهر والخفي. وعليه، فكل تفكر هو تخلق. يستدعي كل تأسيس عقلاني للقيم لزوما استحضار قيمتين: التسامح، والقصاص، باعتبارهما قيمتين عقلانيتين، لأنهما الوسيلة الوحيدة للإجابة عن سؤال: ما العمل لو تعارضت قيمي مع قيم غيري في الفضاء العام بمعناه الكوني؟

وفي سياق محرقة أهلنا بأرض الرباط، وأمام عجزنا كأفراد، وخيانة كل حكوماتنا، نحس أن الواقع تجاوزنا، وأن الذي يحكم الآن ليست القيم، لا الأخلاقية، ولا العقلانية، ولا التي يمكن أن نؤسس لها من الواقع، بل الذي يسيطر هو الهمجية الغربية، والبربرية الصهيوصليبية، في سياق شتاتنا التام، وبلادتنا الكثيفة، فأضحى تسامحنا عجزا، وقصاصنا معجزة. ولكن لا أعتقد أنه يمكن أن نفصل هذا الأمر عن الأقدار الإلهية العلوية خصوصا في الصراعات الكبرى عبر التاريخ، التي تتجاوز قدرات الأفراد إلى الحضارات، فما يصيبنا مما لا نحبه، أو مما نحبه، ويأتي فوق طاقتنا، وعلى غير هوانا، أو حتى لو وافق هوانا، وبعد أخذ كل احتياطاتنا، وحساب كل حساباتنا، واستشارة غيرنا، مع الاعتقاد في بعده التام عنا، لكن رغم ذلك يصادفنا، وهو ما أعتبره تدخلا ربانيا في حياتنا، لأنه أتى خارج قواعد عقلنا وتجربتنا. وهذه الأحداث هي الاستثناء في حياة الناس، أما القاعدة العامة فهي استخدام العقل، والبحث عن القوانين، وتدبير الوجود بمراعاة ما وصل إليه العقل والتجريب، وأحداث اليوم لم يتنبأ بها أحد إلا من خرج بعد حدوثها ليقول لنا كنا نعرف، ونشك، ونظن ... وهذا نفسه من قدر الله: أي أن العقلانية قدر الله، والشعوذة الفكرية، والعملية قدر الله، ونحن من يختار قدرا من الأقدار الإلهية. والأمة في حالتها الآن في بؤرة الشعوذة، أما العقلانية بمعنى إعمال العقل في أقصى حدوده فلا سبيل لنا إليها. لقد اطمأننا إلى التسليم بالموجود دون مساءلته إلى أقصى الحدود، رغم أن الأقدار هي فرص ربانية إما نستثمرها، أو نضيعها، فالعقلانية والقدر بهذا المعنى قيمتان خُلقيتان تلامسان علاقتنا بأنفسنا، وربنا، ووجودنا، ومحيطنا، وأصدقائنا، وأعدائنا. ومن حسن تعبدنا لربنا حسن تعقلنا في علاقتنا بربنا، وبأنفسنا، وبالوجود استعدادا، وقوة، وعلما، وتأهبا مستمرا.

ومن سوء علاقتنا بربنا تعطيل عقولنا، والسماح لغيرنا بتخدير عقولنا، بل والتمتع بالعيش تحت تأثير هذا التخدير، كما هو الحال في واقعنا المشتت المتخلف، فالله يريدنا في حالة وعي، لا في حالة تيهان، وتخدير، لا يرتاح غيرنا إلا إذا رآنا سكارى لا نعلم ما نقول، ولا نفقه ما نعمل، ولا نطرح عليه، وعلى غيره السؤال. إن طرح السؤال مهم بل هو الأهم بالنسبة لنا، ولذلك فالفلسفة بهذا المعنى قيمة القيم ما ارتبطت بالمعرفة، ولم تتحول هي الأخرى إلى دوغمائية تسعى إلى التخدير على منوال ملة، أو نحلة، أو فكرة أيا كان مصدرها ساعية إلى استعباد الإنسان للإنسان. ولكي تستجيب لشرط السؤال عليها أن تلتزم بالمنهج، والبحث عن الحقيقة النسبية، وقبول الصواب أيا كان مصدره، ومعانقة المخالف عند الاختلاف وعدم إقصاءه. فتكون بذلك استجابت لشرط المنهج، والمعرفة، والأخلاق. إن الله عز وجل لا تخيفه فلسفة أحد، وعباده المؤمنون يتخذون مسلك النظر طريقهم إلى الله، إن الذي تخيفه الفلسفة هو الذي بنى بنيانا فكريا، أو عقديا، أو سياسيا، أو اقتصاديا، أو اجتماعيا، ضعيف المنهج، واللغة، والمضمون، يخشى أن تعري عورته أسئلة الفلسفة، يمكن للفلسفة الآن أن تعري الغرب بجهد قليل وبسيط، والذي لا يزال مخدرا، وهو يشاهد ما يشاهد الآن، فاعلم أنه لا يملك عقله، أو أنه معاق، أو متآمر، أو منشق.... .

لا يمكن أن يبقى مخدرا إلا من أصيب بعطل، أو خراب في أدوات تعقله، أو اعتراه عجز أصاب جهاز معالجة معطيات العالم المقروء، والمنظور من الأحداث الكئيبة فوق هذه الكرة الأرضية، وفي أرض الرباط على الخصوص. فالإنسان يبنى معارفه، ويفعل فيها، ويطورها، وينشئ بذلك نظاما معلوماتيا ذاتيا جوانيا به يفك رموز ذاته، ومحيطه، وقد يحصل أن يكون هذا النظام عاجزا أو غير مؤهل، أو ناقصا، أو عشوائيا، أو تسكنه فيروسات معطِّلة، أو أنه هو نفسه تحول إلى فيروس مدمر لذاته، ومحيطه، وبنائه الحضاري، وخائن لأمته، بل وفرح بخيانته، وبذلك يعجز عن الاستجابة للأوامر الخارجية، والداخلية، أو يستجيب لها بالمقلوب. لكن رغم كل ذلك فإننا نعتقد أن نهاية العالم ستكون بنهاية مفسدي العالم أيا كانوا، ويومها ينادي المنادي: "الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"، سورة غافر: 17. لقد آمنا وسنؤمن وسنبقى مؤمنين بأن الله لا ينال عهده الظالمون، قال تعالى: "وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ"، سورة البقرة: 124. لا يمكن أن يكون الظالم إماما للناس في الصلاح أبدا، لكنه يمكن أن يكون إماما للظالمين مثله؛ ولا تنسوا أن الظلمة كلهم بدون استثناء لا عهد لله عندهم، ولا عهد لهم عند الله، كما أن الظالمين قد يتناسلون من ذرية صالحة أو فاسدة، ولهم حواربون وأتباع من بني جلدتنا. لقد تعرى العالم الصهيوصليبي من الملابس، ومن الأخلاق، ومن المنطق، ومن الإنسانية... إنه عار ومتجرد من كل شيء جميل مع بعض الاستثناءات، لقد نزع عنه لباس الإنسان بالتمام والكمال، والسبب يقينا هم عبدة العجل الذين كما تم نشره على وسائل التواصل الاجتماعي استعمروا كل العالم إلا أكناف عسقلان، وإنَّ أفضلَ رباطِكم عَسْقلانُ.

الخلاصة الجامعة هي أن الشخصية العجلية تُشكّل **نموذجاً فريداً من الفسق المعقّد**، حيث تتكاثف لديها كل أدوات التدمير الذاتي والخارجي، مما يجعل مواجهتها تتطلب العودة إلى **العقلانية كقدر إلهي والتواضع كسمو إيماني**، بعيداً عن **الاستكبار الأرضي**.

إليكم جماع تلخيص الذكاء الاصطناعي للتأمل أعلاه:

البُعد	الوصف المُركَّز	العمق الفلسفي/النفسي	العو اقب الأخلاقية/البيداغوجية
النفسي	**تشكّل الهوية الأخروية**	يمثل "العلو" في النفس مصدر **"الأمن النفسي"**؛ فكما ينزل الماء من السماء ليحيي الأرض، يحتاج الإنسان إلى "وحي" أو "معنى" ينزل عليه من الأعلى ليشبع حاجته إلى التوجيه. من الناحية السيكولوجية، الارتباط بالتراب فقط يؤدي إلى **"الاغتراب النفسي"**، بينما الارتباط بالأعلى يمنح الإنسان "الأمل" كآلية دفاعية إيجابية لمواجهة فناء الجسد.	**الهروب السيكولوجي والتنافر المعرفي:** يُعد **العناد** وقول "قلوبنا غلف" آلية دفاعية تُستخدم للهروب من **الضغط النفسي والتنافر المعرفي** الناتج عن تعارض أفعالهم الإجرامية مع ما تبقى من وخز الضمير. يتم تحويل المسؤولية عن الذات إلى الخالق، في محاولة لخلق راحة نفسية زائفة.
النفسي	**الانهيار العجلي**	النفوس التي تدور في فلك ذاتها الضيق **"تُفقِر"** وتصلها بالتراب. بينما **الانفتاح** على "عوالم النفوس الأخرى" إحساناً وتعاوناً هو ما **"يُغني"** ويُسهم في **سعة الأفق**، لأن العلو نفسه اتساع في عالم لا متناهي.	**صيانة الهوية بالتواضع:** لا تكتمل دورة الحياة بنجاح إلا إذا خلت من **" العلو المتلبس بالاستكبار واحتقار الآخرين"**، لأن العلو الإيماني يورث **التواضع** لا الفساد، ويتجنب الهبوط إلى "هاوية الهاوية" التي يتقنها قوم العجل.
الفلسفي	**العلو المطلق ومحدودية العقلانية**	العلو هو سعي فطري مستمر يبتغي القرب من الأعلى، وهو حركة لا تنتهي لأن **العلو المطلق خاص بالعلي القدير**، وكل علو بشري هو علو **نسبي** (سعي لبلوغ السراب). هذا العلو هو مصدر الحلول (الماء من السماء، الوحي) والأمل، ويعكس أن الإنسان كائن **ميتافيزيقي بامتياز**، لا يكتمل وجوده بالارتباط بالتراب فقط.	**التسامح والقصاص كقيَم عقلانية:** يرى النص أن تأسيس القيم العقلانية يستدعي لزوماً قيمتي **التسامح والقصاص** للإجابة عن سؤال تعارض القيم في الفضاء العام. لكن أمام الهمجية والبربرية، يصبح التسامح **عجزاً** والقصاص **معجزة**، مما يؤكد أن الواقع قد تجاوز القيم.
الفلسفي	**العقلانية كقدر إلهي**	القاعدة في تدبير الوجود هي **استخدام العقل** والبحث عن القوانين. ويُشدد النص على أن **العقلانية نفسها "قدر الله"**، وأن تعطيل العقل هو سوء علاقة بالرب. لذا، **فالفلسفة** (بمعنى طرح الأسئلة والالتزام بالمنهج) هي **" قيمة القيم "** التي تُعري الأبنية الفكرية الضعيفة وتُعيد الأمة من حالة "التيهان والتخدير" و"الشعوذة الفكرية" إلى حالة الوعي والقوة.	**علو الفساد:** التحذير من العلو الذي **يورث الفساد والظلم** (كعلو فرعون). العلو الحقيقي هو **" العلو العقلاني الأخلاقي الإيماني "** المرتبط بالتواضع، وليس **" العلو المولّد للشعور بالاستعلاء "** الذي يستضعف الآخرين.
البيداغوجي	**إعمال العقل كفعل تعبُّدي**	يُعتبر **حسن التعقّل** في العلاقة بالرب والوجود هو جزء من **حسن التعبد**. وعليه، فكل **تفكر هو تخلق** . والمساءلة المستمرة للموجود هي استثمار لـ" **الأقدار الربانية كفرص** "يجب استثمارها وعدم تضييعها عبر تعطيل العقول والعيش تحت تأثير التخدير.	**فشل القيم الجميلة:** تفشل كل القيم الجميلة في التسيد، وتُعتبر الأخلاق والثقافة والإنسانية موجهة للشعوب الأخرى من أجل التخدير، مما يوضح فشلاً تاماً في تلقين القوم أي حس إنساني أو أخلاقي.

التأمل القرآني الخامس: العمى العقدي والحجاب النفسي وبيداغوجيا التواضع المعرفي

(قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ (28))

الأية 28 من سورة هود

يصاب كل جاحد بعمى معرفي ناشئ عن شلل في القدرة الإدراكية، نتيجة موقف سلبي من معطى ميتافزيقي ديني. وكل عمى من هذا النوع يمكن اعتباره انتصارا للشهوة على العقل، انتصارا للهوى على النظر، إننا لا نرى فقط بأعيننا، ولا فقط بعقولنا. أدعي أننا نرى بكليتنا، بنفسيتنا، بوجدانيتنا بكل خلفيتنا الواعية، وغير الواعية، وإذا اختلت مكونات النفس ألقت بالغموض على موضوع الإدراك، والفهم، بل أصابتنا بالعمى تجاه موضوع الفهم، ونظل أسيري الانطباعات الأولية المتحكمة في أنفسنا، التي تموقعت في عمق شخصيتنا على أنها معتقدات، لا أفكارا قابلة للتحليل، لذلك جاء في الآية من سورة هود:" فعميت عليكم..." إن هذه الحالة النفسية يستبد بها الظلام، ويلقي بحباله على موضوع الفهم، فلا يظهر منه شيء للمقبل عليه، وبالمقابل فإن النفس المضيئة تلقي أنوارها على مجال الفهم فترى منه ما لا تراه النفس المظلمة. وأفترض أن العمى العقدي مستويات أو درجات من ضعيف النظر إلى المكفوف نهائيا، مرورا بالعمى الجزئي، والرؤية الضبابية. إن ما جعل هذه الرؤية المكفوفة عمياء هي مسلماتها الغارقة في الدغمائية، مع الاعتقاد في كونها نسبية، وغير قابلة للنقاش، إنه اجتماع المتناقضات، وكأني بالشخص له رأسين، وأربعة أعين كلها مطموسة، مع كونها مفتوحة. ولا أبالغ إن قلت أن الظلام النفسي هنا منشؤه التكبر، أو حب السلطة، أو الاحساس بالتعالي... وكلها موجات نفسية عاتية، ومظلمة، ومضللة.

يهدي الدين من يريد أن يهتدي، أي من له رغبة سيكولوجية لفهم المتعالي، ولتجنب كل السوء أو بعضه، يهدي من يستطيع أن يرى ما بعد الطبيعة، أي من يتعالى عن المنظور من الوجود، يهدي من عنده استعداد للكلام مع الله، والتواصل معه، من عنده استعداد ليكون نافعا للبشر ماديا ومعنويا، من يستحضر تاريخ الهداية، والضلالة، ويعتبر به، لا يملك الدين لمتعجرف هداية لأنه تأله، وعميت عليه الآيات. إن العمى بهذا المعنى يصيب الناظر للنصوص المتعالية بنوع من الانطوائية غير الواعية، فقد انطوى بل تمركز إدراكه حول ذاته، حتى انطوت على نفسها. يجعل الظلام الذي يصيب النفس عمليات الرؤيا، والفهم، والإدراك تتشابك، وتفقد توازنها، بل تؤدي إلى الانحلال في مجموع عملياتها. وكأني بالعمى قد احتل العمليات العقلية وعلاقاتها، وبالتكبر والغطرسة احتل الشخصية، وعطل ديناميكيتها، وتفاعلها مع العالم الخارجي. هكذا حال الأقوام التي بعث إليها الله الكثير من الأنبياء. وأهمهم عبدة العجل الذين تحولوا هم إلى ظلام ممتد عبر الأزمنة إلى اليوم، ولن يزيله إلا نور الإسلام.

وعليه، تفقد الأعضاء وظيفتها الحقيقية مع هذا الوضع النفسي، ويغدو الإنسان غير الإنسان، ويعتقد عند نفسه أنه أعقل إنسان، قال عز وجل: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ

قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"، سورة الأعراف، 179. لا تستغربوا من كون العمي عقديا قد غشيهم ظلام التكبر، وحب السلطة، وخلق الأتباع، والسيطرة على الخلق، ومعلوم على رأي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "أن مَن عَشِقَ شَيئاً أعشى (أعمى) بَصَرَهُ، وأمرَضَ قَلبَهُ، فَهُوَ يَنظُرُ بِعَينٍ غَيرِ صَحيحَةٍ، ويَسمَعُ بِأُذُنٍ غَيرِ سَميعَةٍ، قَد خَرَقَتِ الشَّهَواتُ عَقلَهُ، وأماتَتِ الدُّنيا قَلبَهُ، ووَلِهَت عَلَيها نَفسُهُ، فَهُوَ عَبدٌ لَها ولِمَن في يَدَيهِ شَيءٌ مِنها، حَيثُما زالَت زالَ إلَيها، وحَيثُما أقبَلَت أقبَلَ عَلَيها، لا يَنزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزاجِرٍ، ولا يَتَّعِظُ مِنهُ بِواعِظٍ، وهُوَ يَرَى المَأخوذينَ عَلَى الغِرَّةِ". يصعب على الإنسان المتكبر أن يقبل الحقيقة الصادرة عن غيره، لذلك يبحث عن مصدر أعلى منه، ليقبل حقيقة صادرة عن نظيره، والسبب هو الحاجز السيكولوجي الذي اعترى البنية النفسية للمتكبر. لذلك فكل متكبر مريض حتى يتخلى عن كبره، وكل متكبر أعمى عن الحقائق حتى يزيل عنه حجاب أنانيته. قال تعالى: "وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا"، سورة الفرقان: 73.

وجماع القول، يتجلى العمى العقدي كأزمة وجودية ومعرفية مركبة، لا يكمن جوهرها في نقص الأدلة، بل في العطب النفسي للمستقبِل لها. إنها ليست مسألة عدم رؤية بقدر ما هي رفض للرؤية؛ فالفطرة التي أودعها الله في الإنسان لتكون بوصلة الهداية، يتم إخمادها بفعل طغيان الأنا وحصانتها الزائفة.

إننا أمام صراع ميتافيزيقي حاد يُجرى على مسرح النفس: فإما أن تتحرر النفس من أسر الرغبات الدغمائية وتكبر العقل المُدَّعي للكمال، فتصبح "مضيئة" وقادرة على استقبال أنوار الحقيقة المتعالية؛ وإما أن تنطوي على ذاتها وتتمركز حول وهم الاكتفاء الذاتي، فتغدو مظلمة.

هذا الظلام ليس مجرد غياب للنور، بل هو حجاب كثيف من الغطرسة يغشي كل نوافذ الإدراك، مُحولاً العمليات العقلية من حالة توازن وظيفي إلى تشابك و انحلال .وكما بيّنت الآيات، فإن هذه البنية النفسية المعطّلة هي ما يجعل القلب لا يفقه، والعين لا تبصر، والأذن لا تسمع، فيتحول الإنسان من كائن مكرم إلى مرتبة "كالأنعام بل هم أضلّ."

إن الهداية بهذا المعنى هي قرار سيكولوجي بالتواضع، والتخلي عن قناع التعالي. فقط عندما نخرّ على آيات ربنا بقلوب متواضعة، لا "صمّاً وعمياً" كما يفعل المعرضون (الفرقان: 73)، ينكسر حاجز الأنانية ويُزال العمى، وتعود الأعضاء إلى وظيفتها الحقيقية :رؤية الحق وإدراك المتعالي.

سيكولوجياً، العمى العقدي هو شلل في القدرة الإدراكية ينشأ عن انتصار الشهوة والهوى على النظر والعقل. إنه حالة نفسية يغلب عليها الظلام، حيث تمنع النفس المظلمة (المسكونة بالتكبر وحب السلطة والتعالي (من رؤية أنوار الحقيقة، مما يجعل العمليات العقلية تتشابك وتفقد توازنها، ويُصيب الشخصية بانطوائية غير واعية تتمحور حول الذات. هذا الظلام ليس مجرد غياب للنور، بل هو حجاب

كثيف من الغطرسة يؤدي إلى "عشق الشيء "الذي يعمي البصر ويُمرض القلب، وفقاً لمقولة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

فلسفياً ومعرفياً، يُعتبر العمى العقدي أزمة وجودية ومعرفية لا يكمن جوهرها في نقص الأدلة الإلهية) بينة من ربي(، بل في الرفض السيكولوجي للرؤية، حيث يستبد الظلام بـ "مسلمات غارقة في الدغمائية" رغم ادعاء النسبية. إنها مسألة عدم رؤية بالكلية الإنسانية (النفس والوجدان والخلفية الواعية وغير الواعية)، مما يؤدي إلى التعطل الوظيفي للأعضاء (القلب لا يفقه، العين لا تبصر، الأذن لا تسمع)، فينقل الإنسان إلى مرتبة "كالأنعام بل هم أضل "الأعراف: 179.

أخلاقياً وتربوياً، تُصبح الهداية قراراً سيكولوجياً بالتواضع، وليست مسألة إكراه (أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ). الدين يهدي فقط من لديه رغبة سيكولوجية لفهم المتعالي، ويستطيع التعالي عن المنظور من الوجود. ينكسر حاجز الأنانية ويزال العمى فقط عندما تُخرّ القلوب على آيات الله بتواضع وافتقار، لا بـ "صمّاً وعمياً" كما يفعل المعرضون (الفرقان: 73)، لتعود بذلك الأعضاء إلى وظيفتها الحقيقية: رؤية الحق وإدراك المتعالي.

التأمل القرآني السادس: التوحش المُقدّس و النموذج العجلي كعينة مرجعية للشر

(وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ(33))

الآيتان 32 و33 من سورة الدخان

وفقا للتفاسير المختلفة حول تفضيل بني إسرائيل في القرآن الكريم، فإن إجماع المفسرين مفاده أن هذا التفضيل كان في زمانهم، وسبب أفضليتهم أنه كانت فيهم الأنبياء أكثر من غيرهم، وبقدر ما يبدو هذا التأويل مقبولا، بقدر ما يمكن استشكاله، ومساءلته، وعليه سأطرح السؤال التالي: لماذا بعث في هؤلاء القوم عدد كبير من الأنبياء؟ وهل قوله عز وجل: "وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (32) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ(33) " سورة الدخان: 32-33، لا يحتمل تفاسير، وقراءات أخرى؟

أعتقد أن الله اختار من بين خلقه أشد مخلوقاته تعنتا للحق، ومجانبة للصواب، وممارسة للأفعال الشريرة كي يسرد علينا أشكال تمردهم، وحقارتهم التي تفرقت بين الأمم، واجتمعت فيهم، إنه نموذج الشر المطلق على رأي طه عبد الرحمن. إن الاختيار الرباني حكيم في أعلى درجات الحكمة، لأنه اختيار لنسخة لا تتكرر، متفردة في شرورها. إنها نموذج طبق الأصل لكائن شرير الماهية، ويمكن تسليط الضوء عليه لفهم الشر وتبعاته. وبهذا المعنى، فإن النموذج العجلي هو تمثيل مبسط لواقع قوم تمثلوا الشر دما، ولحما، وعظاما، وسلوكا، لذلك نالوا أكبر حظ من قتل الأنبياء والرسل، وتكذيبهم، وتعذيبهم. وعليه، لا يمكن أن يكونوا أبدا نموذجا للخيرية إلا استثناء، وفي لحظة تاريخية معينة، وقصيرة، إنهم العينة التمثيلية لنسق الإبليسية المعانقة للآدمية، والمدمرة لها. اختار الله للإنسانية نموذجا للتأمل والتحليل الذي عانق الشيطان، وتمثله بين بني البشر، فيه قليل من الصالحين، كثير من الأشرار الأبالسة. وكأن الله يبسط أمامنا نموذجا استثنائيا في الانقلابات، والانفلاتات، مع استثناءات في بعض عناصره التي استحقت الخيرية في زمانها، وآمنت إيمانا مقبولا. إن قوله عز وجل: "ولقد اخترناهم على علم على العالمين"، سورة الدخان: 32، يعني فيما يعنيه أنه عز وجل اختارهم اختيارا مقصودا لأسباب ستكتشفونها بقراءة تاريخهم، ومعاشرتهم، وكأن الله يقول لنا تأملوا هؤلاء القوم إنهم نموذج تفسيري، وعينة تمثيلية للشر فوق الأرض.

بسط الله عز وجل أمامنا نموذجا بشريا خاصا لفهم التحيزات، والاضطرابات، والتمايزات العقائدية والإيمانية، نموذج عندما ندرسه يمكننا من التمييز، والتصنيف بين أهل الرسالات بناء على سلوكاتهم، وردات فعلهم على الرسالات، إنه نموذج اصطفاه الله للتأمل فيه، لأنه كنز من المعرفة النفسية، والاجتماعية، والانثربولوجية، والتربوية، والسياسية، والاقتصادية، ففي كل هذه المجالات وغيرها ستظهر شخصياتهم وخصائصها التي سيلبسونها كل مجال دخلوه، أو سيطروا عليه. إنه نموذج

فيه كثير من الأنانية، والتفكك الخلقي، والحسد للأقوام المختلفة، والإحساس بالاستعلاء، وتغليب المصالح الذاتية على مجموع مصالح البشرية، بل والعمل على تبرير كل ذلك بخلفية دينية، قال تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ".

سورة المائدة: 18.

يحثنا اختيار الله لهذا النموذج البشري على طرح أسئلة كثيرة ذات طبيعة انثربولوجية، خصوصا ما يتعلق بماهية الإنسان؟ وبالتالي، وتبعا لذلك: لماذا اختص هؤلاء القوم في الشر أكثر من الخير رغم كونهم يعيشون وسط أقوام جمعوا بين الخير والشر؟ لابد للأنثربولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وغيرها من الحقول المعرفية من خوض غمار البحث في الشخصية العجلية. إن لها خصائص ترجع يقينا لا إلى جيناتها، بل إلى تنشئتها. لا بد وأن للتأثيرات الخارجية ذات الطابع الاجتماعي، إضافة إلى العقيدة المتطرفة دورا فعالا في بناء شخصية فوضوية تمردية، تميل إلى الخروج السريع أو البطيء من الإنسانية إلى البربرية، وتسقط سقوطا حرا في دركات الوحشية، مع الاعتقاد بكونها في معارج الفضيلة. ماذا يحدث في نفوسهم، وعقولهم، وقلوبهم قبل السقوط، وأثناء السقوط، وبعد السقوط؟ كيف يصلون إلى القاع وهم يعتقدون أنهم في القمة؟ كيف يحللون؟ ما معاييرهم؟ كيف يحكمون؟ كيف لا يستحيون من شرورهم؟ كيف لا يشعرون بظلام شخصياتهم؟ لماذا لا يظهرون الاحترام لما يميز البشر أي الإنسانية؟

أكيد أننا كلنا نخفي جانبا مظلما لكننا لسنا مظلمين، وهؤلاء القوم ظلمهم وظلامهم لا حد له، كيف لهم أن يلحقوا آلاما قاسية بغيرهم عمدا مع الاعتقاد أن ذلك إرادة الله، وقربى إليه؟ لماذا لا يتورعون من تطبيق لوائح التدمير على شعب أعزل سرقوا أرضه، وديارة وأمواله؟ أي إيديولوجية هذه التي لا تبقي ولا تذر؟ ألا يساورهم الشك في أفكارهم وأفعالهم فرادى وجماعات؟ هل معتقدهم لا يتضمن قيما إنسانية مشتركة مع باقي الديانات والفلسفات؟ لا أشك أبدا في كون التربية والتنشئة الاجتماعية هي السبب في تدريب أطفالهم على الشر، والتمتع بالقتل، والتصرف بالشر دون الاحساس بالذنب أو الندم، والنرجسية، وتحييد الأخلاق للوصول بهم إلى مستويات عالية من الاعتلالات النفسية، والسلوكية، والوجدانية، والمعرفية. إنها التربية على التوحش المقدس، المؤسس على التقاليد، والإيمان بالاستثناء المقدس، والموجه إلى الإنسان المدنس. وتبعا لذلك، تعمل هذه التربية على إنماء شخصيات ترى الصواب خطأ، والخطأ صوابا، يفعلون الشر بقناعة مقلوبة مفادها أنه فعل أخلاقي مقدس، إنهم ليسوا خارقين، لكن يقينا مرضى مضطربين، واضطراباتهم مقصودة لأن مقاصدهم مقلوبة، وقيمهم مقلوبة، وقناعاتهم إبليسية. إنهم يحترمون أنفسهم المضطربة بشكل كبير تفوق كل الأنفس مكانة فوق الأرض، يستبطن هذا الاحترام لأنفسهم احتقار غيرهم، فهو احترام على حساب احترام، أو لنقل إنه احترام مقابل ازدراء، أكيد أن تصنيفهم على أنهم نرجسيون قد يفتح التحليل على جانب عقد النقص، التي سبق أن تناولتها في تأمل سابق، لكن الأكيد أن قوانين الدنيا وأخلاق الكون مجتمعة لا تهمهم وليسوا معنيين بها، إنهم أصحاب الاستثناءات في كل شيء حتى في القوانين والأخلاق، يقنعون أنفسهم أنهم مركز الكون، والباقي خدمهم، هم

من يحدد مصير الآخرين، لا يرون بدون شك في الآخر كيفما ما كان من أي جنس، أو ديانة، إلا عدوا لهم يقاتلهم ، وإن كان غير ذلك.

في الختام، لا يمكن النظر إلى مسألة العمى العقدي وما تلاها من اصطفاء إلهي لنموذج بشري متفرد في تمرده، إلا على أنها رسالة مزدوجة موجهة إلى وجدان ووعي الإنسان في كل زمان ومكان.

إن العمى الذي يصيب البصيرة هو في جوهره فعل انطواء على الذات، ينبعث من مركزية التكبر الوجودي، حيث يستبد الهوى بالعقل فينشئ حجابا سيكولوجيا كثيفا، هذا الحجاب لا يحجب النور فحسب، بل يُعطّل وظيفة الإدراك، مُحَوِّلًا القلب الذي يملك القدرة على الفقه إلى كيان جامد، والأعضاء السمعية والبصرية إلى مجرد هياكل صمّاء عمياء. هذا هو المآل الحتمي لمن رفض التواضع أمام الحقيقة المتعالية.

أما الاختيار الرباني لهذا النموذج المتطرف في الشر (نموذج عبدة العجل وما تلاه)، فهو ليس تفضيلاً، بل هو اصطفاء حكيم لعينة تفسيرية قصوى .لقد قُدّم هذا النموذج كمُختبر كوني مكشوف يكشف للإنسانية عن الأبعاد القصوى للبربرية المُقدَّسة أو الوحشية المنزهة والنبيلة، وما أصعب جمع المتناقضات؛ تلك النرجسية العقائدية التي تبرر الانفلات الأخلاقي وتدمير الآخر باسم الاستثناء الإلهي.

وعليه، فإن دراسة هذا النموذج التمرّدي تصبح واجبًا معرفيًا؛ فهي تفتح الأبواب أمام علم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا والبيداغوجيا ...إلخ لفهم آليات السقوط الحر من الإنسانية إلى الوحشية. الهدف ليس فقط الإدانة بقدر ما هو التحذير والتنوير :إن الشر ليس حالة عرضية، بل هو بنية يمكن أن تتشكل عبر تنشئة دغمائية وقيم مقلوبة.

إن الخروج من ظلام العمى العقدي يكمن في كسر قفص الأنا المتكبرة، وإلغاء الاستثناء المزعوم، والتسليم بقوانين الكون وأخلاق التواضع المشتركة التي هي أساس الهداية. ففي التواضع وحده تكمن البصيرة، وفي الرغبة الصادقة في رؤية الحق يكمن مفتاح فك الأسر من النموذج الشرير الذي اختير ليكون لنا عبرة كونية خالدة.

يُعاد تعريف "الاختيار" المذكور في القرآن بأنه اصطفاء حكيم لنموذج بشري يمثل "الشر المطلق"، ليكون بمثابة مختبر كوني مكشوف تستلهم منه الإنسانية دروساً في التمرد والاضطرابات النفسية وعواقب النرجسية العقائدية.

فلسفياً ووجودياً، الاختيار الإلهي هنا هو اصطفاء "لأشد مخلوقاته تعنتاً للحق"، ليكونوا نموذجاً تفسيرياً و "عينة تمثيلية للشر فوق الأرض"، أو ما يُسمى "نسق الإبليسية المعانقة للآدمية ."هذا النموذج متفرد في شروره، ويقدم دليلاً على البربرية المُقدَّسة أو الوحشية المنزهة، التي تبرر الانفلات الأخلاقي وتدمير الآخر باسم الاستثناء الإلهي. هذا الاصطفاء هو رسالة للإنسانية للتأمل في ماهية الإنسان وفهم الأبعاد القصوى للسقوط الحر من الإنسانية إلى الوحشية.

سيكولوجياً وأخلاقياً، هذا النموذج مُتجسِّد في شخصية نرجسية متطرفة تتسم بالأنانية، والتفكك الخلقي، والإحساس بالاستعلاء، والحسد، وتغليب المصالح الذاتية. إنهم يمارسون الشر عمداً مع الاعتقاد بأنه "فعل أخلاقي مقدس وإرادة الله"، حيث ترى هذه الشخصيات الصواب خطأ والخطأ صواباً (قيم مقلوبة). هذا الاستبطان للاحترام الذاتي المرضي ينعكس في احتقار غيرهم، مما يدل على مستويات عالية من الاعتلالات النفسية والسلوكية، النابعة من التنشئة على التوحش المقدس والإيمان بالاستثناء المقدس.

بيداغوجياً وأنثروبولوجياً، تُصبح دراسة هذا النموذج التمرّدي واجباً معرفياً، لأنه كنز من المعرفة النفسية والاجتماعية والتربوية. الاختيار الإلهي يحث الحقول المعرفية (علم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا) على خوض غمار البحث في هذه الشخصية لفهم آليات تشكلها. والدرس التربوي هنا هو أن الشر ليس حالة عرضية، بل بنية يمكن أن تتشكل عبر تنشئة دغمائية، وأن الخروج من ظلام هذا النموذج يكمن في كسر قفص الأنا المتكبرة وإلغاء الاستثناء المزعوم، والتسليم بأخلاق التواضع المشتركة وقوانين الكون.

التأمل القرآني السابع: الابتلاء الرباني والعمى العقدي: قراءة في فلسفة الشر المقدس

(وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (32)وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ (33))

الآيتان 32 و33 من سورة الدخان

(وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (49))

الآية 49 من سورة البقرة

(وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ (6))

الآية 6 من سورة ابراهيم

يظهر النموذج "«الإبشري» " (الإبليسي/البشري) لعبدة العجل في أبهى تجلياته في حالة قوته واستعلائه، فيخرج أجمل ما فيه من الجرائم، وأقدس ما فيه من التعذيب، وأبهى ما فيه من الإذلال، ضاربا بذلك كل قواعد الأديان السماوية والأرضية، وما وصل إليه العقل البشري عرض الحائط، فجرائمه جمال وبهاء عنده، وتعذيبه لغيره قداسة، وإذلال غيره بهاء، هكذا يخر من سماء الدين إلى أعمق نقطة في الفسوق والفجور، والغريب أن الله ابتلاهم بمثل ما يفعلون، فتعرضوا لأبشع أشكال التعذيب، وذاقوا من كأس الإجرام بغاية أن يستوعبوا تبعات إجرامهم، لكن لم تزدهم تجربتهم مع الإجرام إلا تعميقا لكفاية الإجرام في نفوسهم، وأضحت وحشية جرائمهم جزءا من عقيدتهم العجلية التي تأمرهم بها أحلامهم المتهالكة بناء، وبنية، ومعرفة. لا يعترفون بكونهم أشرارا أبدا، بل خداما، وحراسا لعقيدة أضفوا عليها صفة الألوهية، والقداسة، والله منها براء، يخادعون أنفسهم عن قصد، وتدين موهوم مقدس، يرون جرائمهم تحررا من الأعداء، وتقربا من ربهم، وهي عكس ذلك، إنها تحرر وانسلاخ من الدين، والقيم الإنسانية، وتقرب من العجل لا من الله.

لم يتأمل عبدة العجل في حقيقة واقعية، منظورة، وملموسة وهي أنهم مقطعون في الأرض، مشتتون فوق البسيطة، ولم يسألوا أنفسهم لماذا نحن بالضبط؟ قال تعالى: "وقطعناهم في الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون"، سورة الأعراف: 168. إنه تقطيع رباني، فيه ابتلاء عظيم، غايته أن يستفيدوا من تاريخهم فإذا بهم يختارون التمرد عليه، تسري شرورهم في الحياة اليومية بدرجات مختلفة، ظاهرة، وشبه ظاهرة، وخفية، وشبه خفية، تلامس كل مجال فكروا في دخوله، والسطو عليه تحت مسميات براقة تعمي ذوي الحول في النظر، والشخصية العجلية فيها عمق شيطاني لا يمكن النفاذ إليه إلا بجهاز أشعة رباني، ولا يمكن كشفه بالأجهزة البشرية المستهلكة لأنهم هم من صنعها، فأودعوا فيها كل شيء إلا قدرتها على كشفهم، والقرآن هو الوحيد الكاشف لهم، والقادر على فضح عمقهم الشيطاني لا غير، وهو في فضحهم صريح، وواضح،

ولا يمكن أبدا تصنيف حقائقه على أنها تاريخانية، بل إنها حقائق تمتد من الزمن الأول إلى نهاية التاريخ حسب معتقدنا نحن كمسلمين، ولمن شاء أن يستخدم أجهزة كشف أخرى فلا ضير لكنه يقينا سيتفاجأ.

لا يتورع قوم عبدة العجل في التورط في كل فعل شنيع وشرير أبدا، والتخطيط له والعمل على إنزاله، بل أكثر من ذلك التمتع به تمتعا لا تمتع فوقه. وعليه، أعتقد أن هؤلاء القوم لا يمكن أن تعول الإنسانية على كفاياتهم النقدية الذاتية لتصحيح رؤيتهم، وسلوكاتهم، فهذا مستحيل إلا عند قلة قليلة منهم، ولم يبق أمام الإنسانية إلا أن تعمل على تصحيح اختلالاتهم النفسية، والسلوكية بالتدخل المباشر فيهم، وفي حال عدم التدخل، فلن ننتظر إلا مزيدا في الأفعال الشيطانية ذات العمق السحيق. فهم في هذا الأمر مبعدون، فكل مجالات الحياة هي مجالات حرب عندهم، وصراع من أجل التفوق والسلطة، كل شيء صراع وحرب: العلم، الاقتصاد، الرياضة، السلاح، الرقص، الغناء، الدين... لا تعرف شخصية عبدة العجل المنافسة، بل متشبعة بالصراع من أجل السيطرة لا من أجل التطور، وعندما يسيطرون يعملون على منع أي أحد من الوصول إلى مستوياتهم مخافة سقوطهم، أو منافستهم، وذلك بالكذب، والتضليل، والوعود الفارغة ... وينتقلون إلى التدمير بدءا بالتدمير الرمزي الأخلاقي ذي البعد الاجتماعي إلى القتل الجسدي.

أعتقد أن سبب تمزقهم الأخلاقي له وصل بتنشئتهم المبنية على أكاذيب، وأساطير جهنمية ذات بعد ميتافزيقي، شكلت بناء نفسيا متشظيا غريبا لا مثيل له إلا في الحالات السيكوباتية الإجرامية. نحتاج في عالم اليوم إلى دراسة سردياتهم، وجماعاتهم، ونفسياتهم، ولاهوتيهم، وفلسفاتهم، بغاية معرفة مكونات النموذج الفعلي الذي تخرجه الآلة العجلية والذي أطلقنا عليه مسمى: النموذج "الإبشري" نسبة إلى: "الإبليسي/البشري"، ودراسة برامجهم، ومضامينهم، وبيداغوجياتهم... وأبطالهم، وقصصهم، وقدواتهم ونموذجهم الأخلاقي... نريد أن نعرف ما هي حدود خيالهم، وأوهامهم علميا كما عرفناها، ونؤمن بها عقديا؟ نريد أن نعرف كيف يتم تنشيط ذلك كله ثقافيا؟ وكيف يتم تصريفه قانونيا وفلسفيا وإجرائيا؟ وكيف يتم تحفيز نفوسهم لمعانقة الشر المطلق، وقلبه اعتقادا إلى خير مطلق؟ نريد أن نفهم النموذج "الإبشري" باعتباره أعلى نسق شرير في الوجود، ويجب أن نفهمه لأن شره كله موجه نحو أبناء، وأتباع الرسالة الخاتمة يقينا لا شكا، والتاريخ أمامكم، والحاضر شاهد عليكم.

تتجسد قمة التعقيد الإنساني في قدرته على تأليه الشهوة وتحويل الهوى إلى عقيدة، وهذا هو الجوهر المظلم الذي يكشف عنه مفهوم "العمى العقدي ."هذا العمى ليس نقصًا في العضو، بل هو قرار نفسي بالتمركز حول الذات؛ حيث يُنصِّبُ الإنسانُ كِبْرَهُ حاجبًا سميكًا يغلق منافذ الإدراك، مُحَوِّلًا العمليات العقلية إلى فوضى داخلية. إنها حالة سقوط إرادي من التوازن الفطري إلى حالة "اللَّا إدراك " المُبَرَّر ذاتيًا.

إن الاختيار الرباني لنموذج بني إسرائيل أو ما سَميتُه "النموذج الإبشري" ليس تفضيلاً، بل هو اصطفاء قصدي لإقامة الحجة الكونية. لقد قُدِّمَ هذا النموذج كمَخبر تاريخي مُفصَّل للإنسانية،

يوضح كيف يمكن للتنشئة الدغمائية والمعتقدات المقلوبة أن تخلق كائنًا يمارس الوحشية المقدسة، مُعتقِداً أن جرائمه هي قمة القربان الإلهي.

الرسالة الجوهرية تكمن في أن هذا النموذج يمثل أعلى نسق شرير يمكن أن يبلغه الوجود البشري، وهو نموذج تحذيري يكشف عن:

استمرارية البلاء: أن التجارب القاسية والابتلاءات (كالعذاب على يد فرعون) لا تكفي لإصلاح النفس ما لم يكن هناك استعداد سيكولوجي للتواضع.

خطر الانقلاب الأخلاقي: أن الشر يتحول إلى عقيدة عندما تنجح الغطرسة في تحويل العدوانية إلى فضيلة، وفي اختزال الحياة كلها إلى صراع للسيطرة لا للتطور.

الحاجة إلى الكشف القرآني: أن عمق هذا التشظي والظلام لا يمكن كشفه وتحليله بالأدوات المعرفية البشرية المجرَّدة (التي هي عرضة للتأثر بهذا النموذج)، بل يبقى القرآن الكريم هو الأشعة الكاشفة الوحيدة التي تنفذ إلى جوهر هذه الماهية الإبليسية/البشرية الممتدة عبر الأزمان.

خلاصة القول: إن مأساة هذا النموذج تكمن في ازدراء القانون الكوني والأخلاق المشتركة تحت غطاء من الاستثناء الموهوم .وتبقى الهداية رهنًا لقرار التواضع الأولي الذي يكسر قيد الأنا، ويسمح للبصيرة بالانفتاح على الحق، مُعيدًا بذلك الإنسان إلى وظيفته الكونية الأصيلة.

تُشخّص التأملات الاضطراب العقدي المُجسّد في "**الشخصية العجلية/الإبشري**" كأزمة وجودية ومعرفية مركبة، حيث ينبع جوهر الجحود من عطب نفسي أساسه **نرجسية متضخمة** واعتقاد بالكمال الموهوم؛ هذه الأنا المتمركزة حول ذاتها ترفض التواضع، وتلجأ إلى "**الخاصية الحربائية**"، وإلباس الحق بالباطل والعناد بالمقلوب كآلية **لخداع الذات** أولاً وتبرير سلوكها، مُحَوِّلة الإجرام إلى "**وحشية مقدسة** " (الضحك الإبليسي).

فلسفياً، يُعد هذا السلوك "**ظلماً معرفياً** "وإعلاناً لـ "**إفلاس العقلانية**"؛ فالعقل المنفصل عن الوحي يفقد "**العدل المعرفي** "ويتحول إلى "**حاسوب بدون أخلاق** "يعتمد على منطق السيطرة والصراع لا التطور، مما يؤدي إلى "**العمى العقدي** "و**الانحلال الوظيفي** للإدراك.

وبيداغوجياً، هذا النموذج المتطرف في الشر هو نتيجة **تنشئة اجتماعية دغمائية** قائمة على **قيم مقلوبة** وأساطير جهنمية، مما يستوجب التدخل المباشر بدلاً من التعويل على نقد ذاتي مستحيل، حيث أن **الاختيار الرباني** لهذا النموذج لم يكن تفضيلاً بل **اصطفاءً حكيماً** لـ "**مختبر كوني** "يكشف للإنسانية الأبعاد القصوى لهذا السقوط.

التأمل القرآني الثامن: أنطولوجيا الكيان الإبشري: الوحشية المنزّهة وبيداغوجيا البلاء المستمر

(وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ (87))

الآية 87 من سورة البقرة

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (91))

الآية 91 من سورة البقرة

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21))

الآية 21 من سورة آل عمران

(ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ (112))

الآية 112 من سورة آل عمران

(فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا (155))

الآية 155 من سورة النساء

(قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ (24))

الآية 24 من سورة المائدة

أكاد أجزم أنه لا حدود للإجرام بحق الله، والأنبياء، والصالحين، بل الإنسانية عند عبدة العجل، وما الآيات أعلاه إلا عينة بسيطة مما حكاه الله في كتابه العزيز عن هذه الطائفة المجرمة أصلا، المصلحة استثناء، الغارقة في الخيانة، والكذب، والزور، والقتل، والكيد... نفوس لا تشبع حاجاتها من الفساد، والإفساد، وبالضبط للجريمة، والإجرام. ربما لن ينفعنا سلم ماسلو في ترتيب الحاجات الأساسية لعبدة العجل، لأن حاجاتهم الإجرامية تجتاح وتخترق كل أنواع الحاجيات الإنسانية في سلمه. يمتلك عبدة العجل قوة باطنية شريرة تولد لديهم خيالا واسعا من المكر والإجرام، قوة تنشطهم ضد أي شيء لا يتماشى من إبليسيتهم، فيحصل لديهم نمو وتطور هائل في الشخصية الإجرامية، فيبدعون أيما إبداع في الخراب، بل إن تطورهم ونموهم يغدو حجما وأثرا متجاوزا لأنفسهم، بحيث يتضخمون فوق طاقتهم، فلا يدركون حجمهم، وحجم آثار أفعالهم. تعمل قوتهم الباطنية الشريرة على إثارتهم لإنتاج أكبر عدد من الجرائم وأضخمها، فهم لا يستطيعون توجيه أنفسهم، وفك ارتباطهم بجزئهم الإبليسي في أية حالة، أو موقف يواجهونه، وبذلك ستقودهم مجموع مسارات أفعالهم إلى إغراقهم إن عاجلا أو آجلا عن طريق تبعات أفعالهم، وبشكل مهول، وخطير، فقد كثر أعداؤهم من هول وكثافة جرائمهم.

أعتقد أن خيالهم الإجرامي هو طريق غوايتهم وضلالتهم، فلا يمكن لديانة موسى عليه السلام، ولا إبراهيم، ولا عيسى، ولا غيرهم من رسل الله أن تكون عقيدتهم القتل، والتدمير، والإسراف في الدم، لابد أن ديانة من هذا النوع نجسها وحي ابليس، ورسل الشيطان، ومردة الكفر، فأوحوا إلى أوليائهم ما أوحوا من الضلالات ليجعلوها من طقوسهم، وعباداتهم، وجعلوها ديانة ناقصة إنسانيا، بل مدمرة لكل ما هو إنساني، وممركزة حول هوية وهمية ترجع في ضبط النسل إلى الأم لا إلى الأب، وإلى الديانة لا إلى الإنسانية، ديانة ذات أصول عقدية غارقة في معتقد الخيرية، والاصطفاء الإبليسي، ديانة عارية حتى بدت فيها سوءة إبليس، وأتباعه من عبدة العجل. كيف للدين وهو الوحي الصريح الذي يعرف قيمة الروح، كيفما كانت هذه الروح، ولو كانت كافرة، ويعرف الشر كيفما كان الشر، ولو كان صغيرا أن يوصي بعكس مقاصده الكبرى والصغرى، ويكون ضد الإنسان، فقد أقر الله تعالى أن قتل نفس واحدة بغض النظر عمن هي، وعن دينها، هو قتل للإنسانية جمعاء، والغريب أن هذه الآية بالضط نزلت فيهم، قال عز وجل: "مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ "، سورة المائدة: 32. توصيهم الآية الكريمة بالابتعاد عن القتل، وتصفهم أنهم مسرفون فيه. لا يمكن أن تكون عقيدة عبدة العجل إلا من وحي أمثال السامري وشياطينهم، إذ خلقت لديهم طموحا في الاستحواذ على الله، وجنته بقتل عباده، وتخريب أرضه، طموح منحرف، ومعوج، ومرضي غارق في الشوق إلى الجريمة المقدسة.

يقود عمق هذه الشخصية إلى جهنم هنا وهناك، فأفكارها، وأفعالها منحطة، وهي بالنسبة لعبدة العجل مثل عليا، يمر حب الحياة عندهم عبر حب الموت لغيرهم، عقولهم، وقلوبهم، وأفعالهم تفتح لهم باب الجحيم الدنيوية والأخروي، فهم هنا دائما وأبدا في حالة خوف من انتقام الآخر، لا يشمون الطمأنينة في أية أرض، يستثمرون في التجسس على الآخرين لاكتشاف الأعداء المحتملين، أو المتخفيين، يتسلحون يوميا لأنهم على يقين أن ما يقترفونه لن تنساه الضحية أبدا، حالة من الذعر المغلف بالقوة الواهية، لأنهم حتى في قوتهم رهائن غيرهم. هل استقر ما يفعلون نتيجة تنشئتهم في لاوعيهم، حتى أصبح وعيهم صندوقا أسودا ماردا مدمرا؟ يصور لهم عالمهم الأسود جيرانهم، وأصدقاءهم المزعومين، قريبهم، وبعيدهم، دياناتهم، وفلسفاتهم... على أنهم أعداء، ومعروف أنه ما أن تكون جوانيتنا، وعقلنا قد اقتنع بعدواة شخص ما، أو فئة ما حتى تتناسل أدوات هجومنا من أجل تحييده، أو تدميره، والقضاء عليه، وقد لا يكون في الأصل عدوا، لكن تصنيفاتنا، ومعتقداتنا وضعته في خانة الخطر المحدق. أما عبدة العجل فهذه هي الحالة الطبيعية عندهم، أي أنهم ملائكة، وخير البشرية، وقوم اصطفاهم الله، والباقي أعداء. تختلف درجة عدائهم، ومستوياتهم، ولا يستحيون أن يلعبوا في هذا الإطار دور الضحية، ولو كان احتماليا، فاللوم يقع دائما في دائرة الآخر المخالفين أو العدو المحتمل. هكذا يضفي التفكير الإبليسي الشرعية على التدمير، والجرائم العجلية باحترافية عالية، ويقود الدولة العجلية المارقة إلى الغرق في

أوحال جرائمها، قال تعالى: "فإذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا اولي باس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا". سورة الإسراء: 5. والنصر لأهلنا بأرض الرباط.

إن مأساة العمى العقدي هي التعبير الأسمى عن خيانة النفس لفطرتها .الحقيقة ليست محجوبة، بل مُحَجَّبَة بفعل إرادي من الكِبر الوجودي؛ حيث يتحول التمركز حول الذات إلى آلة قمع معرفي تُشَوِّه الإدراك وتُعطّل الوظيفة الروحية للأعضاء.

في المقابل، يتجلى الاختيار الإلهي لنموذج الشر الأقصى (النموذج الإبشري) كضرورة كونية، لا كحكم عشوائي. لقد أُصطُفيَت هذه العينة لتكون المرآة الصارخة التي تعكس أقصى مدى **"التحوّل النوعي"** في السلوك الإنساني: من كائن مُكرَّم إلى كيان يجد قدسيته في الإجرام ويُشرعن الوحشية عبر خيال مُفرِط في السوء. إن هذا النموذج ليس استثناءً عابرًا، بل هو إنذار رمزي دائم؛ يوضح أن النجاة من البلاء المستمر غير ممكنة إلا بتفكيك الهوية المؤسسة على الوهم والغطرسة .فجحيم الدنيا والآخرة لا يبدأ بفعل خارجي، بل بانقلاب داخلي يرى الصواب خطأ، والعدوان فضيلة.

الخلاص العميق: إن العودة إلى النور هي ثورة على الأنا المتضخمة، وقرار بالتواضع المطلق؛ فالبصيرة الحقة تولد من حُطام الكِبر، وهي وحدها القادرة على قراءة الآيات واستقبال النور، مُنقذةً الوجود البشري من المركزية العقائدية المدمرة إلى الرحابة الكونية المُستنيرة.

تُشخّص هذه التأملات ذروة الانحراف في "الشخصية العجلية "عبر مفهوم الخيال الإجرامي الذي لا حدود له، حيث يتمرد هذا النموذج على الوحي (تقتيل الأنبياء) ويخترق سلم الحاجات الإنسانية ليضع الجريمة والإفساد في قمته.

سيكولوجياً، ينبع هذا من قوة باطنية "إبليسية "تولد خيالاً واسعاً من المكر والتدمير، وتصيب الذات بالتضخم المرضي، مما يحول الوعي إلى "صندوق أسود مارِد "يصور الأعداء في كل مكان. هذا الاضطراب النفسي يجعلهم يعيشون في حالة دائمة من الذعر المغلف بالقوة الواهية، ويسلبهم القدرة على فك الارتباط بجزئهم الإبليسي.

فلسفياً وعقدياً، يتمثل الإجرام في كونهم استبدلوا رسالات الله بـ "وحي إبليس "وشياطينه، فبرروا "القتل والتدمير "وحوّلوه إلى "طموح منحرف "يسعى للاستحواذ على الله وجنته بقتل عباده، مما أدى بهم إلى خرق الآيات التي نزلت فيهم (تحريم قتل النفس) والتمادي في "الإسراف"، مدعين أنهم الضحية الدائمة لتبرير التدمير.

بيداغوجياً، تُعد مسارات أفعالهم هذه نتاجاً لتنشئة فوضوية تمردية تقودهم حتماً إلى الغرق المهول في تبعات جرائمهم المتراكمة (كثرة الأعداء)، لتؤكد الآيات أن الخلاص من هذا "الخيال الإجرامي " المقترن بالاستكبار لن يكون إلا بتحقيق الوعد الرباني بـ "بعث عباد لنا أولي بأس شديد"، ليكون النصر حتمياً لأهل الحق.

التأمل القرآني التاسع: بناء النموذج "الإبشري": من النرجسية الجماعية إلى تأليه الهوى في "أرض الرباط"

(قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ (60)).

الآية 60 من سورة المائدة

(إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ (22)).

الآية 22 من سورة الأنفال

أعتقد أنه من خلال الأحداث التاريخية المرتبطة بعبدة العجل، وما يحدث الآن في أرض الرباط العسقلاني أن الشر يشكل جزءا ضخما من هوية القوم، شرهم صاعد إلى الله، وممتد فوق الأرض وملامس للحجر والشجر والبشر. يعتقدون أشد ما يكون الاعتقاد انهم ضحية الشر، لذلك فشرهم عادل بل مفيد لهم، بل يمكن أن أجمع لكم المتناقضات وأقول لكم إنهم يعتقدون أن شرهم بريء وهم أشرار أبرياء. ولا يمكن لهويتهم أن تترسخ وتتقوى إلا باصطناع عدو حتى ولو كان الله، المهم يجب أن يكون هناك عدو كي يحسوا بماهيتهم وكينونتهم، وبهذا يطورون حسا أو شعورا جمعيا يقوي التلاحم بين مكونات الجماعة العجلية. وهذا كله يخفي سعيا دفينا في النفوس التي تشكلت وفق منظومة مرضية إلى التحكم في كل شيء بما في ذلك إرادة الله وتوجيهها حيث تميل أهواؤهم وتسعد نفوسهم المعتلة، يريدون أن يحصلوا على كل شيء في الدنيا والآخرة ولا يتركون لغيرهم أي شيء حتى الله. أليسوا هم أبناء الله وأحباؤه؟ أليسوا خير أمة أخرجت للناس بدون شروط حسب اعتقادهم؟ بل بشروط وضعوها هم لا ربهم.

إن العالم بالنسبة إليهم ينقسم إلى قسمين: قسم عبدة العجل وقسم غير عبدة العجل، ورغم أنه تقسيم تبسيطي، وضعيف ولا يصمد أمام أي إعمال للعقل ولا أي بحث علمي بسيط إلا أنهم مقتنعون به اقتناعا مطلقا لأن نفوسهم المضطربة غطت على عقولهم بل ران على قلوبهم ما فعلوا ويفعلون وسيفعلون، فلم يعودوا ينظرون ولم يوعدوا يبصرون، إذ بالنظر المجرد يظهر التعدد، وبالبصيرة نفهم أبعاده وانواعه وأشكاله وعلاقاته، وكيف لمهتز سيكولوجيا أن يبصر؟ والأغرب أن هذا التقسيم البسيط للعالم هو تقسيم عقدي يقابله الشر والخير، فالخير كل الخير في عبدة العجل والشر كل الشر في من سواهم. وبهذا يتكون العالم والوعي العجلي الجمعي إلى عالم جمعي أناني تجاه الآخر ومنقسم بل متشظ داخليا وإن بدا للناظر من بعيد عكس ذلك. إنه عالم كبير أو مصحة عقلية كبيرة لا يمكن أن يفهمها متخصص واحد بل تحتاج إلى فرق متعددة التخصصات وإن كانت لا تخرج عن ثنائية بسيطة قابلة للسيطرة عليها من الخارج، لكنها جد مركبة من الداخل باعتبار تفكك وتعدد وتناقض مكوناتها المادية والمجردة. ما أسوأ أن تسعى طفيليات عبدة العجل إلى أن تضفي الشرعية على الشر المطلق باعتباره خيرا مطلقا. ولا تتعجبوا إن ادعيت أن الحوار معهم في الأزمات المعاصرة حوار مع الشر، أو حوار مع إرادة

الشر الحقيقي، لأنك لا تدري كيف سينقلب عليك المحاور العجلي الذي لا عهد له، فتضطر إلى التفكير وإعادة التفكير والتأجيل مرات متعددة حتى تقلب كل مقترحاته على كل احتمالاتها، فعبدة العجل لا يسعون إلى بناء تفاهمات دائمة بل لحل مرحلي وجزئي لأزمة أوقعتهم فيها سياساتهم البلهاء، لنقل إنه حوار زائف الهوية، لكنه فعال الأثر لاستمرار الكذبة الكبرى التي يعيش فيها الشر المطلق. إن حواراتهم أو لنقل مفاوضاتهم هي نوع من المنولوج مع أخطائهم يكون فيها الطرف الآخر وسيلة لتصحيح مسار التوجه العام للسياسات الشريرة لعبدة العجل. وهم بهذا المسعى يعرضون وجودهم إلى الخطر على المدى البعيد متمثلين بذلك قدر الله عن غير وعي بأن مكرهم ضعيف ومردود ومنقلب عليهم، (وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون) الأنعام 123. وكما أن حوارهم مع المقاوم مونولوجا فإنه مع الداعمين للشر العجلي تزويرا وقلبا للحقائق وخاليا من الأخلاق وجافا من القانون، وعاريا من الإنسانية، وتمساحي الدموع، إنهم مساكين تطاردهم الذئاب المقاومة، رغم كونهم أسود في عرينها سطت على مجالها ضباع جبانة لا تتقوى إلا بغيرها.

إنها معايير الازدواج المضطرب نفسيا وسلوكيا، إذ لا يمكن تصنيفه إلا في دائرة الأساليب الإبليسية التلاعبية التي يتم من خلالها تشويه الحقيقة والواقع والأهداف في الاتجاهين ولدى الجانبين. إن خيالهم الشرير يخدعهم، وهو نفسه ليس إلا تجليا لعمقهم الأشد شرا، وعليه يكونون أبعد الناس عن الفضيلة التي تعني ضمنيا فيما تعنيه تجنب الشر وإذاية الغير بأية طريقة. يبدو أن السجل النفسي للشخصية العجلية فقير أخلاقيا لأن إبليس سيطر على بعض فصوله ومباحثه وأدرج فيه ما ليس من خصائص جنس الإنسانية، وصادف إبليس أن صفحات الكتاب قابلة لأن يكتب فيها بعض من محتويات العدة المعرفية والنفسية الإبليسية، كما اكتشف إبليس أن هذه الصفحات الأخلاقية قابلة للمحو والتعويض بغيرها من الرذائل، زد على ذلك أنه وجد فيها صفحات فارغة يمكن أن يدرج فيها ما يشاء، وهكذا انخفض منسوب الأخلاقيات الأساسية المشتركة بين البشر إلى أدنى حد ممكن، وارتفع منسوب الكفايات الإبليسية إلى أعلى مستوياته، حتى أضحت الفضيلة استثناء هو نفسه وسيلة لتصريف البرامج الإبليسية. إنني أدعي أن بداية العلاج تكمن أولا في اكتشاف ما لحق سجل هذه الشخصية من تزوير، وتبديل، ومحو وإضافة... كما أعتقد أن هذا الأمر ممكن نظريا فقط لكن لا يسعفنا في علاج القوم عمليا لأنه أمر ميؤوس منه بالتمام والكمال ومتروك لخالقهم عز وجل. والنصر لحملة لواء الأمة بعسقلان.

فلسفياً، تقوم هذه الهوية على الردة الكلية عن مفهوم الإنسانية المشتركة .يرتكز الوعي العجلي على تقسيم كوني دغمائي يختزل العالم إلى ثنائية :الخير المطلق (الأنا) مقابل الشر المطلق (الآخر). هذا الانقسام ليس مجرد تحيز، بل هو تأليه ذاتي يمنح الأنا حق التحكم حتى في الإرادة الإلهية، ويُشرعن الخيال الإجرامي كوظيفة عقائدية، مما يؤكد أن الشر ليس خطيئة، بل نسق وجودي مُبرَّر.

أما نفسياً، فتتجسد الهوية في نموذج "الاضطراب النرجسي الجماعي". يتميز اللاوعي هنا بالإفراط في الكِبر، حيث يصبح اصطناع العدو آلية دفاعية ضرورية لتقوية التماسك الداخلي الزائف. هذا الكِبر يسمح بالتلاعب المزدوج بالواقع، حيث يُصَدِّق الكيان أنه الضحية البريئة بينما هو الجلاد، وتتحول

حواراته ومفاوضاته إلى "منولوجات تلاعبية "هدفها الأساسي تصحيح مسار شروره لا بناء تفاهمات. إن السجل النفسي لهذا النموذج تم تزويره بالكامل، حيث حَلَّت الكفايات الإبليسية محل الأخلاقيات الإنسانية الأساسية.

بيداغوجياً، يكشف تأملنا عن منظومة تربوية موجهة هدفها إدماج الشر المطلق في الهوية. هذه التنشئة تحوّل العقل من آلة استدلال إلى صندوق أسود مارِد، يرى الفضيلة استثناءً خادماً للشر. إن هذا النموذج هو نظام تعليمي مضاد للإنسانية. بالتالي، يصبح الواجب البيداغوجي للأمة هو "التحصين المعرفي": دراسة سرديات وبرامج هذا النموذج لفهم آليات التطرف العقائدي، وإعادة التوكيد على أن الكشف عن هذا التزوير الإبليسي لا يتم إلا عبر النور الكاشف للوحي الإلهي.

التأمل القرآني العاشر: الهوية المزيّفة: سيكولوجيا الأشرار الأبرياء والانفصال عن المشترك الإنساني

(لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (13))

الآية 13 من سورة الحشر

إن الدمار الذي يمارسه عبدة العجل على المسلمين العزل فوق أرضهم المسلوبة باعتبارهم مستعمرين مغتصبين، يحمل من العنف ما لم يخطر على بال بشر، ومن الأسلحة ما لم يعرفه بشر، ومن الاغتصاب والتعذيب ما لا يعرفه إلا الله عز وجل علام الغيوب، سلوكات مرضية تعكس بواطن نفوس خربة، مريضة، معتلة حد الانهيار، نفوس تريد تدمير كل شيء لخوفها الشديد من قيام المظلوم بواجب الدفاع، ورد الصاع صاعين، فالخائف يحس بانعدام الأمن، مما يدفعه إلى تطوير كل الاضرابات النفسية الممكنة، فهو متوتر، وقلق، مرهوب، ومحبط. بعد أكثر من ثلاثمائة وثلاثة أيام من العدوان على غزة الأبية بدون الظفر بأي من المقاومين، أكثر من ثلاثمائة وثلاثة أيام استعمل فيها كل ما لديه، وجمع فيها كل مناصريه من أهل الظلم والفساد عربا وعجما، ثلاثمائة وثلاثة أيام لازال يحصد فيها الخيبة تلو الخيبة بدون نتيجة إلا قتل الأبرياء.

إن عنف هؤلاء المجرمين قتلة الأنبياء والصالحين دليل خلل عقلي ظهر للعالم بفضل فئة قليلة من المؤمنين من أصحاب الأرض الحقيقيين، يفجر عبدة العجل كل شيء، ومع ذلك يعانون، يقتلون كل دابة وهم متوترون، يضربون هنا وهناك ويبكون، ترى في احتفالاتهم القلق، وفي اغتيالاتهم انتصارا للمغتالين، وفي كذبهم تأكيدا لحق المظلومين، فكل سلوك يأتونه ينقلب ضدهم رغما عنهم لأن منسوب الخوف من انتقام المظلوم أصابهم بالخبل، تتسارع دقات قلوبهم يوميا خوفا مما يخبئه لهم القدر، تتهاوى أجسادهم يوميا، وتتراجع مناعتها برغم إظهار رباطة جأش مصطنعة لأن الواقع يقول عكس ذلك، فهم في الملاجئ مختبئون، وفي المطارات هاربون، وفي البطالة غارقون، وفي تدهور الاقتصاد تائهون، وفي طلب المساعدة، وتسول النصرة منشغلون، جعلهم أهل الرباط أذلة عند الكل، يشحذون ويستعطفون الشرق والغرب، وحال لسانهم يقول: "تعالوا كلكم احمونا من هؤلاء الشجعان". لا يعرفون طعم الراحة، ولا راحة النوم، لا يستطيعون التخطيط للغد لأنهم هم ومن معهم مرهوبون بفضل جهد عصابة مؤمنة بحقها في أرضها، وربها، ودينها.

تعاني نفوسهم من كل أشكال الاضطرابات المعروفة وغير المعروفة، جمعوا الشر المطلق، وجمعوا معه كره الناس المطلق لهم، وإرادة الانتقام المطلقة منهم، تنتج عقولهم المضطربة من السلوكات ما لا تفهمه أنفسهم ولا يمكن لعاقل فهمه، كل سلوكاتهم تدل على هروبهم إلى الأمام، إلى المجهول، فلم يعد هناك أمام ولا وراء، ولا فوق ولا تحت، استوت الجهات عندهم، يدورون في مكانهم، ومكانهم يدور بهم، يشعرون بتهديد مستمر من محيطهم الذي ملؤوه بالكره لهم حد التخمة، استثمروا في الكره، وفي الكره

فقط، وفي الشر، وفي الشر فقط، وفي الظلم، وفي الظلم فقط. نجحت استثماراتهم فكرهم الكل بشرا، وحجرا، وشجرا إلا الخونة المنتفعين من معاناة غيرهم، والجبناء الخائفون من ظلالهم، أما بقية أحرار العالم فلم يطوروا تجاههم إلا الكره، والحقد، وإرادة الانتقام. يعاني عبدة العجل من الإجهاد النفسي، والجسدي، والمادي، والاجتماعي، والسياسي بسبب فعل طاف يطوف، فقد أغشاهم الخوف، وغرقوا في الاضطراب، وطافت عليهم مياه الكره والحقد، وسيول السب والشتم، وأنهار الخزي والعار، ورياح أحكام المحكمة الدولية، وعواصف سبأ... كل شيء يطوف عليهم، وبينهم، وحولهم، حالة غير طبيعية ولن تكون طبيعية لأننا إزاء مخلوقات غير طبيعية، بها كل الأدواء النفسية منذ قدم التاريخ، إن سكنت مع الناس اعتزلتهم، وإن سكن الناس معهم عزلوهم، لا تحب جارا، ولا يحبها جار، يعيشون بيننا في سلم، ولا يمكن أن تعيش بينهم في سلم، لا يسلم من أذاهم بعيد ولا قريب، فهم شعب الله المفضل، وغيره مفضول.

ورغم كل ذلك فصدورهم ضيقة، ودقات قلوبهم متسارعة، وعضلاتهم متوترة لأنهم يعيشون على الدوام بإحساس الخوف واللاأمان لأنهم متأكدون أنهم يزرعون الكره، ويسقونه، ويتعهدونه بالأسمدة المناسبة حتى يكبر، وقد كبر واستوى عوده. يخافون المؤمنين أكثر من خوفهم من الله، وهذه حقيقة جوانية تعكسها سلوكاتهم ضد كل مؤمن، ويشترك معهم في هذا الإحساس كل خائن، أو متواطئ مع المجرمين، لأنهم يعرفون أن عدوهم صادق، وتقي، ومؤمن، وصبور، وقوي، ومستعد لكل الاحتمالات، وقلة منه تغلب كثرة منهم. اللهم انصر القلة على الكثرة.

يتجذر العنف المُفرط الذي يمارسه نموذج "**عبدة العجل** "ليس في قوة عسكرية أو تفوق فعلي، بل في **اضطراب وجودي عميق** يُعَبَّرُ عنه **بالرهبة الكامنة** في الصدور، كما يكشف البيان القرآني"**لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ**".

فلسفياً، هذا العنف هو **التعبير الأقصى عن اللاأمن الوجودي؛ فالكِبر المُتَأَلِّه** الذي يحكم الوعي الجمعي ينهار أمام **يقين وصِدق** المظلوم، مما يجعله يستبدل السيطرة الحقيقية **بالتدمير الزائف** . **أما نفسياً**، فيتحول الكيان إلى **نفسية هروب قسرية** تتسم **بالخبل والتوتر الدائم**، حيث يُصَدِّق المعتدي وهم الضحية، بينما هو في الواقع يزرع **الكراهية** التي يحصدها **كطوفان نفسي وكوني** يحيط به.

أما بداغوجيا/ تربوياً، فيمثل هذا الانهيار **درساً تحصينياً عظيماً** للمؤمنين، يكشف لهم أن القوة المادية للمعتدي هي في جوهرها **ضعف معتل**، وأن النجاة تكمن في **اليقين والتواضع الروحي** الذي يمنح القلة المؤمنة القوة على هزم الكثرة المرتعشة، والنهاية مسألة وقت.

التأمل القرآني الحادي عشر: الرعب الارتدادي: سيكولوجيا الحصون المتهاوية الردع المضاد

(هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ(2))

الآية 2 من سورة الحشر

من بركات فعل طاف يطوف الذي آلم عبدة العجل أن أصابهم بالقلق الذي أفقدهم القدرة على الضبط، والتركيز، والعمل بعقلانية ليفضحهم الله على الملأ، ويظهر حقيقتهم البربرية، متوحشون أعداء للإنسانية هم، ومن والاهم. ومن سوء حظهم أن قلقهم طويل الأمد، ومتكرر على الدوام، يصيبهم بالشك وعدم اليقين، ويعتري كثيرا منهم الاكتئاب والحزن الدائم، ويشل قدرتهم على النوم والراحة أفرادا، وجماعات ودولة، ومناصرين. إنه نوع من الرعب الدائم، مرهوبون من أفعالهم، إذ المظلوم مستمر في الاستعداد الدائم لمجازرهم، والرد عليها لأنه يعلم يقينا أنهم لا يرقبون فيه، ولا في محيطه إلا ولا ذمة، فالقوم مصابون في صحتهم العقلية، وستتعمق مع الزمن لأن الخلل في منظومة قناعات عميقة تسكن دواخل أنفسهم. هكذا سيبقون تائهين في حلقة مفرغة من المخاوف المتكررة المتعمقة أفقيا وعموديا. قوم يعيشون فوق الأرض ولهم ملاجئ تحت الأرض، لا يشعرون بالأمان فوقها ولا تحتها، ولن تكون يوما ما آمنة ماداموا مغتصبين، معتدين، ظالمين، سافكين للدماء.

كيف هي نفوس قوم لا قرار ولا مستقر لهم؟ وعليه، يتراجع منحنى كفاءتهم في التفكير، والتدبير، والتقرير نتيجة الوضع غير المستقر نفسيا وواقعيا، ولا يمكن أبدا لمن سكنه الخوف والقلق حد المرض أن يتكيف لأن حالته النفسية تعاني من ضيق شديد، وعدم يقين عميق أصاب نفوسهم في عمق وظائفها، بل ربما دفعتهم حالتهم إلى إذاية أنفسهم، وارتفاع التوترات بينهم، وانتحار بعضهم، وتفكك مؤسساتهم، فمجتمع أهله مضطربون يسير لا محالة إلى زوال، أو إلى بداية الزوال، أو على الأقل إلى اضطرابات بين أفراده، وجماعاته، وأحزابه، ومؤسساته. ذلك أن معظم مكونات مجتمعه أضحت لديها أفكار غريبة، وغير منطقية، وغير متخلقة، بل غير إنسانية وعنيفة لأن منسوب الخوف يدفعهم لإنتاج سلوكات يصنفونها في خانة ردع الآخر، وتخويفه، وهي في حقيقتها وعمقها سلوكات تولد لدى الآخر مزيدا من التحديات الدافعة إلى مزيد من الاستعداد لمواجهة عدو معتوه بكل الوسائل المتاحة بل المبتكرة، ففكرة الردع تولد فكرة الردع المضاد. هكذا تطارد عبدة العجل وساوس عدوانية، على شكل صور، ومخاوف مخيفة مفادها أنهم مهددون بالزوال لأنهم آذوا، وآذوا، وآذوا.

يرتفع منسوب الانتقام عند المظلوم إلى أن يصل حدا لا حد بعده. فيزداد ويرتفع مستوى التوتر العاطفي، وبشكل مستدام، رغم تطوير الخطط، والاستراتجيات، والبحث الدائم عن مساعدين عمي،

وصم، وبكم لا يسائلون تصرفاتهم وأفكارهم. يولد الخوف والقلق لدى عبدة العجل وساوس وأوهام مملوءة بالعنف الذي يعملون جاهدين على وضعه موضع التنفيذ على الأشجار، والأطفال، والنساء، والشيوخ، بل حتى الحيوانات بدون تحقيق أية نجاحات، إلا مزيدا من رفع منسوب الحقد عليهم، وتكثير الأعداء، والرفع من إرادة الانتقام منهم إن عاجلا أو آجلا.

إن عبدة العجل قوم يهددون أنفسهم بأنفسهم، يهددون وجودهم بسلوكاتهم تجاه البراءة، والإنسانية، والبيئة، والسلم العالمي. ينظر العالم إليهم نظرة استهجان باستثناء شركائهم في المرض، والعته من عرب وعجم. وقد ينتابك العجز، بل وتتيه وأنت تفكر في سلوكاتهم كيف يمكن أن تصدر عن قوم خصهم الله بأكبر عدد من الأنبياء، وبمنسوب توجيهي كبير من الأخلاق والقيم، ويأتون بسلوكات مناقضة تماما لما آتاهم ربهم، بل ربما قلبوا قيمهم رأسا على عقب. تتساءل كإنسان بسيط يفكر تفكيرا بسيطا، كيف لقوم يريدون العيش، والسعادة، وأن تكون لديهم أرض أن يمارسوا فعل القتل المستمر؟ كيف لمن يريد أن يعيش أن يقتل؟ أكيد أنهم مسكونون بأفكار هدامة، عندهم بناءة. لا أشك أن حالة عدم اليقين الناتجة عن منظومتهم الفكرية التصورية الاعتقادية هي التي لا تتركهم يعيشون وسط الناس، فقد كانوا فيما مضى يعيشون في أرض الإسراء بين المسلمين في رخاء، وأمن، وأمان، فغرهم السامري الجديد الذي أسس دولتهم، ووعدهم بدين جديد، ووطن جديد، وفكر جديد، والأدهى أن عدد السامريين ازداد بشكل كبير، ومعه عدد الخطط والأفكار الجهنمية. إن ما يتأكد يوما بعد يوم، هو أن الاضطراب النفسي عام بين القوم، مولعون بالعنف، والعدوانية قتلا، وإيذاء، وتهجيرا لأنهم يهابون فقدان السيطرة، ومعها فقدان الاستمرار في الوجود والعربدة.

من الناحية الفلسفية، يبني القوم وجودهم على أساس مضاد للعدالة أي على كل ما ينقضها من الاغتصاب والعدوان، مما يسلب هذا الوجود أي معنى حقيقي للأمن ويدخل وجودهم في دائرة الخوف المتصل. هذا الفعل المناهض للفطرة الإنسانية يزرع فيهم حتمياً حالة من اللايقين الوجودي؛ إذ تصبح الأرض بالنسبة لهم مجرد ساحة حرب، ولا تستطيع حصونهم ولا ملاجئهم تحت الأرض أن توفر لهم الأمان، فقد ربطوا دوام وجودهم بدوام خراب غيرهم، ولأن هذا مستحيل استحال معهم دوام طمأنينتهم. إنه الوجود الناقض لنفسه.

أما سيكولوجيا، فمقتضاه دوام حالة الرعب المرتد والقلق المزمن، ودوران الأزمنة إلى نقيضها وانقلاب موازين القوة؛ فالخوف الذي يزرعونه في الآخرين يرتد ليستهلكهم داخلياً. هذا الإجهاد النفسي الدائم يؤدي إلى فقدان القدرة على الضبط العقلي والتفكير العقلاني، مما يُضعف كفاءتهم في التخطيط والقرار. إن خوفهم المستمر يدفعهم إلى العنف المستمر كوسيلة دفاع مدمرة غاية سعيها تأجيل الوضع المعكوس، يغدو عنفهم هو نفسه آلية تدميرهم سيكولوجيا وعلى الدوام وواقعيا في العاجل أو الآجل وهم يدركون ذلك بل يسلمون به.

أما بيداغوجيا، فتعلن كل منظوماتهم القيمة عجزها، بل فشلهم الكثيف، والعميق في تربية أجيال على الحقد والكره والعنف، إنه نسق لا يُربى على السلام والأمن الداخلي، بل يُربى على **"الخوف من**

فقدان السيطرة. "هذا الخوف يدفعهم لإنتاج سلوكات **"غير إنسانية وعنيفة"** لا تحقق الردع المأمول، بل تولد لدى الطرف المظلوم **مزيداً من التحديات** وإرادة الانتقام وهذا هو بالضبط ما يسمى بقاعدة: **الردع الذي يولد الردع المضاد**.

الخلاصة الجامعة: إن الاضطراب النفسي الذي يعيشه القوم هو تجسيد حي لتكلفة فشلهم الفلسفي في بناء وجود قائم على العدل، مما يضعهم في حلقة مفرغة تُحوّل عدوانهم إلى سلاح ذاتي يُنهش مجتمعهم ويدفعهم حتماً نحو التفكك والزوال، كما دعت الآية إلى الاعتبار بذلك المصير. إن الظلم والعدوانية ليسا مجرد أفعال خارجية ضد الآخرين، بل هما بالضرورة آلية ذاتية تُفكك وجود الفاعل وتُدمر أساسه النفسي والمعرفي .الاضطراب النفسي الذي يعيشه القوم هو تجسيد حي للعقاب الذاتي الناتج عن الخلل في المنظومة الفلسفية/القيمية التي تبني أمنها على الإساءة للآخر، مما يضعهم حتماً في حلقة مفرغة من العنف المرتد تؤدي إلى الزوال أو بداية الزوال.

التأمل القرآني الثاني عشر: عقدة النقض والنبذ والعيش في الظلام.

(أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (100)وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ (101))

الآيتان 100 و101 من سورة البقرة

(فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا (155))

الآية 155 من سورة النساء

ليس غريبا على قوم شهد لهم التاريخ القديم والجديد بأنهم أهل حروب، وقتل، ونقض للعهود في القارات كلها أن ينقضوا عهدا جديدا بعد ما نقضوا عهود الله، والناس. ولا أستبعد أنهم نقضوا عهودهم مع الشيطان لأنه رأى من أفعالهم ما لم يتخيله، ولم يخطر على باله، ولا يستبعد أن قدوتهم في نقض العهود عبر التاريخ هم علماؤهم، ورجال دينهم. سلوكاتهم ناقضة نابذة لكل خير حتى أضحوا شرا مطلقا على رأي طه عبد الرحمن، فهم ومخالفة العهود لا يفترقون، إذ اصطبغت نفوسهم بالالتواء، والتناقض، والحيرة، والعلو، والشر، وبأشكال وألوان مختلفة، ولا تستغربوا أن تجدوا أن ما يؤصلون به لأفعالهم يأخذ معانيه من نصوص مقدسة المفروض أنها خارجة من مشكاة الخير، ولأنها تحيل على عكس مراد ربها، فلا يمكن الشك في تحريفها، فالله لا يريد الشر، ولكن يسمح به لتجزى كل نفس بما كسبت، فمقتضيات إيمانهم تستوجب أن ينزلوا أفكارهم الميتافيزيقية، المجردة، المحرفة، البائسة منزلة الواقع المشهود بقوة، وعزيمة الإرادة لنقلها إلى مجال التطبيق بأسوء الطرق انحرافا وبؤسا، ولا أستبعد أن معتقدهم نفسه عانى ويعاني من نفوس مضطربة أفضت به إلى حمل مدلولات لا قبل له بها، وأنهم تسلطوا على كل شيء فوق الأرض ليخدم أمراضهم بما في ذلك معتقدهم الأصلي.

من المحال أن تكون مقتضيات الأصل التوراتي أرضا قاحلة أخلاقيا، وما أرسل الرسل إلا لتسديد الأخلاق، إنهم بعيدون عن أصولهم الأصلية بعدا معرفيا، وتأويليا، وعمليا، فالنص التوراتي الأصلي لا يعرفهم، وليسوا قريبين منه بأي شكل من الأشكال سواء قرب نظر، أو قرب عمل. وعليه، تغدو أفكارهم وأفعالهم دالة على تنافر معرفي معرفي، وآخر أخلاقي أخلاقي، وثالث معرفي أخلاقي، لأن هؤلاء الناس لا تقودهم مقتضيات الإيمان بنص جميل، بل مقتضيات التنافر النفسي الذي يحيل على توترات بين اعتقادهم بخيريتهم المزعومة، وأفعالهم الموبوءة، فهل رأيتم خيرية في الشر والقتل؟ وهل رأيتم تفضيلا ربانيا في الإجرام في كل الديانات السماوية، بل في المعتقدات الأرضية التي أنتجتها عقول الناس بتفاعل مع الأديان إن قربا أو بعدا منها؟ إن نموذجهم الأكمل نموذج دموي تدميري، يخادعون في الكتاب والمكتوب، وفي الفهم والتأويل، وفي الإنزال والتدبير، وفي التقييم والتقويم... تتطابق أفعالهم مع نفوسهم لا مع عقيدتهم الربانية الأصلية، ولا المحرفة، يسعون لتتجلى فيهم الدلالة العملية للنصوص المحرفة، وقد كان لهم ذلك، ولا تستغرب أن تجد لكل شر يفعلونه أصلا عقديا يخترعونه، لأنهم يحتاجون تبريرا لشرهم،

وقلبه في اعتقادهم سيكولوجيا إلى واجب به يكونون أو لا يكونون، ولأنهم صادقون مع أنفسهم المعتلة، فإن غاية أفعالهم هي الوصول إلى حالة الاندماج المطلق مع المكتوب المحرف، إنه اجتهاد سيكولوجي عميق لحمل النفس المضطربة على مزيد من تعميق الاضطراب لمطابقة المعتقد المشروخ جملة وتفصيلا.

هكذا تتحد عقولهم بوجدانياتهم اتحادا يرفع منسوب إبداع الشر في أقوالهم وأفعالهم، إنه اجتهاد جواني غرضه إيصال نفوسهم إلى حالة التوازن المعرفي، والوجداني بالشر، وفي الشر، وعلى الشر مع تطوير اعتقاد عميق بأن ما يفعلون خير، وإن اعترضت عليه الإنسانية جمعاء، ورفضته الديانات كلها، وجرمته قوانين السماء والأرض بدون استثناء. ولا يمكن لهذا النوع من الأفكار والأفعال أن ينم عن بعد نظر أبدا، بل يدل على عمق البلادة لأنه يكثر الأعداء، ويرفع منسوب حب الانتقام لدى كل مخالف لهم، ولو كان بعيدا عنهم، وكل من يقف في صفهم مرحليا فلمصلحة ما ستزول يوما ما. يعتنق عبدة العجل معاني هابطة وساقطة خلقيا، ومعرفيا، وقانونيا، ودينيا، تنعكس على تفاعل الناس معهم، وتؤثر في مواقفهم منهم، مما يطور لدى الشعوب كرههم، أو الحقد عليهم، أو الاشمئزازا منهم أو غير هذا، أو بعضه، أو كله حسب درجة الألم الذي ألحقوه بكل طائفة منهم. لذلك ففي مسلكهم في النظر والعمل بلادة لا نظير لها، ولا يعبر عنها إلا قوله عزل وجل: "**مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما** حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون"، سورة البقرة:17. وصدق الله عزل وجل عندما قال: "**أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون**"، سورة الأنعام: 122.

يرتكز تأملنا هذا على فكرة عقدة النقض والنبذ كجوهر سلوكي متأصل ومُستدام، مدعومة بآيات قرآنية التي نؤمن ونعتقد بقوة وصدق وصراحة ووضوح ما فيها، إن هذه الآيات تُظهر هذا السلوك كسمة تاريخية ووجودية تتجاوز الفعل العابر.

فلسفياً، يُنظر إلى هذا النقض على أنه تجلٍ لحالة الشر المطلق، حيث يتم نبذ كل خير وإحلال الالتواء والتناقض محله.

أما سيكولوجياً، فيُفسر السلوك بتنافر نفسي ومعرفي عميق بين ادعاء الخيرية مع إتيان الأفعال الموبوءة، مما يدفع إلى اجتهاد جواني بالقلوب غايته توحيد العقل والوجدان في إبداع الشر وتبريره عبر تحريف النصوص وتحويل الشر إلى واجب مصيري .

أما بيداغوجياً، فيمثل هذا المسار فشلاً تربوياً في القدوة، حيث يؤصل رجال الدين والعلماء في عالم عبدة العجل للشر كنموذج، مما يُنشئ جيلاً يعاني من البعد المعرفي والعملي عن الأصول الأخلاقية، ويُفضي إلى بلادة النظر وغياب البصيرة، فيعجز عن تقدير العواقب ويُوقع الجماعة في ظلمات العزلة والعمى الروحي، مُنتجاً نموذجاً دموياً تدميرياً يزيد الأعداء ويؤجج الحق، ويقلص دائرة الأصدقاء أو المتعاطفين.

التأمل القرآني الثالث عشر: الوهن المُصنّع: سيكولوجيا الأخلاق الرخوة والمؤامرة الذاتية

(إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا (98))

الآية 98 من سورة النساء

(قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (150))

الآية 150 من سورة الأعراف

لا يحتاج الفطن منا لكثير كلام ليعلم أن الغرب البربري يصر أيما إصرار على إبقائنا ضعفاء، بمنعنا من كل أسباب القوة، ومحاربة أي أحد منا طور وعيا بالممانعة، والدفاع عن الحق في الوجود والعيش المستقل، غرب يعيش على الأقل بوجهين، أصل لهما بفذلكات لغوية مضمونة غايتها إبقاؤه قويا وغيره ضعيفا سواء في مجال الفكر أو الفعل، فلا شيء يضمن له استمرار الحال على ما هو عليه من وضع الاستضعاف المبني على التخويف والمتسلح بالعمالة. ولا فرق عنده بين المختلفين معه إلا في درجة العداوة، فالكل عدو حتى من هم أقرب إليه، بوصلته الوحيدة هي مصالحه المحمية بالقوة، التي ليست مصالح أخلاقية لأنها لا تعدو أن تكون سرقاته، وتدميره للغير، فأينما كانت مصلحة الغرب هناك مفسدة، وظلم، واستغلال. بنى حضارته على التوسع والاستعمار، ووصل الآن إلى الاستحمار، وهو استحمار على ضربين، استحمار للمخالف الضعيف واحتقاره، واستحمار لنفسه بأن جردها من الأخلاق حتى غدت حضارته بمكونها الثقافي، والمادي ظالمة وفاسدة، ومؤسسة للفساد المستمر، وبلغة لينة، وشديدة، وبالتهديد، والترغيب.

إن دوام ضعفنا معناه دوام استغلالنا واستحمارنا، يعني دوام سيطرة الحضارة البربرية والاستغلال. أما قوتنا فتعني ضياع استغلالنا واستحمارنا، وهما وسيلتا تدجيننا واستمرار نفوذهم. وأنا أبحث في عمق معنى حرف الضاد الذي يبدأ به مفهوم الضعف، وجدته يدل عند الباحثين المتخصصين على الجهر، والرخاوة، والاستعلاء، والإطباق، والاستطالة، والإصمات، وهناك من زاد التفشي، وقلت في نفسي إن كل صفات الضاد لحقت أهل لغة الضاد، فضعفنا ظاهر متحقق الجهر، ورخاوتنا تشهد عليها أقوالنا، وأفعالنا، ومواقفنا، واستعلاء الآخرين علينا لا ينفيه إلا مكابر بل إن الضعف نفسه استعلى علينا، وأطبقت علينا الأمم من كل جانب، وطال زمان الهوان، وصمتنا حتى كاد الآخر لا يسمع حسيسا لنا، وتفشى كل شيء سيء فينا إلا القوة. جعلتنا آفات التخلف الذي هو نتاج الضعف ناسا دون الناس، وأزمت وجودنا، وأنفسنا، وواقعنا، وبسيطرة الآخر علينا نمارس الضغط والسلطة على ضعفائنا وعلى بعضنا البعض.

لا أثق أبدا في إصلاحات الغرب ولا دعواته الإنسانية وإن صدرت بحسن نية من عند بعض عقلائه، فغالب أهله أهل مصلحة بامتياز، ولا أقول هذا فقط على المستوى الماكرو، بل عشت ما لا يجعلني أشك لحظة واحدة في أن الأفق الأخلاقي الإسلامي هو البديل الحضاري الإنساني الممكن، وأن هؤلاء بإصلاحاتهم ودعواتهم الإنسانية لا ينتجون إلا أوضاعا فاسدة لغيرهم وربما صالحة لبعضهم.

أخلاقهم لينة أو لنقل أخلاقهم "لايت" رخوة لأنها وسيلة للسطو لا للتعايش، وأخلاق الإسلام جوانية بل المفروض أن تتجلى في كل شيء، وإن خالفت هواك، وهدفك، ومصلحتك، وهذا لن تجده في أخلاق الشكليات الغربية المبنية على براغماتية أخلاقية، وليس على أخلاق تلبسية تسكن الإنسان وتتجلى فيه.

وما يزيد من عمق آفاتهم اندماجهم في فلسفة حياة عبدة العجل وأهدافهم، فأضحى الشر شرين، يضاعف بعضه بعضا أضعافا مضاعفة. وبناء عليه، فضعفنا سيبقى يلحق الضرر بنا، وقوتنا متعلقة بتحولنا جوانيا لا باتباع غيرنا في تيسير الطريق له لمزيد من استحمارنا، لقد جعلنا نخافه ونهاب كل شيء فيه، ونزع منا الثقة في أنفسنا، وضخم عقد النقص فينا، فأضحى بعضنا يقلده في لباسه، ومأكله، ومشربه تيمنا بالعم سام، وهو في الحقيقة سام من السم، وليس بدلالته الكلاسيكية. انعدم تأثيرنا في كل شيء حتى في حدودنا الضيقة، وتفشت فينا أشكال الضعف على كل المستويات، بل أصبحنا نصدره لغيرنا، لقد عزلنا الآخر الغربي عن أنفسنا، وأحلامنا، جعلنا فصاميين تسكننا الهلوسات والأوهام... أفقدنا النظر في مكنون ديننا، وعقيدتنا، ومصادر الاستمداد منها بأن جعل منا أفرادا، وجماعات تقيس صواب وعمق أعمالها بناء على مقتضيات مصالح هذا الآخر المجرم، فلا يرون الصواب إلا فيما يوافق الآخر، وإن خالف مصلحة أمتهم مجتمعة.

سكننا الاستسلام فلا نكاد نتحرك حتى نتثاقل إلى الأرض، جاذبية ضعفنا أكبر من جاذبية الأرض، هكذا فقط وفقط يخلو المجال والعالم من المنافسين الحقيقيين للغرب البربري، ولن يتخلى أبدا عن نهج الإضعاف إلا بحدوث تغيرات ربانية على أيدي صنف من الناس تجاوزوا في عمق إيمانهم ما نحن عليه، فقد قتلوا في الأمة كل سعي للتغيير، وهذا لا يعني أبدا أن كل شيء مؤامرة خارجية، لكنه يعني فقط أن المؤامرة محبوكة، وتتطور يوميا وببرامج لا خلاف حولها بين عبدة العجل ومناصريهم. سيطول زمن الهوان وإحكام السيطرة ما طال ضعفنا، وخارت عزائمنا، وسكننا التردد والخوف من مواجهة شريفة تحفظ أمننا، وبالمقابل سيزداد ويتعمق تسلطهم وجبروتهم، وستتعمق مناوراتهم.... لكن لماذا كل هذا؟ لأن نفسية المتسلطين البربريين تعاني من الخوف المستمر من استيقاظنا، ولاعتقادهم الجازم أنهم ظالمون، فإنهم يفتقرون للأمان على الدوام، ويخافون من الانتقام على الدوام، رغم علمهم أن إحساننا يغلب قصاصنا، فقد عاشوا معنا سنين متعددة معززين ومكرمين، ولا زالوا كذلك...، لا شك أن طريق النصر والنهضة هو العلم، والعمل، والصبر، ونفسيا هو مواجهة أنفسنا بحقيقتنا وحقيقة وضعنا، أيها الناس إن الهوان والضعف ليس قدرا مقدورا ولكنه صناعتنا، فاصنعوا قوتكم كما أبدعتم في صنع ضعفكم.

إننا نرى الاستضعاف كإرادة غربية بربرية صريحة تهدف لإبقاء الأمة في حالة استغلال واستحمار دائمة عبر تجريدها من كل أسباب القوة والممانعة، متسلحة بأخلاق براغماتية فاسدة وبعمالة داخلية لضمان دوام مصالحها اللامشروعة. لكن لا بأس أن نقسو على الأمة وننتقدها، ونؤكد أن الضعف والهوان هو صناعة ذاتية تعكسها صفات حرف الضاد (كالرخاوة والصمت) وتحكمها جاذبية الاستسلام وعقد النقص المضخّمة، مما يُنشئ نموذجاً فصامياً يقيس الصواب بمصالح الآخر المجرم؛ والخروج من

هذه الظلمات الوجودية يقتضي تحولاً جوانياً عميقاً، يرتكز على العلم والعمل والصبر، لمواجهة حقيقة الذات وصنع القوة بدلاً من الإبداع في صناعة الضعف.

ونعيد ونوضح أن تأملنا هذا يرتكز على تشخيص فلسفي للاستضعاف كإرادة غربية ممنهجة وغايتها المطلقة هي ضمان دوام مصالحها اللامشروعة، عبر بناء حضارة قائمة على الاستحمار المزدوج (للغير وللذات الغربية بتجريدها من الأخلاق)، ومُستبدلةً الأخلاق الجوانية الإسلامية ببراغماتية فاسدة هي مجرد وسيلة للسطو.

سيكولوجياً، ننتقد بشكل حاسم الأمة التي تستجيب لهذه الإرادة عبر صناعة ضعفها الذاتي، مُشخّصين حالة من الاستسلام وتدني تقدير الذات وعقد النقص، مدعومة بجاذبية الضعف التي تُثقلها نحو الأرض وتجعلها تقيس صوابها بمصالح الآخر .

بيداغوجياً، يُعد هذا الضعف فشلاً تربوياً داخلياً يعكس تفشي صفات حرف الضاد (الرخاوة والصمت) في أهل لغته، مما يستوجب تحولاً جوانياً عميقاً يركز على العلم والعمل والصبر، كاستراتيجية أخلاقية وحيدة لمواجهة الذات وصنع القوة الحقيقية بدلاً من الإبداع في صناعة الهوان.

التأمل القرآني الرابع عشر: الفراغ المعرفي، والانحراف السيكولوجي، والتزييف التربوي

لماذا يختار عبدة العجل ورعاة البقر الجانب المظلم في الوجود؟ جانب الشر، جانب الغصب، جانب الظلم، جانب التنكيل والقتل؟

أعتقد أن سواد الروح وقتامة النفس يلازمها سواد الفعل، وقتامة السلوك. وأكثر ما يعكس الشخصية الشريرة في السيكولوجيا هي الشخصية النرجسية خصوصا إن كانت لديها سلطة، إذ تتحول إلى شخصية خبيثة، ومظلمة، وقاتمة السلوك، لذلك سميت في هذا الحقل المعرفي بالشخصية المصابة بمتلازمة النرجسية الشريرة. إنها شخصية تستمتع بتعذيب الآخرين، أصحابها ساديون، يضعون قوانينهم الخاصة لا قوانين العالم، وهذا ما سمعته منهم مرارا في تبريرهم لوحشيتهم المتتالية في تصريحاتهم حيث قالوا: "نحن نسير حسب قوانيننا، قوانين توراتنا التي تقول لنا بأن نقتل كل شيء أطفالا ونساء...". تكمن مشكلتهم المركزية الخفية في بواطن أنفسهم في علمهم اليقيني بأنهم مكروهون من العالم، منبوذون من كل أطيافه، إلا أشباههم أو المستفيدين من جرائمهم، مشكلتهم في تقديرهم لأنفسهم المتدني حد الانهيار، وشعورهم بالنقص الحاد في القبول كونيا وميتافزيقيا، الذي يعوضونه بتدمير الآخر خصوصا المسلمين، فهم لا يميزون بين المسلمين إلا مرحليا، فكل المسلمين محل تدمير إن عاجلا أو آجلا، كيف لا ومشروعية وجودهم مبنية على إنهاء الوجود المسلم من على وجه الأرض، وخصوصا في الأراضي المقدسة .

ليس للأخلاق ولا للقيم محل في حياتهم، ولا يعنيهم القانون الأرضي شيئا، ولا تستغربوا أن يتحول عداؤهم من المسلمين إلى كل إنسان يخالفهم الرأي ولو كان منهم، فهم والنرجسية الشريرة شيء واحد. تمكنهم سلوكاتهم السادية من البقاء في محور اهتمام الإنسانية، طغاة، ومرضى لكن عند أنفسهم عظماء التاريخي اليهودي، جمعوا كل أنواع الشر، حتى تعجب الشر من شرهم، لذلك قالوا في علم النفس بأن مشكلة الشر تبدأ وتستفحل عندما يصل نرجسي إلى السلطة أو القوة، وهذا بالضبط ما يقع لعبدة العجل. هذا بالضبط هو معنى قوله عز وجل:" في قلوبهم مرض"، هذا المرض نفسه أمراض، لامست دواخل أنفسهم، وأرواحهم الشريرة المظلمة.

تظهر قضية فلسطين عموما، وغزة خصوصا أسوأ ما في هذه المخلوقات التي كانت تعيش وسط المجتمعات المسلمة، لها حقوقها آمنة مطمئنة، لكنها تغولت، تنرجست، اسودت بواطنها بل هي سوداء في الأصل لكنها تتقن التقية والمداراة، فأضحى الناس في العالم كله لا يرون على وجوه عبدة العجل إلا الجرائم الوحشية، والتاريخ الأسود، الذي يحاولون تزيينه بادعاء النوايا الحسنة، والإغراءات المادية، والدوافع النبيلة لينالوا الاعتراف. لكنهم حقيقة لا يردونه إلا مرحليا لأنهم عازمون على التنكيل بالمتسامح معهم، والمناصر لهم، والمتحالف معهم، والمعترف بهم. يعتبر عبدة العجل جيشهم جيش النبلاء الطيبين، وغيرهم متوحشين وإرهابيين، وأنفسهم ضحايا وغيرهم معتدين، يرون في أنفسهم محررين لأنفسهم بل لمحيطهم بل للإنسانية، وغيرهم وخصوصا المسلمين مدمرين وأشرارا. إنه الخداع في أبهى صوره للنفس وللآخرين.

لقد فضح القرآن ألاعيبهم، ووصفهم بأنهم أشرار حقا، وصدقا، وعدلا، وأنهم قتلة لأنبيائهم، وصالحيهم، وأنهم مكذبون، ومنافقون، وأنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، يقولها القرآن بشكل صريح لا لبس فيه، ورغم ذلك يوجهنا لمعاملتهم بأخلاق الإسلام، لا بأخلاقهم لأنهم لا أخلاق ولا خلاق لهم. يمارس عبدة العجل في سكان قطاع غزة الأبية كل أشكال التنكيل انتقاما لكل تاريخهم، لكل معاناتهم في العالم، لكل شتاتهم، لكل شعور بالدونية في هذا الكون. يحاربون لكي يصبح شرهم أمرا عاديا، أن يصبح جزءا من الحياة اليومية، أي أن يصبح طبيعيا، فتغدو ممارسة الشر عند عبدة العجل مسلما بها عند عموم الناس، بل ربما تغدو حقا طبيعيا لأنهم ساميون، ساميون لم يتساموا أبدا عن حيوانيتهم. إنهم أناس لا يمكن كسبهم، ولا كسب ودهم بالمنطق، ولا بالأخلاق، ولا بالقوانين لأن عمق عمقهم إبليسي. وكل ما يفعلونه تعبير جواني عن نرجسيتهم الشريرة وخوفهم الشديد.

يشخّص تأملنا عبدة العجل ككيان يختار الجانب المظلم وجودياً، مدفوعاً بسواد روحي متجذر يترجم إلى متلازمة النرجسية الشريرة سيكولوجياً، حيث يصبح تدمير الآخرين (وخاصة المسلمين) تعويضاً سادياً عن شعورهم العميق بالنقص والنبذ الكوني. هذه الشخصية، عندما تمتلك السلطة، تشرعن وحشيتها عبر قوانينها التوراتية المحرفة، محوّلة مرض القلوب القرآني إلى نظام حياة قائم على الغصب والتنكيل. إن سلوكهم المُفضوح قرآناً وتاريخاً، والمتمثل في الخداع ورؤية الذات كضحية نبيلة، ليس إلا تعبيراً جوانياً هستيرياً عن خوفهم المستمر من استيقاظ الآخرين وعن علمهم اليقيني بظلمهم، مما يجعلهم كياناً إبليسياً لا يمكن كسبه بمنطق أو أخلاق سوية، ويستوجب من الأمة مواجهتهم بأخلاق الإسلام لا بأخلاقهم.

وعلى لسانهم يمكن أن نصوغ كلامهم وفق الترتيب التالي: إنّ اختيارنا للشر هو انحياز وجودي وفلسفي نابع من سواد الروح؛ إذ تتحوّل هذه الروح إلى نرجسية شريرة سيكولوجياً، تُغذّي عقدة نقص جماعية وشعوراً عميقاً بالنبذ، فنعوّضهما بتدمير الآخر تدميراً سادياً. نُشرعن وحشيتنا عبر تحريف النصوص لتكون قوانيننا الخاصة، مُحوّلين مرض القلوب إلى نظام حياة قائم على الغصب والتنكيل .

بيداغوجياً، هذا المسار هو فشل أخلاقي وجودي نُمارس فيه الخداع المُتنكّر باستمرار، محاولين جعل الشر أمراً عادياً وطبيعياً؛ لكنّ القرآن فضحنا، مُوجّهاً المسلمين لمواجهتنا بأخلاق الإسلام الجوانية التي نفتقر إليها، لأنّ كل أفعالنا ليست إلا تعبيرا هستيريا عن خوفنا ويقيننا الداخلي بأننا ظالمون.

التأمل القرآني الخامس عشر: النفاق الممنهج: سيكودراما العملة الواحدة وبيداغوجيا التحرر من الهوان

إن رعاة البقر وعبدة العجل وجهان لعملة واحدة، يتناوبون في التنكيل بهذه الأمة المسلمة ويتعاونان للاستيلاء على مقدراتها لضعف أصابها. ضعف أعتبره خليطا من البلادة والهوان، والخيانة، والخوف، وتدني تقدير الذات، والحرص على الدنيا. وهي آفات نفسية قبل أن تكون مادية. يتجلى نفاق رعاة البقر وعبدة العجل في الإدلاء بالأقوال ومخالفتها في الأفعال، ويتصرفون وفق هذا النهج عمدا مع سبق الإصرار، فيعلنون عن شيء، وينوون شيئا آخر، ويفعلون شيئا ثالثا، نفاقهم احتار فيه نفاقهم نفسه، يغيرون الأقوال والأفعال في كل دقيقة ومع كل نفَس، تجلى فيهم الباطل دما، ولحما، وعظاما، لا يحفظون صداقة، ولا يعتبرون مودة، ولا يحترمون القوانين، ولا يظهر على وجوههم حياء، يعدون ويطعنون في الظهر بدم بارد. لديهم وجوه متشابهة ومختلفة، يقودك تشابههم إلى الخلط بينهم، ويقودك اختلافهم إلى التمييز بينهم، وتحتار بين اختلاف متشابه، وتشابه مختلف.

لا أعتقد أن الأمر يتعلق بقدرات عالية، وذكاء خارق، بل ببلادة وثقة زائدة في النفس مع عاهات نفسية عميقة عمق الفراغ العقدي الذي يعانونه. إنها ازدواجية الشخصية المتشظية المعتوهة مع اعتقادها بسلامة نفسها وصواب اختياراتها. إنهم على الدوام بين القول وضده، والفعل وعكسه متنقلون صعودا وهبوطا، يمينا ويسارا، صوابا وخطأ. تصرفاتهم واضحة حد الغموض، وغامضة حد الوضوح، إنها لعبتهم التنكرية، المفضوحة، الغامضة، الواضحة، لا تعرف الحقيقة من خلال وجوههم وألسنتهم، بل فقط من أفعالهم، وحتى في صدقهم في فعلهم يؤسسون لنفاق جديد وبديع، أما إذا ركنت فقط إلى الأقوال فسيجعلونك ضحية سذاجتك، وبلادتك، لا ذكاءهم، ومهارتهم، فهم والفضيحة البينة لا ينفصلون.

ترى عبدة العجل من كثرة أفعالهم التنكرية النفاقية يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون، وينسون أنهم قالوا عكس ما فعلوا، وفعلوا عكس ما قالوا، وأن الناس عرفوهم وأدركوا تلاعباتهم، ووجههم الحقيقي بأنهم قتلة ومجرمون. تجاوز عبدة العجل ورعاة البقر كل ما سبق إلى الإعلان عن نفاقهم باعتباره جزءا من ذكائهم، وطريقة معالجتهم لمشاكلهم ومشاكل غيرهم. كذابون حتى تعجب الكذب من كذبهم، مخادعون حتى تعجب الخداع من خداعهم، عمت أبصارهم وطمس على قلوبهم. إياك أن تنجر أبدا وراء انطباعك الأول حول أية فكرة يقولها هؤلاء، أو تنتجها معامل صناعة المخدرات الفكرية في أروبا، فهذه القارة هي الخلفية الفكرية إن بوعي أو بدون وعي لمجموع أفكار الخراب التي تصيب عالم اليوم في سلمه، وإنسانيته إلا ما رحم ربك، أفكار تصنع شخصيات عِجْلية بَقَرية صعبة لا تعرف كيف تتعامل معها، لأن الفكر المنافق ينتج شخصيات تتقن التظاهر، والتلاعب باللغة والفكر، تبدو هذه الشخصيات محبوبة، ومنفتحة، وودودة تحب الخير للغير، كما تبدو صادقة عند أول لقاء، لكن تريث فإن تلك الصفات ليست إلا أقنعة تخفي عكسها من شدة، وكذب، وخيانة، وكره، وانغلاق على كل ما

يخالف فكرها ومعتقدها، ومستعدة لإبادة من يخالفها، كما أنها لا تعدم أن تؤصل لإبادته تأصيلا علميا يخرج من معامل الأفكار الأوربية المخدرة للشعوب بقيادة نخبها التي تعتقد في صواب أفعالها، وأقوالها ربما بحسن نية، أو شراء وبيعا في مزاد سوق الأفكار البئيسة.

لا يمل عبدة العجل ورعاة البقر من حفلاتهم التنكرية حتى يمل من يسايرهم ويشك في ذكائه، حتى يرهقونه أخلاقيا وعقليا، لا يعرف كيف يصدق ما يقولون، ويكذب ما يفعلون، يشك في فهمه لهم، وفي فهم سلوكاتهم، وفي نفسه، وسلامته العقلية، ولو أنه لجأ إلى إطار معياري واضح وضوح الشمس لعلم أنه يتعامل مع بشر قال فيهم خالقهم: "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون"، سورة البقرة: 32 . إنهم قوم الإسراف، والقتل، والفساد، وليسوا قوم الإحياء، والاعتدال، والبناء.

نعتبر ظاهرة نفاق رعاة البقر وعبدة العجل فشلا وجوديا وأخلاقيا نابعا من الفراغ العقدي العميق؛ حيث يتحد الكيانان (كوجهين لعملة واحدة) في إرادة متعمدة للفساد والإسراف تستند إلى ازدواجية الشخصية المتشظية سيكولوجيًا، والتي تعتمد البلادة والثقة الزائدة كنظام دفاعي. هذا النفاق ليس كذبًا عابرًا بل منهج تدجيني مُتعمد يهدف إلى إرهاق الضحية عقليًا وأخلاقيًا، وإبقائها في حيرة بين الأقوال المتناقضة والأفعال المؤكدة للفساد، مما يجعل الكيان نقيضًا للإحياء والاعتدال قرآنيًا. وتقتضي النجاة من هذا المنهج بيداغوجيًا التحرر من الآفات النفسية الداخلية (كالهوان والبلادة) والاعتماد على إطار أخلاقي قرآني ثابت كمعيار وحيد للمواجهة، لتفادي الوقوع في فخ المخدرات الفكرية واللعبة التنكرية التي تفقد الإدراك سلامته.

البعد الفلسفي :يتمثل في "أنطولوجيا التنكر"؛ حيث النفاق ليس مجرد كذب، بل هو "إسراف وجودي" يهدف لإحلال العدم محل الحقيقة، وتحويل العالم إلى مسرح عبثي تضيع فيه المعايير الأخلاقية لصالح مصلحة القوي.

البعد النفسي :يتجلى في "الإرهاق الإدراكي"؛ عبر صناعة شخصيات "متشظية" تتقن فن التلاعب باللغة (المخدرات الفكرية) لخلخلة توازن الضحية النفسي، ودفعها للشك في قدراتها العقلية أمام تناقض الأقوال والأفعال.

البعد البيداغوجي :يكمن في "تربية الممانعة"؛ بالتحرر من "جاذبية الهوان" والبلادة الذاتية، والعودة إلى "الإطار المعياري القرآني" ككاشف وحيد لزيف الأقنعة، لبناء جيل عصي على الاستحمار الحضاري والتدجين الفكري.

التأمل القرآني السادس عشر: الاسم المسروق والفعل الموثق

من غرائب ما اطلعت عليه في كتاب الله أن الحديث عن اليهود في القرآن يأتي على الأقل على وجهين: خطاب بصيغة بني إسرائيل، وخطاب بصيغة اليهود، هذا إذا ما استثنينا الخطاب الموجه لأهل الكتاب الذي لا يخص اليهود لوحدهم. ومن غريب ما صادفت أن أجد أن الله يستعمل صيغة اليهود للحديث عن كل الأشياء السلبية التي تصدر عنهم، ويستعمل خطاب بني إسرائيل عندما يريد أن يلومهم، أو يرشدهم، أو يدعوهم لشيء أو لفعل شيء إيجابي، كأني بالله تعالى يجنب اسم نبيه إسرائيل أفعال السوء التي يأتيها قومه من جهة، ومن جهة ثانية كأني به عز وجل لا يعتبر أهل السوء من قوم نبيه إسرائيل، ودفعني هذا لطرح سؤال مفاده: لماذا اختار اليهود تسمية دولتهم المزعومة إسرائيل وتجنبوا تسميتها يهود؟

تحاول تصنيفات تاريخية التمييز بين اليهود، لكن كتاب الله ميزهم على أساس الأفعال لا على أساس السكن، أو البعد أو القرب، أو صفاء العرق...، ولننظر في الخطاب القرآني المتحدث عن اليهود : قال تعالى: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم"، وقوله تعالى: " وقالت اليهود يد الله مغلولة" وقوله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض". وعليه، يرتبط مسمى اليهود أساسا بالشخصية المريضة منهم، ولننظر لمسمى بني إسرائيل، قال تعالى: " يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم" ، وقوله تعالى: "وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا"، وقوله تعالى: "ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا"...

يبدو أن كل إسرائيلي يسكنه يهودي، وأنه ليس من الضرورة أن كل يهودي يسكنه إسرائيلي. الإسرائيلي نسخة معدلة متطورة من اليهودي وهي الأقل سوءا. ومن يحتل فلسطين الآن هم اليهود أما الإسرائيليون فقد هاجروها إيمانا منهم أن نبيهم إسرائيل لا يأمر بالقتل والتنكيل. وعليه، فالصهيونية تضم كل اليهود وغير اليهود، وبعض الإسرائيليين، أما أبناء يعقوب عليه السلام الحقيقيين فهم أهل الكتاب، وهم القلة القليلة من بني إسرائيل.

يُحلل التأمل الخطاب القرآني ليؤسس تمييزاً لغوياً ودلالياً بين مصطلحي **"اليهود "و "بني إسرائيل "**على أساس **سلوكي وأخلاقي، لا عرقي**. فالقرآن يستخدم مصطلح **"اليهود "**حصراً للإشارة إلى **الشخصية المريضة** منهم، ويربطه بذكر الأفعال السلبية كالجحود، العداوة، وعدم الرضا عن المؤمنين، والافتراء على الذات الإلهية. في المقابل، يُستخدم مصطلح **"بني إسرائيل "**في سياقات **التوجيه، العتاب، والتذكير بالنعم والمواثيق الإلهية**، وكأن الاسم المرتبط بنبي الله يعقوب (إسرائيل) يُجنّب ذكر أفعال السوء. وعليه، يُستنتج أن **"الإسرائيلي "**يمثل النسخة الأقل سوءاً والمحتملة للخير، بينما **"اليهودي "**هو

حامل السلوك المريض. يُفسر هذا التحليل اختيار الكيان المحتل لتسمية نفسه بـ "إسرائيل" بأنه محاولة للتستر على الدلالات السلبية المُلازمة لمصطلح "اليهود" في الوعي الديني.

فلسفيا، يُرسّخ الخطاب القرآني مبدأ التمييز المعرفي القائم على الفعل لا العرق، فالله تعالى يُرسخ أن الهوية الحقيقية ليست نسباً ليعقوب عليه السلام (إسرائيل)، بل هي تتحدد بالموقف من الحق والعهد الإلهي. إن الفصل بين اسم "اليهود" (المربوط بالجحود، العداوة، والادعاءات السلبية) واسم "بني إسرائيل "(المربوط بالتذكير بالعهد واللوم والدعوة للخير) هو تأكيد فلسفي على أن القيمة الإنسانية مرتبطة بالالتزام الأخلاقي والتعاقدي، وليس بالعرق أو الانتساب التاريخي.

البعد السيكولوجي:

إن اللجوء إلى تسمية "إسرائيل "هو سلوك هروب سيكولوجي وتستّر دلالي .فالأفعال السلبية تظل مُلتصقة بـ "اليهود "(الشخصية المريضة)، بينما يُحاولون التلبس بالاسم الإيجابي (إسرائيل) لتجنب الإدانة القرآنية والتاريخية المرتبطة بالجحود، وهو ما يعكس محاولة للتصالح الزائف مع "الأنا "المريضة عبر الاستناد إلى مجد الأنبياء بدلاً من إصلاح السلوك الفاسد.

البعد البيداغوجي (التربوي):

الخطاب القرآني يقدم درساً تربوياً مفاده أن اللوم والتوجيه يجب أن يكون مقترناً بذكر الأصل الكريم (بني إسرائيل) كدافع للعودة إلى الفطرة، بينما تُستخدم صفة "اليهود" كعقوبة وتوبيخ يرتبط بالأفعال السلبية. هذا يُعلم المؤمنين بضرورة تجنب التعميم العرقي وتوجيه النقد إلى السلوك الفاسد (الذي هو "اليهود")، مع ترك الباب مفتوحاً للعودة إلى النبع النقي للأصل الإنساني والنبوي (بني إسرائيل).

تأملات في ملكة التفكر

التأمل القرآني الأول: الارتداد الذاتي: سيكولوجيا الأفعال المنعكسة وبيداغوجيا الترميم الجواني

(إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)

الآية 7 من سورة الإسراء.

يعتبر التأمل والتفكر في النفس الإنسانية انطلاقا من القرآن الكريم في الشهر الفضيل مما يساعدني شخصيا على تقليب وجوه الآيات الكريمات، وبناء ما أعتقد أنه من الفهوم اللطيفة والعميقة التي ربما تحيل عليه مضامين الذكر الحكيم، وفي هذا الإطار استوقفتني الآية الكريمة التالية من سورة الإسراء: "إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا "، سورة الإسراء: 7. أكيد أن الدلالة المشهورة للآية هي أن الإحسان له أثر على مصير الإنسان في الآخرة، أي أنه من يحسن هنا يحسن الله إليه هناك في الآخرة، لكنني أعتقد أن الأمر مرتبط أيضا بالدنيا قبل الآخرة، لأن نفوسنا ليست في حقيقتها إلا مجموع أفكارنا، ومشاعرنا، وسلوكاتنا. وعليه، جاز القول أن الذي يشكل أنفسنا هي أفكارنا، وأفعالنا، وما يرتبط بها من مشاعر، بل إن أفعالنا تشكل أنفسنا بشكل مباشر وعملي. وتبعا لذلك، أرى أن الآية لها دلالة دنيوية قبل أن تكون أخروية، وتفصيلا في الأمر أقول ما يلي:

عندما يخاطبنا الله عز وجل بقوله (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) فمعناه أن الأفعال الحسنة كيفما كانت، مع الناس ورب الناس، مع الحجر والشجر، والبشر هي أفعال في نفس فاعلها؛ أي أن أفعالك لها تأثير مباشر على نفسيتك. وبناء عليه، فالأفعال السيئة مع الناس ورب الناس، مع الحجر والشجر، والبشر هي أفعال في نفس فاعلها كذالك؛ ويكون بذلك أول مستفيد من أفعالك هي نفسك، ذاتك، جوانيتك؛ وأول متضرر من أفعالك هي نفسك، ذاتك، جوانيتك. إذ بأفعالك تتشكل نفسيتك، فأحسن تشكيل نفسك، وتأثيث جوانيتك، وتجميل ذاتك بأفضل الأعمال. ولا يجب أن نستسهل الآثار النفسية لأفعالنا على مجموع أبعاد شخصيتنا، فمن المؤكد أنك تتأثر بالتجارب التي تمر بها في حياتك من خلال مجموع أفعالك، وخصوصا طريقة تفاعلك مع مختلف الوضعيات المعيشية التي تضعك فيها ظروفك، لأن أثرها عميق في نفسيتك، بل وظاهرا على جسدك. تصيبنا أحاسيسنا وردود أفعالنا بصداع في الرأس، وآلام في المعدة، وبكاء، قد تصل إلى انهيار وانخفاض حاد في ضغط الدم، إذ أن هناك علاقة وطيدة بين النفس، والجسد، تعاني النفس كذلك عندما يمرض الجسد، أو تتدهور صحته، فنشعر بالآثار الجسدية عندما تكون حالتنا النفسية سيئة، سواء لحظة الخوف، أو الضغط، أو تأنيب الضمير، أو التيه بين الحق والباطل، أو انعدام البوصلة المؤطرة لسلوكاتنا وأفكارنا. إن العلاقة حيوية بين مكوناتنا النفسية والجسدية، وكل فعل سيء أو جيد يؤثر في هذه البنية السيكولوجية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

نشعر بالإرهاق عندما نكون خائفين، أو تحت الضغط، والسبب في ذلك هو أن هناك تبادلًا حيويًا للتأثير والتأثر بين الجسد، والنفس، إننا كل لا يتجزأ، إننا نسق مركب، وكل فعل جيد يعود على كل

البنية بالنفع، والعكس صحيح، وكل فعل سيء يعود عليها بالتدمير السريع أو البطيء. لذلك أعتقد بأن الأفعال السيئة تؤدي إن عاجلا أو آجلا إلى التوتر المزمن الناتج عن انعدام الطمأنينة النفسية، وإلى القلق المستمر، والشعور بالعجز عن إيجاد أجوبة مقنعة لأسئلة متفلتة من العلم، والتجريب كالأسئلة الوجودية مثلا. وقد ينتقل الإنسان في مراتب التفكر إلى الانعزال، والوحدة، وما يؤدي إليه كل ذالك من ردود فعل جسدية مختلفة كإهمال التغذية، وضعف جهاز المناعة، وتراجع قوة الأعضاء، والعضلات، والتقلبات المستمرة في النوم. إننا يمكن أن نؤذي أنفسنا بسلوكات الخداع، والكذب، والنفاق، والخيانة، والتكبر، وإيذاء الناس، والعنف..... ونوصلها إلى حدودها القصوى، هكذا نكون قد أسأنا لأنفسنا، ولم نحسن إليها، وعندما يقول عز وجل: "يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ". سورة البقرة: 9، ومعناه أن الخداع الذي نمارسه على الغير بغاية تضليله له أثر عكسي ومباشر علينا قبل غيرنا، إننا ندخل أنفسنا في ظلام عدم التوافق بين القيم الأخلاقية، والأفعال التي نقوم بها.

بين ما نقول، وما نعتقد، وما نفعل، ما أتعس الإنسان الذي يعيش ليستجيب للانتظارات الاجتماعية بشكل مخادع فقط ليضل غيره سواء كان ذلك في سياق الدين، أو المجتمع، أو السياسة، أو الاقتصاد، إنه يوهم غيره ضدا على رغبته، وعمق إيمانه الحقيقي، والشخصي، أي نفس هذه التي تخفي حقيقتها عن نفسها بتضخيم حضور الآخر في الأنا تضليلا وخداعا، لذلك قال رب العزة : "في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا"، سورة البقرة: 10، أي إنهم يضطرون إلى أن يعلنوا إيمانهم ويتقربوا من المؤمنين عند الحاجة إليهم، كما أنهم كذلك في الصف الآخر عند الحاجة، إنهم في منزلة مؤلمة ومفضوحة اجتماعيا، ونفسيا مما يعمق مرضهم ذاتيا، واجتماعيا، فلا هم كسبوا ثقة هذا الطرف، ولا ثقة الطرف الآخر، فطوروا عقدا ما بعدها عقد. وأكيد أن لذلك تبعات على صحتهم النفسية، والعقلية، والجسدية. إننا لا نحسن لأنفسنا إذا جعلنا صوتنا الداخلي، أو ما يطلق عليه الضمير في حالة تعب مستمرة توصله إلى الانهيار، فكما أننا لا يمكن أن نكون ملائكة، فإننا لا يمكن أن نكون شياطين، والمنزلة الوسطى هي مكان الإنسان لزوما.

إن لحظات الإحسان للناس هي لحظات تداوي وشفاء لأنفسنا، هي لحظات تزويد ضميرنا بطاقة يحتاجها ليستمر في مراقبة أعمالنا، ويزنها بميزان المجتمع، وإطاره المعياري ليرجع إلينا ثقتنا في أنفسنا، وفي إنسانيتنا، ولا يخدش صورتنا عن أنفسنا التي تعتبر رصيدنا في توازننا النفسي، ومرجعنا في مواجهة تعقيدات الحياة. إن الأعمال الحسنة تقينا من تصدع بنياتنا النفسية بتدني معاييرنا، وصورة أنفسنا عن أنفسنا، وتمنحنا النسبية المطلوبة في الحكم على أنفسنا على أننا كائنات إنسانية بكل نوازع الخير والشر المبثوث فيها، متبعين بذلك نهج تغليب الإحسان في الأقوال والأفعال لتتشكل نفوسنا تشكلا يغلب عليه الأصل الخير على الأصل الشرير. فأحسنوا تحسنوا لأنفسكم أولا.

يُشخّص المسار التأملي العميق للآيات القرآنية **صراع النفس البشرية** (السيكولوجي) بين الإحسان والإساءة كفعل **بناء ذاتي مباشر**؛ حيث تُصبح الإساءة للغير أول تدمير للذات عبر **"ظلام عدم**

التو افق" وتأنيب الضمير، مُحذّراً من **"الخداع والحربائية"** كأبرز آليات هذا التدمير الذاتي الناشئ عن **"النرجسية المتضخمة** ."وقد اتخذ هذا التحليل من **"النموذج الإبشري)** "الفلسفي/المعرفي" (**مختبراً كونياً تفسيرياً** "لفهم الشر المطلق، مُرجعاً أصله إلى **"الخيال الإجرامي"** الذي يقلب القيم، فيُمارس **"الوحشية المقدسة"** ويرفض الوحي استكباراً و**"ظلماً معرفياً"**، مما يُعلن إفلاس العقلانية عند اكتفائها بذاتها. وتؤكد الرسالة **التربوية** (البيداغوجية) أن هذا النموذج السلوكي المريض هو نتاج **تنشئة دغمائية** وقيم مقلوبة، وأن الخلاص يكمن في **"كسر قيد الأنا المتكبرة** "والتسليم **بالتواضع المطلق** كقرار أولي، وتغليب الإحسان في الأقوال والأفعال (المنزلة الوسطى) لتشكيل جوانية سليمة، مع الإدراك بأن القيمة النهائية للإنسان تكمن في سلوكه الأخلاقي **المرتبط بالعهد**، وليس بمجرد انتسابه العرقي.

التأمل القر آني الثاني: الدماغ : سيكولوجيا (الدمغ المعرفي) وبيداغوجيا التدريب على الأداءات العليا

(بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18))

الآية 18 من سورة الأنبياء

إن التأمل في الوحي الكريم بخلفيات علمية مختلفة يفتح الأبواب أمام فتوحات وفهوم جديدة، ما كان للإنسان أن يصلها أبدا بدون استحضار نتائج العلوم، فكل عصر يدرك من كتاب الله ما يمكنه منه منسوب العلم الموجود فيه، ولا يمكن أن يتجاوزه. وتبعا لذلك، هالني في الآية أعلاه قوله عز وجل: "بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ"، سورة الأنبياء: 18. فتبادرت إلى ذهني لطيفة مفادها أن الله عز وجل جعل للحق، وللباطل وجودا عينيا، وجعل تدافعهما في فكر الناس، وفعلهم حقيقة واقعية، وجعل نهاية التدافع أن يقذف الله في فكرك، وبجهدك حقا يجعل ما دونه مدموغا. إن العجب كل العجب أن يستعمل الحكيم الخبير فعل دمغ، ولا تتعجبوا أن استعمل الله كلمة لها وصل مباشر بالدماغ (فيدمغه). لأن حقيقة الصراع حقيقة جوانية تسري في دواخل البناء المعرفي للإنسان وبواسطة جهاز معالجة معطيات العالم الخارجي، وتأثيث العالم الداخلي أي الدماغ.

لا يصمد الباطل أمام الحق سواء كان قولا أو فعلا، وسواء كان فهما أو تأويلا، وسواء كان في العلوم الدقيقة أو الإنسانية، وسواء كان بين المسلمين أو بين غيرهم من الثقافات، وسواء كان بين عموم الناس، أو بين المتعلمين، أو بين العلماء. إن الفارق هنا هو فقط فارق في لحظة تبين الحق، فارق في العمليات الدماغية الثاوية وراء الرغبة في الوصول إلى الحق. إنها سيرورة من النظر، والبحث، والتأمل المضني المليء بالتساؤلات الحرجة والمعقدة حسب مجال التأمل والبحث. ومتى وصلت اقتنعت، واسترحت، وإن كان غيرك مازال على الطريق يبحث، ويكد، ويجاهد.

إن الحق إرادة الله، واسم من أسمائه، وهو عزيز، فلا تعتقد بسهولة بلوغه، بل تأمل، وواصل حتى تصل لحظة قذف الحق للباطل. لحظة انبناء بنيات الحق وحلولها مكان بنيات الباطل في جهازك المعرفي: الدماغ. إن دماغنا مستعد دائما للتغيير، مستعد دائما لبناء علاقات جديدة بين مكوناته، يتغير دائما وباستمرار، ويعيد هيكلة نفسه طوال حياتنا، كيف لا وهو العضو المتحكم في كل شيء، كيف لا وهو العضو المكون من ملايين الخلايا العصبية المتشابكة بشكل رهيب، تعرف في كل لحظة عمليا دمغا مستمرا للأخطاء، وتعويضها بالصواب، ولأن الوجود لا تنتهي تحدياته، فإن الدماغ لا ينتهي من التطور إلا بوفاته، إن قدرة دماغنا على الاستمرار في الدمغ المستمر تساعدنا على الاستمرار في التكيف مع ظروف الحياة، خصوصا مع الوضعيات المستجدة والمعقدة، مع ما يستدعي ذلك من تقييم للمدخلات الجديدة،

وتصنيفها إلى مستويات تبعا لأهميتها، ودمجها مع المعلومات المخزنة بالفعل والمفعلة في السياقات المعيشية، وكل عملية تكيف هي عملية تكوين عصبية معقدة فيها دمغ، ودمج، وتوسيع، وتكوين...

بل نقدف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق معناه أن التغير وقع في بنيات الدماغ، فمسكن الباطل هو خلايانا العصبية، ومسكن الحق هو خلايانا العصبية. وعليه، فإن دمغ الباطل بالحق معناه إحلال الحق مكان الباطل في البنيات المعرفية، وهذه نفسها عملية تعلمية بامتياز، ذلك أن ردة فعل دماغنا على التجارب الجديدة هو تعلمه المستمر منها، إذ أن دماغنا مستعد دائما للتعلم خصوصا إذا وظفنا لذلك كل مدخلاته الحسية من بصر، وسمع، ولمس، وشم، وتذوق، ونصوص القرآن الكريم تتجه إلى توظيف المسموع، والمرئي، وكل ما يساعد الإنسان على دمغ الباطل بمدخلات جديدة حقيقية، وصائبة. وعليه، لا مجال للتغلب على الباطل في أدمغة الناس ما داموا لا يغذونها إلا بالباطل. إن غذاء الدماغ هو الأفكار، وهي على ضربين قوية، صلبة، دامغة، وصحيحة، وأفكار ضعيفة، هشة، وخاطئة، ومدموغة، إلا أن الأولى أصعب في الهضم، والأخيرة أسهل، وتحتاج إلى بذل الجهد، وتعويد الدماغ على الأداءات العليا أو الأعلى، لأنه يعتاد على الكسل كما يعتاد على التفكر، والنظر، والتحليل.

يربط تأملنا العلاقة الكونية بين الحق والباطل (المعرفي) بآلية عمل الدماغ البشري، مُفسِّراً فعل "يَدْمَغُهُ" على أنه عملية إحلال للحق مكان الباطل في البنيات المعرفية العصبية، مما يؤكد أن الصراع بينهما هو حقيقة "جوانية" تنشط في الدماغ، حيث مسكن الباطل ومسكن الحق هما الخلايا العصبية. وتستند هذه العملية إلى مبدأ اللدونة العصبية (السيكولوجي/علم الأعصاب)، حيث يكون الدماغ مستعدا دائماً للتغيير والدمغ المستمر للأخطاء وتعويضها بالصواب كآلية تكيف مع التحديات، وكل عملية تكيف هي تعلم (البيداغوجي/التربوي) بامتياز. ولتحقيق هذا الدمغ، يجب على الإنسان أن يبذل جهداً مضنياً في البحث والتأمل، وأن يغذّي الدماغ بالأفكار الصحيحة الصلبة، مع توظيف كل المدخلات الحسية كما يتجه إليها الوحي الكريم، لأن الدماغ يعتاد على الكسل كما يعتاد على التفكر.

التأمل القرآني الثالث: فلسفة اليقظة

كيف نفكر؟

كيف نبني الأحكام؟

كيف نتخذ القرارات؟

أعتقد أن هذه هي غايات مطالبة الله الناس بإعمال عقولهم، أو بالضبط بالتدبر، تدبر كتابه، وتدبر أنفسهم، وتدبر محيطهم وعلاقاتهم، وتدبر الكون، يريد الله منا أن نفكر، وأن نبني أحكاما، ونتخذ على ضوئها قراراتنا التي تشكل هويتنا العقدية العملية. تتميز المجتمعات المعاصرة بتشكلات مختلفة من الوعي الديني، ما يجعل الأهمية العامة للإيمان ومركزية الدين في الحياة أمرا غير بديهي، أمرا يحتاج إلى التفكر المستمر، والتفاعل المتواصل مع الإمكانات المتاحة أمام الإنسان من علوم، ووقائع، وكائنات حية، وأكوان ممتدة، وكذلك التفاعل الباني مع نفسه باعتباره ذاتا مفكرة في نفسها، وغيرها. وإذا ما أضفنا إلى ذلك كله العوالم الموازية من الوعي الديني سواء بخلفية إسلامية، أو مسيحية، أو يهودية، أو ديانات أخرى، أو ديانات شخصية فردية، أو إلحادية ... هذا كله يجعل التفكر الدائم في الدين، والتدين، والمعتقد أمرا محتوما.

تعتبر بناء على ذلك ممارسة التدبر أمرا جوهريا لاتخاذ قرار التدين، لأن التدين معناه القدرة على خلق انسجام وتكامل بين ما يعتقده الإنسان، وبين مكونات محيطه المنظور والمستور، وما يوفر هذا المحيط للإنسان من إمكانية تطوير أمر مركزي هو: معنى للحياة، والممات، وما بعد الممات. لا تختفي أية واحدة من هذه المراحل الثلاثة من سيرورة تفكير الإنسان، أي إنسان وإن حاول إخفاءها أو تجاهلها. بمعنى أننا نفكر ونتدبر لبناء أفكار قوية ومتماسكة تمكننا من إصدار أحكام مصيرية على: الحياة، الموت، وما بعد الموت، وتأسيسا عليها نأتي سلوكاتنا، أي نحولها إلى إجراءات عملية يومية. وتبعا لذلك، يظهر من خلال كلامنا هذا أننا نسعى من خلال تبصرنا، وتدبرنا إلى تشكيل بناء اعتقادي متسامي يشكل ما نعتقد أنه الحقيقة المطلقة التي تؤطر حركاتنا، وسكناتنا. إننا نسعى إلى تأطير مكتسباتنا بنظام معياري معين يوجه بوصلتنا في الحياة، وما بعد الحياة، هذا النظام الذي نبنيه بوعي وبدون وعي يؤثث ما يسمى في القرآن الكريم الكسب، أي مجموع أفكارنا وأعمالنا التي نأتيها واستقرت عليها حياتنا، التي سنأتي للحديث عنها لاحقا.

لقد حث الله الناس على التدبر في كل شيء وبدون استثناء، ومما حث على التفكر فيه القرآن الكريم: "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب"، سورة ص: 29، وهذا يعني بشكل واضح، ومباشر، وعميق أن الله يريد مؤمنين واعين بإيمانهم، يريد أن يكون إيماننا إيمانا غير ساذج. يريدنا أن نطور عالمنا الداخلي بتفاعل مستمر مع العالم الخارجي المنظور، والمسطور، والمستور، يريدنا أن ننشئ خريطتنا الفكرية ومشاعرنا، وميولاتنا، وانطباعاتنا عبر سيرورة من التفاعلات التي تستقر على شكل بنيات معرفية تؤثث عالمنا الداخلي، حتى نتجنب إيمانا ساذجا يهتز، ويترنح أمام أول تحد، بل قد

ينهار بسرعة، فكل ما يحدث لنا في دواخل أنفسنا، وفي سلوكاتنا، وأحكامنا، وفهومنا دون وعي منا، أو بوعي منا تم إنشاؤه وتطويره بواسطة نظام تفاعلنا اليومي، فكل تجربة نمر منها في محيطنا مع أي مكون من مكوناته تترك أثرها فينا بنائيا، سواء سلبية، أو إيجابية.

يلعب الدماغ دورا هاما في كل ما نتعلمه، فعندما نتعلم شيئًا - أو بشكل عام - ندركه، نعيد ترتيب الروابط بين الخلايا العصبية، يتم ذلك عن طريق تكوين علاقات بين الخلايا العصبية الموجودة، لذلك تتغير بنية دماغنا باستمرار، والوسيلة الوحيدة الفعالة لاستمرار التطور وتعميقه هي الاستدامة على التفكر، والنظر لأنها رياضة الدماغ، والإيمان الساذج لا يعرف طريقه إلى دماغ يتدرب يوميا على التفكير، والإيمان اليقيني لا يعرف طريقه إلى دماغ كسول، وخامل. أكيد أننا بواسطة فعل التفكر هذا ننتج أفكارا، وأفعالا، ننتج كسبا معينا، وهذا الكسب يصبح بوصلتنا، ويتحكم فينا بشكل كبير لأنه أضحى النظارات التي نرى بها الكون، ولا نتخذ أي قرار إلا بعد تفعيله، فلا نرى إلا ما تمكننا منه مصفاة الكسب، قال تعالى: "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ"، سورة المطففين، الآية: 14. لذلك إذا كان كسبك يدعوك إلى أفعال، وأقوال قبيحة، أي يدعوك إلى مزيد من كسب القبيح فما عليك إلا التفكير في مناهضته، والتحرر منه، وتعويضه بكسب ينتج الفعل، والقول الجميل، وإلا ران على قلبك، قال تعالى: "وَذَرُوا ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ"، سورة الأنعام، الآية: 120.

يمنح التدبر للمتدبرين مزيدا من الراحة النفسية في أفق وخضم حياة ذات أبعاد دينية، وغير دينية، يجعل التدبر الحياة جميلة لأنها تسمو بالنفس فوق الطبيعة، وتحرك عجلة التأويل في أعمق صوره، وتدمج العناصر الدينية المتنوعة في مسيرة الحياة بانسجام مولد لسعادة داخلية، رائعة، جميلة، عميقة حتى في أحلك لحظات الحياة، ذلك أنه لا يمكن فهم عمق ما قلناه إلا إذا فهمنا الإيمان المتبصر/المتدبر في سياق المجتمع، فإذا كان الإيمان يحيل على الارتباط الطوعي الحر الواعي بمنظومة دينية معينة، فإن الإسلام يجعل هذا الإيمان ملموسا في الأسرة، والمدرسة، والمسجد، والتجارة، والحكم، والاقتصاد... ارتباط يتخذ أشكالا متعددة، ومتنوعة تؤطر كل شيء في حياة المؤمن، والمؤمن المتبصر لا يرى في هذا الارتباط تدخلا في شؤونه، وتضييقا عليه، بل يستشف في كل جزئية حكمة ما يجب النفاذ إليها، سببا ما يجب بسطه، نتيجة ما يجب الوصول إليها، لأن الإيمان وفق اعتقادنا المتواضع تصديق من جهة، وتفعيل له من جهة أخرى، وتفكر فيه، وانفتاح مستمر على كل ما يمكن أن ينتج عن التدبر من توسع في الفكر والفعل، بمعنى أن الإيمان يؤدي إلى كسب عملي وعلمي عند صاحبه.

تبعا لما سبق، يغدو الإيمان بالنسبة للمؤمن المتدبر هبة استثنائية، وليس متاحا إلا لمن كان كسبه جميلا قولا، وفعلا. يصعب أن تجد مؤمنا ظالما، قبيحا دائما وأبدا، لكن ممكن أن تجد متدينا فيه كثيرا من القبح والشر، لأن مضمون دينه، وفهمه لمضامين دينه تشكلت في شبكة من المعطيات المقلوبة فهما، وترتيبا فأعطت كسبا مقلوبا معكوسا، وأعطى أفعالا تعكس حالة الانتكاس، فالمؤمن المتدبر إنسان فيه ضعف، والمتدين المعكوس ضعيف، فيه شيء من الإيمان، وقليل من التدبر أو انعدامه. تظهر على

السطح من خلال ما ذهبنا إليه لطيفة مهمة مفادها أن التدبر في القرآن يوصل إلى التدبر في النفس وكسبها، يعني أنه يساعدنا على إدراك الكيفيات التي نرتبط بها بأنفسنا، وبإخواننا البشر، وبالبيئة الاجتماعية، والطبيعية، وما فوق الطبيعة، أي أن التدبر كفعل واع يورثنا كفاية التأمل الذاتي الانعكاسي النقدي، أي مساءلة النفس بخلفية إرادة السمو، والمزيد من السمو، فلا يعرف المتدبر في أي مجال حدودا لتفكره ما دام يستطيع أن يفكر. وعليه، فالتبصر بهذا المعنى هو فعل الذات في الذات، ومع الذات في تفاعل ديناميكي مع المحيط من خلال تدبر سابق ولاحق في القرآن الكريم. هكذا يغدو القرآن الكريم محل تدبر باعتبار التدبر فيه أمرا إلهيا، ويغدو التدبر في الذات، ومتعلقاتها، والمحيط الاجتماعي، والطبيعي تدبرا تابعا للتدبر القرآني، أليست مواضيع سور القرآن هي: ما فوق الطبيعة، الإنسان، الطبيعة، المجتمع، النفس.... التدبر في القرآن طريق التدبر في كل شيء ذكر في القرآن بما فيها نفسك أيها الإنسان. اللهم اجعلنا من المتدبرين.

يعرّف التأمل التدبر (البيداغوجي) بأنه رياضة الدماغ والوسيلة الفعالة الوحيدة لتحقيق الاستدامة والتطور المعرفي، وهو ضروري لبناء هوية عقدية واعية (المعرفي) تتخذ القرارات والأحكام المصيرية حول الوجود، وتوفر معنى للحياة .هذا التدبر هو فعل واعٍ يهدف إلى تكوين بنيات معرفية قوية في الدماغ، ليصبح "كسبنا "بمثابة النظارات التي نرى بها الكون، محذراً من أن الإيمان الساذج لا يعرف طريقه إلى دماغ كسول وخامل، وأن الكسب القبيح (الناشئ عن تدين معكوس) يغشى القلب ("رانَ على قلوبهم") ويؤدي إلى الانتكاس .نفسياً (السيكولوجي)، يمنح التدبر راحة وسعادة عميقة بتزويد الضمير بالطاقة، ويورث كفاءة "التأمل الذاتي الانعكاسي النقدي "ومساءلة النفس في أفق إرادة السمو، مما يجعل التدبر في القرآن هو الأصل الذي يتبعه التدبر في كل شيء، وتتحدد القيمة الإيمانية بالبصيرة المكتسبة لا بالادعاء.

التأمل القرآني الرابع: الاستزادة: سيكولوجيا الفضول الوجودي وبيداغوجيا الابتكار المستدام

(وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114))

الآية 114 من سورة طه

أمر الله المؤمن بترديد هذا الدعاء، وجاء العلم في سياق الآية نكرة، إنها صياغة ربانية منفتحة بالإطلاق لأنها لم تقص أي علم، كل ما ينفع الناس من أبحاث ودراسات في أي مجال هو علم، إنه أي علم يساعد الإنسان على تفكيك العالم المنظور، والعالم المستور، فبالعلم يحقق الإنسان أعلى درجات المعرفة المفسرة لقوانين الوجود المنظور، وبالإيمان والعلم يفكك أعلى درجات المعرفة المفسرة لقوانين العالم المستور. وهو السبيل لتنمية المجتمع، والاقتصاد، والسياسة، العلم نواميس وقوانين مفسرة لطريقة اشتغال مكونات الوجود، وبه ينتقل الإنسان من حالة العبث إلى وضع التنظيم، ومن حالة الشك إلى اليقين، قال تعالى: "وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون"، سورة الأنعام الآية 105. يلعب العلم دورا أساسيا ومتزايدا في تطور المجتمعات، وتراكم المعرفة النظرية والإجرائية، ويدفع إلى ابتكار الحلول للمشاكل المتجددة لكنه لا يدعي أنه يعطينا تمثيلا موضوعيا للعلم أو يفسر على وجه اليقين، بل يفترض ويعمق افتراضاته ويخلق لنا مجالات جديدة للتفكير من أجل فهم كينونتنا الوجودية.

لماذا: "قل رب زدني علما"؟

إن العلم بنوعيه المفسر للوجود المنظور، والمفسر للوجود المستور هو الوحيد الذي يمكننا من فهم عالمنا، فهم أنفسنا، فهم تاريخ تطورنا، تاريخ تطور أفكارنا، فهم حاجاتنا، مخاطرنا... فبدون العلم لن تتطور المعارف، ولا القطاعات، ولن تكون هناك ابتكارات، اللهم زدني علما يجب أن يكون دعاء فرديا وجماعيا، ودائما في الزمن ليلا ونهارا، ومتنقلا بين الأمكنة والوضعيات المعيشية، فوجودنا متعلق بعلومنا، فالعلم هو الذي يعلمنا كيف نخطط، وكيف ندبر، وكيف نقوم أمور حياتنا في كل المجالات، فالجاهل عالة على العلماء، والجهل عدوهم الأول. اللهم زدني علما لازمة المؤمن، لا يميز بين العلوم لأنها الطريق إلى الله، قال تعالى: "قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"، سورة آل عمران:137، اللهم زدنا علما معناها التصدي لتبعات تطور الحضارة، التصدي لتبعات العلم نفسه عندما ينزاح عن سكته الإيجابية، فالعلم يقوم بالعلم.

إن العلم هو البحث في ما تخفيه الظواهر الطبيعية، والكتب المؤلفة والسلوكات الإنسانية، وهو دراسة المنظور، والمفعول، والمكتوب في الماضي والحاضر، قال تعالى: "وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ"، سورة سبأ: 44. إن العلم بحث في الجزئيات، وأجزاء

الجزئيات، في الذرات ومكوناتها، وجوهر الأشياء، في العلوم الطبيعية، والإنسانية، والماورائيات، والعلاقة الناظمة لهذا النسق الكوني، لأن هذه المجالات هي عوالم الإنسان المعقدة. لا يريدنا الله مشدودين فقط إلى الأرض بل يريد علما ممتدا يعانق الأرض والسماء، قال تعالى: "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ". سورة الروم: 7. وقل رب زدني علما، دعاء متوجه لنفوسنا لتحريك فضولها، فمضمون الدعاء فيه دلالة واضحة لوجود المجهول، وطلب الزيادة يتضمن اعترافا بالنقص من جهة، وانفتاحا عن المجهول من جهة ثانية، واعترافا لله بفضله المطلق في الزيادة، فهو الذي يزيد لكن بطلب منك مفعل بإرادة الاستزادة. اللهم زدني علما دعاء يستبطن كذلك إرادة تحسين الواقع المعيش واستشراف مستقبل أفضل.

اللهم زدني علما، معناه أن الإنسان يحتاج في معاشرته لبني جنسه يحتاج إلى حقائق نتفق حولها، وقوانين نلتزم بها، وضوابط لا نختلف حولها، فلا عيش مشترك بدون علم، انظروا كيف يكون حال متعلم في حوار مع جاهل؟ انظروا كيف يحكم الجاهل على العالم؟ انظروا كيف يفسر الجاهل العالم؟ كيف يفسر الأمراض؟ كيف يفسر الأكوان؟ ما إن يصل الإنسان إلى حدوده القصوى في مجال ما حتى يحس أنه جاهل وأن تصرفه في ما لا يتقنه تفعيل للجهل، ولا يدرك هذا الأمر إلا من له نصيب من العلم. إنني أدعي أن اعتراض العلماء حتى على الله وعلى المؤمنين اعتراض نوعي، اعتراض مبني عن بذل جهد ووصول إلى الحدود القصوى وليس اعتراضا مبنيا على هوى، لأن الجاهل يبني اعتراضاته في كل شيء على هواه ولا ينضبط لأي ضابط ألم يقل ربنا: "هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"، سورة آل عمران: 66. أقر الله تعالى المحاججة بالعلم، وجعل المحاججة بغير علم محل رفض وتشكيك في المنهج، كما توضح الآيات بجلاء كيف رد الله على الجاهلين بمنطق الحجة الذي لا تهديد فيه، بل مؤاخذة واضحة: "أفلا تعقلون".

ألا ترون أن أمر الله: "قل رب زدني علما" يحملنا مسؤولية التعلم والتعليم، يحملنا مسؤولية العيش فوق الأرض بسعادة أو تعاسة، وكلاهما مرتبطة بمنسوب العلم الذي ينتجه الإنسان ونوعه، وكيفية توظيفه. "قل رب زدني علما" معناه المداومة على الابتكار، لأن الزيادة في العلم تعني الزيادة في إبداع الحلول لمشاكل الواقع المتجدد. "قل رب زدني علما" توجهنا ضمنيا إلى المستقبل لأننا بالعلم نقول لأحفادنا أننا تحملنا مسؤولية الاستزادة من العلم، وتركنا لكم العالم أفضل مما وجدناه فعليكم تحمل مسؤوليتكم، وتركه للأجيال اللاحقة بشكل أفضل مما وجدتموه.

لا تلامس الزيادة في العلم العلوم الدقيقة فقط، بل العلوم الإنسانية كذلك، فالعلم الدقيق في وسط سياسي متخلف خطير أو غير ممكن، وعلم دقيق بدون أخلاق وبال، وعلم دقيق بدون خلفية إنسانية مدمر، "اللهم زدني علما" يلامس كيف نعلم العلم: التربية، كيف نقدم المجتمع: السوسيولوجيا، كيف نحترم بعضنا الأخلاق الفلسفة، كيف نكون أحرارا في دولة نتعايش فيها وفق قوانين : السياسة، كيف نفهم ثقافات غيرنا / الانثربولوجيا، كيف نفهم غايات وجودنا، ومصيرنا المشترك: الدين، كيف نفهم

اضطراباتنا وتقلباتنا: السيكولوجيا، كيف نتواصل بيننا: اللغة، كيف نفهم ماضينا: التاريخ، كيف ندير مجالنا ونفهم مناخنا. الجغرافيا.....، "وقل رب زدني علما" تعانق كل منتوج بشري ساهم في فهم شيء ما فوق هذه الأرض أو في الكون، إن العلم هو شرف الإنسان، وهو التطعيم أو التلقيح ضد من يتجرأ على نكرانه، وهو الذي يحمي نفسه بنفسه. "قل رب زدني علما" معناه أن الحياة لا تتحكم فيها الأحلام، ولا الأوهام، ولا الإيمانيات المجردة المعزولة عن العالم بل تتحكم فيها اجتهادات الإنسان في مجالات نشاطه بمواجهة تحدياتها بعقل منفتح وذاك هو العلم. بل إن من شروط التسيد، والملك، والتدبير العلم والصحة البدنية، قال تعالى: "وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ". سورة البقرة: 247، لقد شرد قوم طالوت عن العلم بالمكانة الاجتماعية أو المادية، والحقيقة التي أغفلها قوم طالوت وبينها لهم رب العزة أن العلم هو معيار التكليف والسيادة، وهو طريق الله لاكتشاف عظمة الله بعقل الإنسان.

أيها الناس ما أروع العلم لأنه يعطي لحياتنا معنى، ويجعلنا نحس أننا نقدم شيئا للإنسانية سواء كان بسيطا، أو كان كبيرا، يجعلك تعانق عقول الأذكياء، واعتراضاتهم، وتوجيهاتهم، وإبداعاتهم، فهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ رب زدني علما: قولوا آمين.

يُعَرِّف التأمل أمر الله "وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا "(الفلسفي/المعرفي) بأنه دعوة مطلقة وشاملة لكل ما ينفع البشرية، وهو المعيار الوجودي الذي ينقل الإنسان من حالة العبث والشك إلى وضع التنظيم واليقين، حيث يُعد العلم معيار السيادة والتكليف الإلهي (كما في قصة طالوت)، وهو الأساس الوحيد المقبول للمحاججة. نفسياً (السيكولوجي)، يستبطن هذا الدعاء إرادة ذاتية لتحريك الفضول والاعتراف بالنقص والجهل، ويُعتبر العلم شرف الإنسان وتطعيمه ضد الغفلة والهوى، حيث أن الحياة لا تُدار بالأوهام بل بالاجتهادات العقلانية لمواجهة التحديات بعقل منفتح. بيداغوجياً (الاجتماعي/التربوي)، يُحمّلنا هذا الأمر مسؤولية فردية وجماعية للتعلم والتعليم، فهو ضرورة للعيش المشترك بتأسيس حقائق وقوانين متفق عليها، كما أنه يدعو للمداومة على الابتكار وإبداع الحلول لمشاكل الواقع المتجددة، وفاءً بمسؤوليتنا نحو الأجيال القادمة.

التأمل القرآني الخامس: عندما يعجز المنطوق وينجح الإشاري

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29))

الآية 29 من سورة مريم

(قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41))

الآية 41 من سورة آل عمران

إن التأمل في كتاب الله وتتبع عجائبه أمر غاية في المتعة والتعبد، ومما شد انتباهي أن الله يأمر بالإشارة مكان العبارة في المواقف التي يعجز فيها الإنسان عن الشرح، مواقف ثقيلة في وزنها معنى ومبنى، غريبة في منطقها الذي هو منطق فوق منطق الإنسان، مواقف يعجز العقل عن تصديقها، وما دام الأمر كذلك فإن الله يوحي إلى أولياءه أن اصمتوا، فالأمر فوق الكلام، وأشيروا فالإشارات تغنيكم عن الكلمات المنطوقة. كيف لمريم أن تقنع بالمنطق أنها رزقت ابنا بدون أب؟ كيف لزكريا أن يصدق هو وامرأته وقومه أنه سيرزق بولد، وقد بلغ من الكبر عتيا، وامرأته عاقر؟ هنا بالضبط يعجز اللسان، وتقول الإيماءات أكثر من الكلمات. تقول الآية: "فأشارت إليه"، لأن مريم نفسها عاجزة، هي نفسها واقفة مشدودة أمام قوة وعظمة ربها التي تتجاوز منطقها، ومنطق قومها. أتخيل في الوقت نفسه موقف زكريا وامرأته الذي لن يكون إلا موقفا يعجز فيه عقل الإنسان العاقل، ويتوسع فيه عقل الإنسان العاقل المسدد بالدين.

إننا في كثير من مواقفنا اليومية التي نعجز فيها عن الشرح نقول: (الأفضل أن نسكت، السكوت أحسن، "هادشي لي عطا الله" أو نشير بأيدينا إلى السماء، أو نرفع أعيننا إليها)، توصلنا تعقيدات المواقف إلى أن السكوت، أو الإشارات هي أفضل طريقة لشرح المعقد. ولا أخرج ما يقع للمسلمين في هذه الأيام من هذه الدائرة، فقد وصلنا إلى مرحلة لا ينفع فيها التحليل العقلاني، ولا تسعفنا فيها المعطيات الموضوعية، فنقول حسبنا الله ونعم الوكيل، أو نهز رؤوسنا، وندندن مع أنفسنا، ونشير بأيدينا إلى الأعلى لأننا عجزنا عن استيعاب معطيات عالمنا الخارجي المتوحش والظالم. إن عالم الإشارات هو عالم التعاطي مع ما فوق المنطوق، عالم التعاطي مع ما فوق المنطقي، عالم التعاطي مع كل وضعية خارج حسابات العقل والكلام. اللهم إنا نشير إلى غزة، ونشير إلى عبدة العجل. اللهم فاجعل إشاراتنا بشاراتنا. آمين

يركز التأمل على أن الأمر الإلهي بـ "الإشارة "أو "الرمز "في المواقف التي يعجز فيها المنطوق (التواصلي/البلاغي) هو إقرار إلهي بعجز اللسان والمنطق البشري عن استيعاب وقائع تتجاوز الحدود العقلية (المعجزات)، حيث "تنجح الإيماءات أكثر من الكلمات "في نقل المعنى، ويمثل السكوت والإشارة أفضل طريقة للتعاطي مع التعقيد، سواء في القصص القرآني (مريم وزكريا) أو في الواقع المعاصر (حال المسلمين تجاه الظلم) .

نفسياً (السيكولوجي)، تُعدّ الإشارة متنفساً عند الوصول إلى حدود الحسابات العقلية، وتعبيرًا عن موقف العجز والدهشة أمام قوة العظمة الإلهية التي تتجاوز المنطق، مما يوسع عقل الإنسان المسدَّد بالدين.

أما فلسفياً (الوجودي)، فإن اللجوء إلى الإشارة (كرفع الأعين إلى السماء) أو قول "حسبنا الله" هو تحول وجودي من محاولة إيجاد حلول في عالم المنطق المحدود إلى الاستعانة بـ "عالم ما فوق المنطوق " والمطلق.

التأمل القرآني السادس: العوالم المرئية وغير المرئية. سيكولوجيا البصيرة النافذة وبيداغوجيا التحرر من القيد الحسي

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (42) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ(43))

الآيات من 38 إلى 43 من سورة الحاقة

يفاجئنا الذكر الحكيم بعمق المعرفة الكونية، والنفسية، والطبيعية التي تسكن عمق آياته الكريمات، ويخبرنا الله عز وجل من خلال الآيات أعلاه، بأننا لا نبصر كل شيء، لسنا مطلعين بأعيننا المجردة على مخلوقاته القريبة، والبعيدة الظاهرة، والباطنة، يشككنا في قدرتنا على الإبصار ومن ضمنه البصيرة، نحن قوم نحكم بعقول لا ترى كل شيء على كل شيء، عقول تفتقد حواسها إلى الإلمام بكل مكنونات الوجود، لكنها رغم ذلك تدعي فهمه، وتفكيكه بل فهم ما فوق المكنونات. إن الله يقسم بما نبصر وما لا نبصر؟ لكن ما البصر؟ وماذا نبصر. وماذا لا نبصر؟

ليس البصر هو حاسة الرؤية فقط، وليس مجرد حاسة ملموسة، بل تحيل أيضا على قوة ما بداخلها، قوة عكس الشيء لرؤيته من جهة، وقوة النظر فيه، والتفكر فيه عندما تجتمع مع مستقبلاتها من خلايا الدماغ من جهة ثانية. وعليه، فالبصر رؤية، وتفكر، ونظر، والبصيرة نتيجة تفاعل فعل النظر بفعل التفكر. يكاد المعتمد على الحس لوحده أن يكون تجزيئي المنهج، وناقص النتيجة، إذ البصر لوحده - وهو نفسه غير مكتمل - لا يمكن أن ينتج معرفة صحيحة ترقى إلى الحقيقة، ذلك أنه بإمكاننا رؤية كثير من الأشياء لكن في الوقت نفسه تحتجب علينا أشياء كثيرة لا حصر لها، فمجال العين محدود جدا، ومتعلق بالنور، وحجم المنظور، وقربه أو بعده، فلا نرى إلا كل ما هو على السطح مما له حجم معين، ويوفر نورا معينا، وبقرب معين. وحتى عندما يتعلق الأمر بإبصار المعاني فلا ندرك منها إلا الظاهر منها أولا، أما العمق فلا تدركه إلا الخاصة، وهي نفسها لا تدرك منه إلا ما يمكنها منه جهاز إبصارها، وهو جهاز لا يخلو من تشوهات واعوجاجات.

يؤكد نص الآية على أن هناك مجالا واسعا لا نراه، مجالا من المحسوسات التي تتجاوز حواسنا، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، عجزنا على رؤية الأحجام التي لا تستوفي شرط قدرة العين إذ تتجاوزه لأنها أدق من أن تراها أعيننا، فلا نرى الذرات، ولا الموجات، ولا الرياح، ولا الرعد، ولا... نحس بآثارها لكننا لا نمسكها ببصرنا أبدا، ولا نرى الكواكب البعيدة، ولا نرى عوالم الغيب لا جنا، ولا ملائكة، ولا حتى أعدى أعدائنا وهو الشيطان، وقبيله، ولا أي شيء، بل نشغل خيالنا عسى أن نظفر بصورة غير حقيقية كي نسكت فضولنا ونخفي عجزنا.

لا نرى كثيرا من أنواع الإشعاعات التي تقتلنا وتدمرنا ونذهب إليها بأرجلنا اعتقادا منا في أننا نرى كل شيء، والحقيقة أننا لا نرى إلا القليل، "ما لا تبصرون" مجال جد واسع من المجهول من المخلوقات،

والظواهر الطبيعية، والفلكية، والنفسية....، بل لا نرى ما يجول في دواخلنا من أحاسيس وعواطف، فنسمع بالحب ولم نره، ونسمع بالكره ولم نره و....، لكننا نرى مؤشراته لا غير، لا نرى مقاصد الناس، ولا نواياهم الخيرة والشريرة، والتي كان بالإمكان أن تنفعنا، أو ربما تضرنا إن أبصرناها، لا نرى الفيروسات، ولا الميكروبات، ولا كل المخلوقات المجهرية التي تصيبنا في مقتل. إن ما لا نرى ربما أكبر مما نرى لكننا رغم ذلك، ولجهلنا نعتقد أننا نفهم، ونعلم كل ما يحيط بنا، ونمشي بين مكونات الطبيعة بنوع من التبختر الواهم...، ربما ونحن نمشي بين هذه المخلوقات الخفية التي ترانا، ولا نراها، وتتبادل الحوار فيما بينها حولنا وحول تبخترنا، بل ربما تبتسم، أو تضحك من جهلنا لوجودها رغم وجودها. بل إن كثيرا مما نعتقد أننا نراه تصيبه أعيننا بالتشوه فنراه على غير حقيقته، بل في بعض الأحيان نرى ما ليس موجودا إلا في عقولنا، وخيالاتنا.

لو زدنا في تعميق ما لا نبصر لوجدنا أن بصرنا بدلالة البصيرة لا يرى كثيرا من الحقائق، وكأنه مصاب بعمى خِلقي، إن الإبصار يحيل كذلك على إعمال العقل لفهم دلالات، ومعاني العالم المنظور، وليس فقط رؤية جوانبه المادية، بل عمقه ودلالته المعنوية، ولا تكفي آلة العين للفهم، والنظر بل تحتاج إلى أن تخالط القلب، والدماغ ليحصل الإبصار، وإذا لم تكتمل هذه السيرورة المؤدية للفهم، ستبقى رؤيتنا عبارة عن مرآة عاكسة للعالم الخارجي في العالم الداخلي دون أن يتم ربطها بمعانيها ودلالاتها. لذلك نسمع قوله عز وجل: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" سورة الحج: 46، وقوله تعالى: "ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون"، سورة الأنعام: 110.

إن الأمر يتعلق هنا بالعمى الوجودي، العمى الإدراكي، وليس العمى الحسي، إنهم ينظرون ولا يبصرون، ومن أهم معيقات هذا النوع من الإبصار، التكبر، والعجرفة، والجهل، وفي آيات كثيرات: الهوى، إن الهوى أيها الناس يهوي بالبصر والبصيرة، إن العالم الخفي الذي لا نراه عالم غني بالتأكيد بالمعجزات، بالآيات التي على الإنسان أن يسعى إليها بإزالة أستار الجهل عليه، وستر الكبرياء على نفسه، وأستار الهوى. إن ما لا نبصره الذي أقسم به رب العزة هو نفسه الطريق العلمي إلى الله، طريق البحث عن آيات الله، لكنه غير متاح بدون بصر، وتبصر، وبصيرة، وما لم نسع لكل ذلك فقد نصاب بالعمى العقلي على إطلاقه. ويغدو تعقلنا مظلما لا بصيرة له. فكم من حامل لدماغ لا عقل له. إن الطريق إلى الله محاط بما نبصر وبما لا نبصر، والسبيل إليه هو تفعيل تعقلنا وفق مقتضيات العلم، والتجربة، والإيمان. فقد يكتشف العقل والتجربة الآيات، لكن لا ينتج عن هذا بشكل أتوماتكي تخلق، ولا تحسن، ولا تطور في الاتجاه الصحيح إلا بتسييج الرؤية بالإيمان الذي يحمي العقل من نفسه. وبدون تلاحم التعقل بالإيمان نصل إلى العمى الإيماني، فيغدو عقلنا متعقل حسابيا، أعمى إيمانيا، وهنا بالضبط لن نستطيع ضمان ما ستؤول إليه الأوضاع في عالم المتعقلين العُمي إيمانيا، وروحيا، وشعائريا، فغاية قسم الله في الآية أعلاه بما نرى وما لا نرى هو الوصول إلى إدراك الكل لا الجزء، وبالضبط الوصول إلى الحق المطلق، إلى الله. ولا

تنسوا أن عوالم التقنية المعاصرة، والذكاء الاصطناعي مكنتنا من رؤية ما لا نراه، وسيستمر كشف الحجب بالعلم إلى أن يبرز الحق أبلجا، لكن مع ذلك سيبقى بيننا جاحدون، مطموسو البصر والبصيرة.

يمثل التأمل ظاهرة إنسانية عميقة تتشابك فيها الأبعاد الفلسفية والسيكولوجية والتربوية، لتقدم منهجاً متكاملاً نحو تحقيق الوعي والحكمة.

من المنظور السيكولوجي (علم النفس)، يُعد التأمل آلية عملية لتدريب العقل، حيث يركز على تنمية اليقظة، وهي عملية توجيه الانتباه إلى اللحظة الحالية دون حكم أو تقييم. هذه الممارسة تقلل من الاجترار الفكري، وتزيد من المرونة الإدراكية، وتعمل على التنظيم الانفعالي عبر تقليل نشاط المراكز المسؤولة عن الخوف والقلق في الدماغ (كاللوزة الدماغية)، مما يعزز الصحة العقلية ويحسن التركيز والذاكرة العاملة .التأمل بهذا المعنى هو أداة تحليلية لتفسير آليات السلوك والوجدان.

أما بيداغوجياً (علم التربية)، فيُستثمر التأمل كوسيلة لتهيئة المتعلم لبيئة تعلم فعالة ومستدامة. إنه يضع المتعلم في مركز العملية التعليمية بصفته ملاحظاً نشطاً لخبراته الداخلية، مما يعزز الاستقلالية والمسؤولية الذاتية تجاه التعلم. كما تعمل الممارسات التأملية القصيرة كـ "فاصل إدراكي" يقلل من الإجهاد الإدراكي، ويزيد من الاستعداد المعرفي لاستقبال المعلومات الجديدة. علاوة على ذلك، يخدم التأمل هدفاً تربوياً أوسع في تنمية الكفاءات الاجتماعية والعاطفية، من خلال تعزيز التعاطف والسكينة، وبناء بيئة صفية داعمة.

وفي الإطار الفلسفي والوجودي، يتجاوز التأمل كونه مجرد تقنية استرخاء ليصبح طريقاً لتحقيق البصيرة والحكمة .إنه ممارسة للتحرير من القيد الإدراكي، حيث يدرب الفرد على تجاوز "البصر" الحسي المحدود، إلى استخدام "البصيرة" القلبية والعقلية لفهم ما لا يُبصر من الحقائق الكامنة والقيم الوجودية، كما يشير التأمل القرآني. التأمل يمثل بذلك الموجه والمنظّر الذي يحدد الغاية العليا من وراء النمو والتعلم، وهي تحقيق الحقيقة الداخلية والتحرر من أوهام الذات الواهمة (الهوى والكبر)، ليعيش الإنسان حياته بوعي وجودي أعمق وأكثر أصالة وقصدية.

الخلاصة الجامعة: التأمل هو ممارسة سيكولوجية لتدريب الانتباه، تُوظف بيداغوجياً لتعزيز جودة التعلم والكفاءات الشاملة، لتحقيق غاية فلسفية عظمى تتمثل في اكتشاف الذات والحكمة المطلقة.

التأمل القرآني السابع: الغواية الممنهجة: سيكولوجيا (الأبلسة الإدراكية) وبيداغوجيا التحصين الأخلاقي

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (100))

الآية 100 من سورة يوسف

(فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (36))

الآية 36 من سورة البقرة

من لطائف قراءة القرآن تحريك ملكة التفكر في الإنسان من خلال ما يزخر به هذا الكتاب من نصوص تحمل دلالات لا يمكن الوصول إليها بدون إعمال العقل في ما تقرأه، أو تسمعه منها، وأنت خلف الإمام. ومما أثار انتباهي في نصوص متعددة هو قدرات إبليس أو الشيطان على اكتساح كل الأفراد، والمؤسسات الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية. تحس وأنت تستعرض منجزاته التدمرية أنك أمام مخلوق ليس بالهين، وأنك أمام مخلوق ذكي، ومناور، ومقاوم للكسل، والعجز، ومصر على تحقيق أهدافه، فقد واجه أبانا أولا وأمنا وأزلهما في الجنة، وأزل أبناءهما، وأضل أقواما كثيرة، بل دخل لبيوت الأنبياء، وحاول تدميرها، بدون استثناء، وخلق العداوات بين الأنبياء، وأبنائهم، وأقوامهم، وأزواجهم. إنها شخصية على درجة عالية من الاحتراف إن لم يكن هو الاحتراف بذاته. يحكي الله كل هذه المعطيات لاستحضارها في مواجهة شخصية عنيدة، وقوية بإمكانات هائلة مسخرة للشر لا للخير. وأكيد أن تزويدنا بهذه المعطيات غرضه إيصال حقيقة أساسية مبثوثة في ثنايا الخطاب الإلهي مفادها: لا أحد منكم يستطيع التغلب على الشيطان بدون الرجوع إلى الله، واستحضار معيته، والعمل بتوجيهاته. ومن اعتقد عكس ذلك فسيصبح يقينا من جنود إبليس، وليس فقط ممن أضلهم الشيطان.

إن تجسيد الشر المطلق في الشيطان حقيقة دينية، ومسلمة لا تحتاج عند المؤمنين للدليل، أما غير المؤمنين فلا يهمهم هذا الأمر في شيء، وغير معنيين بتتبعه. وتبعا لذلك، أعتقد أن هذا المخلوق منظم بشكل جيد، وله أهداف واضحة لا يحيد عنها، ومتفائل بالانتصار الدائم على الإنسان لمعرفته اليقينة بمستويات هشاشة البشر، ونقط ضعفهم، لذلك يسهل عليه قيادتهم بسهولة إلى ارتكاب كل أنواع الخطايا، بل يوصلنا بعد استدراجنا إلى التسليم بأن ما نفعله أمر عادي، وطبيعي، بل أمر يجب الدفاع عنه، ونشره ولو كان في حكمنا السابق قبل الإغواء رجسا، وذنبا عظيما. يستطيع قلب معاييرنا إلى النقيض، ويقلبنا من مؤمنين إلى أبالسة مدافعين عن أهدافه، وبرامجه، وأدواته، وطرقه.

لا أشك أن هذا المخلوق لا يأتينا أبدا واضحا بينا ظاهرا على حقيقته، بل يلبس لكل مقام قناعا يليق به، فلا يمكنه إغواؤنا إلا من خلال أقنعة يطورها حسب الشخص، والموضوع، والجماعة، والثقافة، والوضعية المعيشية المعنية بالإغواء، لأنه لو أتانا على حقيقته لانكشف أمره، وهذا مخالف لمواصفاته الماكرة ولدهائه، وذكائه النفسي والاجتماعي، يستطيع أن يتشظى إلى أقوال، وأفعال، وأفكار وهواجس وخوف وفرح... إن أقنعته الأساسية يمكن تلخيصها في شيء واحد هو: مسايرة أهواء الناس لا معارضتها، وأهواؤنا هي موانع ربنا ومحرمات أديانا، ومسايرته لهوانا تصيبنا بالعمى وإن كانت في عمقها خديعة مارسها علينا لإشباع نزواتنا. أفترض أن له قدرة كبيرة على التسلل إلى عمق شخصيتنا من خلال حواسنا التي هي أداة استدخال العالم الخارجي، لذلك قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم إنه يجري من ابن آدم مجرى الدم. وأفترض بناء على هذه الإشارة النبوية أن تسلله واستعماره للنفس الإنسانية يكون باستحواذه على أدمغتها التي تجري فيها كل عمليات الإدراك، والسلوك، والوجدانيات. فتغدو خلايانا العصبية مسيرة بأفكار إبليسية تولد أحاسيس إبليسية، وسلوكات إبليسية هي في حكمنا صحيحة نافعة، أو ربما لم يعد يهمنا شيء من صحتها أو أهميتها، أو قد نصل معه إلى أن نقتنع بضررها التام على أنفسنا، وغيرنا، ولكننا أنزلناها منزلة المعتقد الذي ندافع عنه، وندعو له، ونتحول بذلك إلى أداة إبليسية بلحم، وعقل، وعظام آدمية، وسلوكات إبليسية، أو ربما نتحول إلى أبالسة آدميين. هنا بالضبط يكون منهج الشك الفلسفي نافعا، وضروريا في مسائلة مسلماتنا، والعمل على تفكيكها، وإخضاعها للإطار المعياري الذي نومن به.

إنني مدرك تمام الإدراك أنه مخلوق لم نره، لم يتجسد أمامنا، وربما لم نستطع حتى الآن إدراك شكل وجوده لعدم تجسده في شيء ملموس يمكن الإمساك به، لكن بناء على قناعاتنا الإيمانية كمسلمين فإننا نومن بأن له وجودا مستقلا، وهوية معينة، ووظيفة محددة مصرح بها من طرف ربنا، وأنه ينتمي إلى عالم الغيبيات الذي يستدعي الإيمان، لا العلم التجريبي، ولا حتى المنطق في كثير من الأحيان. وبناء عليه، أعتقد أن مدخله للنفس الإنسانية قد يكون مدخلا ماديا، أو لغويا، أو عاطفيا، أو سياسيا، أو جنسيا، أو هذا كله، أو بعضه..... إنه يعلم احتياجاتنا العاطفية، والجنسية، والمادية، والاجتماعية، ويفهم هويتنا الإنسانية، وخصائصنا الأنثربولوجية كبشر. وتبعا لذلك، يتشكل حسب الوضعية، والحاجة الإنسانية، ويدفع بكل قوته لتحقيق تلك الاحتياجات عبر فعل أساسي، ومهم بالنسبة إليه وهو كسر وتجاوز الأوامر الإلهية، رغم أن تحقيق تلك الحاجات ممكن بطرق أخرى غير معصية الله، ما يهمه في الحقيقة ليس أن تشبع رغبتك، بل أن تعصي ربك، وإذا وجدت حلاوة في المعصية، واستمرأتها فقد فاز بك وعليك فوزا عظيما.

يمكن اعتبار إبليس امبراطور الشر على مستوى الأفراد، أما على مستوى الجماعات، والمؤسسات، والدول، فالأمر أغرب من الخيال. وفي هذا الإطار أي على المستوى العام، والخاص تكون بوصلة إبليس، وأتباعه هي فصل الأخلاق عن الإنسان، لأنها هي المانعة من تحقيق أبلسة الإنسان، فالأخلاق لا تنفصل عن الدين، والدين لا ينفصل عن الله، والله هو الضامن لبقاء الارتباط بين الإنسان

والأخلاق، وإذا فصلك الشيطان عن الأخلاق، فقد فصلك عن الله، والأخلاق هنا ليست الأخلاق النفعية الفردية التي تضمن سير المجتمعات إلى حين، بل تلك التي تضمن سير المجتمعات من جهة، وتربط الأرض بالسماء من جهة ثانية، ومسيجة بالإيمان وإلا كانت أخلاقا مبثورة، ومدخولة، وسهلة الاختراق الإبليسي بل سهلة التحوير الإبليسي.

يمثل إبليس قوة وجودية شريرة (فلسفياً) ذات دهاء واحترافية عالية، تتمثل غايته العليا في فصل الأخلاق عن مصدرها الإلهي، وهو ما يحاول تحقيقه عبر آليات سيكولوجية متطورة تشمل التلبيس ومسايرة الهوى، مستغلاً هشاشة العقل واحتياجاته عبر التسلل إلى الإدراك والحواس ليحدث تشويهاً معرفياً يجعل الفرد يرى الذنب أمراً عادياً؛ وللتغلب على هذا التحدي الوجودي والإدراكي، يجب أن يرتكز التعليم (بيداغوجياً) على تحصين المتعلم بالمرجعية الإيمانية، وإقرار مبدأ الافتقار والرجوع إلى الله كأول أداة للمواجهة، مع تنمية مهارة الفرز النقدي للأفكار المستوردة للتحرر من "أبلسة العقل "وقيود الهوى.

تأملات في أوصاف القرآن الكريم

التأمل القرآني الأول: القرآن تبيان مطلق، وهدى مؤكد، ورحمة ربانية، وبشرى للمسلمين

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (89))

الآية 89 من سورة النحل

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (102))

الآية 102 من سورة النحل

أثار انتباهي وأنا أستمع لقراءة الإمام في ترويح اليوم من سورة النحل، ورود تأكيدات ربانية خاصة بالمسلمين في آيتين متقاربتين جدا، وأن الله عز وجل لم يتحدث عن المؤمنين بل عن المسلمين، ولا أخفيكم أنني وأنا أستمع لهذه الآية ذرفت عيناي، وقلت إن ربنا رحيم جدا بنا كمسلمين، رغم أن منسوب الإيمان بيننا مختلف جدا، من متمسك حرفيا بدينه، إلى ضعيف الالتزام به لكنه أسلم وجهه لله، فكان هذا الكتاب بشرى، ورحمة له، ولغيره على اختلاف مستويات إيمانهم.

لقد أكد رب العزة على أن القرآن الكريم: مطلق البيان، وهدى، ورحمة، وبشرى للمسلمين. (للمسلمين وليس للمؤمنين)، لإن في الأمر اتساع رباني كبير يليق بسعة رحمته، وسأقف في هذا التأمل عند الخاصية الأولى، أي أن القرآن مطلق في بيانه. لا يختلف اثنان على أن الذي يشد الانتباه في هذه الآية هو التعميم: "كل"، ولا يختلف اثنان على أن الله عز وجل لا يعمم في كتابه إلا في حالات قليلة، وهذا واحد من مواضع التعميم المطلق: القرآن تبيان لكل شيء، وهذا التبيان خاص بالمسلمين لأن غيرهم ممن لم تلامس بشاشة الإسلام قلوبهم قد يرون عكس ذلك، ويكون وقع القرآن عليهم ذو تأثير عكسي. ولذلك لا يعنيهم ما سأكتب حول تبيان كتاب الله، فماذا يعني تبيانا لكل شيء؟

أن يكون أي شي تبيانا معناه أن يكون موضحا، فيه نور يهدي الناظر به، فيه أشعة تزيح الظلام، وتخترق حجب خيوطه، ووضوح القرآن أو بيانه هنا استطرادي يأخذك من مستوى إلى آخر، ومن مجال إلى آخر، في حبكة لغوية، ومنطقية، ومعرفية، ونفسية، واجتماعية، وجمالية... غاية في الدقة، فالوضوح غايته الحقيقة، وهي مبثوثة بين الدلالات الظاهرة إلى الخفية المتخصصة. بمعنى أن بيانه فيه بداهة، وعمق يؤديان إلى الحقيقة بالنسبة للمسلم أساسا. لأن الحقيقة العقدية حقيقة إيمانية تحتاج أولا إلى التسليم بها لإزالة الحواجز النفسية التي تسمح بالإقبال على مساقاتها المختلفة في النص القرآني.

إن نعت القرآن بأنه تبيان لكل شيء يحيل على أنه يحتوي على حقائق تلامس مجالات متعددة إن لم يكن كل المجالات، وبنسب مختلفة. إن هذا التعميم غايته كذلك الوصول بالمؤمن إلى اليقين المطلق في معبوده، وأنبيائه، وكتبه. والطريق إلى اليقين هو التفكر في هذا الكتاب بالإقبال عليه لا بالشك فيه، فالإقبال المسيج بالاعتقاد في الوضوح ينقل منسوب فهمك من الفهم المبني على الحكم السابق، إلى الفهم اليومي الانطباعي إلى الفهم العلوي الدقيق، ومع هذا المستوى يتضح لك المسار وتزداد يقينا بأن القرآن

تبيان لكل شيء حسب زاوية ومجال نظرك فيه. إن "تبيانا لكل شيء" تعني كذلك أنه يحمل البساطة الواضحة في ذاتها عند عموم الناس، والبساطة الواضحة التي يستشكلها خاصة الناس، أي أن بساطته مركبة من نقيضين، بساطة المعنى الظاهر، وتعقد المعنى الباطن الذي يستدعي نور العقل المتخصص للتعامل معه، وهو هنا يحمل بيانين: بيان بسيط للبسطاء، وبيان عميق مربك، ومعقد للمتخصصين، وكلها تؤدي إلى عمق الإيمان، فالدقة في البساطة، والدقة في العمق ملازمان لكتاب أراده الله أن يكون تبيانا لكل شيء، تكاد أن تكون بساطته قيدا لعمقه، وعمقه تفكيكا لبساطته، فلا تسمح بساطته بالشطحات في التأويل، ولا يسمح عمقه بالسطحية في الفهم. ومن أهم عناصر "تبيانا لكل شيء" كون كتاب الله واضح في التحريم، وواضح في الإحلال، بلغة واضحة ومباشرة لا غموض فيها، وكل غموض فهو في المتشابه، وكونه في المتشابه فهو محل نظر أهل التخصص فيكون بذلك وضوحا بالنظر العلمي لا بالدلالة المباشرة.

يعبر كتاب الله عن نفسه بوضوح غايته الإفهام وكفى. إن "تبيانا لكل شيء" معناها كذلك قول الحقيقة بدون تضخيم اللغة، وخلق الظلام في ثنايا الرسالة محل التبليغ، ووضوحه يلامس كل أنواع البلاغات الإلهية سواء ما تعلق بها بتاريخ البشرية، وبأنبيائه، وقصصهم، وبأخطائهم، وبأنواع البشر، وبأخطاء المؤمنين، وبقضية الخلق، وبقصة الإنسان في الملكوت الأعلى، وبعالم الجن، والإنس، والطبيعة، والسموات.... يتحدث الله عن كل الوجود العيني والمتافزيقي بوضوح بسيط، ومركب، وحقيقي وعليك أنت أيها الإنسان أن تبحث فيه عن مزيد من الوضوح الذي سيناسب عقلك البسيط. إنه بيان وجود حقيقي استجمع كل شروط الشجاعة في التبليغ دون أي شك في صحته، وعلى من يشك أن يبحث. إنه بيان مكتوب لا يمكن تزويره سيبقى كما هو دليلا على صحته، وقوته، وصدقه لمن آمن به. إن التعميم لكل شيء الوارد في الآية يشكل تحديا مفاده أن هذا الكتاب يدعي بيان كل شيء، وها هو ينتظر مختلف تطوراتكم في مختلف مجالاتكم، التي ستصلون إلى أن ما وصلتم إليه لا يعدو أن يكون ما نخبركم به بشكل بسيط، ومركب، ولن تفككوا شفراته إلا بارتفاع منسوب العلم، والمعرفة عندكم عبر مراحل تطور البشرية.

تلامس "تبيانا لكل شيء" كل شيء، حتى الطابوهات، من زور، ولواط، وقتل، وزنا، وسرقة، وربا، وعنف، واستبداد، وميوعة.... لا يترك هذا الكتاب الغموض في القضايا السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والأخلاقية، فيصرح بأن الفساد فساد، والسارق سارق، والمجرم مجرم، والمستبد مستبد، والقاتل قاتل... لا مجال لمجاملة أي كان عند خطئه حتى ولو كان هفوة بسيطة تحتاج إلى توجيه ولو صدرت عن نبي كريم، أو رسول مبعوث. وبالمقابل فإننا نحن كبشر وبحكم ضعفنا يمكن أن نتهرب من إصدار الحكم، وقول الحق، وقبول الوضوح نظرا لتملك الخوف فينا، وحساب مصالحنا، وخساراتنا...، وهو الأمر السيكولوجي الذي وضحه كتاب ربنا، ووضح من خلاله أنواع الناس، ومستويات إيمانهم من المؤمن الضعيف إلى المنافقين المجرمين. فالمواقف واضحة بينة، بيانا لا يسطو عليه إلا تأويل الغالين أو المفرطين. لا تحمل "تبيانا لكل شيء" حقدا، ولا كرها وليست ضد أحد، إنها فقط وصف ما

يجب أن يكون، وكيف يكون، ومع من يكون، ولماذا إذا لم يكن لم يكن. إن ضمان العيش المشترك فوق الأرض لا يمكن أن يستمر بأية فلسفة مزدوجة المعايير، وغامضة القوانين، لأنه عند أول اختبار لها في أية أزمة سيظهر عورها، وستتم مراجعتها، أو تغييرها.

قد يعتقد البعض أن وضوح القرآن فيه صلابة، أو تشدد، وهذا خلط بين معنى الوضوح والصلابة، فالوضوح معناه أن الله أراد منا أن نفهمه بكلام لا لبس فيه، ولا إيذاء فيه، ولا تحقير فيه، والتشدد فيه اعتداء، وظلم، وحاشا لله أن يكون الأمر كذلك، يريد الله أن نفهم مراده بدون لبس أو ظلام، فالوضوح غايته القضاء على سوء الفهم المحتمل نتيجة ميل الخلق للسؤال، والتأويل، والتشدد غايته الإكراه على المعتقد، ولا إكراه في الدين بل فيه وضوح. إن "تبيانا لكل شيء" فيها وضوح كثيف، والوضوح فيه صلابة البلاغ، وهذا ما يجعله فعالا ومؤثرا لأنه لا يحابي أحدا، أو قوما، أو نبيا، أو حقيقة علمية، أو غيرها. إن الوضوح وثوق من قوة الرسالة، وصمودها، وتجاوزها لكل طفيليات الفهم وانزياحاته عبر كل الأزمنة والأمكنة. إن "تبيانا لكل شيء" معناها أن الله لم يترك شيئا مهما للبشرية إلا تحدث فيه، حتى جزئيات حياتنا، وأحداث موتنا، وأحداث ما بعد موتنا بل حتى لحظات الانتقال من حال الحياة، إلى حال الموت، ومن الموت إلى الحياة، بل وضح وبين مستقر كل واحد منا في الجنة أو النار بحسب ما اكتسبه من أعمال، وما استقر عليه مآله، بل وأخبرنا أن كل هذا بيده هو وحده، وإن شاء غير كل شيء، فآمن به كما هو، وكما يصف نفسه هو مالك الملك، ولا يهمه أن تصفه أنت هنا بأية صفة من صفات فهومك، بل إنه بين لك أنه إن شاء غفر لك، وإن شاء عذبك، واضح معنا في كل شيء، حتى في علوه، وتصرفاته الربانية، وذاته العلية. وقال لنا بوضوح: "لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون"، فآمن به كما هو، أو لا تؤمن، لا يضره إيمانك شيئا ولا ينفعه، ويريدك رغم ذلك أن تؤمن لأنه خير لك، لا له، وحتى في هذا كان واضحا معنا وضوحا لا لبس فيه، ....

يشكل وصف القرآن بأنه "تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ "دعامة فلسفية كبرى، حيث يضعه في منزلة المرجع الأقصى للمعرفة والحقيقة (الابستمولوجيا)، بوضوح مركب يجمع بين بساطة المعنى الظاهر وعمق المعنى الباطن، وهذا الوضوح يمثل شجاعة البلاغ المطلقة التي لا تجامل ولا تتهرب من الطابوهات أو الأخطاء (أكسيولوجياً)، مما يقود المسلم إلى اليقين المطلق في معبوده. سيكولوجياً، هذا البيان يعمل على تحرير العقل من عوائق الشك والغموض و"سوء الفهم المحتمل"، ويزيل الحواجز النفسية بفضل التخصيص الرحماني للبشرى والهدى "للمسلمين "(على اختلاف مستويات إيمانهم)، مما يشجع على الإقبال والتفكر بدلاً من الانغلاق أو الارتياب، ويؤسس لهدوء انفعالي نابع من وثوق الرسالة وصدقها. بيداغوجياً، يُقدم القرآن نفسه كمنهج تعليمي شامل يرفع منسوب فهم الإنسان على مراحل، ويشكل تحدياً معرفياً يضمن تطور العلم البشري (عبر مراحل التطور)، مع تعليم أهمية الفرز والتحليل العميق للنص لضمان عدم السطحية في الفهم أو الشطحات في التأويل، ويؤكد على أن الوضوح لا يعني التشدد، بل هو منهج تعليمي إلهي لغرض الإفهام وعدم الإكراه.

التأمل القرآني الثاني: القرآن رحمة مطلقة للمسلمين

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (89))

الآية 89 من سورة النحل

لقد تناولت في التأمل السابق قوله تعالى "تبيانا لكل شيء" أي ما أسميته الوضوح، أو التبيان المطلق الخاص بالمسلمين، وقلنا أن من لامست بشاشة القرآن قلبه زالت عنه غشاوة الظلام، وأصبح ينظر لنفسه، وللوجود بأكمله، ولخالقه نظرة واضحة عميقة الإيمان لأن الله بين له في كتابه كل ما يحتاجه لمعالجة العمى الإيماني. أما الآن فأنتقل إلى المقولة أو الخاصية الثانية الواردة في الآية أعلاه لأتأمل فيها عسى أن يفتح الله علينا فيها فتحا ينفعنا هنا وهناك، وهي خاصية الرحمة المطلقة للمسلمين، وسأرجع إلى خاصية الهدى في تأمل مستقبلي إن شاء الله، وإن كنت أرى بأن خاصية التبيان تستوجب لزوما خاصية الهدى للمؤمنين. أما الآن فأقول في الرحمة ما يلي:

ما معنى أن يكون القرآن رحمة؟ وقبل هذا ما معنى الرحمة؟ غالبا ما يتم ربط الرحمة بالرقة، والإحسان، واللطف، والعطف، وغيرها من الوجدانيات، وترتبط كذلك بتقديم المساعدات لمن يحتاجها، وهو في حالة ضعف، أو مرض، أو سجن، أو فقر... ولأن القرآن كتاب فإن أقرب المعاني لوصفه بأنه من رحمة الله أن فيه دليلا للحياة، أي أنه يتضمن مبادئ توجيهية، وضوابط إرشادية تهم بالأساس كيفية النظر إلى الوجود في كليته بما فيه الإنسان نفسه في نسقه الكوني، إنها إرشادات غايتها مساعدة كائن ضعيف يحتاج إلى المساعدة الدائمة، مع إحساسه الدائم بالاستعلاء، والقوة، رغم أنه مهدد دائما بضعفه وشيطانه.

فلا كائن أحوج إلى التوجيه من الإنسان الذي يمكن أن يفقد البوصلة الموجهة بسرعة الضوء أو أسرع، كائن قوته متعلقة أصلا بجماع قوة كل البشر، وبحصول التراكم الكمي، والكيفي الناتج عن جهود البشر من أول يوم إلى الآن، كائن قوته ليست قوته، بل قوة كل من مر قبله، ومن يعيش معه، لكنه لا يستحيي أن يربطها بذاته لوحده، وكأنه يمثل كل البشرية في ذاته. يحتاج هذا المخلوق الضعيف إلى رزمة من الإرشادات التي تساعده على تشخيص أمراضه ومعالجتها، وأهمها أمراض النفس، والفكر، والاعتقاد، يحتاج إلى دعم يتوجه إلى هشاشة نفسه، وتيهانه بين مشاعره المتضاربة حد التناقض، وإلى تأهيل مستمر بجرعات مستمرة وعميقة من الماورائيات العابرة للماديات، كي يحافظ على توازنه، ويرجع إلى ربه دون فقد لعقله، أو تدمير نفسه أو لغيره مع اعتقاده في حسن صنيعه.

إن التعاطي مع القرآن هو نوع من تعهد النفس بالرعاية والعلاج، يقول رب العزة: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين"، فالواقع يصدم هذا المخلوق باللامتوقع، فيقلق، وينزعج، أو قد ينهار، أو ينتحر، فتأتي الوصفة القرآنية لتصف له الدواء الفكري لمشكل نفسي ناتج عن بنية فكرية

مأزومة، أو مقلوبة، أو مضطربة، أو طوباوية، أو متشائمة قائلة له: خفف عنك التذمر أيها الإنسان، وخذ الدواء الرباني إن كنت مؤمنا به، وانتظر حتى ترى مفعوله في حياتك في الوقت المناسب، والمكان المناسب، والشكل المناسب، ودوائك ، يقول تعالى:" وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ"، سورة البقرة: 156. هكذا يقلب القرآن المحنة منحة بأن جعل صبرك يقابله في الملكوت الأعلى "عليهم صلوات من ربهم ورحمة"، وإنها ليست أي صلوات، بل صلوات الله، ورحمة الله، فتخيل كيف ستكون، بل لا يمكنك أن تتخيل كيف ستكون حتى وإن أردت ذلك، لأن ربك مبدع في الأجر، وفي كل شيء، سيفاجئك ربك بما لم يخطر على بالك سواء هنا أو هناك. وفي هذا الإطار، فهنا وهناك شريط متواصل غير منقطع عند ربك لكنك تراه أنت في الدنيا متقطعا.

هكذا تكون رحمة الله مساعدة نفسية، أو معرفية، أو مادية، وهكذا يكون كتاب الله رحمة متجلية. إن حياتنا مليئة بأصناف من هذه الأمثلة التي لا تعد أو تحصى، فكل مشكل، أو نعمة، أو نقمة، أو خير، أو شر له وصفة قرآنية توجيهية تشرحه، وتوضح حيثياته العامة أو ربما الخاصة وتنير الطريق في التعامل معه، وأساس كل ذلك أن تكون مسلما قد أسلمت وجهك لله، يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه). رواه البخاري.

يريدك كتاب الله منفتحا عليه بكليتك، ناظرا فيه بكليتك، باحثا فيه عن أدويتك تأملا، وتفكرا، وتأسيا، وسلوكا. إن القرآن رحمة للمسلمين لأنه له هذه الوظيفة السيكولوجية المهمة، ويظهر من خلال مضامين كتاب الله النفسية، والعقدية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية... وهو ذو وظيفة يمكن أن نطلق عليها وظيفة الدعم السيكولوجي، بحيث نلجأ لرصيدنا من المعتقد للوصول إلى حالة اليقين النفسي المرتبط بالطمأنينة، نازعين بذلك عن غيره هذه الصفة، فمسببات الخوف كثيرة ومتنوعة كالأمراض، والفقر، والحروب، والجريمة، والموت، والمجهول. وعلاجه واحد هي إرشادات كتاب الله في مثل هذه المواقف، إذ بها يتحقق قدر جيد من التوافق النفسي والاجتماعي للفرد، ويعمل على حفظ توازنه، وزيادة، ورفع إنتاجيته، ودافعيته في مختلف المجالات في أحلك الأزمات. إنه عامل إيجابي لأنه مُطَمئن ومحفز في آن واحد، فالإنسان لا يستطيع أن يتحكم في كل شيء، ولا أن يواجه كل شيء، ولا أن يتجنب الشر، ولا أن يفعل فقط الخير... لكنه بالمقابل عليه أن يتزود بأقوى الأفكار والوجدانيات للتعامل مع أسوء الأوضاع التي يمكن أن تواجهه مما يتصوره، أو لا يتصوره، أو لا يمكن أن يتصوره والذي سيصيبه.

إن مضامين الكتاب الرحيمة تحمل من الأفكار ما يضمن التوازن النفسي لمعتنقها دون أدنى شك، والأمر متعلق يقينا بكفية التعامل معها. أكيد أن الخلفية التي قد يتعامل بها غير المعتنق مع الدين، بل والمكذب به جزء من نفسية الرفض المسيطرة عليه، التي حالت بينه، وبين فهم القرآن. ويحصل العكس تماما مع المؤمنين بالنص القرآني، لأن معتقدهم الإيجابي يمكنهم من أن يستوعبوا النص، وما بعد النص، وآثاره عليهم، وعلى واقعهم، ولو سماه غيرهم وهما، أو أسطورة، أو تخذيرا. إن وظيفة الأمن النفسي للدين

لا ينكرها إلا جاحد، خصوصا وأن ثبوتها اجتمعت فيه كل قرائن القوة، لأنها جلية بالنظر العقلي، وموصولة بالعلوم النفسية، والاجتماعية بخلفيتها التجريبية العلمية. إن رحمة كتاب الله هي من رحمة الله. وعليه، يكون كتاب الله مجموع الإرشادات المنهجية التي توجهنا في كل أشكال اتخاذ قرارات في الحياة ولما بعد الممات، ويمكن اعتبارها بالنسبة للمسلمين مساعدات موثوقة المصدر، والمضامين، ومضمونة النتائج وفعالة، وذات جودة عالية عند معتنقها المصدق بها، وفي التصديق تكمن باقي أسرارها، وفي طريقة التعاطي معها تكمن فعاليتها.

إن كون القرآن "رَحْمَةً لِّلْمُسْلِمِينَ "يمثل بعداً فلسفياً عميقاً، حيث يُعيد تعريف الرحمة على أنها مجموع الإرشادات المنهجية (دليل الحياة) الموثوقة المصدر، التي يقدمها الخالق للكائن البشري الضعيف المُهدد بضلال البوصلة، لتواجه غروره بالقوة الزائفة وتؤسس لقيمة وجودية تربط أحداث الدنيا بالملأ الأعلى، مؤكداً على أن قوته ليست ذاتية بل هي قوة تراكمية لكل البشرية .سيكولوجياً، يعمل القرآن كوظيفة دعم وأمن نفسي مطلق، حيث يصف الدواء الفكري لمعالجة الأمراض والاضطرابات الناتجة عن بنية الفكر المأزومة أو المتضاربة، ويمنح المتعاطي معه اليقين النفسي والطمأنينة التي تحقق التوافق والتوازن في مواجهة الخوف والأزمات (كالأمراض والفقر والموت)، شرط أن يكون مسلماً أسلم وجهه لله لتحقيق فعالية التصديق الإيجابي. وبيداغوجياً، يمثل القرآن منهجاً للرعاية الذاتية والتأهيل المستمر، حيث يوجه المتعلم للانفتاح الكلي عليه بحثاً عن الوصفات التوجيهية في كل شؤون الحياة، ويُعلّمه آليات المرونة النفسية، مثل قوله عند المصائب: "إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، لقلب المحنة منحة، مما يرفع دافعيته وإنتاجيته في أحلك الأوضاع، وبذلك يكون القرآن مجموع إرشادات منهجية موثوقة المصدر ومضمونة النتائج لتعهد النفس بالرعاية والعلاج.

وهكذا نكون قد وقفنا على لطيفة واحدة فقط من لطائف رحمة القرآن بنا. ولو واصلنا التحليل لأضفنا الكثير من اللطائف التي يعجز العمر على استجلائها. ولنا موعد غدا إن شاء الله لتناول شكل آخر من أشكال الرحمة القرآنية بإذن الله.

التأمل القرآني الثالث: "الدعم السيكولوجي والإرشاد المنهجي

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (89))

الآية 89 من سورة النحل

نواصل في هذا التأمل النظر في أشكال الرحمة التي يسترنا بها كتاب الله. إنني أعتقد أن هذا الكتاب تغشانا رحمته في أبعاد شخصيتنا كلها دون استثناء، وأهمها أنه يعطي معنى لحياتنا، لماتنا، لمرضنا، لفرحنا، لنجاحنا، لفشلنا، لضحكنا، لبكائنا، لانتصارنا، لهزيمتنا، فلا شيء خال من المعنى، لا شيء في الوجود عبثي من وجهة نظر كتاب الله، بل كل شيء غارق في المعاني. لاوجود لمعنى اللامعنى عند المسلمين، بل حتى ادعاء اللامعنى عند الغير يعطيه ديننا معنى، كتابنا والمعنى صنوان لا يفترقان أبدا، ومن عمقه أنه يعتبر كل شيء غارق في المعاني، ومعنى هذا أن كل شيء قابل لأن يكون موضوع تفكير، ولا شيء لا يمكن التفكير فيه حتى التفكير نفسه، والتفكير نظر، وتأمل يلامس كل شيء، الواقع المنظور، والمسطور، والمتخيل، والوهم، وكل شيء يمكن للعقل أن ينظر فيه ويحفر في معانيه، ليس هناك شيء متفلت من المعنى أبدا، وكتاب الله يساعدنا دائما وأبدا على السباحة في بحر معانيه، التي لا تفارق أي فعل، أو قول، أو تخيل، أو نية، كل شيء يحيل على إمكانية الفهم.

إن أهم ما يجعل الكثيرين يغرقون في شقاء متصل هو فراغ أنفسهم من الإجابات المطمئنة عن أسئلة الغايات الكبرى، التي تعطي معنى للوجود، والقرآن هو النسق التوجيهي للمسلمين تجاه كل الأسئلة المحرجة والشائكة، وأجوبته واضحة جدا، فيها بساطة وعمق كعادته، لأنها يجب أن تكون في متناول عامة الناس، وكذلك خاصتهم، فالموت مثلا حقيقة مطلقة لا مفر منها تصيب كل شيء في الوجود، لذلك لا تشغل نفسك بها، بل عش حياتك، وتمتع بها، واستعد ليوم موتك، وأنت على يقين من أن وراءها عوالم أخرى أعمق، وأقوى لا يمكن تخيلها، ليست الموت إلا مخلوقا مثلك أنيطت به مسؤولية أخذ الأرواح استعدادا ليوم الحساب أمام رب الأرباب حيث لا ظلم اليوم.

ومن رحمة الكتاب قضاؤه النهائي على التيه الوجودي الذي تطرحه الأسئلة الوجودية الكبرى، من مثل: من أنا؟ من الخالق؟ لماذا الموت؟ ماذا بعد الموت؟ لماذا يوجد الشر؟ هل الكون مخلوق أم قديم؟ هل هناك إله؟ ... لا يخلو زمان، ولا مكان، ولا قوم من طرح الأسئلة الوجودية الكبرى. فقد طرحت عبر التاريخ منذ بداياته الأولى، ولازالت تطرح حتى الآن. وكونها تعرف هذا التواتر من جهة الطرح، والتساؤل فإن ذلك يقوم عندنا دليلا على الحقيقة الميتافيزيقية للإنسان، ويزيد من قناعتنا من أن أسئلة الحكمة من الوجود ترقى عندنا إلى الثابت الذي لا يتغير، وهي بذلك أسئلة جوهرية، وضرورية ترمي إلى الإجابة عن حاجات سيكولوجية لا يفي بغرض إشباعها لا العلم، ولا الفلسفة، ولا أي فكر غير مطلق إلا الدين. إن أسئلة الحكمة من الوجود التي ترهق كاهل غير المتدينين منتهية الصلاحية عند المتدينين. والجواب الواحد

والوحيد المتواتر عبر التاريخ هو جواب الأديان، وغيره من الأجوبة البشرية لا نجد لها أثرا عند عموم الناس، أما خاصة الناس فهم في بحث مستمر، ولم ينتجوا أي شيء جديد طوال آلاف السنين في هذا المجال، إن أجوبتهم المعاصرة هي نفس أجوبة من سبقوهم بسنوات.

تحيل قضية الحكمة من الوجود إلى عنصر نفسي جوهري هو حصول الاطمئنان النابع من إدراك معنى الحياة، والحكمة من الوجود. فالقرآن الكريم لا يعقد الأمر في طرح إجاباته، فحقيقتك أنك إنسان، وأنك مخلوق، وتتقاسمك نوازع الخير، والشر، وأنك ميت، وأنك ستحاسب على الشر، والأذى الذي سببته لغيرك بقصد، وأن هناك جنة ونار، وملائكة وشياطين، وأن الله على تواصل مستمر مع الوجود، وأنه هو الذي حدد كل شيء، ويفعل ما يشاء، ولا دخل لك في أفعاله أبدا. وعليه، ففكر في كيف تعيش أفضل حياة ضمن إمكانات الوجود، أما هذه الأسئلة فعقلك لن يجد لها جوابا إلا بمساعدة رسالات الخالق، فإن أبيت إلا استعمال عقلك فاستعمله كيفما تشاء، وأينما تشاء، لكن بنية الفهم عسى أن تظفر بإشارات تطمئن بها، وتبعث فيك روح الإيمان، أو تتيه إلى يوم الدين. وعليه، يكون الإيمان موصلا إلى الاطمئنان، أي إلى ذلك الشعور الداخلي النفسي المريح. وبهذا يعتبر كتاب الله رحمة لأنه أنهى الاضطراب، والحيرة المرتبطة بأسئلة لا يمسك بها العلم التجريبي، ولا يصل فيها العقل البشري إلى جواب مقنع إقناعا مطلقا، إلا الإيمان. إن جماع القول أن رحمة الكتاب تتجلى في توضيحه لأقدار الله في الوجود، ويكفي فقط أن ننظر إلى ما سأختم به، قال عز وجل: "قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"، سورة التوبة: 51.

إن مفهوم القدر مفهوم إشكالي لكنه أيضا مفهوم واضح، فيكفي لكي نستريح من الاضطراب أن نسلم بأن القدر هو مجموع ما خلق الله من الوضعيات المعيشية، والاختيارات الوجودية اللامتناهية في الزمان والمكان، فالمرض قدر الله، والصحة قدر الله، واحترام القوانين قدر الله، والفوضى والعبث قدر الله، والعمل قدر الله، والبطالة قدر الله، والبحث عن عمل قدر الله، وعدم البحث قدر الله، والكسل قدر الله، والاجتهاد قدر الله، والنوم قدر الله، والاستيقاظ قدر الله، والتدخين قدر الله، والمخدرات قدر الله، وتناولها قدر الله، وعدم تناولها قدر الله، والقراءة، والتأليف، والاجتهاد قدر الله، والاستهلاك، والنوم، والتمتع دون إنتاج قدر الله، والعلم قدر الله، والجهل قدر الله، وما بينهما قدر الله، والرياضة قدر الله، والأكل، والسمنة قدر الله..... كل الوضعيات أقدار الله هو من صنعها وأوجدها كاحتمالات الوجود، واختيارات للموجود، وأمدنا بملكة العقل لاستخدامها في تدبير هذه الاختيارات، والتعامل معها في حدود ملكة عقلنا، وكيفما كان اختيارك فهو قدر الله، لكن لا تعتقد أبدا أن الله ينوب عنك في اختيارك ويحل محلك، بل تأكد يقينا أنه عز وجل ترك لك حرية إعمال عقلك، أو عدم إعماله في تدبير اختياراتك، والتفضيل بينها لأن إعمال العقل نفسه قرار ذاتي يرجع إليك لا إليه عز وجل. وعليه، فمن اختار أن يتعامل مثلا مع الأديان بالجحود فقد اختار احتمالا من أقدار الله، ومن قرر التعامل معها بالتسليم فقد اختار قدر الله، لأن كل واحد منا مسؤول يوم القيامة عن تبرير اختياره أمام الحسيب الرقيب، وعليه،

فليعد للسؤال جوابا لأن دخول الجنة نفسه قدر الله من بين قدرين أساسيين: الجنة أو النار، كما أن الإيمان والكفر قدرين من أقدار الله.

إن كل نفس بما كسبت رهينة، بحيث لا يعدو أن يكون الكسب إلا مجموع طرق تعاملك مع أقدار الله باستثمار ملكة العقل، أو تعطيلها، أو العبث بها. يتعلق مصيرنا في الدنيا والآخرة أيما تعلق بحسن تدبير اختياراتنا في أقدار الله اللامتناهية. نجد في كتاب الله ما يسعكم من أدوات التعامل مع كل أقدار الله، فالتعامل مع الجهل يكون بالعلم، والتعامل مع الظلم يكون بالمقاومة على أصنافها، والتعامل مع المال يكون بالتوظيف والاعتدال، والتعامل مع المرض يكون بالتداوي، والتعامل مع الناس يكون بالإحسان لهم، والتعامل مع الجهل يكون بالتعليم..... ستجدون في كتاب الله لوائح عملية مساعدة للتعامل مع منغصات الحياة، ومتعها، ستجدون فيه وصفات للتعامل مع الإشكالات البسيطة، والمعقدة، والعالية التركيب كل حسب طبيعة شخصيته، وإمكاناته. هكذا يكون القرآن كتابا يفيض بالرحمة التي تعني هنا المساعدة أكثر من أي شيء آخر.

تتجلى رحمة القرآن فلسفياً في كونه النسق التوجيهي المطلق الذي يقضي قضاءً نهائياً على التيه الوجودي وأسئلة الغايات الكبرى (من أنا، لماذا الموت، لماذا الشر؟)، مانعاً بذلك وجود "اللامعنى" أو العبثية في الوجود، ويؤكد أن كل شيء غارق في المعاني وقابل للتفكير. كما يوضح القرآن قضية القدر بوضوح فريد، معرفاً إياه بأنه مجموع الاحتمالات والاختيارات اللامتناهية التي خلقها الله في الوجود (الخير والشر، الصحة والمرض، الكسل والاجتهاد)، مع التأكيد الفلسفي على حرية الإنسان في إعمال عقله في تدبير هذه الاختيارات والمسؤولية عنها أمام الله، مصداقاً لقوله: "قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا". سيكولوجياً، يوفر هذا البيان الوجودي إشباعاً جوهرياً للحاجات النفسية، حيث يؤدي إدراك معنى الحياة والحكمة من الوجود إلى الاطمئنان النفسي الداخلي، منهياً الاضطراب والحيرة المرتبطين بأسئلة لا يفي بإجابتها المطلقة إلا الدين .بيداغوجياً، يُقدم القرآن نفسه ككتاب مساعدة ومنهج عملي لاكتساب أدوات التعامل مع كل أقدار الله (الجهل بالعلم، الظلم بالمقاومة، المرض بالتداوي)، ويشجع المتعلم على التفكر والنظر في الكون والذات بعقلانية ليزداد يقيناً واطمئناناً، وبالتالي فالرحمة هنا هي توفير لوائح عملية موثوقة المصدر لحسن تدبير الاختيارات في الحياة، وضماناً لجودة المصير بعد الممات. ونصر الله أهل الرباط على عبدة العجل.

التأمل القرآني الرابع: النسق الاجتماعي ورحمة الكتاب المطلقة

(أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ)

الآية 157 من سورة الأنعام

تتجلى الرحمة في كتاب الله في بعده التأطيري التوجيهي الضابط لحركية الأفراد والمجتمع، فكتاب الله رحيم لأنه ضابط ومنظم، وهما نعمتان تساعدان الأفراد على بناء أسس العيش المشترك وفق قواعد علوية عامة، تتفرع عنها قواعد جزئية قابلة للتغيير، والتطوير. إننا لا نتحدث عن مجتمع إلا إذا كان مسيجا بقواعد تحميه من التدمير الذاتي، أو الخارجي، بحيث تساعده على الحفاظ على ديناميته التطويرية، وتمنحه القوة والقدرة على إعادة توازنه كلما اضطربت مكوناته النسقية، وهذه القواعد والضوابط هي التي تشكل بنيته وخلفيته المعيارية. تتجلى رحمة القرآن في كل أشكال الخطاب الرباني المنظم للحياة في المجتمع، إنها قواعد ليست غاية في ذاتها، بل غايتها ضبط حركية المجتمع تجاه إنتاج أفضل السلوكات الإنسانية الضامنة للأمن المجتمعي، لذلك يتضمن كتاب الله المحرمات، والحلال، والمكروه، ويحدد الخطأ وأنواعه، وأشكال الصواب، والجميل والقبيح، كما يفصل في الآداب والأخلاق المؤدية لأفضل العلاقات الاجتماعية، والضابطة للعلاقات الإنسانية ، والعلاقات بين الإنسان والحيوانات، بل وبين الإنسان والجمادات، إضافة إلى ضبط العلاقة بين الإنسان وربه، كما يحفظ خطابه الحقوق، ويدفع باتجاه أداء الواجبات التي يربطها بالأثر الدنيوي، ويسمو بها إلى الأثر الأخروي: لا تسرق، لا تكذب، لا تعنف، لا تقتل، لا تزني، لا تشهد الزور، لا تأكل أموال الناس، لا تضطهد وتستبد، تصدق على الفقراء، راعي الأيتام، دافع عن المظلوم، تذكر أبناء السبيل، لا تضطهد المخالف لك في العقيدة وغير المعادي لك، دافع عن نفسك في حالة الظلم، لا تساهم في الفساد ولا تفسد.....

تغطي رحمة الله من خلال كتابه الكريم كل مناحي الحياة ما ظهر منها وما بطن، بحيث يقدم الدين إنجازات أخلاقية عالية الدقة، ليس فقط للمجتمع المسلم، بل للحضارة الإنسانية، وإن اعترض عليها البشر هنا وهناك لغلبة نزوعهم نحو التفلت من الالتزامات على أنفسهم. يحمي الدين الإسلامي المجتمع من سطوة أفراده، ويعمي الفرد من سطوة مجتمعه. والجميل في النصوص الدينية أنها معتقدات، ولأنها كذلك فإن الالتزام بها يكون بنسبة عالية طواعية، ودون إكراه، وحتى في حالة الخطأ وتجاوز هذه الضوابط يضع لك النسق القرآني أشكالا، وأنواع من العقوبات المادية، والمعنوية التي غايتها الدفع إلى تعديل سلوك الفرد تجاه المجتمع ليكون إيجابيا، وليس القصد منها العقاب في حد ذاته.

إن المؤمنين أكثر الناس التزاما بالقواعد والقوانين لأنهم يعتقدون في بعدها الأخروي، أي أنهم يعتقدون أن التزامهم أو تمردهم على قواعد كتابهم له تبعات ما ورائية. وهنا يجب الإشارة إلى أن هذه الأدوار لوحدها كافية لرد مقولة أن الدين أمر شخصي، ذلك أن الناس لا تترك دينها في بيتها، وتخرج إلى

مؤسسات الدولة بدون إطار معياري إلا في مخيلة من ألحد في كل شيء، حتى في فهم ميكانزمات اشتغال النفوس والمجتمعات. تسري قوانين الله في النفوس والسلوكات، وعليه، فإن ربنا يعمل بطرق لا قبل لنا بها، أكيد إنها طرق عجيبة كثيفة التعقيد، وعالية التشابك، فليس المجتمع والسلوك الطيب الجميل تجاه مكوناته إلا طريقا للوصول إلى الله، ولأن الغاية سامية المقام فعلى الوسائل أن تكون كذلك عالية الجودة، وهنا تتجلى مرة أخرى رحمة الكتاب، أي في كونه يوجه المؤمنين به إلى انتقاء أفضل السلوكات للتعامل مع مجموع مكونات الوجود. إن حاصل القول في هذه النقطة، أن رحمة الدين تتعدى الأفراد، والجماعات إلى تأثيث نظام القيم الذي يوجه السلوكات، لأنه هو مصدرها. زد على ذلك ما يحتويه كل معتقد من أحكام وقواعد، وطقوس لها أكبر الأثر على ضبط سير الحياة الاجتماعية، وتحديد أدوار الأفراد.

نتعلم في إطار رحمة الكتاب ربنا، بناء على مراد ربنا، أنه لا يمكن احترام هذه القواعد الدينية احترامها دائما وبالمطلق، لذلك يحتوي كل معتقد يُتعبد به على طرق مختلفة للتكفير عن زلاتنا. يشير هذا المبدأ إلى بعد الخطأ المصاحب للإنسان. فالإنسان خطاء، والقواعد، والقيم، والمعايير أيا كان مصدرها معرضة لعدم التطبيق أو الاحترام، وهذا بعد أسميه بواقعية الدين. وهناك فرق بين الدين كما هو، أي كمنظومة إلهية غرضها ضبط اعوجاجات النفوس والمجتمعات، وبين تأويلاتنا له نحن كمؤمنين به. إذ أعتقد أن الدين في كليته وأصله واقعي، وسعي الإنسان لتنزيله، والتلبس به مثالي إلى أبعد حد. وهذه المثالية هي مصدر الصراعات الداخلية بين الاتجاهات الدينية المختلفة، وكذلك بين الأديان، خصوصا إذا ما تم السعي من طرف أهل ملة ما، إلى تعميمها واضطهاد المخالف لها تعبدا لله الذي أصلا لا يدعو لأي نوع من الإكراه. وعليه، أقول أن واقعية الدين هي الضامنة لتماسك المكونات المتنوعة للمجتمعات، ومثالية المتبعين، أو المعتنقين في التعاطي مع المقدس هي موقظة الفتن ومنتجتها .

يشكل الكتاب الذي يتجلى فيه المعتقد نسقا عاليا من الأخلاق، والقواعد، والقيم التي تؤطر الوجود في كل حركاتنا، وسكناتنا، ذلك أن البعد العملي البراغماتي للدين حاضر وقوي، فالدين ليس فقط ميتافيزيقا، بل إنه يتجاوز كل هذا، إنه عالم العمل في الواقع وفي أغلب الديانات، فالميتافيزيقا والتعالي تعتبران من مكونات الدين، وليست هي المكون الواحد والوحيد للدين كما يظن غير المتدينين. إن الإنسان لا يبحث فقط عن المعرفة الحقيقية أي المعرفة العلمية، ولكن كذلك يريد أن يعرف ما يحق له فعله، وما عليه أن يتجنبه، وكيف عليه أن يتصرف في الوضعيات المجتمعية، والوجودية المختلفة. لا تتضمن الديانات أبعادا ميتافيزيقية فقط، ولكن تجيب أيضا عن أسئلة العمل، أسئلة الأخلاق، وبهذا تشكل كلا منسجما بين البعد العلوي الميتافزيقي، والعملي الواقعي، إنه توافق يلامس الماهية والقصد، ويربط بين ما يعتمل في النفس، وما يصدر عن الجسد، وما يسري في المجتمع.

لا ينفك الدين إذن عن الجماعة، والجماعة تحيل على الاجتماع، فهي بذلك وحدة أو رابطة تناقض في أصلها الفرقة، وترمز إلى التعايش، فأينما وجد الدين، اجتمع الناس أو لنقل بأن اجتماع الناس رهين باتفاقهم على دين يجمعهم، أي أن اجتماعهم منوط بأفكار توحدهم، يحتكمون لمقتضياتها العامة والخاصة. فهي إذن مرجعيتهم في الأحكام والأعمال، وبتنوع الأفكار الموجهة للعمل تتنوع الجماعات

وتتمايز، بحيث يطال هذا الاختلاف والتمايز الجماعة الواحدة ذات الدين الواحد، وداخل بناء اجتماعي واحد، وفي سياق واحد. يزخر كتاب الله بقصص جماعات متعددة إن تمجيدا، أو تسفيها، أو تذكيرا، وهذه رحمة تاريخية أخرى تستحضر سيرة الإنسان على وجه الأرض في علاقته بالمتعالي. لا أدري لماذا ركز الله بالضبط على جانب الرحمة في الكتاب وخصها بالذكر، هل لأن هذه الصفة السامية ذات أصل رباني علوي على الإنسان أن يكتسبها؟ أم أنها توجد فيه بنسبة ضعيفة؟ أم أنها توجد في الإنسان لكنها عميقة تطفو فوقها خصائص أقل إيجابية؟ وبناء عليه، يكون الإنسان في أصله ميالا أكثر إلى الجور، والظلم منه إلى الرحمة، ويحتاج بذلك إلى من يذكره بشيء إنساني يسكنه لكن بنسبة ضعيفة؟ والله أعلم.

تتجلى رحمة القرآن فلسفياً في كونه النسق المعياري المطلق الذي يضفي الوضوح على قواعد العيش المشترك، مؤكداً أن الدين ليس فقط ميتافيزيقا بل هو أيضاً "عالم العمل "الذي يغطي كل مناحي الحياة (من الفرد إلى الحضارة)، وهو ضامن للتماسك الاجتماعي على قاعدة "الأخلاق الإيمانية "التي تربط الأرض بالسماء، نافياً بذلك مقولة أن الدين أمر شخصي بحت.

سيكولوجياً، يعمل القرآن كحماية مزدوجة؛ فهو يحمي المجتمع من سطوة أفراده، ويحمي الفرد من سطوة مجتمعه، حيث يخلق دافعية ذاتية عالية للالتزام بالقواعد نابعة من الاعتقاد بالتبعات الأخروية، كما أن واقعية الدين التي تقر بـ "البعد العملي للخطأ (الإنسان خطاء)" تعمل كصمام أمان نفسي يمنع اليأس والانهيار، ويوفر طرقاً للتكفير والتعديل السلوكي.

بيداغوجياً، يُقدم القرآن منهجاً تربوياً يسعى لـ تأثيث نظام القيم الذي يوجه السلوكات نحو "أفضل السلوكات الإنسانية"، ويستخدم العقوبات المادية والمعنوية كأدوات تعليمية وغايتها تعديل السلوك وليس العقاب في ذاته، ويدعو إلى تجنب مثالية التنفيذ (التي توقظ الفتن) لصالح واقعية الدين التي تضمن تماسك المكونات المتنوعة للمجتمعات.

التأمل القرآني الخامس: سيكولوجيا البشارة القرآنية: من صناعة الرضا إلى هندسة السلام الداخلي

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (89))

الآية 89 من سورة النحل

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (102))

الآية 102 من سورة النحل

لا يخفى على القارئ لكتاب الله خصوصا هذه الآيات وشبيهاتها أنها استعملت صيغة النكرة للدلالة على عظم ما يرتبط بالله، لدرجة أنه لا يمكن تحديد ماهيته، ونوعه، وحجمه، وامتداده، إنه تكثير رباني لنعمه، وجاءت كلمة "بشرى" مثل غيرها نكرة لأنها حسب اعتقادي فوق ما يتصوره، أو يدركه، أو يعرفه الإنسان، فإذا بشر الله المؤمنين بشيء فلا تسأل كيف سيكون، لأنه سيكون بالتأكيد فوق ما تعتقد أو تتخيل. فبشارات الله للمؤمنين حقيقية لا وهمية، إنها جنة، وأنهار، ورزق، واطمئنان، وصبر، وقوة، ومدافعة، والهدى، والفلاح.... كثيرة هي البشارات الدنيوية والأخروية المؤدية إلى اطمئنان المؤمن على مستقبله الدنيوي، والأخروي كيفما كانت ظروفه. وليس في هذا تخدير إلا عند من لا يؤمن بوجود حساب وآخرة، وهؤلاء غير معنيين ببشارات الله قطعا، ولن يتذوقوا حلاوة المومنين أبدا حتى في أحلك أيامهم، وليست هذه التأملات موجهة إليهم.

إن ما يمكن أن يعتبره الغبي إيمانيا تخذيرا هو عندنا نقاط قوة في الشخصية المؤمنة، شخصيات يختلط فيها المتعالي بالدنيوي في أفق أخروي مبشر بالنهاية السعيدة، لذلك فالمؤمن يمكن أن يكون مريضا، يتألم، وفرح وراض بقضاء الله، يمكن أن يكون فقيرا، وفرح، وراض، ويعمل لتجاوز وضعه، يمكن أن يكون مظلوما ظلما قاهرا، ويبتسم، ويحاول الدفاع عن نفسه، لكنه يسلم بأن العدالة الإلهية لن يفلت منها أي أحد، فيتراجع عن فعل الانتقام، ويؤثر الاحسان، فالمؤمن يحسن حتى في حال القوة، وفي حال القدرة على البطش، فكأنما مبشرات الله في كتابه ترفع منسوب الإنسانية في الإنسان، وتخرجه من الحالة الإبليسية إلى الحالة الإيمانية التي تذوب فيها رذائل الأفعال الشيطانية التي يمكن أن يأتي بها غير المؤمن. المؤمن قد يركب السيارة الفاخرة أو عربة تجرها دابة، أو يمشي على رجليه، ولا يرى في النعمة إلا ضرورة الحمد، والشكر، والصدقة، والتفكير فيمن هم دونه في الإمكانات، فمع النعم تزداد الواجبات، والمسؤوليات الذاتية، والمجتمعية ذات الأصل الإيماني. إن البشرى استنبات للحكمة في التفكير، والتدبير الذاتي، والنفسي، والمجتمعي، بل إنها تخلق لدى المؤمن فضولا للاستزادة من أفكار، وأفعال الخير، إنها دافعة للمثابرة، وللسمو بشخصيتنا الإيمانية لثقتنا المطلقة في الله، ووعوده، وبشاراته، رغم كل أخطائنا وضعفنا. تجعلنا البشارات نشتاق للعمل الإيجابي هنا، ولمعانقة العالم الأخروي هناك، إنها تزيد من منسوب الذكاء الإيماني فينا خوفا وطمعا، فيصبح العالم الأخروي عالم العدل والجمال تجاهنا، وتجاه

من أساء إلينا، أو أسأنا إليه. إن البشارات إشارات ربانية مولدة للطاقة الإيمانية، والأعمال الإيجابية، لذلك ترى المؤمنين يفعلون الخير تحت كل الظروف، ولو كانت الحرب، والقتال، والأوبئة، إن البُشريات تزيد من منسوب الحب للناس، والخير، والله، ورسالاته، وتغدو معها الماديات وسائل، أو فتن، وكيفما كانت فهي لا تتجاوز كونها وسيلة لا غاية، إذ الغاية أسمى، إنها العالم العلوي ورؤية العلي القدير.

تبعا لذلك، فالبشارات في كتاب الله تبعد المؤمن عن الإحباط، والقلق المستمر، وأنواع الاكتئاب إذا ما تم التعامل معها بالتسليم، وبإيمان البسطاء للبسطاء، وإيمان العلماء للعلماء. إن اعتبار كتاب الله بشرى يمحي من أذهان المؤمنين اعتقاد الحظ، أو ضربات الحظ، ويرتقي بالتفكير إلى برامج العمل المبنية على الإيمان المطلق، فالعالم العلوي عالم انتقائي، لا يدخله إلا من استوفى شروطه. تساعدنا البشائر الربانية تسيير حياتنا بسلاسة حسب ظروفنا، وإمكاناتنا بدون النظر الحاسد لما عند غيرنا، نبتهج في خضم الأزمة، ونتأزم في عمق النعم، لأننا نعتبر الحالتين المتناقضتين ابتلاءين مقصودين، فلا نغتر بالنعم، ولا نكدر حياتنا بوجود أزمات كلها ستغدو بعد حين من الماضي. إننا نعتقد أن القرآن باعتباره بشرى يحرك في دواخلنا ببشاراته مستوياتنا العاطفية الإيجابية، والسلبية حسب سياقات ورودها، ويعطينا آليات التعامل مع أنفسنا، ومنحنيات وجدانياتنا لكي نصل بأنفسنا إلى مستوى سيادة المشاعر الإيجابية على غيرها. تعرفنا المبشرات كذلك على الجوانب السلبية التي يعتبرها المؤمن جزءا من سعادته، لأن الإيمان يتضمن في عمقه تحديا من نوع خاص مفاده أن تسلم بوجود الشر، كما بوجود الخير، وتتقن التعامل معهما بخلفية إيمانية غرضها التحرر منهما، وعدم الوقوع في أسر أي منها، لأنهما ليسا إلا اختبارات ميدانية لقوة الإيمان أو ضعفه، أو وسيلتان لتقويته، أو تقويضه. وعليه، يغدو الإيمان نفسه كفاية عالية التركيب، وليس معطى جاهزا في متناول أي أحد، لأنك يجب أن تبقى مؤمنا حتى في حالة عدم اليقين، الذي قد ينتابك في بعض الأحيان، والذي تتكاثف غيومه حال بداية شعورك بالانهزام، وتأتي المبشرات لتخبرك، بأن ضعفك جزء من هويتك لأنك خلقت ضعيفا، وتعبد ربا رحيما، عالما بضعفك، وقدرتك، وحدودهما.

قد يبدو الإيمان أمرا خياليا، وغير واقعي، مع العلم أنه أبلج من فلق الصبح، لأنه لا وجود لوجود خارج دائرة الإيمان، ولو كان الإيمان باللاإيمان. وعمق الإيمان المدعوم بالمبشرات هو ما ينشئ لدى المؤمن حالة الرضا أيا كان حاله، وهي أعلى درجات السعادة حسب اعتقادي، أن ترضى بما لديك، ولا تنظر لغيرك، وتسعد أيما سعادة بما يكفيك، وإن بدا لغيرك أنه قليل أو ضعيف أو غير نافع، لأن معيار الإيمان تخبو معه نزعات المقارنة في الماديات. وبذلك يكون المؤمن غارقا في راحة بال داخلية، وعميقة، ولا يطارد ما عند الآخرين، بل إن المؤمن يعلم أن تقلب الإيمان نفسه من الإيمان، لأن شطرا من النفس ينزع للتحرر من الماورائيات المرتبطة بالأداءات العالية الجودة، والعميقة الأخلاق، والشطر الثاني من النفس يصارع للبقاء وفيا للإيمان كما قبله، ورضي به، ويستمر هذا الصراع الداخلي إلى أن تغلب الجوانب السيكولوجية المؤمنة على باقي المكونات، فتتطبع النفس بالإيمان أو العكس. وتصل إلى حالة الرضا في أعلى مستوياتها حيث لا تصبح للمؤثرات الخارجية أية تأثيرات على العالم الداخلي للمؤمن، لأن مقام الرضا الموصل

للاطمئنان المطلق هو عمق النفس وغاية أفعالها، يقول رب العزة تعالى: "الذين امنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب"، سورة الرعد: 28.

يُقدم القرآن البشرى المطلقة (نكرة) للعظمة التي تتجاوز الإدراك البشري، وهي تمثل فلسفياً الرؤية الوجودية الكبرى التي تدمج المتعالي بالدنيوي في أفق أخروي مبشر بالعدل والجمال، حيث لا تفلت العدالة الإلهية من أحد، مما يُنشئ لدى المؤمن الحكمة في التفكير والتدبير ويُخرج الإنسان من "الحالة الإبليسية "إلى الحالة الإيمانية، جاعلاً الماديات مجرد وسائل لا غايات .سيكولوجياً، تعمل هذه البشارات كمولد للطاقة الإيمانية ودافع للمثابرة، حيث تبعد المؤمن عن الإحباط والقلق والاكتئاب، وتخلق "الرضا " الذي يُعتبر أعلى درجات السعادة (ان ترضى بما لديك)، مما يؤدي إلى سلام داخلي عميق يمحو نزعات المقارنة والحسد في الماديات، ويضمن سيادة المشاعر الإيجابية حتى في خضم الأزمات، ويستوعب تقلب الإيمان كجزء طبيعي من الصراع الداخلي.

بيداغوجياً، يُقدم القرآن منهجاً يهدف إلى بناء "الذكاء الإيماني" (خوفاً وطمعاً)، حيث يعلّم المؤمن أن النعم والأزمات هي مجرد " اختبارات ميدانية" لتقوية الإيمان أو ضعفه، وأن الضعف الإنساني هو جزء من الهوية المخلوقة لرب رحيم، وهذا المنهج ينتقل بالتفكير من اعتقاد الحظ إلى برامج العمل المبنية على الثقة المطلقة في وعود الله، وينمي فيه فضول الاستزادة من أفكار وأفعال الخير.

التأمل القرآني السادس: من التكامل المنهجي إلى بيداغوجيا التوازن الوجودي.

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6))

الآية 6 من سورة النمل

(كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (151))

الآية 151 من سورة البقرة

(لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (164))

الآية 164 من سورة آل عمران

أوحى العليم الحكيم لنبيه في القرآن الكريم من العلم والحكمة ما لا يعلمه إلا هو، كتاب يفيض علما للمنفتحين عليه بدون تكبر، كتاب دقيق حتى أنه يمكنك أن تستخرج قواعد التدقيق منه، وغني بالأخلاق والشرائع والقصص والقيم والنفسيات والتربويات حتى أنك لا تجد مجالا في الإنسانيات لم يقل فيه ربي حكمة لا قبل للعقل البشري المعاصر بها فما بالك بالإنسان البدائي، من لامست بشاشة القرآن قلبه فلا ولن ينفك عن حقيقته العلوية السامية، فلا سبيل لمنصف أو باحث إلى الانقطاع عنه، بل يصبح عالمه الرحب المنفتح والمتجدد، تتوالد وتتولد منه الأفكار، والفتوحات بأمر ربها في سيرورة لا متناهية عدد ونوعا وعمقا، ولا يتأتى لمعترض غير سليم الطوية أن يغوص في أعماق كتاب رب العالمين، لأنه منغلق عليه بأمر ربه نظرا لقصده السيء، والمحدود، والقاصر، والمتعجرف، ونظرا لأنه لم يرق بعد سيكولوجيا إلى مستوى الباحث المنصف، أو على الأقل المحايد.

إن الحكمة في القرآن هي مقولة مركبة تركيب الإنسان، وواقعه، بل وواقع الموجودات في الأكوان. تتجاوز مجرد مواعظ وإن كانت المواعظ نفسها حكمة للمتدبر فيها، تتجاوز حكمته رسم خارطة حياة المؤمن إلى حياة كل من يريد الطمأنينة ذات المصدر الرباني، حكمة لها أبعاد وجودية، ومعرفية، وسلوكية، ونفسية، بل وبيداغوجية لتطوير الإنسان، وتهذيبه بأنسب الطرق والوسائل. يقدم لنا حكمة وجودية مفادها أنك توجد في كل مركب منضبط أشد ما يكون الانضباط بقوانين لا تتزحزح، ويحتاج لفهمه مدخلين أساسيين هما الإيمان والعلم، فكما أن الوجود نسقي ومعقد ففهمه يستدعي استحضار مكونات الإنسان مجتمعة لا متفرقة، ولا يمكن اختزال الإنسان فقط في أحد مكوناته. إن وجودنا قرآنيا لا يستدعي فقط فهم مكان الوجود، ومكوناته، وتاريخه، ومحدداته، بل أنطلوجيا يجب أن نفهم كيفية التعامل معه، والتصرف فيه تصرفا مناسبا يحفظه من زلاتنا، وأنانيتا سواء تعلق الأمر بالبشر، أو الحجر، أو الشجر...، فالطبيعة جزء منا للفهم وحسن التصرف، نرى أنفسنا فيها ومنها، نخدمها، وتخدمنا في تناغم وانسجام، بل جعل الخالق لها ردات فعل ذاتية عندما نتجاوز قوانين ربها فتصعقنا بغضبها إن جفافا، أو فيضانات،

أو حرائق، أو زلازل.... لنعود لتوازننا، وجودنا أنطولوجيا ملتف في وجود متشابك بين ما نعلم، وما لا نعلم من أكوان هذا الخلق العظيم.

تقتضي الحكمة القرآنية أن ينظر الإنسان إلى الكل لا إلى الجزء فقط، إلى الزمن بماضيه، وحاضره، ومستقبله، فرؤيته يجب أن تكون عابرة للزمن لأنه مخلوق عابر للزمن الدنيوي، وأفقه أخروي، وعندما يقصر نظره، وتضيق رؤيته، ولا يرى إلا دنياه يغيب عنه أفقه اللامتناهي، ويشده الزمن الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل، كما تشده نفسه إلى المتعة الأقرب، والأسرع إشباعا وانتهاء. إن بوصلة الحكمة لا ترتبط فقط بالنظرة المركبة للوجود المركب، بل بالمعرفة المركبة حقيقة، وواقعا، والتي غالبا ما يجرنا عجزنا أو كسلنا إلى اختزالها في بعض مكوناتها، فلا ندرك بذلك حكمة معرفية، ولا نحقق الحكمة في العلم، وفي هذا البعد تستدعي الحكمة القرآنية تعدد المصادر لاكتشاف تعدد التركيب، فهناك ما يدرك بالعقل، وهناك ما يدرك بالتجربة، وهناك ما يدرك بالوحي، وكل من عمل على اختزال الطريق في واحد من هذه الطرق، حاد عن الحكمة وقد يبلغ علما ما، لكنه بعيد عن الحكمة العلمية، ولا يخفى أن إدراك الله تعالى، بل إدراك عالم الغيب يستدعي استثمار كل هذه المناهج وزيادة. إن الحكمة هنا ذات بعد منهجي لذلك فصل فيها القرآن في غير ما آية كما أن التعدد في الفهم ابستيمولوجيا يحفظ الإنسان من الاختزال المنهجي، والخطأ المعرفي، والتيه الفلسفي الوجودي. ولا ننسى أن أول مجال نبه عليه الله في إطار الحكمة القرآنية هو أن يسعى الإنسان أولا لفهم نفسه: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون"، سورة الذاريات: 21.

يتموقع الإنسان بفهم نفسه في وجوده الداخلي، والخارجي، والكوني. فالأسئلة الوجودية حارقة، والتغاضي عنها لا يفيد في شيء، والإيمان بحكمة الله فيها أسلم طريق، فلا مكان للتغافل سيكولوجيا. إن التوازن النفسي متعلق أيما تعلق بالقطع إيمانيا مع الأسئلة الوجودية كيفما كان هذا القطع، لكن أسلم قطع هو قطع التصديق الرباني، لأنه صحيح، ومطمئن، وعقلاني، ومقبول لكن ليس عند الكل، فالعمق الرباني لا يناله متعجرف، أو متكبر أبدا. ومن الحكمة السيكولوجية أن تضع الأهداف، وتعمل على تحقيقها، كما عليك أن تتعلم الانتظار، بل أن تتعلم الصبر على لحظات الضعف، وأن تقبل الفشل في بعض المحاولات، فالحكمة السيكولوجية القرآنية تجنبك الاضطرابات، والحسد، والبغضاء، والقلق، تريد أن تحافظ على سلامتك النفسية إن أنت اتبعت وصفاتها، التي تتجه إلى عمق عمقك لتزويده بأدوات مواجهة الواقع في حالات الفرح والقرح. بل إن الله في الحكم السيكولوجية القرآنية يريد منك أن ترى السوء خيرا عند وقوعه، فلا تعلم تبعات ما يظهر من سوء، إنه ظاهر الحياة لا باطنها، إنه يريد منك لا أن تنظر للظاهر من الأحداث التي تصيبك أو تصيب غيرك، فلكل ظاهر باطن، قال تعالى: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون"، سورة البقرة: 216. إن الخير نفسه الذي تفرح به قد يحمل معه شرا، أو تحديا قويا. توجهك الحكمة السيكولوجية القرآنية إلى أن تكون نسبيا في فرحك، وحزنك، فلا يدوم أي أحد منهما على الإطلاق، وسعادتك في القدرة على إدارتهما باقتدار. وفي القرآن مزيد من الحكمة التي لن يحيط بها إنسان عاش ما عاش من الزمن، وملك ما ملك من العلم، وحسبي أن أشرت لهذه اللطائف وهي قطرات من بحر ربي.

يؤكد تأملنا هذا أن القرآن الكريم هو مصدر للحكمة والعلم، وهو مصدر حسب إيماننا من "حكيم عليم"، مما يجعله كتاباً لا يقتصر على المواعظ، بل يقدم مقولة مركبة تتجاوز العقل البشري، وتتطلب من الباحث طوية سليمة ونبذ التكبر للغوص في أعماقه.

تتجسد الحكمة القرآنية في ثلاثة أبعاد رئيسية:

البعد الوجودي (الأنطولوجي): يقدم القرآن خارطة وجودية مفادها أن الكون مركب ومنضبط بقوانين صارمة، وفهمه لا يتم إلا بالجمع بين الإيمان والعلم .كما أن فهم الوجود يستدعي شمولية في النظرة للإنسان والتعامل معه ومع مكونات الطبيعة بتصرف مناسب يحفظها من أنانية الإنسان.

البعد المعرفي الإبستيمولوجي: تقتضي الحكمة رؤية عابرة للزمن، تركز على الأفق الأخروي بدلاً من قصر النظر على المتعة الدنيوية. منهجياً، تحذر الحكمة من الاختزال المنهجي وتستدعي تعدد مصادر المعرفة (العقل، التجربة، الوحي) لاكتشاف تعدد التركيب، مع جعل فهم النفس ("وفي أنفسكم أفلا تبصرون") نقطة الانطلاق الأساسية.

البعد السيكولوجي (النفسي): تتجه الحكمة القرآنية إلى عمق النفس لتزويدها بأدوات مواجهة الواقع. وهي تحقق التوازن النفسي عبر التصديق الرباني، وتجنب الاضطرابات، وتعلم الصبر وقبول الفشل. وأهم ما توجه إليه هو النسبية في المشاعر، وضرورة رؤية الخير الذي قد يحمله ظاهر السوء : "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم".

إجمالاً، القرآن يقدم منهجاً متكاملاً لتطوير الإنسان وتهذيبه، وتكمن سعادة الإنسان في قدرته على إدارة واقعه وفق هذه الوصفات الإلهية العميقة.

يمثل البعد البيداغوجي في الحكمة القرآنية الآلية المنهجية المتكاملة التي تهدف إلى تطوير الإنسان وتهذيبه بأنسب الطرق والوسائل، متجاوزةً التعليم التقليدي إلى بناء نموذج تربوي شامل. ويمكن الحديث عن المكونات والآليات البيداغوجية كما يلي:

الآيات القرآنية: يقوم هذا البعد على برنامج تربوي واضح المعالم مستخلص من الآيات (البقرة وآل عمران)، يربط بين المراحل الأربع الضرورية للتغيير والكمال الإنساني: التلاوة (لإثارة الوعي المعرفي)، والتزكية (للتهذيب النفسي والسلوكي)، وتعليم الكتاب والحكمة (لبناء المعرفة والمنهج)، وتعليم (ما لم يكونوا يعلمون)لتوسيع الأفق وتحقيق الفتوحات.

بيداغوجيا الانطلاق الذاتي: يبدأ المنهج التربوي من الداخل، حيث أن "فهم النفس "هو المدخل البيداغوجي الأولي والأكثر أهمية، استناداً للتوجيه الإلهي: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون". هذا الفهم هو الذي يضمن تموضع الإنسان الصحيح في وجوده الداخلي والخارجي والكوني، ويُعد بوابة للإجابة على الأسئلة الوجودية الحارقة.

بيداغوجيا التوازن النفسي والسلوكي: تترجم الحكمة إلى توجيهات سلوكية عملية (سيكولوجية) تهدف إلى تحقيق التوازن النفسي. ومن مكوناتها الأساسية: القطع الإيماني مع الأسئلة الوجودية، وتعليم مهارات إدارة الحياة مثل: وضع الأهداف، تعلم الانتظار، الصبر على لحظات الضعف، وقبول الفشل.

بيداغوجيا إدارة الأزمات (المرونة): يُعد الجانب الأكثر دقة، حيث يُدَرَّب الإنسان على عدم الاقتصار على ظاهر السوء، بل النظر بعمق والمرونة المعرفية، استناداً للقاعدة الكلية: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم". هذا يهدف إلى إدارة الفرح والحزن بنسبية وتجنب الاضطرابات النفسية الناتجة عن النظرة القاصرة للأحداث.

بهذا، يكون البعد البيداغوجي هو الجسر المنهجي الذي يضمن تحويل الحكمة من مقولة نظرية إلى تطبيق عملي يُطوّر الفرد ويُهذّبه بشكل مستمر.

تأملات في سيكولوجية الأسرة

التأمل القرآني الأول: سيكو-بيداغوجيا "المتعة" في التشريع القرآني: من ألم الفراق إلى استراتيجيات الانفتاح على المستقبل.

قال تعالى: (وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ (241))

الآية 241 من سورة البقرة

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28))

الآية 28 من سورة الأحزاب

يذكرني حديث الوزير عن مصطلح المتعة بحديث أحد البرلمانيين سابقا عن مصطلح النكاح، فكلهم وبحكم وجودهم في نفس المؤسسة، واشتغالهم ربما مع بعضهم، وفي أحزابهم بجانب بعضهم البعض، وربما بحكم جلوسهم على الكراسي، وتدبير مؤسسات، أو إدارات، أو غيرها يتحولون بدون وعي أو بوعي من برلمانيين إلى علماء، وهو إحساس قد يضخمه لديهم مستشاروهم، الذين ينفخون في كل ذي سلطة درءا لأذاه، أو تقربا منه، أو جلبا لمنفعة، ولا يقفون عند حدودهم السياسية بل يلجون عالم التنظير المفاهيمي، واللغوي، والتربوي، والنفسي مع العلم أن هذا مجال التخصص الدقيق لأهل العلم، فهم يعرفون أهمية المصطلح، وتأثيره وتبعاته. وفي مصطلح النكاح والمتعة يلجأ هؤلاء إلى التفسير العامي نظرا لأنه هو المستوى الأولي للفهم والتأويل، وبعيدا عن المستوى العلمي الذي يمكن أن نستدعي فيه علوم متعددة لتفكيكه. فقد ادعى صاحبنا الأول أن مصطلح النكاح في مسمى عقد النكاح مسيء للمرأة، لأنه فهم من النكاح الجماع، أو الوطء، وهو فهم عامي لا يرقى للدلالة العلمية، والاصطلاحية للمفهوم، النكاح عنده هو أن فلان نكح فلانة، يعني بالدارجة وهي بالمناسبة عربية فصيحة (حواها)، ونسي أن النكاح في اللغة هو الزواج، فنقول المرأة تَنكح وتُنكح، ونقول نكح الرجل أي تزوج، ونكحت المرأة أي تزوجت فهي ناكح. ونفس الأمر مع المتعة، فهؤلاء لا يقفون عند حدود تدبير القطاع بل يريدون تغيير فلسفته، ولغته، وليس لهم أدنى إنتاج علمي في ذلك، ولا يساندهم لا العلم ولا الواقع، ولم يأووا إلى ركن شديد، لكنهم يمتلكون جرأة كبيرة، وغير منتظمة تذكرني بجرأة القذافي، والأسد رغم اختلاف المواقع نسبيا.

إن المتعة يا ناس هي الأعطية، وهي حق الزوجة المطلقة، هي تعويض مادي مستحق، واختار الله مسمى المتعة لغنى دلالاته، وانفتاحها، وحمولتها الإيجابية التي فهمها السياسيون فهما سلبيا مقلوبا، لما تحمله أنفسهم من غبش، أو ضباب، أو ربما حقد عن مصطلحات النص الديني. فقوله عز وجل: "وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ"، جعل المتعة تتضمن المتاع المادي، والمتاع يا هؤلاء هو كل ما ينتفع به، وليس فقط الأموال، وحق المرأة أن تتمتع بالعيني، والمادي، نظرا لما قد يلحقها من ضرر مادي وعيني نتيجة الفراق، كما أن للمصطلح دلالة نفسية قلما ينتبه إليه الناس، فالمتعة من تمتع يتمتع، وكأن الله يحيلها لحظة الطلاق التي هي لحظة أسى وفراق بواسطة اللغة، وبمسمى المتعة على جانب إيجابي

أساسي عندما يأتي بدلالة التمتع أو الاستمتاع والتلذذ لحظة الألم، إنه اشتغال رباني بيداغوجي باللغة على البناء النفسي، بالعمل على إدخال دلالة إيجابية على واقعة سلبية، كي يفتح الله بواسطة اللغة عين المرأة على التمتع، لأن المستقبل مفتوح أمامها، بل قد يكون الطلاق الذي سماه الله سراحا، تسريحا لها من ضنك العيش مع رجل استحالت المعيشة معه، وهكذا يقول الله للرجل متعها بما تستطيع لتبدأ حياة جديدة، ولا تجمع عليها ألم النفس، وألم الحاجة المادية.

شخصيا لا أعتبر اختيار الله للمصطلحات القرآنية إلا مقصودا وعميقا، وله أبعاد قد لا ندركها الآن. إن المتعة في سياق الطلاق هي دعوة للمرأة إلى الاستفادة، والفرح بالماديات، وتوظيفها للتغلب على الوضع الجديد. وليس بغريب أن نجد صفة التمتع حتى في الحج، ولا أقصد هنا الجانب الفقهي، بل أركز على الجانب النفسي التربوي البيداغوجي الذي نغفل عنه، إن الحاج المتمتع أحل له أن يتمتّع بالنساء، والطِّيب، وكلّ ما لا يجوز للمُحرم فِعله في وقتِ الحلّ بين العُمرة والحجّ؛ قال تعالى: "فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ"، سورة البقرة: 196، وتدلّ الآية على أنّ هُناك تمتُّعاً بينهما؛ والتمتُّع في لُغة العرب يُطلَق على: التلذُّذ والانتفاع بالشيء. فالمتعة بيداغوجيا طريقة للخروج من الضنك الواقعي إلى الأفق المستقبلي، لأن الطلاق ليس نهاية العالم لهذا جاء القرآن ليطلق دلالة المتعة باعتبارها أمرا إيجابيا، لمواجهة حالة الشؤم التي قد تسطو على المرأة في هذه اللحظات، وجميل أن تجد في اللغة العربية ما يجهله المتكلمون بدون علم، إذ يعتبر علماء اللغة أن الميم، والتاء، والعين أصل لغوي صحيح، يدل على المنفعة، واستمرار الخير، وامتداده، تتضمن المتعة باعتبارها مصطلحا رسالة لغوية، نفسية، عصبية إلى المرأة مفادها تمتعي فالخير في المستقبل، ولا تحزني فالله مالك كل شيء. لم يسميها الله تعويضا لأنه لا شيء يعوض الأسرة، ولأن التعويض يتضمن الخسارة في الماضي بل سماها متعة، لأن مصطلح المتعة متوجه إلى المستقبل، وكأني بربي يقول لها لا تأسي على ما فات، وتمتعي عسى الله أي يسعدك.

يا أيها الناس متى نستمتع ونتمتع؟ في حالة الانتصار، في حالة النجاح، في حالة التوفيق لشيء جميل، وكأني بربي الكريم الحبيب يقول للنساء إن الطلاق انتصار على وضع سيء ومسيء، ونجاح في تجاوز عقبة، وإنجاز وجب أن تستفيدوا منه فلا تجمدوا في الماضي، وانفتحوا على المستقبل، وتمتعوا بمتعتكم، فالأفق إيجابي لأن المستقبل لا يمكله رجل ولا امرأة. هنا وجب أن يؤسس الوزير التصورات البيداغوجية للاستشارات الأسرية قبل الزواج، وأثناء الأزمات، وبعد الطلاق..... من هنا وجب عليه أن يؤسس للفكر الباني المنفتح على الأصول، والمستفيد من نتائج الأبحاث العلمية في الشرق والغرب.

غالبا ما نلاحظ في الدول المتخلفة عدم خضوع السياسة إلى العلم، ولا إلى الأبحاث، بل إلى الهرف والصخب، وفي بعض الأحيان لا تخضع حتى للأخلاق، المتعة إذن بداية جديدة مؤسسة على حق الزوجة في الاستمرار في الانفتاح الإيجابي على الحياة، كما أنها كلمة تحمل رسالة الأفق المستقبلي ولا علاقة لها بما يظنه الساسة المتعالمون. أما الطلاق نفسه فحل للوضعيات الميؤوس منها، وليس جرما، فالمطلقة عليها أن تتمتع بطلاقها لتبدأ بداية جيدة مع نفسها، وأبنائها، أو زوجها الجديد، وقبل ذلك مع ربها. أما إذا ما أضفنا إليها قول ربنا: "حقا على المحسنين"، فتخيل كيف يكون متاع المحسن، ولا يجب أن يختلط عليكم مفهوم

المحسن بالدلالة العامية مرة أخرى، فتعتقدون أنه المتصدق، فالمحسن هو المتقن لعمله، الذي يحسن فيه، الذي يجيد في القول والفعل، فأحسنوا اختيار المصطلحات، وأحسنوا اختيار القوانين، وأحسنوا التأمل معنا كمسلمين مؤمنين في هذا البلد الكريم. المتعة إذن أفق المستقبل الإيجابي، ولقد أسأتم فهمها، فاعتذروا للعربية، والشرع، وكتاب الله، وقبل كل شيء اعتذروا لربكم عسى أن يفتح بصيرتكم.

يُعد اختيار مصطلح "المتعة "في سياق الطلاق اختياراً إلهياً مقصوداً وذا دلالة عميقة تتجاوز التفسير المادي، حيث يرفض المصطلح فلسفة التعويض التي تركز على الخسارة الماضية، ويتجه نحو فلسفة الانفتاح الوجودي على المستقبل، مُعيداً تعريف الطلاق كـ "انتصار" وحق للمرأة والرجل في بداية جديدة، وليس كخسارة أو نهاية. هذا الارتباط الفلسفي مدعوم بمنهج لغوي دقيق؛ إذ يدل الأصل الثلاثي للمتعة على استمرار الخير، مما يضفي على المصطلح قوة توجيهية.

سيكولوجياً، تُعد المتعة آلية للمقاومة النفسية في لحظة الألم، حيث يشتغل القرآن على البناء النفسي للمرأة بواسطة اللغة، مُدخلاً دلالة "التمتع والتلذذ" في واقعة سلبية؛ لتجنب التجمد في الماضي وكسر حاجز الشؤم. يحمل المصطلح رسالة نفسية عصبية بأن "الخير في المستقبل"، ويدعوها إلى الفرح بالماديات الممنوحة وتوظيفها بفعالية للخروج من الضنك.

بيداغوجياً ، تُصبح المتعة طريقة منهجية للخروج من الضنك الواقعي إلى الأفق المستقبلي. هذا المفهوم يمثل أساساً قوياً لتأسيس تصورات تربوية للاستشارات الأسرية قبل الزواج وبعد الطلاق، تُعلي من قيمة الفكر الباني المنفتح. كما يربط المفهوم بين المتعة والإحسان (الإتقان)، مما يوجه الأطراف كافة إلى تطبيق المعايير الأخلاقية والمنهجية في التعامل مع هذه المرحلة الحساسة، مؤكداً أن الاستمرار الإيجابي للمطلقة هو الهدف التربوي والغاية المستهدفة.

التأمل القرآني الثاني: أنطولوجيا القوامة القرآنية

(ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ).

الآية 34 من سورة النساء

تكلم أحدهم بما يريده صاحب نعمته، وادعى أن قوامة الرجل انتهت، لأن المرأة خرجت إلى العمل. ربط المسكين القوامة بالإنفاق لأن الأمر مادي محض في مخيلته التي تسربت إليها نفايات دين العلمانية واختلطت عليه الأمور، القوامة يا هذا جاء فيها نص القرآن إن كنت لازلت تعتبره مرجعا، بل أصل الأصول: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ " سورة النساء: 34. أتمنى أولا أن نتفق على أن الآية تحيل على سببين رئيسين: الأول وهو السابق على الإنفاق أي أنه أهم من الإنفاق مرتبة بحكم ترتيبه في الآية، وهو قوله عز وجل: "بما فضل الله بعضهم على بعض"، وغالبا ما يذهب المتعلمنون إلى فهم التفضيل فهما لا يتماشى أبدا مع عدالة الإسلام، لكن سنشرح قولنا المتواضع كما يلي:

التفضيل هو تمييز، أي بما ميز الله به بعضهم على بعض، والتمييز معناه أن خصائص الرجل ووظائفه في النسق الإسلامي تختلف عن المرأة، فليس الذكر كالأنثى خلقة (بيولوجيا، نفسيا)، وتكوينا، وأدوارا، ولا يعني هذا أن الرجل أفضل بمعنى أحسن من المرأة بل الأفضلية في الإسلام لا تتعلق بخلقتك، بل بأفعالك، وتتجلى في التموقع السلوكي الإيجابي باجتناب القبيح، وإتيان الجميل من الأقوال، والأفعال التي تقرب من الله، وتنفع الناس والمجتمع بغض النظر عن الجنس، بل إن التمييز ناتج عن كونهما مخلوقين مختلفين، ومنطلق النسوانيين والمثليين هو السعي لنفي الاختلاف الخلقي، وإلغائه لصالح التشوه التنشيئي، وهو ما يقف بوعي أو بدون وعي وراء المطالبة بإلغاء القوامة، لأن الرجل والمرأة متساويين خلقة عند هؤلاء، ولو لم يعرفوه أو ينتبهوا إليه، فالباراديغم الذي يتنفسون منه هو هذا بالضبط، علموه أو جهلوه. سأقف عند هذا الحد إذا سلم هؤلاء بأن الرجل والمرأة مختلفين، وأن اختلافهما خلقي، ووظائفي، وتكويني، وأن هذا التمايز له تبعات اجتماعية، ونفسية، وسلوكية، ومحدد للأدوار الاجتماعية، أما إذا نفوا ذلك فالرد عليهم مضيعة للوقت وهدر للجهد. والغرض هو أن يسلموا بحقيقة علمية اجتمعت كل الحواس التي هي أساس الملاحظة العلمية على إدراكها، وهي أن الرجل ليس هو المرأة أبدا، وأن المرأة ليست هي الرجل أبدا، هذا بدون الرجوع إلى الحقيقة العلمية البيولوجية القاتلة لأوهام الجندريين.

الرجل قوام لأن هويته هي الرجولة التي تحتم عليه إشباع انتظارات المجتمع بما فيها انتظارات المرأة، باعتباره رجلا وليس شيئا آخر، فالرجولة دور، والدور انتظارات، وهي انتظارات محددة ثقافيا، ومشتركة بين مختلف الحضارات. وعليه، فكون الله تعالى ميز بين هذين المخلوقين بجعل خصائص كل واحد منهما غير قابلة للتبديل لأن أساسها خلقي، ولا نتعجب من هذا النزوع الجندري الواعي أو غير

الواعي، فالهدف غير المعلن لأربابهم في التأصيل الذي لا يدركونه هو الدفع بالرجال مستقبلا إلى النضال من أجل استعادة شرف الرجولة، الذي اغتصبته النسوية المرضية بدعم من المثلية، وأصحاب المصالح العميقة من الرجال والنساء. يجري تأنيث المذكر، وترجيل المؤنث، وقلب القواعد، والسنن، وهكذا يدفعون الرجال لتطوير قلق وجودي، بحذف حقهم في تحمل مسؤوليتهم في أسرهم، وبالتضييق عليها، وحذف كل ما يحيل على تميزهم بما في ذلك مصطلح القوامة. يطلب من الرجل في كل المجتمعات نساء وحكومات أن يتحمل مسؤوليته التامة في أسرته على أبنائه، وزوجته، ويهتم برعايتهم، والدفاع عنهم، وتوجيههم، وحمايتهم، وتذليل الصعوبات أمامهم، وتطبيبهم، والإنفاق عليهم، والسهر على توازنهم النفسي.... لكن رغم كل ذلك لا يريد أهل دين العلمنة أن يعترفوا له بقوامته، بل يريدون نزعها منه، وجعله نكرة وسط أبنائه، ولا شيء أمام زوجته. فلا قوامة له برغم كل مجهوداته وتضحياته. ولو اطلعوا على دور الأب في السيكولوجيا، وعلم الاجتماع، والتربية لسكتوا، بل قد لا يسكتون فالمخدرات العلمانية قوية جدا.

أما السبب الثاني فهو الإنفاق، ومن أغرب ما أستمع إليه عند هذه الفئة أن المرأة تشتغل، ويريدون المساواة بينها، وبينه، وكأنه لا وجود لمساواة، وبما أنها تشتغل وتنفق، فليست هناك قوامة للرجل ضاربين بعرض الحائط الدور الاجتماعي، والنفسي، والمالي للرجل. وما رأيت خبثا ولا تجرؤا على عقول الناس مثل هذا، يطلبون من الرجل أن ينفق، ويطلبون منه أن يشتغل، ويربي، ويحمي، ويسعد أفراد أسرته، ويحملونه النفقة بعد الطلاق، ويطالبونه بالمتعة، ويفرضون عليه المهر، ومطالب بمؤخر الصداق، ويريدون اقتسام الثروة معه، بل وإخراجه من البيت عند الطلاق ... كل هذا وزيادة. ولا يجب أن نعترف له بالقوامة، قمة التفاهة العلمية، والمعرفية، والظلم المنهجي، والرداءة الأخلاقية. إنهم كما كتب أحدهم يسعون إلى خلق مجتمع بدون آباء، لأن الأبوة لا تنفصل عن القوامة أبدا، إلا أن تفاصيلها قد تختلف من بلد إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر لكنها موجودة دائما وأبدا.

إن رفع القوامة يحيل على ما هو أعمق، وخفي، ولا يدركه إلا المتخصصون، والباحثون، وليس السياسيون الذين تلتهمهم المشاكل اليومية، إن سلوك الأفراد فرادى يؤثر على مجموع الناس، وإن القرارات الخاطئة المبنية على فهم نسبي فردي، دائما ما تكون لها عواقب اجتماعية عميقة تلامس مجمل الأنساق الاجتماعية.

•لكن السؤال الأهم ما هو السبب الرئيسي أو الأسباب الرئيسية :

لماذا يحدث كل هذا؟

الجواب جلي: إن هؤلاء يسعون إلى سن قوانين تتيح ضمنيا أن يفعل كل واحد منا ما يعتقد أنه صواب من وجهة نظره المبنية على تنشئته الاجتماعية، بعبارة أخرى، إنها النسبية الأخلاقية. تنبني هذه النسبية ضمنيا على أن كل واحد منا يتحرك قبولا أو رفضا للقوانين الربانية من نفسه، ورغباته الخاصة، بدون الاحتكام لمطلق متفق حوله. وهذا الأمر أضحى في مغرب اليوم يلامس كل ما يتعلق بتصميم العلاقات الاجتماعية، أي العلاقة بين الرجل والمرأة، كما يلامس أيضا فهومنا لمكونات ما يشكل الذكورة

والأنوثة، هناك فوضى كاملة. لماذا؟ لأنهم يريدون إلحاق المجال الاجتماعي القيمي ضمنيا بفلسفة الآخر، أن يتركوه بأكمله للفرد، كل شخص يفعل ما يعتقد أنه صحيح. وتغدو العقيدة التي تؤطر وجودنا ليست عقيدة مبنية على القيم الإسلامية، بل هي عقيدة النسبية الأخلاقية الغربية. هكذا تحل الأهواء مكان التشريعات الإلهية. إنهم يسعون ويعملون من أجل انهيار قانون أخلاقي متفوق لصالح تشريعات نفسية شخصية، تعكس الكتلة النفسية لمطوريها في مجتمعاتهم، التي لا تنفع المجتمع المغربي، بل تضره، وتفكك أواصره. إن مجتمعنا وإن كان غنيا قيميا فهو فقير ماديا، وتصوروا معي مجتمعا فقيرا بخلفية فردانية متوحشة كيف سيكون. إننا نعتقد أن علينا أن نقوم ونجاهد بالعلم، والفكر، والمدافعة لكي لا ينهار قانوننا الأخلاقي المتفوق، الذي لم تصل البشرية بعد إلى ربع إيجابياته، وفي المدافعة سيعاني المدافعون يقينا، وبشكل متزايد من الرياح المضادة، والتيارات العاصفة القاسية. فاستقم كما أمرت.

إن علمنة مفاهيم المدونة تتم بقصور واضح في فهم المصطلحات القرآنية من طرف أهل دين العلمانية، والغرض هو فصل المدونة عن اللغة الشرعية، واستبدالها بلغة تزيل عنها المسحة الدينية، علمنة المجتمع تتم عبر علمنة أدواته التعبيرية خصوصا في المرجعيات القانونية والسياسية، رغم ضعف بل فراغ المصطلحات العلمانية، وغالبا ما يلجأ أهل العلمانية إلى وصف المصطلحات القرآنية بكونها تقليدية، أو قديمة، مع العلم أن قديمة أو جديدة لا علاقة لها بصوابها، أو صحتها، أو صلاحيتها. انتبهوا فالقوم يشتغلون عن علم، أو تقليد، أو جهل من أجل تجفيف القوانين من مكوناتها الشرعية، ولقد قال وزيرهم يوما ما في حوار: "أنا لي ماغيرتهاش كاملة غادي نغير فيها واخا غير عشرة في المائة حتى يجي غيري يكمل التغيير"، وهو لا يعلم أن تغييراته كلها قد يأتي زمان نرمي بكل ما يخالف ديننا منها إلى الزبالة العلمانية. فما يحدث في العالم اليوم وضح ويوضح على أن الصراع عقدي في أبسط تجلياته مثل اللغة، إلى أسوء تجلياته وهي سفك دماء المسلمين، وتهجيرهم، والسطو على أراضيهم، وممتلكاتهم، والتفريق بينهم. وهؤلاء ليسوا إلا أدوات مقلدة، أو جاهلة، أو وظيفية عن علم.

إن الاجتهاد من داخل السياق والاستفادة من الآخر طريق المبدعين، والمقلدة وبال على الأمة. أما عن القديم والجديد في المصطلحات نقول لصاحب هذه الفضيحة أن مصطلح الديموقراطية قديم ظهر تقريبا في أثينا قبل 500 سنة قبل الميلاد، ومصطلح القانون ظهر مع السومريين، ومصطلح الملكية، ومصطلح البيعة، ومصطلح السجن والأسرة.... "بدا أسيدي تغير لينا المصطلحات وحيد القديمة وجيب الجديدة.....خلينا غير نسكتو"، تصريحاتكم تفضح عمق معرفتكم وتمكنكم. بل حتى المصطلحات التي تتشدقون بها نشأت في القرن السابع عشر، والثامن عشر، ولها أصول أقدم بكثييير...بل العلاقات الرضائية كذلك قديمة، والمثلية قديمة مع قرية سدوم، والحرية المطلقة قديمة قدم الإنسان، وقبل أن يتحضر.... إنكم تختارون من تاريخ البشرية أسوأ ما فيه لتبعثوا فيه الحياة لا غير.

ترتكز القوامة في القرآن على مبدأ وجودي وأخلاقي عميق يتجاوز التفسير المادي المبتسر الذي يربطها بالإنفاق وحده. وهي تُعد إطاراً منهجياً وتربوياً للحفاظ على توازن الأسرة والمجتمع.

تُؤسس القوامة على السبب الأول في الآية: "بما فضّل الله بعضهم على بعض"، وهذا ليس تفضيلاً في الكرامة، بل هو تمييز خلقي ووظيفي في الأدوار والخصائص (البيولوجية والنفسية) بين الجنسين. وتُعتبر القوامة تجسيداً لـ "هوية الرجولة" كدور اجتماعي يتضمن تحمل المسؤولية الشاملة والرعاية والحماية والدفاع. إن السعي لإلغاء القوامة يمثل تهديداً فلسفياً أعمق، لأنه يستند إلى النسبية الأخلاقية الغربية الساعية لنفي الاختلاف الخلقي، مما يقود إلى تفكيك الأنساق الاجتماعية وخلق "مجتمع بدون آباء" وتسبب في قلق وجودي ناتج عن اضطراب الأدوار.

كما تُمارس القوامة وظيفة نفسية وتربوية حيوية في الأسرة، حيث:

التوازن النفسي والوقاية: القوامة هي الإطار الذي يضمن السهر على التوازن النفسي للأفراد داخل الأسرة، ورفعها يُهدد هذا التوازن ويُحدث قلقاً وجودياً للرجل، مما يُضعف وظيفته الأبوية.

بيداغوجيا المسؤولية: القوامة هي اعتراف بالدور الأبوي الشامل في الرعاية والتوجيه والتربية، وهي دليل على أن الأبوة لا تنفصل عن القوامة في سياقها الاجتماعي.

الجهاد المنهجي: التعامل مع مفهوم القوامة يتطلب منهجاً تربوياً يعتمد على الجهاد بالعلم والفكر للحفاظ على القانون الأخلاقي المتفوق، ومقاومة محاولات علمنة المفاهيم عبر استبدال المصطلحات القرآنية بلغة ضعيفة وفارغة تزيل عنها المسحة الدينية، مع الإقرار بأن الاجتهاد يجب أن يكون من داخل السياق لا التقليد الأعمى.

خلاصة القول: القوامة هي مسؤولية شاملة تُبنى على التمييز الخلقي ووظيفية الدور، وهي تمثل الحصن العقدي ضد انهيار القانون الأخلاقي والاجتماعي لصالح الفردانية المطلقة.

التأمل القرآني الثالث: البنوة العالمة امتيازرباني

(قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ (53))

الآية 53 من سورة الحجر

(فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ (28))

الآية 28 من سورة الذاريات

من خصائص الإنسان حبه للتكاثر، وفي حبه هذا ينتقل بخياله ذات اليمين، وذات الشمال متمنيا أفضل وأجمل الأبناء، وينظر لمولوده الذي خرج منه أول مرة نظرة إعجاب فرحا به، وواضعا عليه آمالا تعلو علو الجبال، وفي بشرى الله عز وجل لنبيه إبراهيم ذكر له خاصية ابنه في المستقبل، إنه عز وجل لم يقل جميلا وإن كان كذلك، ولم يذكر أنه غني، ولم يحدد أية صفة من الصفات التي تخطر على قلوب عامة الناس، بل قال له غلام عليم، فكأن العلم هو أعلى ما هو موجود، وأعلى ما يجزي به الله نبيه ابراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام، وبضدها تتمايز الأشياء. وعليه، فالعلم ميزة ربانية، والجهل هو غياب العلم، وإن حضر الجمال، والقوة البدنية، والأموال. فالمعرفة أو العلم هنا تعني أنه غلام عارف لحقيقة ذاته، وواقعه، وما فوق واقعه، وعارف لحدود معرفته، والجهل يعني نقص هذه الفهوم أو غيابها، أي النقص في الفهم والضبابية في الوضوح، بل ربما سوء فهم، بل ربما يصاحب ذلك كله اعتقاد جازم في كونه أعلم العلماء.

إن الغلام العليم نعمة ربانية لأنه سيكون سريع البديهة، لين الجانب، عميق الرؤية، يدرك ما يجب أن يدرك، وينمو ويتطور بأقل تكلفة نفسية ومادية، يعرف حدوده وحدود معرفته، ومردوده فوق الأرض مضمون، ودائم، ومتواصل حتى بعد موته. يملك الغلام العليم مفاتيح الفهم المتوازن، والعيش المتوازن، والفعل المتوازن، والغلام الجاهل أقل امتلاكا لها، أو منعدمة لديه. ولا يدرك أهمية ذلك إلا الآباء والأمهات الذين ابتلوا بأبناء جهلة كانوا ربما هم أو محيطهم سبب جهلهم وجهالاتهم، فالجهل رديف المعاناة الوالدية، رديف الارتباك الدنيوي المستمر، الغلام العليم ابن الواقع يفهمه، ويفككه، ويتعايش معه، وهو بذلك متحرر من الأوهام والمتمنيات الواهية، يرى بنور العلم، ولا تحجب رؤيته متمنيات نفسية، أو تجارب غيره، أو ماضيه. لا تشده المظاهر والشكليات لأنه عميق. لا يبدد ظلام الجهل إلا نور العلم، ولا تحل الصحة البدنية مكانه، كما لا يعوضه غنى مادي أبدا، بل إن اجتمعت الصحة، والمال، والجهل فتلك مصيبة ما بعدها مصيبة، فالذي يشكل الفارق الأساسي بين الناس هو العلم.

إن المعرفة أو العلم الذي خص به الله بن نبيه الكريم ابراهيم لم يكن علما للتباهي، وقتل الناس، أو اضطهادهم، بل كان علم إحياء النفوس، والدفع بها إلى السمو فوق العالم المادي إلى عالم الأخلاق، علم يجعل من البشر أناسا متسامحين، ومتعايشين، ومتفاهمين، علم يؤثث العلاقات الإنسانية بقيم تضمن استمرار التعايش والتعارف، علم يربط السماء بالأرض والمادة بالعدم، أما العلم الذي يسعى إليه

البشر ويتنافسونه فهو علم التحكم لا التعايش، التحكم في الطبيعة، والتحكم في البشر، والتحكم في الأفكار، والتحكم في الأنفس....، بل إنه علم يراد لنا من خلاله أن نطور اعتقادا مفاده أننا لا نعلم شيئا، ولا نملك حقيقة، وليست لدينا بوصلة، علم يؤكد لنا أننا لا شيء، بدون هدف، تائهون.... علم يقنعنا أننا كبشر لا نتوفر على الإجابات النهائية على الأسئلة الكبرى. تكاد تكون الثورات العلمية بهذا المعنى وفي هذا الجانب ثورات جهل، ثورات قام بها الإنسان على العلم للإيمان بالجهل. فكيف لجاهل يعترف بجهله أن يخبرك بأننا لا شيء، وأننا تائهون، وأنه لا إله، وأننا لا نعلم!، وكأن العلم لبس لبوس الدين لكن دون أن يؤدي وظائفه، فتحول إلى دين يشرعن باسم العلم السيطرة والسطو، ويترك النفوس والأرواح هواء وخواء.

طورت الثورات كل شيء ممكن لممارسة التدمير، والصراع، والقتل، والاغتصاب، والاستعمار، وبث الشك، واللايقين، والعدم، ولم تطور شيئا يعتد به للتعايش والإجابات المطمئنة. دفعتنا أحداث العالم المعاصر لإدراك أن كثيرا مما نعتقد أنه معرفة، وعلم هو محض جهل أورثنا جهالة في الأفعال، والأقوال باستثناء ماديات العصر، وتقنياته التي قد نستمتع بها، لكن سرعان ما نشبع منها ونرجع إلى الفراغ النفسي، والروحي القاتل.... لا شيء من الماديات يمكن أن يشبع أرواحنا أبدا، حتى وإن ظننا ذلك خصوصا في مرحلة الكبر التي جرب فيها الفرد كل شيء، ولم يجد أي شيء، بل وجد نفسه لازال يبحث عن شيء مفقود.

إن قوله تعالى: "غلام عليم"، يساهم، بل يحرك في جوانية المؤمن مساحات متسعة تدعو إلى الاكتشاف والبحث عن ماهية العلم الذي يخص الله به أولياءه، بل ويخص به الإنسان عموما، "غلام عليم": أي علم هذا؟ إن هذا الوصف يفتح باب الفضول والسؤال للمعرفة، وكأني بالله عزل وجل يريد إخراج فضولنا من حالة السكون إلى حال الحركة والفعل، بل إن وصف غلام عليم يشككنا في مسلمة هل الإنسان لوحده وبدون محركات ومثيرات خارجية يمكن أن يكون فاعلا متسائلا؟ وعليه، يغدو البحث، والحركة، والتتبع، والعلم النابع من الفضول، والمؤدي إلى الاكتشاف نتيجة للإيمان بالوصف الرباني "عليم"، فوصف عليم يقتضي التساؤل عن ضده الذي هو جاهل، وفي الكشف عن الفوارق نكتشف القوانين. إن الغلام العليم لن يكون صناعة الجهال، بل صناعة المؤمنين بقوة الإنسان وحدوده. إن الغلام العليم هو ذاك الذي جمع بين علم الإجابات النهائية، وعلم الإجابات الواقعية، وعلم الإجابات الذاتية. الغلام العليم صناعة ربانية بأيدي ابراهيمية، فاللهم اجعل أبناءنا علماء، واجعل نهجنا في تربيتهم نهجا إبراهيميا.

يُعد وصف "غلام عليم" في البشرى الإلهية لنبي الله إبراهيم دلالة فلسفية عميقة تضع العلم في أعلى مراتب الامتياز الرباني، متجاوزةً بذلك الصفات الدنيوية كالجمال والغنى. هذا العلم ليس مجرد معرفة، بل هو امتياز وجودي يجعل صاحبه عارِفاً لحقيقة ذاته وواقعه وما فوق واقعه، ويمتلك مفاتيح الفهم المتوازن والعيش المتوازن. على النقيض، يُعتبر الجهل (حتى لو اقترن بالصحة والمال) مصيبة وجودية ورديفاً للمعاناة الوالدية والارتباك.

فلسفياً، يميّز التأمل بين نوعين من العلم :علم إحياء النفوس، الذي يربط السماء بالأرض ويؤثث العلاقات الإنسانية بالقيم والتعايش (كعلم الأنبياء)، وبين علم التحكم البشري المعاصر، الذي يُوَلّد التدمير، والصراع، والشك، والعدمية، مُورِثاً الفراغ النفسي والروحي القاتل عبر إيهام الإنسان بأنه تائه بلا بوصلة.

نفسياً وبيداغوجياً، تُصبح البشرى بـ "غلام عليم" دافعاً تربوياً بامتياز. هذا الوصف يهدف إلى إخراج الفضول البشري من حالة السكون إلى الحركة والفعل (آلية بيداغوجية)، ويُعد الإيمان بالقوة الإنسانية وحدودها هو المحرك الأساسي للبحث والاكتشاف. الغلام العليم، كنموذج تربوي، هو سريع البديهة، عميق الرؤية، ومتحرر من الأوهام والشكليات، ينمو بأقل تكلفة نفسية، ويجمع بين علم الإجابات النهائية (الوحي)، وعلم الإجابات الواقعية (التجربة)، وعلم الإجابات الذاتية (فهم النفس)، مؤكداً أن "الغلام العليم لن يكون صناعة الجهال، بل صناعة المؤمنين".

التأمل القرآني الرابع: أنطولوجيا الكهف النفسي: الزواج المختلط وهشاشة اليقين العاطفي

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ (221) ﴾.

الآية 221 من سورة البقرة

تعتبر هذه الآية من الآيات التي كانت لي معها قصص وحكايات متعددة في الغرب أثناء تقديمي للاستشارات، وتوجيهات في مؤسسات عربية، ومغربية، وإسلامية في الغرب، وأثناء عيشي كشاب يبحث عن زوجة، وأثناء مناقشتي مع كثير من الأوربيين، والأوربيات، والمسلمين، والمسلمات.... آية تقف في وجه ما يسعى إليه بعض الشباب والشابات من الزواج المختلط لا بين الأجناس، بل بين الأديان، فيصطدم المتحابان بصراحة، ووضوح هذه الآية التي تبدو لأول وهلة حجر عثرة أمام محبوبين يعشق أحدهما الآخر حد الصبابة وما فوقها، لكن الآية تقول لهما أن المؤمن أفضل من المشرك، والمؤمنة أفضل من المشركة حتى في حالة العشق، والإعجاب، والصبابة، "ولو أعجبتكم"، "ولو أعجبكم"..... ومع مرور الزمن ومعايشتي لمن تجاوز هذا المنع مغلبا الإعجاب على الاعتقاد، أو الدين في لحظات السكر بالعشق، توصلت إلى أن الله تعالى يرى ما بعد العشق، ويرى بنو البشر العشق فقط ولا يتجاوزونه إلى ما بعده لأنه في لحظات الغرق في الآخر حبا وصبابة، يختفي بعد النظر، ويحضر ضيق الأفق والفهم، فما أن تمر شهور أو سنين قليلة حتى تنفك العرى، وينقلب العشق إلى دمار لا يبقي ولا يذر، خصوصا إذا نتج عن العلاقة أبناء.... رأيت حالات لا يكاد العقل يصدقها، وعايشتها، وكنت شاهدا عليها...، هروب من البيت، وهروب بالأطفال، واكتئاب عميق يصل حد الانتحار في بعض الحالات....

قد نعتقد في جدوى الزيجات المشتركة عقديا من باب ممارسة الانفتاح أو الاعتقاد برجعية المعتقد، وتفوق العقل البشري في إنتاج الضوابط والقواعد المؤسسة للعلاقات الاجتماعية، وبالفعل قد يتطور ويستمر أي زواج مختلط دينيا بشرط أساسي وهو التخلي عن الدين جملة وتفصيلا، وليس هناك في هذا الأمر منزلة بين المنزلتين. إن مرحلة الافتتان الأول تكون غالبا مكسوة بالتغاضي، وتقديم التنازلات من الطرفين أو من طرف واحد حتى يتحقق الزواج، لكن مع مرور الزمن يجد الشريك المتنازل، أو المتحول من دين إلى دين تحت ضغط الرغبة والعشق، رغبة أقل في تقديم التنازلات، واعتراضا أكبر في الاستمرار في التحول من دين إلى دين، وهذا الأمر يصدق بالأساس على المتدينين الملتزمين بالدين، الذين لا يريدون العيش خارج إطارهم التوجيهي العقدي. ويزداد الأمر تعقيدا عندما لا يستطيع الزوجان المختلطان الاتفاق على الدين الذي يجب أن ينتمي إليه أبناؤهما، ومعلوم أن الإسلام يدعم بل يوجب على معتنقيه دعم الانتماء الإسلامي للأطفال، وهو بهذا دين واضح لا يتخلى أبدا عن ذرية المؤمن به اختيارا لا اضطرارا،

فهو لا يريد تركهم للفراغ، بل يأمر الأولياء بتوجيه الأطفال نحو الإسلام، ولهم أن يختاروا بعد ذلك الإيمان أو الكفر، لكن بعد الشرح، والتوجيه، وبلوغ الرشد. لا يريد الإسلام أن يكبر أبناء المسلمين بفراغ ديني، أو إعاقة عقدية تجعلهم في مهب رياح أية فكرة كيفما كانت قوتها، أو ضعفها قبل أن يتعرفوا على ركن شديد.

أعتبر أن الزيجات المختلطة دينيا حقلا خصبا لنمو الصراعات القيمية، والأخلاقية، والقانونية، فكلما كانت ديانة الزوجين مختلفة ومتناقضة ارتفع منسوب الخطر، والتهديد بالتفكك، واستحال على الزوجين إيجاد النقط المشتركة التي تضمن نجاح مشروعهم الأسري. ومما لاحظته في سنوات تفاعلي العملي مع هذه المشكلات أن المتزوجين يكونون قبل الزواج أقل تدينا بل جد متسامحين حد التخلي عن معتقدهم، لكن بعد الزواج يرتفع منسوب التدين عندهما، أو عند أحدهما خصوصا إذا كان مسلما. وهذا نفسه تحول يلقي بثقله على العلاقة المستمرة مرحليا المتفككة مستقبلا، ومن أصعب ما قد يعانيه الزوجان، هي حرمان الزوج المسلم بعد الانفصال من الأطفال.... إن التجذر والتعمق في التدين خصوصا في الإسلام يجعل الدين أهم عنصر في حياة المؤمن به، بحيث يقلل لديه نسبة التسامح مع نفسه في تعامله مع وضعه الذي لا يرضى عليه، وقد يكون هذا الأمر أقل صعوبة مع الزيجات المسيحيات اللواتي لا ترين بأسا في اعتناق أبنائها دين أبيهم، لكن الأمر جد مختلف عندما يكون الزوج متدينا والزوجة ملحدة أظهرت إيمانا زائفا في البداية، أو هو أظهر إلحادا مغشوشا في البداية، بمعنى أن توافق المعتقد هو الطريق الأسلم لنجاح الحياة الزوجية بأقل ما يمكن من الصعوبات، وإلا فتحت أمامه مسارات مظلمة لا تبقي فيه وله أملا.

إن إيماننا هو كهفنا النفسي الروحي، منطقتنا المفضلة في حالة الضعف، والقوة، وفي حالة النظر إلى المستقبل، وبناء هيكل الحياة عموما. فيه نمارس وجودنا بشكل فردي وخاص، ويجمعنا مع غيرنا، ويميزنا عن غيرنا، ويفتح أمامنا أبعادا ميتافزيقية يعجز العلم على تحريكها في دواخلنا، ويمدنا بطاقة مستمرة ومتجددة لمواجهة تحديات واقعنا. إن إيمان الزوج أو الزوجة يجعله في مأمن من تيارات التيه، ويحرك في دواخله معرفة تكاد تكون يقينية، مشتركة، وسرية خاصة بينه وبين ربه، وكل زواج لا يحترم هذه الزاوية يصل إلى الانفصال العاجل أو الآجل ولا عبرة بالاستثناء. لا يمكن فصل الدين عند المتدين في كل حالاته، فهو حاضر في كل شيء، بل حاضر حتى في حالة اللاشيء، يؤطر كل الحركات والسكنات خصوصا الإسلام، لذلك أمر عباده بتجنب وضع أنفسهم وغيرهم في وضع مؤلم دنيويا وأخرويا. إن المرحلة الأولى من الزواج المختلط عقديا يكون فيها التركيز على الحب والإعجاب، يريد الطرفان الاجتماع معا، البقاء معا، العيش معا، ولا يتم التركيز فيها على نقط الاختلاف التي أعتبرها أعمق مما يمكن تصوره. إن الفجوة الدينية لا يمكن تجاهلها إلا بملئها، وملؤها يكون بمعتقد واحد مسيطر، وآخر تابع، أو مختف في حالة تدين أحد الزوجين. لا يريد الله لعش الزوجية أن يكون مسرح حرب دينية، بل يريده مجال مودة ورحمة ووحدة عقدية، والكلام في هذا الأمر يطول لكن أكتفي اليوم بهذا الحد.

يُعد النهي القرآني عن الزواج المختلط دينياً (وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ...) رؤية إلهية لحماية الكيان الأسري، تتجاوز لحظة العشق والإعجاب لتُدرك العواقب المستقبلية العميقة.

1 - البعد الفلسفي (العقدي والقيمي):

منظور ما بعد العشق :فلسفياً، يُعلّم القرآن المؤمن أن الاعتقاد والقيمة العقدية ("المؤمن خير من المشرك") تفوق العاطفة العابرة ("ولو أعجبتكم"). هذا يمثل إرساءً لمبدأ أن الأسرة تُبنى على أساس عقدي وليس عاطفي محض، لأن الله يرى ما بعد العشق، بينما يرى البشر العشق فقط.

الفجوة الوجودية: يؤكد التأمل أن الفجوة الدينية لا يمكن تجاهلها، فهي تتحول إلى صراعات قيمية وأخلاقية وقانونية عميقة. الزواج المختلط لا يستمر إلا بشرط التخلي عن الدين جملة وتفصيلاً، مما يهدد وجود الأسرة كوحدة عقدية وكهف نفسي وروحي.

غاية المصير: يتم تذكير الطرفين بالغاية القصوى: "أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ"، مما يضع العلاقة ضمن إطار المصير الأخروي، وليس مجرد العلاقة الدنيوية.

2- البعد السيكولوجي (النفسي):

الإيمان ككهف نفسي: الإيمان هو "الكهف النفسي الروحي "ومنطقة الأمان الفردية والخاصة للمؤمن في حالتي الضعف والقوة. الزواج الذي لا يحترم هذه الزاوية يُعرِّض الشريكين (خاصة المتدين) لفقدان هذا المأمن، مما يقود إلى التيه النفسي أو الانفصال العاجل أو الآجل.

الانقلاب العاطفي :سيكولوجياً، يرى التأمل أن العشق الأول ينقلب مع مرور الزمن إلى "دمار لا يُبقي ولا يذر"، مع ظهور حالات هروب واكتئاب عميق.

صعوبة التنازل والارتداد: يعاني الشريك من صعوبة الاستمرار في تقديم التنازلات أو التحول الديني (الذي تم تحت ضغط العشق)، خاصة عندما يرتفع منسوب التدين لديه أو لدى شريكه بعد الزواج، مما يُلقي بثقله على العلاقة ويجعل الدين "أهم عنصر في حياة المؤمن."

3 - البعد البيداغوجي (التربوي):

حماية النشء: تربوياً، يُعتبر الزواج المختلط "حقل خصب لنمو الصراعات "التي تمنع الزوجين من الاتفاق على الدين الذي يجب أن ينتمي إليه أبناؤهما.

منهج التوجيه: يأمر الإسلام الأولياء بتوجيه الأطفال نحو "ركن شديد "(الإسلام)، لئلا يكبروا في "فراغ ديني أو إعاقة عقدية "تجعلهم في مهب رياح أي فكرة. هذا المنهج يرفض ترك الأبناء في حالة حياد عقدي (الفراغ).

إجمالاً: الزواج المختلط دينياً هو مشروع غير مستقر لأن أساسه العاطفي (الإعجاب) ينهار أمام الفجوة القيمية والعقدية التي لا يُمكن تجاهلها إلا على حساب الكيان الروحي والنفسي للأفراد ومصير الأبناء.

التأمل القرآني الخامس: سيكولوجيا الإفساد المنهجي: عمارة النفس في مواجهة تغول الباطل

(وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (188))

الآية 188 من سورة البقرة

إن أول ما يثير أي متأمل لهذه الآية هو موقعها بين الآيات، فقد جاءت مباشرة بعد آيات الصيام والرفث إلى النساء، وآية الاستفسار عن الأهلة، وتكاد خلايا دماغك لا تتوقف باحثة عن رابط بين قضايا تبدو متباينة، تتوسطها آية تبدو هي نفسها غريبة عن سياق ما تناوله عز وجل في ما سبقها ولحقها من الآيات، ومما جال في نفسي أن تموقع هذه الآية في وسط آيات تتحدث عن العبادات أنها تلامس موضوعا لا يمكن فصله عن العبادات، إن لم يكن لبها وجوهرها، فأي عبادة لا تنتج إنسانا متوازنا، سويا، صالحا، غير فاسد، ومفسد فهي مدخولة من جهة أدائها، وفهم مضمونها، ومقصد صاحبها، إن أكل أموال الناس بالباطل فساد كبير وعريض، لأنه سلوك يتأذى منه المجتمع كله كبيره، وصغيره، وبكل مؤسساته، وعلى كل مستوياته، وتتأذى منه كل القطاعات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية إضافة إلى إذاية النفوس وتدميرها. ولذلك فموقع الآية بين آيات تعبدية جعل من مضمونها مضمونا غاية في العمق، والواقعية، والأهمية، فمستحيل أن يكون الفاسد عابدا لله الآمر بالعبادات المتضمنة في الآيات السابقة واللاحقة.

إن الفاسدين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل منتشرون كالفطريات في كل القطاعات، ولكل قطاع فاسدوه، ومفسدوه، ولهم مدارس يعلمون فيها الفساد في كل القطاعات، والآية لا تتناول الفساد العرضي الذي قد يصدر عن إنسان ما في حالة ضعف وخطأ، بل تلامس بقوة الفساد المنهجي المتكرر، الفساد الهيكلي الذي تلبس بشخصية المفسد، وتلبس بسلوكاته القولية، والفعلية، بل تلبس بفكره، وقلبه، وعقله، حتى أصبح هو والفساد قرينين لا يفترقان. يتميز الجناة من المفسدين في عموم الآية أعلاه بكونهم نماذج أو قدوات سيئة في استغلال السلطة، واستثمارها للإثراء الفاسد، والمدمر للبشر، والشجر، والحجر. ورغم أن الفاسد ذكي في التحايل، لذلك يريد أن يبقى دائما في الظل، لأنه جبان، فإن سلوكاته تفضحه ولو عبر وسطائه، وكلما زادت تجربة، وحنكة الفاسد كلما طور أشكال الإخفاء والتمويه التي يستعملها لإبعاد الشبهات عنه، ولا تستبعدوا أن يكون أكبر فاسد هو أكبر متحدث عن الأخلاق، وأكبر مدافع عن الضعفاء، بل قد يذهب به خياله ووهمه إلى أن يكون من السباقين للصدقات، والصلوات، بل البكاء مع المساكين، والضعفاء.

إن ثقة الفاسد في ذكائه لا حدود لها، وسعيه للسمو بأشكال التمويه لا حد له. لا يلتزم بأية ضوابط أخلاقية، بل يستثمر الأخلاق لمزيد من الفساد، وما أكتبه في هذا الإطار عشته بعد رجوعي من المهجر دما، ولحما، وعظاما، فالظروف التي رجعت فيها جعلتني أكتشف في المجال الذي بدأت الاستثمار البسيط فيه فسادا بينا وظاهرا، فاجأني بل حول حياتي إلى جحيم، وأخافني من بلدي الذي عملت كل ما

في وسعي للرجوع إليه والعمل فيه، ولم يسبق لي أن كتبت عن تجربتي هذه، التي لم ولن أنساها أبدا، ولكن يوما ما سأفصل فيها. تكتشف وأنت تتعرض لضربات الفاسدين أن الإنسان الفاسد يتمتع بالحيلة، والعمق، والمرونة، والذكاء الكافي لاستغلال الغير، وأكل ماله، وتوريط غيره في سلسلة فساده، حكاما ومحكومين، يستثمر حيله في كل طريقة قانونية، وحلال للسطو الممنهج على مقدرات الناس، لا يراعي الله، ولا الأخلاق، ولا العقل، ران على قلبه وعقله، ولا تستغربوا أن يبدأ الفساد صغيرا، ويكبر مع صاحبه، فالفاسد الكبير حريص على تقديم المشورة لخلفائه في الفساد وتكوينهم ودفعهم للاجتهاد في تطوير منظومة الفساد، الفساد نسق عالي التركيب، يقول تعالى: "لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون"، نعم إنهم يعلمون كل جزئية مؤدية لأكل أموال الغير، ففسادهم عن علم، بحيث يصبح القانون جزءا منه، والدين جزءا منه، والصدقات، والزكاة، وأفعال الخير... كلها أدوات مشروعة لإتيان فعل سيء. لا تستغربوا أن تجدوا طرقا جديدة للاحتيال، وأكل أموال الناس بالباطل في وسائل التواصل الاجتماعي المعاصرة.... تشم رائحة الفساد من بذلة أنيقة، أو لحية طويلة، أو موسيقى مختارة بعناية، بل من خلال مقاطع للقرآن الكريم، وأقوال الفقهاء، والشيوخ التي يتم إخراجها عن سياقها، وتوظيفها للسطو، والتمويه، والوصول إلى جيوب الناس.

يمتد الفساد طولا وعرضا ويتجدد في مضامينه، وأدواته، وطرقه. إن الفساد يثري نفسه، وينمي ثروته بنفسه مستعينا بكل مستجدات العصر. لا يمكننا التغلب على فساد مركب إلا ببناء نظام قيمي داخلي نسقي في الأفراد، هذا النظام القيمي نظام داخلي يؤثث جوانية الفرد، ويمنعه ذاتيا من استثمار جهده في الفساد، وأكل أموال الناس، ويرفع لديه منسوب مقاومة إغراءات الفاسدين، أما الضوابط، والقوانين، والشروط التي تفرض من خارج الذات فهي دائما معرضة للتجاوز وعدم الاحترام، لأن الإيمان بجدواها مفقود، ولأن البناء الداخلي للفاسد مثقوب ومدخول، أو أنه بناء شديد قوي متماسك، لأن نسقه الداخلي مكون من قيم فاسدة لكنها شكلت بنية نفسية، وسلوكية متماسكة، ومقاومة للصلاح والإصلاح. إن قيم الفاسد هي الثروة، هي السلطة، هي الصلاح بدلالته عنده هو، هي القوة بمفهومها عنده هو، هي العلم بمفهومه عنده هو، ..... لقد ملأ القيم بمضامين ودلالات قلبتها رأسا على عقب، فالفساد صلاح، والفساد يبرر الفساد؛ والأصل بقاء الأمر الفاسد فاسدا كائنا ما كان؛ والفاسد بالفعل ليس فاسدا بالقول؛ وكل مفسد مصلح وإن ثبت فساده؛ والأصل في الأفعال السعي إلى الفساد، والابتعاد عن الصلاح لأنه مضر؛ وكل أمر ظهر صلاحه وجب إفساده؛ والعلة من الوجود هي دوام الفساد، ومصالح الفاسد فوق مصالح الناس، والناس متفاوتة في الأوامر الفاسدة حسب درجة القرب من الفاسد الأعظم؛ والمشرع ليس هو العقل، ولا النقل، ولا القانون، ولا المجتمع. إن المشرع الأوحد هو الفاسد الأعظم. لهذا كله أرى أن الآية أعلاه حكيمة في مضمونها، حكيمة في مكانها، حكيمة في صياغتها.... فسياق العبادات الذي وردت فيه يكتسح مجمل مجالات الحياة، ويمكن لمن أراد التعمق أكثر أن ينعم الله عليه بمزيد من العمق الذي لم تصله هذه المحاولة. حفظكم الله من الفساد والمفسدين.

يُعتبر الفساد المالي، كما ورد في الآية (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ)، نسقاً هيكلياً مركباً يمثل النقيض الجوهري للعبادة الحقيقية، ويتطلب مقاومة شاملة تبدأ من البناء الداخلي للفرد.

1 - البعد الفلسفي (الوجودي والعقدي):

الفساد كنقيض للعبادة: فلسفياً، يُشير موقع الآية ضمن سياق العبادات إلى أن الفساد المالي هو لب العبادات وجوهرها؛ فاستحالة أن يكون الفاسد عابداً حقيقياً. أي عبادة لا تنتج إنساناً صالحاً فهي "مدخولة."

قلب القيم وتأليه الفاسد: يمثل الفساد نسقاً عقدياً يقوم على قلب القيم رأساً على عقب (كالادعاء بأن الفساد صلاح)، حيث يتم استثمار القانون والدين كأدوات للسطو. وهذا النسق يضع "الفاسد الأعظم" كالمشرّع الأوحد، مما يؤكد أن الفساد منهج عن علم.

2 - البعد السيكولوجي (النفسي):

الكتلة النفسية للفاسد: يتسم الفاسد بذكاء عالٍ، وحنكة، ومرونة سيكولوجية في التحايل، مدعومة بثقة لا حدود لها في ذكائه، ويسعى للتمويه بأساليب متطورة (كالتظاهر بالأخلاق والتدين).

النسق الداخلي المقاوم للصلاح: يمتلك الفاسد بناءً نفسياً متماسكاً، لكنه مُشَكّل من قيم فاسدة متأصلة، تجعله مُقاوماً للصلاح والإصلاح، وتجعل الضوابط الخارجية غير ذات جدوى أمامه، لأنه يرى الفساد كنظام متكامل يبرر ذاته.

3 - البعد البيداغوجي (التربوي):

الحل البيداغوجي الجذري: الحل الجذري للتغلب على هذا الفساد المركب يكمن في بناء نظام قيمي داخلي نسقي في الأفراد. هذا النظام الداخلي هو الذي يرفع منسوب المقاومة الذاتية لإغراءات الفساد ويمنع الشخص من استثمار جهده فيه.

الفشل التربوي للقوانين الخارجية: الضوابط والقوانين المفروضة من خارج الذات تفشل في مواجهة الفساد المنهجي، لأن البناء الداخلي للفاسد إما مثقوب أو مبني على قيم مضادة.

تعليم الفساد: يتأكد أن الفساد ظاهرة بيداغوجية سلبية؛ فالفاسدون يُكوّنون خلفاءهم في الفساد ويدفعونهم للاجتهاد في تطوير منظومته.

إجمالاً: الفساد المالي هو تلبس منهجي بالأهواء والباطل عن علم، ولا يمكن مكافحته بنجاح إلا بالعودة إلى جوهر العبادات وتأسيس نظام قيمي داخلي متماسك لدى الأفراد.

تأملات في قيم الإسلام

التأمل القرآني الأول: التأمل القرآني الأول: التواضع أعزما يطلب كشجاعة وجودية ضد وهم التأله

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (79))

الآية 79 من سورة آل عمران

لا يمكن للعلم أن يجتمع مع التكبر، ولا يمكن للعالم إلا أن يكون متواضعا، ومن تشم فيه رائحة التكبر ففيه كثير من الجهل. قد يورث العلم العلو والتعالي والانتفاخ، والآية أعلاه توضح أن العلم والحكم يمكن أن يدفعا بعض البشر إلى الاعتقاد بالتفرد الذي قد يوصل صاحبه إلى محاولة استعباد الناس والاحساس بالتأله، ولقد ابتلينا في هذا العصر خصوصا في وسائل التواصل الاجتماعي بنوع من المخلوقات التي ترى الكل جاهلا وتدعو الكل إلى اتباع جهالاتها التي تعتقد في كونها علما رصينا. لا يمكن للجاهل أن يكون متواضعا لأن فضيلة التواضع نتيجة حتمية للعلم، التواضع في أصله طريق للعظمة لا العكس، والتكبر طريق يقيني للسقوط، النفوس المتواضعة نفوس تحمل بين جنبيها روحا قوية ونظيفة وبانية، يأتيها مددها من جوهرها لا من خارجها، المتواضع إنسان يسكنه الحياء من العلم والعلماء، لأنه يمارس التأمل الذاتي في النفس، والموضوع والآخر المختلف، أو المخالف مما يورثه أمنا، وأمانا، وتوازنا داخليا، أما الجاهل المنفوخ فلا حياء له، ولا أمل يسكنه، يعيش في صراع داخلي مع نفسه التي يريد أن يثبت لها أنه المتفوق الأوحد الوحيد، لكن ردود فعل الناس تجعله يعيش الانتكاسات اليومية الدائمة مما يجعل دواخله تهتز في كل لحظة وحين، لأنه يحمل بين جنبيه روحا نزاعة للصراع البليد.

لا يمكن للنبي أن يدعي الربوبية، كما لا يمكن للعالم أن يفعل ذلك، لعلمه اليقيني أن ما عنده قليل، بل مكتسب ومطروح أمام غيره ليكتسبه بل ليتجاوزه، التواضع بهذا المعنى يعزز التفاعل الإيجابي مع المحيط، كما يعزز البناء النسقي لنفس المتواضع، وفي انفتاحه هذا يتقوى، ويتمدد، ويستوعب، ويجدد عكس الفارغ المنفوخ، الذي يضعف، وينكمش، وينعزل. إن التواضع باعتباره فضيلة عليا يعني الاعتراف بالحاجة إلى الله ومنته، والانتفاخ تعال على صاحب النعمة، وهو تعال فيه خسة بل كل الخسة. إن التأمل في الآية أعلاه يقودنا إلى إعادة اكتشاف هذه القيمة أو الفضيلة العليا، فالملك، والحكمة، والعلم مصادر تحمل في دواخلها خطر الاعتقاد في كون حاملها هو مصدرها، وما هي في الحقيقة إلا نعمة ربانية قد تزول في أية لحظة نتيجة أي ظرف مادي أو معنوي، بل تنتهي باختفائك من الوجود، وكيف لمنقرض أن يتكبر، كيف لمن يطارده الموت أن ينتفخ! عجيب أمر المنتفخين.

أعتقد أنه لكي تكون متواضعا يجب أن تكون شجاعا مقتحما لحومة الفضائل، والاعتراف بالنقص، والقصور، أما الجهل فهو موجود في كل مخلوق، والمتكبر جبان في مجال اقتحام الفضائل، ومجتهد في مجال اقتحام الرذائل، رغم أن وجوده ذاهب إلى النهاية ظنا لا شك فيه. يحمل المنتفخ تقديرا

عاليا لذاته يحول بينه، وبين التعلم والاستزادة من الفضائل، وتقديره لذاته مرضي لدرجة أنه أصابه في صحته العقلية، إذ دفعه إلى الغرور، والعدوان على النفس والآخر. فالانتفاخ ظلام أصاب النفس في عمقها، وجعلها عمياء لا تبصر حدودها كما أنه حدد لها غاية وجودها في اعتناق التشوهات الفكرية، والسلوكية، واعتبارها محسنات ومجملات، إنها "أنا" مضطربة الموازين لأنها تريد الحلول مكان الخالق. ولا أستبعد أن تكون هذه النفوس أكثر النفوس خوفا من المرض، والضعف، وأكثر رهابا من الموت. وعليه، فإن النفوس التي يؤثثها التواضع تكون أكثر النفوس استقرارا، ورؤيتها ناضجة، وعميقة، وواضحة لذاتها، وللآخرين، وللوجود برمته، بل حتى للعالم الآخر. بل لا أستبعد أن يُقبل المتواضع على الله وهو على فراش الموت مبتسما لقناعته أنه ذاهب عند من منحه أدوات الفخر والانتفاخ، وحافظ رغم ذلك على مكانته كإنسان مخلوق، وعلى مكانة ربه كإله خالق. ألا ترون معي أنه لا معنى لحياتنا الدنيوية القصيرة إذا قضيناها في الانتفاخ، والتكبر على الناس، وإدخال التعاسة عليهم؟ وأنها تحمل كل المعاني إذا قضيناها في خفض الجناح لغيرنا، والتواضع أمامه، وإدخال السعادة عليه؟ إن التواضع بهذا المعنى فضيلة اجتماعية إضافة إلى كونه قيمة دينية، وسلاح سيكولوجي. قال تعالى: "وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُم تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُم تَدۡرُسُونَ". سورة آل عمران:60.

التواضع، في ضوء الآية الكريمة (كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ)، ليس مجرد سلوك اجتماعي، بل هو نتيجة فلسفية حتمية للعلم الحقيقي ودليل على غياب الجهل، حيث لا يمكن للعلم أن يجتمع مع التكبر. فلسفياً، يمثل التواضع اعترافاً بالحاجة الوجودية إلى الله ومنّته، وإدراكاً لقصور الذات البشرية وزوال الملك والحكمة، مما يحصن العالم من خطر الانتفاخ ومحاولة التأله أو استعباد الناس. وهو بذلك يعزز الهدف الوجودي للمؤمن بأن يكون "ربانياً.

سيكولوجياً، تعيش النفوس المتواضعة حالة من التوازن الداخلي والأمن والأمان؛ لأنها تمارس التأمل الذاتي، وتحمل روحاً قوية وشجاعة في اقتحام الفضائل والاعتراف بالنقص. على النقيض، يعيش المتكبر (المنتفخ) صراعاً داخلياً مزمناً وقلقاً وجودياً وخوفاً من الضعف والموت، لأنه يحمل تقديراً مرضياً لذاته ويُعد جباناً في مواجهة الفضائل .

بيداغوجياً، يمثل التواضع آلية أساسية للتعلم والتجديد؛ لأنه يعزز التفاعل الإيجابي ويسهل البناء النسقي للنفس من خلال الاستيعاب والانفتاح على الآخر، بينما يُعد التكبر عائقاً بيداغوجياً يمنع صاحبه من الاستزادة من العلم، في حين يُسهم التواضع كفضيلة اجتماعية في خفض الجناح وإدخال السعادة على الآخرين، مما يمنح الحياة القصيرة معنى حقيقياً.

التأمل القرآني الثاني: »بيان الاستغناء والاعتزاز

(كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (2))

الآية 2 من سورة الأعراف

ندين بالإسلام بكل اعتزاز وافتخار، بل ونفتخر به كموجه للحياة، ولا نجد فيه ما يجعلنا نتحرج من القول بأننا مسلمون مؤمنون، وندافع عن ديننا بأريحية واعتزاز، معتقدين عميق اعتقاد بأننا نملك كل القيم النبيلة، والقوانين الواضحة مع وجود مساحات شاسعة للاجتهاد في التشريع والتدبير، بل نملك فن العيش الذي لا يملكه غيرنا، وإن ملك غيره. يسلم المؤمن أمره لربه راضيا، ومفتخرا، بل ومنتشيا بكونه مؤمنا ملتزما حسب استطاعته بضوابط دينه، ليس لدينا ما نخفيه، ولا ما نغيره، ولا ما نُزَوِّرُه ليرضى علينا غيرنا، بل إن كتابنا واضح لغة ومضمونا، ومترجم لكل اللغات، ولا عقدة لديه من المخالف، ولو كان كافرا، كما أنه لا خوف عنده من غيره. نعتقد جازمين أننا أصحاب مشروع حضاري لا يكره أحدا على اعتناقه، ولا يسمح لأحد بإفساد عقيدة من اعتنقوه باقتحام حومته بالتدليس، والجهالات المختلفة، متسلحا بالكذب والافتراء. إن قيمنا كونية بل أفضل بكثير مما وصلت إليه الإنسانية حتى الآن، بل أكاد أقولها بوضوح الإسلام في جوهره وقيمه في الثريا، أما منتوج البشر فلازال جد متخلف. إن الإسلام هبة ربانية لمن آمن به وسار على نهجه، لأنه يحتضنك في حالة قوتك، وضعفك، وهوانك، وفقرك، وغناك، في حالة مرضك وصحتك، وفي حالة علمك وجهلك، أينما كنت وفي أي مستوى كنت، تجد أن لك مكانا واضحا، وقيما عليك الالتزام بها، وواجبات عليك معانقتها...

لا يعرف معتنق الإسلام مجالا فارغا ولا يتركه الإسلام تائها من أبسط إنسان إلى أعلى مفكر، والشرف الأعظم لا أن تفتخر بالانتماء إليه، بل أن تكون ممن يشرحه لغيره، وينافح عنه، ويرفع عنه جهالات الجاهلين اختيارا، فلا أحد يحسن الدفاع عن معتقده أكثر ممن وجد راحة نفسه فيه، وذاق حلاوته. العزة لله، والعزة لرسول الله، والعزة للمؤمنين دائما وأبدا. ليس هناك ما يجعل المؤمن يتحرج من دينه، ولا من الافتخار بدينه، لأنه يحمل فكر ناضجا، واضحا، ومكشوفا للجميع، وليس فيه، ولا رهبانية، ولا قداسة لأحد، الكل متساوون أمام رب الأرباب. لذلك انظروا في عيون الآخرين نظرة اعتزاز يشع نورا، وتفهما، وانفتاحا، وسيتصاغر أمام فهومكم، وحركاتكم، وعمق تفكيركم كل جهالات الجاهلين، فتركيزنا على دواخلنا ونظرتنا لأنفسنا التي تتسم بالواقعية، معترفين بضعفنا، وتقصيرنا، وأخطائنا، وصوابنا، وقوتنا... يجعلنا في مأمن من كل عقد التفوق وعقد النقص، فنحن المسلمون مخلوقات وسطية، نرتدي لباس الإيمان الذي يناسبنا ويسعدنا، والفجوة بين واقعنا ومعتقدنا تكبر وتصغر بحسب عمق قربنا، أو بعدنا منه. أخطاؤنا بل كبائرنا لا تبعدنا عن ربنا، وتنهي علاقتنا به، بل بالعكس تماما يفتح بابه لكل تائب، أواب، مؤسسا رؤيته هذه على مفهوم أنثربولوجي خاص للإنسان، ذاك الكائن المزدوج الماهية والسلوك والعواطف والأفكار... فلا يختزله في جانب على حساب الجانب الآخر، إذ أن للإسلام بيداغوجية مرنة

تتحول معك حسب السن، والعلم، والسلوك، والحالة، والقدرة... بيداغوجية غاية في المرونة العميقة والدقيقة، فأنت في حالة الضعف أمام مغفرة الله، وفي حال القوة أمام عدل الله....، معاييرنا نبيلة لكنها دقيقة وعميقة، وتتكون من مصفوفات قيمية أخلاقية لازلنا لم نفهما على عمقها، ومرونتها، وديناميتها. لا نتحرج من ديننا، وإن تحرج بعضنا فلفهم مدخول، أو وضع مأزوم، أو...

لا يريد الله منا التحرج لأنه شعور يعيق حركتنا الداخلية المؤدية إلى سلوكاتنا الخارجية، لأنه مطلوب منا أن نشعر بالذنب، لتبقى ضمائرنا حية خصوصا في ما يهمنا، ويؤثر على نمو إيماننا وتطوره، لكن هذا الأمر لا يجب أن يجعلنا نتحرج من ديننا فقط، لأننا أخطأنا ولم نكن حسب اعتقادنا في مستوى أداء الواجب، وهذا الاعتقاد نفسه وهم، لا وهم بعده، لأن ديننا يصرح بالكلمات الواضحة التي لا تحتاج لتفسير بأن الإنسان خلق ضعيفا، وبأن الإنسان خطاء، .... فكيف تخفى على المؤمن موضوعية وواقعية الإسلام، ويعتنق مكانها مثالية العبد، أو أوهامه، ويجعلها تتحكم في نظرته لدينه. إن الإسلام واقعي في أعلى درجات الواقعية، وبعض أهله مثاليون مثالية غارقة في الوهم. أنت هو أنت بضعفك وقوتك، هكذا خلقك الله، فسر بهذه الإزدواجية سيرا حثيثا إلى ربك، وليكن هدفك تغليب جانب الإيجابية والصلاح على الأخطاء، والهفوات التي ستلاقي بها ربك، ولا تظن أبدا أنك ملاك أو نبي، بل إنسان بثنائية الضعف والقوة. لا يريدنا ربنا أن نقاتل أنفسنا، أو نهدمها وندمرها، بل يريدنا فقط أن نقودها بذكاء إلى بر السلامة في الدين والدنيا، يريد منا أن تكون سلوكاتنا عقلانية مستحضرة بعد الخير والشر، والظلم والعدل و...

يريد الله منا كفاحا من أجل بلوغ أعلى درجة ممكنة لكل واحد منا في مكارم الأخلاق، التي لا تعني غياب الهفوات والأخطاء. لا يريد منا ربنا إدانة أنفسنا والعيش بعقد الذنب، فأخطاؤنا جزء منا وليس هي نحن، كما أنه لا يجب علينا اختزال الآخرين فقط في أخطائهم. لا تتعجبوا من كون الإسلام يعترف بالخطأ، ويجعله جزءا من هوية وكينونة الإنسان، والسبب هو أن الصواب لا يعرف إلا بالخطأ، والعدل لا يعرف إلا بالظلم... وفقط بمعايشتنا للحالتين المتناقضتين، وتذوق حلاوة العدل مثلا، ومرارة الظلم نرتقي إلى الإنسانية. تحيي الجوانب السلبية من أفعالنا الجوانب الإنسانية فينا، وتطورها، وهذا أهم دور وجب الانتباه إليه، ودعك ممن يعتقد أن الكون كله ظلم، أو كله عدل و.... هؤلاء لازالوا في بداية النظر في الوجود، والموجود، وواجدهما. احملوا دينكم بين صدوركم، وعقولكم، وأيديكم، ولا تتحرجوا من الإفصاح عن دينكم، وتمثيله والدفاع عنه، فكل ما تواجهونه من تحديات أضعف من بيت العنكبوت أخلاقيا وقيميا، وإن كان أقوى مرحليا في إمكاناته المادية، ومحال أن يدوم فساد وهوان أخلاقي.

يُعد الأمر الإلهي بنبذ "الحرج" من الإسلام إرساءً لفلسفة وجودية تقوم على العزة والواقعية المطلقة، مُنطلِقةً من أن الإسلام هو هبة ربانية ومشروع حضاري متفوق قِيَمياً .فلسفياً، يمنح الإسلام المؤمن العزة الكونية التي تضع تعاليمه كمرجعية قصوى، رافضاً أي شعور بالتحرج من الدين أو تزويره لإرضاء الآخر، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .وتُبنى هذه العزة على رؤية أنثروبولوجية واقعية تعترف بأن الإنسان كائن مزدوج الماهية والسلوك (القوة والضعف، الخطأ والصواب)، ولا يختزله في مثالية وهمية، بل يحتضنه في ازدواجيته.

سيكولوجياً، هذا الاعتراف بواقعية الضعف البشري يؤسس لتوازن نفسي فريد؛ فالمؤمن، بوعيه لخطئه وصوابه، يتحرر من عقدة التفوق وعقدة النقص معاً، ويصبح كائناً وسطياً .وفي الوقت نفسه، يُرفض أي شعور بالتحرج من الدين، لأنه يعيق الحركة الداخلية، بينما يُطلب فقط شعور بالذنب لتبقى الضمائر حية، ويُفتح باب المغفرة لكل تائب لتجنب إدانة النفس والعيش بعقد الذنب المدمر، مؤكداً أن الخطأ "جزء منا وليس هو نحن".

بيداغوجياً، يقدم الإسلام "بيداغوجية مرنة وعميقة "تتحول مع المؤمن حسب حالته وقدرته (الضعف أمام المغفرة والقوة أمام العدل)، وتستهدف قيادة النفس بذكاء إلى بر السلامة. وتدعو هذه البيداغوجيا إلى الكفاح من أجل بلوغ أعلى درجات مكارم الأخلاق، حيث لا يعني ذلك غياب الهفوات، بل تغليب جانب الصلاح والإيجابية .هذا الإطار التربوي يمنح المؤمن القوة اللازمة للدفاع عن دينه، مدركاً أن التحديات القيمية المعاصرة أضعف من بيت العنكبوت أخلاقياً، وأن فسادها محال أن يدوم.

التأمل القرآني الثالث: الحب الموصول والحب المفصول

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ (113)وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ (114)وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ (115))

الآيات من 113 إلى 115 من سورة التوبة

أعتقد أن هذه الآيات وغيرها، تدفع المؤمن إلى دخول عالم التحدي العاطفي دخولا لا مثيل له، إذ تضعه أمام أنواع من الحب، وتفاضل بينها تفاضلا واضحا لا لبس فيه، تريد من المؤمن أن يميز عاطفيا على الأقل بين نوعين من الحب، أسمي الأول الحب الموصول، والثاني الحب المفصول. الأول موصول إلى يوم الدين، والثاني كان متصلا وانفصل في مرحلة ما، لكن بقيت العلاقات المنسوجة وفقه علاقات فيها وصل بيولوجي، أو عائلي، أو عرفي، أو قبلي .... لكن ليس فيها وصل عاطفي. ولا ينتقل الحب الموصول إلى حب مفصول إلا بعد بيان التمايزات ووضوحها، قال تعالى: "**فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه**"، سورة التوبة: 205، بقيت العلاقة البيولوجية قائمة لكنها لا تكفي لتطور حبا على منوال الحب العقدي، لا يكفي أن تكون قريبا لي، أو صديقا، أو صاحبا لكي أساويك في درجة الحب مع ربي، وعباده الصالحين، لا يمكن أن أتبعك، ولا أن أعتنق أفكارك، وأنت عدو لله بشكل واضح، لم يعد فيك ما ينفع قرابتنا، ولا صداقتنا، ولا أخوتنا. وعليه، سينفصل حبنا، ويصبح مفصولا بعدما كان موصولا. إنه نوع من التحدي الذي يدفع المؤمن إلى اتخاذ قرار عدم الانخراط في علاقة عميقة مع عدو لله، لأن العداء لله معناه العداء لكل ما يسر المؤمن، لكل إطاره التوجيهي، لكل أعماله، وأفكاره المنبثقة من عمق معتقده، إذ لا نستطيع أن نفصل أنفسنا عن معتقداتنا ولو ادعينا ذلك.

لا يريد الله منا أن ننشغل بالتبريرات لهؤلاء الأعداء الصريحين البين عداؤهم، لا يريدنا مقاومة حبنا لربنا بغاية إرضاء أعدائه، يريدنا واضحين مع حفظ العلاقة الإنسانية معهم وأن نقول لهم بوضوح: لكم دينكم ولنا ديننا. لا يتعلق الأمر هنا بالمخالفين لنا، بل بالأعداء الصريحين، أعداء اتخذوا من محاربة الإسلام مشروعهم وهدفهم، يمارسون كل أنواع الخداع والتضليل، يريدنا الله أن نتسلح بحبه، وحب المؤمنين ضد شر الأعداء الصريحين، لا شيء في الوجود يقوينا ضد الأشرار من حب الله والأخيار. لا يعرف الإسلام رهبانية المسيحيين أي لا يتبنى قولهم: من ضربك على خدك الأيمن أدر له خد الأيسر، بل يقول لنا بوضوح: السن بالسن إلا أن نعفو، يعني أن نحافظ على عزتنا، لا علوا، ولا فسادا بل لأننا عباد الله، ولا يجوز لمن جعل الله له وليا أن يرضى بالذلة، فذلة المؤمن تحيل ضمنيا على أن معبوده أقل شأنا من آلهتهم. يركز الله في الآية أعلاه على البعد العاطفي، لأنه أقوى وأشد من البعد العقلاني المنطقي، والمعرفي، فعندما نغير عاطفتنا تجاه أي شخص أو فكرة أو شيء... تتغير سلوكاتنا تجاهه. فالمدخل الوجداني هو المحدد لكل شيء، بل إن العقل يتوقف عن التفكير إذا اختل التوازن الوجداني، وقد يدخل في هلوسات لا

نهاية لها. وفي الوقت نفسه لا يريد منا الله أن نطور مشاعر الكره والاستعلاء، فقد قال عز وجل وقوله الحق: "وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ". سورة لقمان: 15. إنه الذكاء العاطفي الذي على المؤمن أن يكتسبه، والذي لا يأتي سهلا بدون معاناة.

يريدنا الله أن نفهم عدو الله ونتواصل معه، لكن لا يرقى فهمنا معه إلى تفهم موقفه العدائي من ديننا، فكما كانت له الجرأة في عدائه، يجب أن تكون للمؤمن الجرأة في البعد عنه وعدم تفهمه، والتصريح له بأن علاقتنا معه في حدود الواجب الإنساني، ولا تتعدى ذلك إلى حب موصول. لكن ما معنى: "فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه"؟ تتضمن الآية مصطلحا مركزيا هو : تبين، أي بعد سيرورة متواصلة من الحوارات والمتابعات، والتصريحات، والاعترافات، والمجادلات، وبعد أن اكتشف المؤمن بشكل جلي أن قريبه في الدم، أو الأخوة، أو الصداقة، أو التخصص، أو اللغة، أو القبيلة، أو المدينة، أو التجارة، أو المهنة، أو اللون، أو السن... واضح العداء وأنه ماكر مكرا الأعداء، وأنه يستعمل كل وسائل الأعداء للنيل من دينه، وأنه بدا على حقيقته، وإن استعمل كل الأقنعة الممكنة للتلبيس، والتدليس، ومهاجمة دينه، هنا ليس أمام المؤمن إن كان وفيا لدينه، إلا أن يقول لصاحبه هذا ولمن يشبهه، هذا فراق بيني وبينك عاطفيا، فحبي مشروط باحترام ديني، وعقيدتي، وإلا فإنك بالنسبة لي شيء من الأشياء التي أمرني ربي بوضعها في مكانها الذي تستحقه.

ليست أمتنا الأمة التي تحب الأعداء، بل لسنا الأمة التي تريد الأعداء، وإن هم عادوها تركتهم وقالت لهم: سلاما. وسيعيشون في سلام ما لم يتحول عداؤهم إلى حرب علينا، فالإسلام وفرض السلام على المستوى المجهري، والأوسط، والأكبر لا يفترقان، فقط كن عدوا محترما، ولا تتجاوز حدود الاحترام، فالذكاء العاطفي لأعداء الإسلام فيه جانب أسود وجب الانتباه إليه، وأهمه تسلحهم بأسلحة براقة مثل الحرية، والعدالة، والأخوة، والتطوير، والتسامح، والديمقراطية و.... لذلك تجد خطاباتهم غارقة في الإيجابيات المظلمة، والسلبيات المنيرة، والعدالة الظالمة، والتسامح المعتدي، والديموقراطية الإقصائية، والعلمانية الدينية، والحرية الاستعبادية.... ظاهر الكلام شيء، وباطنه ضده بالتمام والكمال، ولا يلتبس هذا إلا على عاطفي مهزوز، أو جاهل مغرور، أو حسن النية المتبلد... أما من خبر هؤلاء فلا يتردد في أن يقول لهم: "وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ". سورة يونس: 41.

يُعد نهي القرآن عن الاستغفار للأعداء (كما في قصة إبراهيم) دعوة لتأسيس فلسفة وجودية تقوم على التفاضل العاطفي المشروط بالعقيدة، وليس بالقرابة أو الصداقة .فلسفياً، يؤكد هذا المبدأ أن "الحب الموصول "الحقيقي يكون مشروطاً بالولاء لله، وأن الحب البيولوجي (الحب المفصول) لا يمكن أن يساويه في الدرجة. وهذا يفرض على المؤمن اتخاذ قرار التبرؤ العاطفي بعدما "يتبين" له العداء بوضوح

(سيرورة التبين)، وهو قرار وجودي يضع الاعتقاد والقيمة العقدية فوق العاطفة العابرة، حفاظاً على العزة.

سيكولوجياً، يركز الإسلام على "المدخل الوجداني" كأقوى محدد للسلوك، ويأمر المؤمن باكتساب "الذكاء العاطفي"؛ ليتمكن من الفصل العاطفي دون الوقوع في الكراهية، وفي الوقت نفسه دون "تفهم الموقف العدائي" أو الانخراط في علاقة عميقة مع عدو صريح. هذا الذكاء العاطفي هو ما يمنح المؤمن الجرأة النفسية على إعلان الفصل، ويحميه من الذلة التي تحيل على نقص معبوده.

بيداغوجياً، هذا المنهج يفرض على المؤمن الوعي والتمييز بين المخالفين والأعداء الصريحين، والتحصن ضد "الإيجابيات المظلمة (كالحرية المعتدية أو العدالة الظالمة) التي يتسلح بها الأعداء للتلبيس والتدليس. ويعلّم الإسلام أن التعامل مع العدو يجب أن يقتصر على الواجب الإنساني في حدود الاحترام، مع التذكير بأن السلام في الإسلام مشروط بعبارة". فقل لي عملي ولكم عملكم".

التأمل القرآني الرابع: الحرية كصفة إلهية مطلقة وكأمانة إنسانية مسؤولة

(لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ (23))

الآية 23 من سورة الأنبياء

هذه الآية من أعظم ما يشد انتباهي في كلمات الله، إذ أنها تؤكد بأريحية مطلقة أن الحرية صفة ربانية مطلقة، وأنها عندما تتعلق بالإنسان تصبح صفة محدودة بحدود السؤال الرباني عن مقتضيات ممارستها في الحياة اليومية، إنها حرية خالصة لله تعالى، وغيره مسئول مسؤولية محققة عن كيفية ممارسته لقيمة الحرية، ومن أراد التلبس بالحرية الإلهية المطلقة وقع في الاستبداد، لأنه غير مؤهل ليكون ربا مطلقا، إذ الألوهية والربوبية صفتان مطلقتان مكتملتان يختص بهما الله عز وجل، أما غيره فمستحيلة في حقه لعدم إلمامه بجزئيات وكليات أفعاله، ومقتضياتها، وقديمها، وجديدها، ومستقبلها... ولا تستغربوا أن مجرد تفكير أي إنسان في أن يكون حرا مطلقا يوقعه في ممارسة التأله غير المستحق والمنتج للظلم المؤكد، لذلك فالعظمة والعلو وممارسة السيادة بناء على التلبس بالحرية على منوال حرية الله، يوصل البشر إلى أن ينزع عنهم غيرهم من بني البشر هذه الحرية بإطلاقها، ويقاومون تسيدهم بكل أشكال المقاومة التي توصلهم إلى مراجعة تسيدهم، أو التنازل عنه، أو الموت دون تحقيقه. لا يسمح بنو البشر بتسيد البشر عليهم أبدا، ولا يقبلون سطوتهم. ولا يرضى البشر بأن يستعبدهم غيرهم من البشر.

إن ممارسة الحرية بين بني البشر تحتاج دائما إلى الضوابط، والقواعد، والمعايير، التي لها أصل هو الرب الكريم، ومن لطائف هذه الآية الكريمة أنها تحيل على لطيفة مفادها أن الله فوق السؤال، لأنه هو العدل نفسه، هو الصواب المطلق، وهذه من أهم الصفات التي تجعل المؤمنين يحسون بأريحية واطمئنان في حكم الله بين الناس، في عدالة الله الأخروية، في مطلق إنصاف الله لمجموع البشرية أفرادا، وجماعات على اختلاف ثقافاتها، وأنواعها، وأفعالها. إن الظلم الذي يبدو لهم ظلما في الدنيا يرونه بكل تقبل ظلما عابرا باتجاه قصاص أخروي عادل ومستحق، بحيث لا يشكون في عدل الله إطلاقا. وقد تبدو حقيقة أن الله فوق المساءلة أمرا إشكاليا بل قد يظن البعض أنه مادام الله يفعل ما يشاء، فلماذا يترك الشر في الوجود؟ بالله عليكم هل تستقيم فكرة انعدام الشر مع تحمل المسؤولية التي هي مناط وجود الإنسان فوق الأرض، وتحمله للأمانة؟ لقد تحمل الإنسان الأمانة وتحمل تبعاتها التدبيرية والأخلاقية، وعليه، فسيتحمل تبعات ممارسته لحريته ضمن إطار المسؤولية المنوطة بتحمل الأمانة، والشر كما الخير بكل أنواعهما جزء من التحديات التي رشح الإنسان نفسه ليتحملها بمحض إرادته في الملكوت الأعلى قال تعالى: " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا "، سورة الأحزاب: 72. إن مثل هذا الفهم للمسؤولية له بالتأكيد أبعاد مختلفة وأولها أن أول قيمة على المسلمين الاهتمام بها هي المسؤولية، لأنها تقع على رأس سلم القيم التي نزلت مع الإنسان من السماء.

وبناء عليه، فالتربية على أداء الواجب تجاه المخلوقات ورب المخلوقات، هو أمانته، هو مسؤوليته، ولا يمكن لأية قيمة أخرى أن تسمو عليها من وجهة نظري المتواضعة. يبدو أن الأصل في التربية في الإسلام ينطلق من تعليم وتنمية حس المسؤولية، وليس السعي لمختلف أنواع المتع التي تختزل الناس فيما اختزلهم فيه الفكر الغربي من طلب الاستمتاع، والذي لا يعدو أن يكون استمتاعا لا يفارق الجسد إلا ليعود إليه، بل استمتاعا يمكن من أجله التخلي عن أي مسؤولية تجاه الغير، إن كان يقف أمام تحقيق هذا الاستمتاع. تمنحنا فكرة أن الله لا يسأله أحد، وهو يسأل الكل، أننا سواء أمام الله في السؤال، فكلنا سنسأل، وكوننا محل سؤال يعني أننا صانعو أفعالنا، ولأننا نعيش في مجتمعات لا يتحقق فيها تحمل المسؤولية إلا في إطار التفاعل المولد للتناقضات، والمنشئ للأذى البيني، والناتج عن ممارسة حرية الفعل، فإن تعلم كيفية التصرف الأنسب في إطار المجتمع يعد كذلك من موجبات تحمل المسؤولية. إن مثل هذه التقريرات الربانية من مثل قوله عز وجل: «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون"، سورة الأنبياء:23. تقتضي منا إعمال عقولنا في فهم مكنونها لا الحكم عليها قبل بناء التصور حولها. من حق الإنسان أن يفهم لماذا نتحمل المسؤولية، ومن حقه طرح السؤال المؤدي لتعميق الفكر، لكن لن يفيده في شيء وضع نفسه مكان الله ليقول له لم هذا ولم ذاك؟ حق الفهم محفوظ، وحق التحكم مرفوض، لأنه لا ينشئ معرفة ولا فهما.

يُعدّ التقرير الإلهي (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) إرساءً لفلسفة وجودية تضع الحرية المطلقة كصفة ربانية خالصة، بينما تُقيّد الحرية الإنسانية بالمسؤولية التي هي أصل وجود الإنسان وقيمة القيم . فلسفياً، يؤكد هذا التفاضل على أن محاولة الإنسان التلبس بالحرية الإلهية المطلقة تؤدي حتماً إلى الظلم والتأله غير المستحق، مما يقابله رفض بشري مطلق لتسيد البشر على بعضهم. وبما أن الإنسان قَبِلَ تحمل الأمانة (الأمانة التدبيرية والأخلاقية)، فإن المسؤولية تصبح هي القيمة الأولى التي تقع على رأس سلم القيم. هذا الإيمان بأن الله هو العدل المطلق وفوق المساءلة يمنح المؤمن اطمئناناً وجودياً تجاه الأحداث، وثقة في عدالة القصاص الأخروي.

سيكولوجياً، الإقرار بكون الإنسان محل سؤال يعني أنه "صانع أفعاله"، وهذا يولد وعياً ذاتياً قوياً بملكية الأفعال. ويوفر هذا الإطار السيكولوجي أريحية في تقبل المصائب، كون الظلم الدنيوي ظلماً عابراً سيقابل قصاصاً عادلاً. أما بيداغوجياً، فإن الأصل في التربية الإسلامية هو تعليم وتنمية حس المسؤولية (أداء الواجب)، وتقديمها على طلب مختلف أنواع المتع (كما في الفكر الغربي). ويُشدد المنهج التربوي على أن ممارسة الحرية في المجتمع تتطلب ضوابط وقواعد مصدرها الرب الكريم، وأن "تعلم كيفية التصرف الأنسب في إطار المجتمع "هو من موجبات تحمل المسؤولية، وليس من حقه تجاوز ذلك إلى الحكم على حكمة الخالق.

التأمل القرآني الخامس: سيكولوجيا "العمى الاختياري" ورحلة الاختراق المعرفي

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا (100)ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (101))

الآيتان 100 و101 من سورة الكهف

(وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73)).

الآية 73 من سورة الفرقان

(قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125)قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ (126))

الآيتان 125 و126 من سورة طه.

من لطائف هذه الآيات البينات، تأكيد الله عز وجل لحقيقة واقعية نلمسها يوميا في حواراتنا حول قضايا متعددة من أبسطها إلى أعقدها، وهي أن الحق قد يكون أبلجا، لكن الأعين تكون عمياء رغم أنها تنظر، والآذان تكون صماء رغم أنها تسمع، وكأنها عمياء على الحق، وصماء على الحق، ترى كل شيء لكنها مغطاة عن رؤية الحق، وتسمع كل شيء لكنها مغلقة عن سماع الحق، ولأن حاستا البصر والسمع أساسيتان لإدراك المنظور، والمسموع، كما أنهما الفاعلان الأساسيان، أو الحاستان الضروريتان لنجاح فعل الفهم فإن عدم استعدادهما لأداء وظيفتهما يعطل أو على الأقل يعرقل السيرورة الطبيعية للنظر أو للمنهج الإدراكي لدى الإنسان، ويصعب عليه بذلك إدراك النظام، والترتيب، والسبب، والنتيجة، كما يصعب عليه وصل ما يوصل، وقطع ما يقطع، فلا يحصل تطور في الإدراك، ولا ينمو النمو المطرد المطلوب لفهم البسيط والمعقد. وعليه، لا يحصل لديه كمال الفهم، والتفسير، وتمام المعرفة الصحيحة.

إن السؤال المهم هنا ما الذي جعل الحاستين تتعطلان عن أداء وظيفتهما؟ إنه بنص الآية الكريمة الغطاء الذي يحول بينهما وبين الحقيقة، وهو منطقيا لن يكون إلا على ضربين، غطاء داخلي، وآخر خارجي. الغطاء الداخلي متعلق ببنيتنا المعرفية التي نستقبل من خلالها مثيرات العالم الخارجي، والتي نفكك رموزها بناء على معرفتنا القبلية، بمعنى أكثر دقة إننا عندما نرى ما نرى، لا نتلقاه إلا ونحن متحيزون، لأن أعيننا ترى بخلفية معينة، أي أنها عندما ترسل إشارة معينة إلى الدماغ فإنه لا يزكي لديها حقيقة ما ترى لكنه بحكم بنيته العقدية، والفكرية يجعلها ترى ما يرى هو، فالبقرة حقيقة هي البقرة، لكن عابدا البقرة لا يراها بقرة بل يرها ربا أو إلها، والمتصهين عندما يرى ملتزما بدينه، لا يرى مسلما بل يرى إرهابيا أو متشددا، لأن مجموع ما ترسخ في ذهنه غطى عليه حقيقة ما يرى، وجعله يرى الحق باطلا والباطل حقا، ولا تتعجبوا أن يجتهد المدمرون في تطوير كل أنواع الأغطية الإيديولوجية لكي يرى الناس بالمقلوب ويفهموا بالمعكوس، إن تكديس العقول بالمعلومات المزورة، وهذه هي الأغطية الخارجية، يجعلها لا ترى بحياد، ولا تفكك بمنهجية سليمة، وما يسري على البصر يمتد إلى السمع، والأمثلة على ذلك كثيرة

لا مجال للتفصيل فيها، بل يكفي فقط أن نذكر أن هناك من يسمع فقط قرآنا يتلى، ويصاب بالجنون، والاضطراب، والضيق لأنه لا يتحمل سماعه جملة وتفصيلا، بل قد يزعجه الآذان وكل صوت له بعد ديني، لأن سمعه تلوث بالباطل أو على الأقل بالأحكام الباطلة الظالمة لكنها عنده هي الحق.

أكيد أن ما يقبع وراء الأعين والآذان المغطاة هو غطاء فكري شديد السمك، أو معتدل، أو ضعيف السمك، لكنه كلما اشتد سمكا اشتد رفضا لما يخالف مسلماته ومعاييره، ومن الأدعية المأثورة التي أبدعها الناس دلالة على إمكانية الزيغ واعتقاد الصواب قولهم: "اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه"، دعاء كثيف من حيث دلالته على إمكانية زيغ البصر والسمع، قال تعالى: "ما زاغ البصر وما طغى"، سورة النجم: 17. تدل الآية نفسها على احتمالية الزيغ في الرؤية، كما أن قوله تعالى: "أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون"، سورة هود: 20، كما تدل على إمكانية الزيغ وعدم استطاعة استثماره كما هو. يزداد سمك الغطاء بازدياد الانزياحات النفسية نحو الباطل، وخوف النفس من اكتشاف وهمها، وركونها إلى الزاوية المريحة ولو كانت باطلا. يخاف أهل الباطل من الحقيقة خوفهم من الموت، ويفضلون البقاء في الباطل على ألم تحمل الحق، لأن البنية المعرفية تشكلت وفق نظام معياري يصبو دوما إلى الحفاظ على التوازن النفسي في إطار ما لا يهز بنيته المعرفية، التي تشكلت على منوالها البنية النفسية للنفس المغطاة. ويزيد سمك الغطاء، وقوته، وصلابته إذا كان يوفر مصالح يصعب التخلي عنها عند الالتزام بالحقيقة.

في أحسن الأحوال، يمكن القول أن أقرب الناس للحقيقة من يكون غطاؤهم غطاء جهل، لا غطاء فكر، أو غطاء عقيدة، فغطاء الجهل يرتفع بالعلم والتعلم، وغطاء الفكر والعقيدة يبدي ممانعة ترقى إلى درجة تقديم النفس فداء للعقيدة، ولو كانت باطلة وغير منطقية، لأن سمك الغشاوة جعلها صعبة الاختراق خصوصا إذا كانت مبنية بشكل كثيف يستحيل معه تسرب منسوب معين من الشك إليها. لكن رغم ذلك فإنني أعتقد أن سمك الغشاوة والغطاء إذا صاحبهما نسبة من القدرة على إعمال العقل، والاستقلال في ممارسة حق التفكر والتأمل، فإن اختراق غشاوة الفكر والمعتقد تبدأ من الداخل بتفعيل الشك، ومقارنة الفكر بالفكر، والعقيدة بالعقيدة، وقد تستمر رحلة اختراق جدر الغطاء العمر كله، لكن صاحبه يتمكن في الأخير من القول أن ما كنت أعتقده طوال سبعين أو ثمانين سنة، فيه كثير من الباطل، قليل من الحق، ولو رجعت بي الأيام لبدأت من جديد في طريق آخر مخالف، وجديد، وأقوى، وأعمق. لكن بالمقابل لا يمكن اختراق أي غطاء في نفسية أي إنسان إذا صاحب غشاوته غرور، وتكبر، وانتشاء بما هو عليه، فالكبر والتكبر يضخم الغشاوة، ويزيد من سمكها، ويزيد من النظر بالمقلوب، والسمع بالمعكوس، والفهم بالمنكوس.

يُعد وصف القرآن الكريم للعمى والصمم القلبي (الذين كانت أعينهم في غطاء) تأكيداً على ظاهرة فلسفية إدراكية مفادها أن الحق أبلج، لكن العائق يكمن في "الغطاء "الذي يُعطّل حاستي البصر والسمع

عن وظيفتهما، مما يمنع السيرورة الطبيعية للإدراك ويُعطّل كمال الفهم .فلسفياً، يتشكل هذا الغطاء من مصدرين: التحيز الداخلي (البنية المعرفية القبلية العقدي) والتزييف الخارجي (الأغطية الإيديولوجية والمعلومات المزورة). يؤدي هذا الغطاء إلى قلب الحقائق، حيث يرى الإنسان الحق باطلاً والباطل حقاً، ويُصبح سمك الغطاء دليلاً على الانزياح المعرفي.

سيكولوجياً، يفضل أهل الباطل البقاء في الزاوية المريحة (الغطاء) على "ألم تحمل الحق"؛ لأن بنية النفس تشكلت وفق نظام يحافظ على توازن نفسي زائف. ويزداد سمك هذا الغطاء إذا اقترن بالغرور والتكبر؛ فالكبر يضخم الغشاوة ويجعل النفس عمياء لا تبصر حدودها، وتنظر وتسمع وتفهم بالمقلوب والمنكوس.

بيداغوجياً، تختلف منهجية اختراق الغطاء بناءً على نوعه: غطاء الجهل يُرفع بالعلم والتعلم المباشر، بينما غطاء الفكر والعقيدة يتطلب عملية اختراق داخلية تبدأ بتفعيل الشك المنهجي والمقارنة، وهي رحلة قد تستغرق العمر كله، لكنها ضرورية للوصول إلى الحقيقة. هذا المنهج يؤكد ضرورة القدرة على إعمال العقل والاستقلال في ممارسة حق التفكر والتأمل كشرط لبدء التغيير.

التأمل القرآني السادس: بين مد العين وغضها
سيكولوجيا الاكتفاء: غض العين كدرع هوياتي ضد بؤس المقارنة

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (131))

الآية 131 من سورة طه.

توجه الله عز وجل لنبيه وإلى باقي المسلمين بتوجيه سيكولوجي عميق، غايته حماية سيكولوجية الإنسان المؤمن من السعي إلى التمني المفرط لما عند الناس، لأنه سلوك مدمر للإنسان، ودافع له لاكتساب كثير من السلوكات المضطربة ذات التأثير السلبي على حياته، وحياة غيره، بل على دنياه وآخرته. فمد العين ليس نظرا بريئا عابرا، بل هو نظر جاحظ مقرون برغبة عميقة في الحلول محل الغير، وتملك ما يتملك، ولا يستبعد أن يكون وجدانيا مرتبطا بمقارنة مؤلمة بين ما عندك، وما عند غيرك، مقارنة قد تغطي عينيك على الرؤية الحقيقة، والفهم الدقيق، بل قد تتضمن إحساسا غير عادل تجاه التوزيع الإلهي العادل للأرزاق، إحساس تسكنه حسرة، وقلة أدب مع الله من جهة، ويدخلك في صراع مع نفسك، وغيرك، وربك، ومنطق الصراع هو منطق الهدم، والتوتر، والأزمات المستدامة إذا كان غير معقلن وغير مسدد بأخلاق العيش المشترك. ولا يخفى عليكم أن الذي يتمنى ما عند غيره يعاني نقصا ما، وخصوصا نقصا في تقدير ذاته وما تملكه، بحيث يصبح العالم الخارجي هو مقياسه للرضى الداخلي، وكلما سكننا الآخر وما يملك، كلما اقتربنا من كل الأمراض النفسية ذات الصلة مثل القلق والاكتئاب.... خصوصا وأن ما عند الناس لا ينتهي، بل يتمدد ويتطور وهذا معناه أن معاناتك النفسية ستتمدد معه تمددا لا حد له، وستتسع دائرة آلامك سيكولوجيا واجتماعيا.

نبه الله عز وجل على مد العين باعتباره المرحلة الأولى للغرق في عوالم الآخرين، فأراد سد الطريق على مدخل البؤس النفسي بتجنب سببه الأول، إن العين غالبا ما تركز على الظاهر من الأشياء، وقد يكون ما عند الآخر سبب بؤسهم، وليس سعادتهم، لذلك قد يكون مد العين طريق للهلاك ونقل البؤس من عوالم الآخرين إلى عالمك الداخلي. لا يجب بناء على ذلك أن نجري جريا على عادات وممتلكات الآخرين في ما هو مادي، ولا ما هو معنوي، إذ أن وجوه المشابهة والمقايسة لا تفيد في بناء النفوس السليمة، بل تنقلها من حال الاستقرار إلى حال الاضطراب، ومن حال الاستقلال إلى حالة التبعية المرضية. إن مد العين لما عند الآخرين فيه كذلك اعوجاج معرفي وأخلاقي إضافة إلى الاعوجاجات النفسية، فمعرفيا محال أن نكون كلنا سواء، وأخلاقيا يوصلنا إلى الحسد والبغضاء. إن مد العين يفصل كذلك باطنك عن ظاهرك، بل يفصل واقعك عن تطلعك، إذ يعظم في دواخلك ما عند الآخرين، ويخلق لك حاجيات وهمية هي في حقيقة الأمر ليست حاجياتك. وعليه لا تنتفع بما عندك، ولا تحصل ما عند غيرك، وتضيع توازنك، وأمنك النفسي. فتترك الاستمتاع بحياة حاضرة من أجل حياة مؤجلة وهمية.

توجهنا الآية أعلاه إلى ضرورة تحصيل المناعة الذاتية من النعم المطروحة على قارعة الطريق، مما يملكه غيرنا، ولا نملكه، أو ربما نملك مثله، أو أفضل منه، فإذا حصل المؤمن تمام الاتزان في الحكم، وضبط النفس، وحصل تبعا لذلك ما يوافق ذاك من المواقف والأفعال، حصل الثقة في نفسه وربه، ورأى النعم على الآخرين جزءا من النعم الربانية، التي يتمتع بها هو وقد لا يعيها، ورأى أن التفاوت شكلي ووظيفي لا تفضيلي. إن عدم مد العين كفاية تحرر النفس من وهم المتعة، والإشباع المطلقين. وبناء عليه، يغدو أعلى مرتقى يجب أن يسعى إليه المومن هو الاستغناء عما عند غيره، والاعتقاد في كونه غنيا غنى مطلقا بما عنده هو، خصوصا أن ما عنده ينمو ويتطور باستمرار بمزيد من العمل، والكد، لا سعيا ليكون عندي ما عند الآخرين، بل ربما ما هو أفضل مما عند الآخرين، لا مباهاة، ولا انتفاخا، بل كدا وعملا، ولا حسدا، ولا منافسة. أي أن يغدو سعينا مستقلا بنسبة كبيرة عن مؤثرات ما عند الآخرين.

إن مد العين لما عند الآخرين يتوسل بمنهج مقارن مدخول، فيقارن ما لا يقارن، إذ أن حياة الناس متنوعة، ومتغيرة، ومتطورة، ومختلفة، ولكل سياقه، وإمكاناته، وتحدياته، وكفاياته، وقدراته، لا يريدنا الله أن نطور شعورا نفسيا بالتفوق على الآخرين، ولا شعورا بالدونية مما عند الآخرين، بل أن نعيش حياتنا كما هي في حاضرها وأن نسعد بها كما هي، ومد العين لما عند الآخرين يسلبك سعادتك الآنية، وقد يوصلك لتعاسة دنيوية مطلقة وأخروية كذلك.

إن النظر لما عند الآخرين يخرج ذواتنا من المعادلة ويجعلنا بدون أن نشعر ندور في فلك حياة الناس، وننسى حياتنا الحقيقية والواقعية، فتغدو غاية سعينا أن نملك ما عند غيرنا لأنه ملكه لا لأننا نحتاجه، فنصاب بالعمى عن النعم، ويهتز منهجنا في الحكم، وتنقلب معاييرنا. إن التوجيه الرباني يتعلق بأخص أوصاف الإنسان المسلم، وهي إعمال العقل، والسعي إلى المستقبل بالإنجاز الذاتي، والرضى بالقضاء الذي هو نتاج تفاعلنا مع واقعنا، يكاد أن يكون التوجيه الرباني بعدم مد العين لما عند الغير إحالة على الأخلاق الإسلامية، بل ربما إحالة على نتائج التلبس بالأخلاق الإسلامية التي تريد منا تحصيل السعادة بالموجود واقعيا لا بالمبرمج مستقبليا، فلكل لحظة سعادتها فلا تؤجل سعادة اليوم بالنظر لما عند الغير، الذي يمكن أن يكون هو، أو ما هو أفضل منه واقعك مستقبلا، يريدنا عز وجل باتباعنا لتوجيهاته النفسية أن نكون مخلصين لظروفنا، وإمكاناتنا النفسية، والمادية، وألا نحملها ما ليست جاهزة له في لحظات الطمع، والتسرع، ومد العين. يريدنا أن نتحكم في تقديرنا للماديات كي نتحكم في توازن أنفسنا، ومصاحبتها نحو إنجازات أعلى وأقوى، وهي سالمة آمنة، لا مضطربة حاسدة، وطامعة لما عند الغير.

يُشكل النهي الإلهي (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) توجهاً فلسفياً قيمياً عميقاً، يؤكد أن "مد العين "ليس نظراً بريئاً، بل هو رغبة جاحظة في الحلول محل الغير، تتضمن اعوجاجاً معرفياً وأخلاقياً يصل إلى الحسد وقلة الأدب مع التوزيع الإلهي العادل للأرزاق، ويعرّف هذه المتع الدنيوية بأنها مجرد "زهرة الحياة الدنيا "مقابل حقيقة أن "رزق ربك خير وأبقى".

سيكولوجياً، يُعد مد العين مدخلاً للبؤس النفسي والمرحلة الأولى للغرق في عوالم الآخرين، وينبع من نقص في تقدير الذات يجعل العالم الخارجي هو مقياس الرضى الداخلي، مما يدفع الفرد إلى تمديد معاناته النفسية التي لا حدّ لها والوقوع في الاضطراب والقلق؛ لذا فإن غضها هو كفاية وجودية وتحرر للنفس من وهم المتعة والإشباع المطلق. بيداغوجياً، هذا التوجيه هو منهج تربوي وقائي يسد الطريق على مدخل البؤس النفسي بتجنب سببه الأول، ويدعو إلى تحصيل المناعة الذاتية وتطوير الاستغناء عما عند الغير، واعتماد منهج إنجاز ذاتي مستقل يرفض المقارنة المدخولة التي تقارن ما لا يقارن، ويهدف إلى تحصيل الاتزان في الحكم وضبط النفس والاستمتاع بالسعادة الحاضرة بدل ملاحقة الوهم.

التأمل القرآني السابع: سيكولوجيا الانكسار العظيم وتحرير الأنا من وهم التأله

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا۩ (60))

الآية 60 من سورة الفرقان

غريب أمر الإنسان عندما يسكنه الجحود، ويتكبر ويتعجرف أمام خطاب الرحمة من رب الأرباب، وعجيب أمر هذه الآية التي جعل فيها الله عز وجل مقام السجود مقام رحمة، لم يوظف الله صفات القوة، والعزة، والجبروت في مقال سجود العبد، بل وظف صفة الرأفة والعطف، والأعجب أن هذا المخلوق الضعيف حقيقة القوي وهما يتساءل بتعجب، وما الرحمن؟ نعم سؤال فيه أنا مفرطة تسكنه عجرفة ونرجسية مقيتة متلبسة باعتقاد السلطة، والقوة، والتسيد، والنتيجة الحتمية لمنهجية استقبال الوحي الرباني بالعجرفة هي المزيد من النفور، وكيف لا ينفر من الحق من جهازه المعرفي وبنيته الفكرية مسكونة بالعناد المبني على وهم العلو الزائف. لا يمكن فك شفرة خطاب رب الأرباب بنفس معلولة مريضة متعالية، هي أضعف من الضعف نفسه. فخطاب العلو الرباني الرحيم جليل القدر في تركيبته، ومضامينه، وسمو معانيه، ومحال أن يفهم منحدر نفسيا خطابا ساميا أخلاقيا. لا مناص أولا لفهم الآيات من غسل آلات الفهم وأدواته التي ران عليها، تنظيفها من نجاسات الاستكبار، أو على الأقل حيادها حياد العالم، أو الباحث عن الحق.

ولا يخفى على لبيب أن الأمر بالسجود غايته إيصال العبد إلى الاعتراف بوجود رب يستحق العبادة، وفي الوقت نفسه هو طريق الإنسان إلى تفكيك عجرفته التي تسكنه في أفق بناء النفس المتوازنة، المتواضعة، العارفة بحدود العقل البشري من جهة، وحدود الفعل الإنساني من جهة ثانية، السجود انحناء يكسر مشاعر الغطرسة الزائفة، وينزل النفس إلى منزلة النفس الفاعلة في الوجود غير المستعلية على الموجودات وخالقها. إن سؤال: وما الرحمن؟ سؤال يختزل كل شيء، إنه تكبر غير مستحق لأنه صادر من ضعيف يعتقد في قوته، أمام قوي يوزع رحمته. وهو في هذا المقام رذيلة تؤدي إلى انزياح النفس عن الحق متبعة في ذلك منحنيات عجرفتها الموهومة، والمبنية على الفراغ اللانهائي، بل الباطل الكثيف. إن هذا المتعجرف ضعيف جدا، يتوهم قوته من ضعفه، إذ الواقع التجريبي يقول بأنه يولد ضعيفا، ويموت ضعيفا، ومحتاج من يوم ولادته الأول إلى من يساعده على الرضاعة، والأكل، والاغتسال، والتبول، والتغوط، ويقوى في الشباب قوة متجهة نحو الضعف، وقد تنسيه قوته هذه ما سبق من ضعفه وما هو آت من هوانه، إذ يوقف نتيجة سقمه النظري والتفكري، يوقف عجلة تطوره في مرحلة عابرة هي مرحلة القوة، رغم وقوعه بين ضعفين، ما أغبانا فضعفنا يتلاعب بنا حتى أننا ننفي الملموسات من تطورنا.

يريد الرافضون للسجود الحلول محل الله، فهم لا يتوقفون عن تكثير الأتباع، وادعاء العلم، والفهم، بل إنهم يسعون عبر كل الأزمنة أن يُعَبِّدوا الناس، ويستعبدونهم بالقوة، أو المال، أو السلطة، فلكل زمان قارونه، وفرعونه، وهامانه، أناس انتهوا وانتهت أوهامهم وكبرياؤهم، لكنهم لما كانوا أحياء في

الوجود اعتقدوا لحظتها أنهم هم أرباب الوجود. لم يكونوا يتفطنون لحقيقة أن ما يجري على أيديهم من سلطة، ومال، وقوة، إنما هي من العاريات التي أجراها رب الأرباب على أيديهم، ومعلوم أن العارية ملك صاحبها الأصلي وهو الرحمن، وهي بذلك منزوعة منهم إن عاجلا أو آجلا. يخاطب الله المتكبرين بخطاب مقاصدي يتغيا الهداية، ويقول لهم إنني أنا الرحمن، وسأرحمكم إن آمنتم وسجدتم، لكن لا شيء أثقل على نفسية المتعجرف من الانحناء. إن الأنا التي تسكنهم تتصف بالبلادة، والغلظة، والشدة في تناقض صارخ بين حقيقتها، وحقيقة خطاب الرحمة الرباني. وعليه، أعتقد أن هؤلاء يمارسون الاعتداء على أنفسهم أكثر من اعتدائهم على ربهم، ويدخلونها في دوامة من التآكل الداخلي دون أن تكون مسيجة بالأخلاق والفضائل التي يمكن أن تهذب وتلطف فعل التآكل.

لا يخفى أن النرجسي من هذا النوع لا يقوى على سماع أمر، أو نهي، أو نصيحة، إذ يعتقد في دواخله أنه هو مصدر كل هذه الأشياء، فهو لا يسمع إلى صوته الداخلي المضطرب، يتكلم مع نفسه، ولنفسه، وبنفسه، وعلى غيره أن يستمع وينفذ، فالنفوس المريضة بالعجرفة لا تعرف للقيم الأخلاقية طريقا، لذلك تعجز عن تفكيك صفة الرحمن التي استعملها الجبار في مقام السجود حفاظا على كرامة العبد، وتلطيفا لخطاب علوي قوي. وعليه، لم تنفع اللغة المهذبة والمبنية على الرحمة مع المضطرب لدفعه لمساءلة نفسه، وتقييم اختياراته، وتعديل سلوكاته، فتوجيه الله له بالسجود لا يمكن أن يعتبره النرجسي إلا اعتداء خارجيا على علوه وتفرده الوهمي. إن البنية السيكولوجية للمتعجرف عدوة للأخلاق، والتطور المعرفي، والبنائي للشخصية المتكبرة نفسها. وفي المقابل، فحيث يعتقد المتعجرف أنه يعلو ويسمو بسلوكاته الرافضة للأمر الإلهي يتدنى في العالم العلوي، وتهوي به عجرفته إلى القاع حيث ينتظره أسوأ مصير، ويختم مسيرته في العالم الدنيوي غالبا بمصير سيئ وسيء جدا، فالمتعجرف على الله مرة واحدة، متعجرف عمن سواه آلاف المرات، وهذا بالضبط ما يجعل من كل المتعجرفين أكفاء، وبمستوى عال في تكثير عدد الأعداء. ولا تستغربوا أن ما رفضه المتعجرفون في الأرض وهو السجود، هو نفسه ما رفضه إبليس في الملكوت الأعلى. وعليه، لا أشك لحظة واحدة في أن كل متعجرف يحمل بين جنبيه نفسا إبليسية بشكل من الأشكال، ولا يمكن إيقاف تأثير العجرفة فقط في العلاقة بالله، بل إنها تشمل كل أشكال التكبر على البشر، وعليه فكل متعجرف على الناس فيه شيء من إبليس.

يُعدّ رفض الأمر الإلهي بالسجود للرحمن (الفرقان: 60) تعبيراً عن فلسفة وجودية تقوم على وهم القوة والتأله الزائف. فلسفياً، يمثل سؤال المتعجرف "وما الرحمن؟ "ذروة الأنا المطلقة والنرجسية التي ترفض الإقرار بملكية الخالق، وتتلبس بـ "العجرفة الإبليسية"، ناسية أن ما لديها من قوة هو مجرد "عارية "إلهية. السجود، في حقيقته، هو قرار وجودي يهدف إلى كسر مشاعر الغطرسة وإقرار العبودية، بينما يزيد رفضه من النفور العقدي.

سيكولوجياً، يعيش المتعجرف في تناقض صارخ؛ فهو ضعيف جداً يتوهم قوته بين ضعفين (الولادة والموت)، وتمتلكه أنا غليظة وبليدة لا تقوى على سماع أمر أو نصيحة، حيث تعتبر التوجيهات الخارجية اعتداءً على علوها الوهمي. هذه البنية النرجسية هي عدوة للأخلاق والتطور المعرفي، وتدفع

صاحبها إلى الاعتداء على ذاته بالدخول في دوامة من التآكل الداخلي، وينتهي به المطاف إلى الوهي في العالم العلوي والتدني في مصيره.

بيداغوجياً، يمثل السجود طريقاً تربوياً لتفكيك هذه العجرفة وبناء النفس المتوازنة العارفة بحدودها. لكن الوصول إلى هذا الطريق يتطلب أولاً "غسل آلات الفهم "وتنظيفها من نجاسات الاستكبار. ورغم أن الله يخاطب المتعجرفين بخطاب مقاصدي يتغيا الهداية والرحمة، فإن العجرفة تمنع النفس من الاستجابة، مؤكدة أن العلاج يبدأ من تفعيل الوعي الداخلي وتجنب المسار الذي يتبناه كل متعجرف، والذي يجعله كثير الأعداء وسيء المصير.

التأمل القرآني الثامن: العدل الإلهي مطلق وقانون وضمانة

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا (40))

الآية 40 من سورة النساء

تحيل الآية الكريمة إلى عدل الله المطلق الذي يعني استحالة الظلم في حقه، فعدله يعتمد عليه كل عدل في الوجود في تركيبه، ومتعلقاته، ومخرجاته، ولأنه مطلق، وقدرتنا على إدراكه محدودة، تغدو معرفتنا بإطلاق العدل الإلهي جد نسبية، إذ يكتشف كل جيل، وكل ثقافة، وكل قوم بعض أبعاد العدل الإلهي المطلق، إن العدل الإلهي بهذا المعنى مركب وغير مركب، سهل وممتنع، واضح وغامض، ممتد ومحدود، متصل ومنفصل... بحسب زاوية النظر، وعمق النظر، وكثافة إعمال العقل في الصفات الإلهية العلوية، العدل الإلهي خارج الحسابات البشرية وداخلها، منها ومتعالي عنها، يكاد يكون العدل الإلهي مثل الفضاء اللامتناهي، مليء بالمفاجآت، كثيفة قيمه، وقوانينه، ومتحرك، وممتد في الزمن الإنساني وخارجه، متشابه مع العدل الإنساني، ومتجاوز له، يحتويه، ويقوده، ويصححه، أبدي يلامس كل شيء في الوجود، ولأنه كذلك في عمق وضوحه وغموضه فإن الله أوجد الظلم لمعرفة عدله، إذ أن عدله مستعص على المعرفة الإنسانية دون مساعدتها بالتناقضات والمتناقضات، لأن الإنسان ميال إلى المقارنة والمفاضلة.

بناء عليه، يغدو الظلم رذيلة وظيفية لمعرفة صفة العدل العلوية، وبمعنى آخر يكاد يكون العدل هو محور الوجود، ويقارعه الظلم باعتباره الضد الذي يعرف به الناس حلاوة العدل، ولا أبالغ إن قلت إن علاقة الإنسان بالله، وعلاقة الإنسان بالإنسان، وباقي المخلوقات محورها هو العدل الذي قد يسطو عليه الظلم إن تمكن من نفس الإنسان، فالله لا يظلم مثقال ذرة، أي أنه عادل دائما وأبدا، وفي كل الأزمنة، والأمكنة، والإنسان مولع بإشباع الرغبات التي قد يكون الظلم طريقها والعدل ثمنها، فأينما وجد ظلم افتقد العدل. ولا يخفى أن هذا الأمر كله يستدعي وجود ظالم ومظلوم، والظلم إما مطلق لا حق فيه، أو ظلم جزئي فيه بعض الحق، وكثير من عدم الإنصاف سواء في سياق علاقات اجتماعية، أو اقتصادية، أو سياسية، أو دينية ... كتب الله عز وجل على نفسه أن يكون دائما بجانب المظلوم، أي أنه يكون دائما حيث افتقد العدل لتحقيق الإنصاف، وتبعا لذلك يكون كل ظالم في أي مجال في مواجهة الله، وهو عز وجل من يحدد الزمان، والمكان، والكيف لتحقيق عدله المسلوب من عباده. وهو من يحدد متى، وكيف، وأين يُظهر للعادلين نفسه وآثاره، ويكشف لهم عن مآلات عدلهم مع عباده، وآثار كل ذلك عليهم هنا وهناك، وفي كلتا الحالتين فإن الظالم يحس يقينا، بل يتحسس وقت نزول العقاب به، والعادل يتحسس يقينا أجر عدله.

إن عدل الله لا يخضع لأية قواعد مسبقة بل هو نفسه أعلى قاعدة، وهي قاعدة عليا لازال المؤمنون يتأملون فيها، ويحاولون فك مكوناتها عسى أن يظفروا ببعض لطائفها، فلا يوجد قانون أخلاقي يخضع عدل الله إليه، إذ أن إرادة الله هي القانون الأخلاقي الأعلى الذي لا قانون فوقه، فالله لا يحتاج في إرادته لموافقة أحد، ولا لأخذ رأي أحد، مشيئة سارية على الكل، لأنها هي الكل نفسه، بل هي الصواب

المطلق. فعلى عكس السعي الألماني الحثيث لجعل العدالة قاعدة قانونية رسمية، فإن الطرح القرآني للعدالة هو أعمق، لأنه يرفعها من مستوى القاعدة إلى مستوى الاعتقاد الرابط بين السماء والأرض، بين الله والعبد، الذي عليه أن يكون صفة ملازمة للإنسان في كل سياقاته الوجودية المادية، والميتافيزيقية.

يحيل القول الإلهي (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) على فلسفة وجودية تضع العدل كصفة مطلقة، تعني استحالة الظلم في حقه، وتجعله القانون الأخلاقي الأعلى ومحور الوجود. فلسفياً، العدل الإلهي متجاوز ومطلق، ولكنه في الوقت نفسه يُعرَف للإنسان من خلال الظلم، الذي يغدو "رذيلة وظيفية " لمعرفة حلاوة العدل (الضد الذي يعرف به). هذا الإطلاق يرفع العدالة من مجرد قاعدة قانونية إلى مستوى الاعتقاد العقدي الرابط بين السماء والأرض.

سيكولوجياً، يمنح هذا الإيمان المؤمن يقيناً بالإنصاف؛ فالظالم يتحسس يقيناً وقت نزول العقاب، بينما يتحسس العادل أجر عدله. وهذا اليقين يواجه النزوع السيكولوجي البشري نحو إشباع الرغبات الذي قد يقود إلى الظلم. كما يضمن الإيمان بأن الله "دائماً بجانب المظلوم" طمأنينة نفسية بالقصاص الإلهي.

بيداغوجياً، الهدف التربوي هو جعل العدل "صفة ملازمة للإنسان" في كل سياقاته، حيث يرفع التقرير الإلهي العدل لمستوى المسؤولية الوجودية. وهذا المنهج يربي المؤمن على أن كل ظالم هو في مواجهة الله، مما يشكل الرادع الأقوى. ويتطلب إدراك هذا العدل الاجتهاد في المعرفة وإعمال العقل في التأمل بصفات الله، لأن معرفة الإنسان به تظل نسبية وتتطور عبر الأجيال.

تأملات في صفات المكذبين

التأمل القرآني الأول: "إبستمولوجيا المكر" و"واقعية الشهادة"

(وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (217))

الآية 217 من سورة البقرة

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ (100)).

الآية 100 من سورة آل عمران

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ (149)).

الآية 149 من سورة آل عمران

(إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون).

الآية 2 من سورة الممتحنة

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ (118))

الآية 118 من سورة آل عمران

أرسل إلي أحد الأصدقاء حفظه الله مقالا لأحد المسؤولين الغربيين يقول فيه أن العدو الحقيقي للغرب هو الإسلام، ومحمد بالضبط، وأكيد أن هذا الموقف متطرف، وللوهلة الأولى وبدون تفكير ذكرني هذا العدو، لأنه صنف نفسه عدوا لنا، ولديننا، ونبينا، ذكرني بصناديد قريش، وصناديد بني قريظة، وغيرهم، ما يعني أن التاريخ يعيد نفسه بصيغة محينة جديدة، وفي حلة معاصرة متطورة عند نفسها، ومتخلفة عندنا، لأنها لم تأت بجديد، فعوض القتل بالسيف والاغتيال، أضحى القتل بالرصاص والطائرات، والاغتيال كذلك بشتى الطرق، وعوض الاضطهاد، والتجويع، والحصار التقليدي طور صناديد العالم المعاصر طرق الحصار، والتجويع، ومنع أي مساعدات، لكن بقي التجويع هو هو مع إضافة التجويع العلمي، والحصار هو هو مع إضافة الحصار العلمي. وأعتقد أن الغرب ليس عدوه هو الإسلام، بل عدوه هو الحق أينما كان، ومع أي كان، ولو كان صاحب الحق غربيا. إن عقدة السيطرة والتسخير من أجل المتعة والتحكم هي غاية الإنسان الغربي البربري المعاصر، وهذا لا ينفصل عنده عن مسلمته المركزية التي يركز فيها على أن يسيطر، أو أن يسود الطبيعة، والتي في بعدها العلائقي العميق هي سيادة العالم بطبيعته، وثقافته، وبشره، ولا يخفى أن الذي يريد السيادة يعتقد ضمنيا في العلو، والقوة، والتملك لما يريد أن يسوده. وينسى هذا الغربي المتعجرف أنه لا يملك شيئا في الوجود فما بالك بالسيادة المطلقة على الحضارات، والثقافات، واستعبادها ولو بمدخل تحريري، أو تطويري، أو قمعي، أو تجويعي، أو استعماري، فكيف له أن يسود ويملك أمة دينها يحييها خمسة مرات في اليوم بنداء عميق مفاده أن الله هو الأكبر، وأنه لا إله ولا سيد إلا الله، وينصحها أن تترك كل شيء في يدها بما فيها الغرب، ومنتوجاته،

وفلسفته، وأفكاره، وتقوم لتسجد لربها متخلية عن كل ما هو دونه، فربها هو الأعلى، والأعظم، والمالك لكل شيء، والمتحكم بحكمة، وقوة، وعزة في كل شيء، دين لا تناطحه قرون الخراف من الغرب ولو كبرت.

لا يعرف الغرب البربري التعاقد الأخلاقي والتفاهم القيمي والعيش المشترك، بل غايته هي السطو الدائم على الحجر، والشجر، والبشر بأية وسيلة ممكنة. لا تتعجبوا أن يكون وراء عدائهم خوفهم من هذا الدين، فتاريخهم يقول لهم: إن هذا الدين يحيي النفوس، ويقوي العزائم، ويدخل على الدوام في تحديات ضد كل من يعتدي عليه، فلا يأمر أهله بالاستسلام بل بالمدافعة وبطريقة عقلانية. دين علمه الواقعية التي تعني أن العداء مستمر لهذا الدين، وأن الضحايا سيكونون على الدوام، وأن الألم جزء من النصر، وأن البغضاء، والسوء، والشر جزء من الحقيقة الوجودية، ومن الضريبة الواقعية التي تدفعها الأمم القائدة في العالم، أي تلك التي تطرح نماذج للعيش وفق أطرها المعيارية، ولها بدائل في الفكر والفعل، وتأبى أن تبقى في حالة شرود أو تبعية. لا أستبعد كما قلت في تأمل سابق أن الغرب وقع فريسة رذائله وسلوكاته، فأضحى بدون وعي يخاف من المسلمين أن يفعلوا به ما يفعل هو بغيره من الشعوب بمن فيهم المسلمون. مسكين هذا الغرب الذي يثقله على الدوام تاريخه الدموي، يريد أن يتحرر منه بإلباسنا إياه ولو سيكولوجيا. فقدت نواصيهم القدرة على التفكير المنطقي، وعجزت نفوسهم عن التفكير النقدي، وتماهت مع السرديات التاريخية الوهمية، والمخاوف النفسية الإسقاطية باعتبارها أدوات تبريرية تعيد للكيان البربري توازنه بعد كل حالة لاتوازن. قد بدت البغضاء من أفواههم على لسان صاحب المقال، وأكيد منا في نص الآية ما تخفي صدورهم أكبر. وعليه، لا أصنف أقوالهم ولا أفعالهم في خانة الذكاء، بل هي أقرب إلى المكر بل هي المكر نفسه، مكر فيه دهاء لا أخلاقي قاحل قيميا، وفي أبهى وأحسن صوره مُخاتلة وخداع، غايته الاستغلال، والاستيلاء، وإبقاء المسلمين في أدنى سلم التطور. لكن مكر الله هو مكر الاستدراج المتخلق المبني على السبب والنتيجة، والمسيج بالحق والعدل، وهنا مكمن التفاوت بين الأطر التوجيهية الربانية المعيارية لدى المسلمين، والأطر التوجيهية البربرية لدى المنفصلين عن الأخلاق.

يُعدّ التصريح القرآني بأن الأعداء (لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ) تأسيساً لفلسفة وجودية للصراع، تؤكد أن العداء للإسلام ليس خلافاً مرحلياً، بل هو صراع مستمر على السيادة والعلو، وينبع من وهم بشري يسعى للتأله والسيطرة على العالم، متناسياً أن السيادة المطلقة لله وحده .فلسفياً، يمثل هذا العداء حقيقة وجودية وضريبة واقعية تدفعها الأمة القائدة، وهو مكر لا أخلاقي يقابله مكر إلهي متخلق ومسيج بالعدل.

سيكولوجياً، ينبع هذا العداء المعاصر من عقدة السيطرة والخوف العميق من الدين الذي يحيي النفوس، ويُعبَّر عنه بـ "البغضاء المتجذرة" (وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)، مما يقود إلى فقدان القدرة على التفكير المنطقي والتماهي مع مخاوف إسقاطية تهدف إلى تبرير السلوك البربري.

بيداغوجياً، هذا الوعي يفرض على المؤمن منهجاً تربوياً قائماً على الواقعية التي ترفض الاستسلام وتوجب المدافعة العقلانية. ويشدد القرآن على أهمية العقل والوعي كشرط للمواجهة، ويحذر تحذيراً

تربوياً صريحاً من "إطاعة الذين كفروا" واتخاذهم بطانة، لأن هذه التبعية تؤدي حتماً إلى الردة والخسارة، مما يوجب على المؤمن تصنيف هذه الأفعال في خانة المكر لا الذكاء، لعدم تضخيمها قيمياً.

التأمل القرآني الثاني: قصور الإحاطة وفانتازم الهروب من التكليف

(بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ (39))

الآية 39 من سورة يونس

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (84))

الآية 84 من سورة النمل

تحيل كثير من آيات كتاب الله العزيز على خصائص متعددة لفريق المكذبين بمضامين الدين، ومن بين هذه الخصائص خاصية التكذيب المبني عن الجهل، فتفاعلهم مع مضامين الرسالة كان ولازال انطباعيا نفسيا أكثر منه عقليا، وإن ادعوا عكس ذلك، إذ يكتفون بالرفض السيكولوجي المبني عما وقر في أنفسهم من معارف، ووجدانيات، خلال سيرورتهم التثقيفية، أو الاجتماعية، يتحيزون لميول النفس على حساب صرامة العقل، وإن زعموا عكس ذلك، وفي أقصى حدودهم وأوضحها. أعتقد أن أوضحها أن يصرحوا بعدائهم النفسي للدين، وأن يعترفوا بأنهم لا يؤمنون به وكفى، اتباعا لهوى أنفسهم، هنا بالضبط يمكن أن تحترمهم لأنهم قالوا بوضوح نحن نكفر بالأديان، لأنها لا تستجيب لميولاتنا النفسية التي نحن عليها، وهذا موقف نفسي يمكن فهمه لكن لا يمكن تبريره عقليا أو علميا. وهذا القول مما يتصف بالشهرة والانتشار في تضاعيف الآيات الكريمات. ويدل هذا الموقف على كثافة وجوه البؤس التي تسكنه لكنه صريح، وأسوأ منه من يعارض، وهو جاهل للدين والعلم، والأسوأ منهما من يعارض بإلباس قوله التكذيبي لباس العلم والعقل. أكيد أن كل هذه الأشكال من الاعتراضات هي من وجوه بؤس إعمال العقل المكبل بأغلال النفس، فكيف لجاهل، أو متعالم، أو كاره أن يقف موقفا عادلا من أعقد الأسئلة الوجودية على الإطلاق، فما بلك بالإحاطة بجزئياتها، فالجاهل بالشيء قد يصل به جهله إلى تكذيبه، أو كرهه، أو نفيه، وعند المنصفين من أهل التوقف يصل بهم جهدهم إلى الحياد إلى أن يتبينوا وجاهة الاعتراضات والمثبتات.

ولقد أرخ القرآن لحجج الدحض المدخول من مثل قوله تعالى: "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ". سورة سبأ: 43.

إن تعقلهم قديم قدم الإنسان ولا جديد يحتويه، إذ لا يخرج عن قولهم، أن الأديان ليست إلا صناعة رجال أرادوا إحداث التغير في مجتمعاتهم، وما أضعفه من ادعاء وأهونه من استدلال!، أو قولهم، إن الأديان خروج عن النسق المجتمعي الذي كان سائدا، وهذا لا يختلف عن الادعاء الأول إلا في إعادة الصياغة، أو قولهم: إن الأديان كذب وافتراء من أناس خارقي الذكاء، وظاهر تهافت هذا القول حد الانهيار بل قد يكون ضدهم عند تعميق النظر فيه، وقولهم وهو الأكثر انتشارا حتى هذه الساعة أن الأديان أساطير وسحر، وأكاد أقول إن الإنسان المعاصر يسكنه الإنسان القديم بدون زيادة ولا تعميق، لأنه

بالفعل لم يضف شيئا، بل يكتفي بالأحكام، يحكم حكما نفسيا نابع من عمق معاناته النفسية، وتقلبها بين هواها الذي لا حدود له، والأديان التي تعقل الهوى، وتحرجه وتقيده. فلا شيء يضبط بل يكبح ميولات النفس وشهواتها، ويقف أمام فانتازماتها إلا الضوابط الأخلاقية الدينية بالأساس، ومحال أن يسعى متطرف في الإشباع إلى حب ما يحرمه من لذة ما يشتهيه. إضافة إلى ذلك فإن عدم الإحاطة بالمعتقد لاستحالة الإحاطة المطلقة به، نظرا لطبيعة الموضوع، ومنهج الفهم، وأدواته التي تعجز عن اقتحام الغيب فما بالك بالإمساك به، بل إن وصول الإنسان فقط إلى أن يطلق مسمى الغيب على ما يغيب عنه دليل وجودي يجب العمل على تفكيكه، فمستحيل أن نطلق اسما على مسمى لا نحسه وغير موجود، فما لا يخطر على بالنا، أو لا يحيط بنا، أو لا نحسه ليس محل مسمياتنا، خصوصا وأن الإنسان عبر التاريخ، وفي كل الثقافات كان ولازال له مع الغيب صولات وجولات.

إن المعتقد الذي ينفيه النافون جهلا، أو استكبارا، أو كرها مستمر الدينامية الذاتية، أي أن المعتقَد أثناء تفاعله مع مستجدات العلم والواقع يوسع من مكتسباته المعرفية ويُفَرِّعُها، وكلها عمليات تعديل تلامس المعرفة، والمنهج، والسلوك، وكل أشكال التفاعل مع المستجدات العلمية، وعن طريق التوسيع والتفريع يعدل المعتقَد في المبادئ، والمقاصد، والأحكام حتى تتماشى مع الأصول العلمية والواقعية، دون أن تنتقض الأصول الاعتقادية. وعليه، لا ننتظر في تاريخ الإنسانية أن تنتهي هذه العلاقة بانتصار العلم على المعتقد، ولا بانتصار المعتقد على العلم، بل نزعم أنهما غاية الوجود وأصلاه المتينان اللذان لا ينفصلان إلا ليلتقيا، فالأول أي العلم يسعى لتحقيق اليسر في الحياة المادية والطبيعية، والثاني يتوجه للحياة الجوانية لتأثيثها بما يناسب تطور العلم والواقع، وتقييد العقل المتشهي للتسيد، والتأله، والفانتازم، فالعلم في أجلِّ أبعاده طبيعي، والمعتقَد في أوضح أبعاده إنساني، جواني، غيبي، تأطيري، الأول يكمل في الإنسان بعده الوجودي الطبيعي، والآخر يؤثث بعده النفسي والميتافزيقي. وعليه، لا نعول في فهمهما على تفريقهما أو إقصاء أحدهما، لأن هذا ديدن الجاهل لهما، أو الكاره أو المستكبر على أحدهما، وهؤلاء معزولون عن أي شكل من أشكال الإحاطة بهما على وجه الفهم والضبط. وعليه، فإنهم سيقعون حتما في تكذيب أحدهما، إن الطريق الأسلم لجمع عناصر الوجود المركب/المعقد هو تجميع المتفرق في تحقيق سعادة الخلق. إن الإنسان كائن معتقد، عالم، عامل بمقتضى درجة تعلمه، واعتقاده علوا وهبوطا، نوعا ومضمونا، قوة وضعفا.

يُعد التكذيب الإنساني بالدين كما في قوله: (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) ظاهرة فلسفية إبستمولوجية تكشف عن عدم وجود الإحاطة العلمية كمنطلق للرفض. فلسفياً، يؤكد هذا التكذيب أنه مبني على "الجهل المركب "والتحيز المعرفي القبلي، حيث يرفض المكذب الدين بحجج قديمة متهافتة (كأساطير أو صناعة رجال)، كما ينفي ضرورة التكامل الوجودي بين العلم (الذي يحقق اليسر المادي) والمعتقد (الذي يؤثث البعد الجواني والميتافيزيقي)، وهما أصلان متينان لا ينفصلان.

سيكولوجياً، التكذيب ليس موقفاً عقلياً بل "انطباع نفسي" ينبع من بؤس إعمال العقل المكبل بأغلال النفس وهواها. فجوهر الرفض السيكولوجي يكمن في أن الأديان "تعقل الهوى وتحرجه وتقيده"

وتقف أمام فانتازمات الإشباع المطلق، مما يجعل النفس المتعالية الكارهة معزولة عن أي شكل من أشكال الفهم المنصف.

بيداغوجياً، هذا الوعي بآفة الجحود يفرض منهجاً تربوياً قائماً على "الحياد والتوقف" لحين التبين من وجاهة الحجج. ويشدد هذا المنهج على ضرورة تفعيل العقل في التعامل مع مسألة "الغيب" كدليل وجودي يجب تفكيكه لا نفيه جهلاً. كما يدعو إلى "تجميع المتفرق" بين العلم والمعتقد كطريق أسلم لتحقيق سعادة الإنسان، لكونه "كائناً معتقداً، عالماً، عاملاً".

التأمل القرآني الثالث: سيكولوجيا "المارد المحسود": حتمية الإظهار الرباني وتهافت التوحش

(هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ (33))

الآية 33 من سورة التوبة

(هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا (28))

الآية 28 من سورة الفتح

(هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ (9))

الآية 9 من سورة الصف

(وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (109))

الآية 109 من سورة البقرة

(أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا (54))

الآية 54 من سورة النساء

أومن أشد ما يكون الإيمان أن ما يعانيه المسلمون في كل بقاع العالم سببه، أو أحد أسبابه إضافة إلى العوامل الداخلية، مواقف الكراهية والحسد للصهيوصليبية الدافعة إلى العداء والتدمير، يرتعد هؤلاء القوم من الإسلام على ضعف أهله، وتشرذمهم، وتخلفهم في كثير من مجالات الحياة، حتى أن رعبهم الدائم المسنود بتاريخ طويل من الصراع طور عند عبدة العجل، ومن يناصرهم من الصليبية العمياء، والمتعلمنة، والحداثية، وما بعد الحداثية كراهية بطعم الانتقام الدائم من شعوب مسلمة تجرأت في لحظة من التاريخ أن تقول أنا موجودة، ويمكنني أن أقود العالم، ولدي بدائل أخلاقية، وعلمية، واجتماعية.. هكذا تتحول الكراهية إلى انتقام الجبناء المرتبط بالترهيب الدائم من إعادة الكرة، والتفكير في التقدم، أو التجرؤ على انتقاد الصهيوصليبية، ولو كانت على خطأ. إنه الخوف الدائم من قيام مارد الإسلام في منطقة ما فوق البسيطة، حتى أنهم لا يلعبون لعبة سياسية دفاعية إلا وأدخلوا فيها الإسلام بأسماء تنظيمات لا تخلو من دلالة إسلامية، بوصلتهم في الكيد هي الإسلام، يسكنهم الخوف منه، خوف يربك نورونات أدمغة الصهيوصليبيين، فتتحرك في دواخلهم نوازع المبادرة الدائمة لقهر كل دولة، أو حزب، أو توجه يحمل نزعة الهوية الإسلامية التي تطرح نفسها بديلا على علاتها وضعفها المعاصر، تكاد سيرورة القمع المستمرة التي تمارس على كل متميز، أو متمرد أن تكون تعبيرا عن العجز لإيقاف صحوة هؤلاء القوم المسلمين، أي أن ظهور محاولات هنا وهناك على احتشامها لمواجهة الظلم الصهيوصليبي، إضافة إلى ما يشاهدونه عبر وسائل التواصل من التحام المسلمين في عباداتهم، واستمرارها، وانتشارها،

ودوامها، وازديادها، وتكاثر أهلها من الشرق والغرب يصيبهم كل ذلك في عاطفتهم العميقة، ويحرك وجدانياتهم الملفوفة بالخوف، والشك المستمر في استمرار الحال على ما هو عليه.

وبناء عليه، لا يبقى أمامهم إلا الحرص الدائم على العنف للمحافظة على وضع التفوق، والسيطرة للتخطيط المحكم لأعمال الانتقام تجاه أي تفكير، أو تنظير، أو حركة تتغيا التحرر من عبوديتهم. يخافون أشد ما يكون الخوف من منسوب الثقة والقوة الذي يعطيه الإسلام لمعتنقه، وأكثر من ذلك تنهار قوتهم من منسوب الصبر المستمر لدى هذه الشعوب وتضحياتها طوال قرون مع بقائها الدائم، ووفائها لدينها رغم محاولات الصهيوصليبية من إيهام هذه الشعوب بأن سبب تخلفهم هو معتقدهم. إنهم مصابون بحسد عميق تجاه منظومة الاسلام، وما تخرجه من أنواع البشر على عجرها وبجرها. ينسج الإسلام بمنظومته، وواقع أهله، وصمودهم الدائم، في دواخل الصهيوصليبية سواء الدارسين، أو الإعلاميين، أو الساسة نسيجا عاطفيا، ممزقا، مرتعدا، مهزوزا، غير متوازن، لسان حالهم: متى يختفي هذا القرآن وهذا الإسلام؟ لذلك لا أومن بحبهم لنا، ولا بتفهمهم لنا إلا استثناء من طرف بعض عقلائهم ومؤمنيهم، بل أتوقع منهم دائما مزيدا من الشر، والعنف المغلف بالحقوق، والحريات، والديمقراطية و....إنها أدوات تخدير أهل المارد الحقيقي: الإسلام. يخافون من قوله تعالى: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون"، سورة الصف: 9.

وعليه، لا يمكن لنفس تكره، وتخاف، وترتعد أن تنتج الحب، أو تمارس التعاون الخالص المطلق ذي البعد الإنساني المطلق تجاهنا، بل إنها تسعى دائما إلى الإكراه الرمزي، أو المعنوي، أو النفسي، أوالمادي، أو القتل، والتهجير، والتدمير عندما لا تنفع معنا الأدوات الرخوة، ونبدي نوعا من الوعي والممانعة. لقد أنتج الغرب فلسفات متعددة عمق فيها النظر في أفكار مجردة فلسفية، ونفسية، واجتماعية متعددة، وأنتج نظريات مختلفة حول الحضارة، والفكر، والأخلاق، والقيم، ولديه منظومة يونانية، ورومانية، ويهودية، ومسيحية، ووسيطية، وحداثية، وما بعد حداثية ... وإنسانية لكنها كلها لا تكبح غريزته في القتل والتشريد طوال قرون من الزمن، والتي تستمر حتى هذه اللحظة، إن كل ما أنتجه الغرب من تجريد، وتفكير، وعمق لا يعمل معه هو نفسه، ليس له مفعول معه هو، لا يفيده في شيء إلا في تخدير غيره من الشعوب، وإضفاء الشرعية العلمية على جرائمه، بل وظفه ضد غيره من الأمم، ولازال يفعل. يمارس الغرب البلطجة عل بقية العالم قرابة أربعة قرون، يقتل من يشاء، يغير من يشاء، يناصر من يشاء، يجوع من يشاء.... لا يشبع من وحشيته، وكأنها هي هو، وهو هي، أكاد أقول زاعما: إن الوحشية جزء من الهوية الصهيوصليبية.

تبدأ وحشيته بمحاولاته المستمرة ليتوحش في عالم القيم، فيفرض قيما يدعي عالميتها وإلزاميتها، ويتوحش اقتصاديا ليفرض نموذجه الذي يضمن له تبعية باقي العالم، ويتوحش سياسيا بفرض الأنظمة التي يراها تستجيب لمعاييره، ويقوض غيرها، ويتوحش لغويا بفرض ما يجب أن نقول بل وكيف نقول وبأية لغة نقول، بل ويتوحش عاطفيا بأن يفرض على غيره متى عليه أن يفرح، ومتى عليه أن يغضب، وإذا فرح كيف يفرح، وإذا غضب كيف عليه أن يغضب. يريد تشكيل العقول، والأذواق، والأنفس على هواه... يتمنى

العالم الصهيوصليبي لو اختفى الإسلام ليتكلم العالم لغة التوحش، ويحس بأحاسيسه، ويقيم بمعاييره.... يقول تعالى: " ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ان الله على كل شيء قدير"، سورة البقرة: 109. يحتاج العالم الصهيوصليبي نفسه إلى من يقوده ويهديه إلى الصواب، إنه عالم تائه بين الكراهية، والتوحش، والمتعة، والسلطة، والمال، والجنس في أقصى انزياحاتها، وما يجعله مستمرا حتى الآن هو ضعف المنافس، وتسلطه على خيرات العالم ومقدراته، وحرصه الدائم على الحفاظ على الهوة الكبيرة في القوة والردع بينه، وبين منافسه، لكن الحياة دول، ودوام الحال من المحال، والتراجع ليس بالضرورة أن يكون من الخارج بل لربما سيكون من الداخل.

أصيبت الصهيوصلبية في أعمق مفهوم يجعل الحياة بين الأمم مستمرة وناجحة، وبين الناس ممكنة، إنه مفهوم العدل أو العدالة، وهي بذلك تعلن عن إفلاسها العاجل أو الآجل. وأدعي أنه بالرغم من ضعفنا فإننا كمسلمين نحمل البديل إذا اشتغل الناس على قدم وساق، لإحلال ما هو أفضل مكان ما هو أسوأ، أو مزاحمته على الأقل. فشل الغرب فشلا ذريعا في حب الحضارات الأخرى، والألوان الأخرى، واللغات الأخرى، والثقافات الأخرى، والديانات الأخرى، والحضارات الأخرى، قلوب الصهيوصليبية متمركزة حول وحشيتها، فاشلة في حبها لغيرها، غارقة في نرجسيتها. والإسلام بديل مؤجل رغم حسد الحاسدين، وسعي المدمرين، وكيد الكائدين، وجهل الكثيرين، وسيبقى يشكل تحديا وبديلا في كل شيء مهما طال الظلم والظلام، وسيبقى محسودا على مرونته، وديمومته، وتزايد أهله، واستمرار تأثيره، لأنه قدر الله فوق الأرض، قال تعالى: "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما". سورة النساء: 54. نصر الله أهل رباط عسقلان على عبدة العجل آمين.

يُعدّ تكرار الوعد الإلهي (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) قضية فلسفية وجودية تؤكد القوة الكامنة للإسلام كبديل حضاري، وهذا الوعد هو مصدر رعب الأعداء. فلسفياً، ينبع العداء المستمر من "وحشية الهوية "التي تسعى لفرض السيطرة والتوحش الشامل على قيم العالم وثقافاته، مما يجعل الصراع صراعاً على السيادة المطلقة التي هي لله وحده.

سيكولوجياً، هذا العداء ليس منطقياً بل هو نتاج "حسد عميق" و**"خوف مرضي"** من يقظة المارد الإسلامي، حيث ينهار الأعداء سيكولوجياً أمام منسوب الثقة والصبر الذي يمنحه الدين لمعتنقيه. ويُعبّر هذا الخوف عن نفسه بانتقام الجبناء، واستخدام الأدوات الناعمة (كالحقوق والحريات) لتكون أدوات تخدير لإبقاء المسلمين في حالة تبعية.

بيداغوجياً، هذا الوعي يفرض على المؤمن منهجاً تربوياً قائماً على الواقعية التي ترفض الاستسلام وتؤمن بأن الألم ضريبة النصر. وهذا المنهج يوجب الوعي بالمكر المغلّف وضرورة تحصيل المناعة الذاتية، مع الالتزام بالموقف التربوي العظيم المتمثل في "العفو والصفح المشروط" (حتى يأتي الله بأمره)، وهو

موقف قوة يهدف إلى المحافظة على الصفاء الداخلي مع الاستمرار في العمل الجاد لتقديم البديل الحضاري.

التأمل القرآني الرابع: بيداغوجيا الفضح واليقظة

لا تُخفي الدولة المارقة لعبدة العجل ولا لمن يرعاها من الصهيوصلبيين الأصل العقدي لدولتهم، ولا الأصل العقدي لحروبهم ضد المسلمين، بل يظهرونه بالقول، والقرارات، والأفعال على الميدان، وأمام الناس، ومع ذلك فقد أصاب العمى الفكري، والحول العقلي، والصمم القلبي، بعض المحششين عندنا ممن أدمنوا المخدرات الفكرية، فلا يرون ما يرى العالم مجتمعا، ولم أجد أفيونا أقوى من أفيون الفكر المعاصر، ذي النزعة التسلطية الاستعمارية، لأنه يزين نفسه بمساحيق لا يستطيع مقاومتها من تسلبه المظاهر كفاية الرؤية إلى العمق، فدولة عبدة العجل بدعم من الغرب تُعرِّف نفسها على أنها دولة يهودية. وكان عنوان "الدولة اليهودية" هو عنوان الكتاب الذي نشره مؤسس الصهيونية الحديثة تيودور هرتزل في عام 1896، بل زادوا على تسميتها بالدولة اليهودية الديموقراطية، أو العلمانية، أو الحداثية حتى أقنعوا مدمني أفيونهم من بني جلدتنا على أنها الدولة الديموقراطية الأولى في الشرق الأوسط، التي يجب أن نحذو حذوها، وكيف لها أن تكون كذلك وهي مستعمرة لشعب آخر، تسرق أموال شعب مضطهد من طرفها، ومن طرف مناصريها، وتقتل أفراده العزل، وتأخذ أراضيهم يوميا، أي ديموقراطية هذه التي يحاولون إلصاقها بقاطع طريق ومجرم، لكن العجب كل العجب أن تتماشي هذه السلوكات مع مفاهيم الديموقراطية والعلمانية في أذهان المحششين، هل سمعتم يوما ما بعصابة ديموقراطية من أجل السرقة والنهب والقتل؟ نعم أيها الناس هكذا يسوقها لكم سدنة الفكر، عليكم أن تصدقوهم، فيمكن أن يكون السارق ديموقراطيا! ويمكن أن يكون القاتل ديموقراطيا! نعم حتى وجدنا من يكتب مقالات وينشر كتبا كلها مخدرات ذات مفعول لا مثيل له، يجمع بين المستعمرين القاتلين، والمضطهدين، وقيم العدالة، والديموقراطية، وحقوق الإنسان، أي خراب أصاب عقول الناس!

إن دولة عبدة العجل ورعاة البقر على هذا النحو الذي تحدثت عنه لا يمكن أبدا أن تكون ديموقراطية، ولا يمكن أبدا أن تتوسل بالديموقراطية كقيمة سياسية، فهي عصابة هدفها التوسع، والسرقة، والقتل بممارسة تخدير النخب من جهة، والقوة من جهة ثانية، واستعمال المنظمات من جهة ثالثة، وبث الفرقة بين مكونات من يحيط بها من جهة رابعة، وهل الدولة السارقة، والقاتلة، والمضطهدة للغير يستساغ أصلا أن يسمى دولة، فما بالك بإلصاق نعت الديموقراطية بها؟ فكل المصطلحات الرنانة من عدالة، وحرية، وديمقراطية، وعلمانية ليست إلا وسائل لا غايات، فهم لا يقبلون ديموقراطية لا تتوسع على حساب جيرانها، بل لا يقبلون ديموقراطية تأتي للحكم بمن يقف أمام مشاريعها، ولا يقبلون أفكار تخرب المجتمع الصهيوني، وفي الوقت نفسه يطالبون محيطهم المسلم بتطبيق ما لا يطبقون، يريدونه ديموقراطيا على منوال ما يريدون، وعلمانيا يقصي ما لا يريدون، ومتسلحا بفكر هجين وعجين، ينهزم أمام ما ينشرون، وقوي قوة تضعف أمام أضعف ما يملكون...

إن دولة عبدة العجل وكل مناصريها في أروبا، ودولة رعاة البقر بعيدون كل البعد عن الفصل بين الدولة والدين، بل نحن نجزم أنه أمر مستحيل أن نفصل ما لا يفصل، فالفصل في المعنى الفرنسي هو

فصل شكلي وموجه ضد المسلمين لا غير، وحتى إن شمل كل الديانات فقد تحول هو نفسه إلى دين، فأصبح بالإمكان التحدث عن دين العلمانية التي تناصر دين التصهين، والمسيحية، وكل الديانات ضد الإسلام، وكأن العلمانية عندهم أضحت نسخة ممسوخة من خليط هجين من اليهودية، والنصرانية، وأفكار بعض الفلاسفة أو السياسيين، ويمكن أن نطلق عليها مسمى: (العلهاسية: جمعا بين العلمانية، واليهودية، والمسيحية) أما نموذج العلمانية الأمريكي فهو بين وواضح، فهو العلمانية الصهيوصليبية لا غير وباعترافهم.

إن المؤسسات الدينية الرئيسية (الحاخامية الرئيسية، الحاخامية المحلية، المجالس الدينية، نظام المدارس الدينية الحكومية) هي أجهزة الدولة، وهي نفسها ما يمتد في أوربا، وأمريكا، وخارجهما حتى عندنا في المغرب. هذه الأجهزة هي التي تسيطر على مجالات الحياة العامة في دولة عبدة العجل، توجد قوانين دينية للدولة في مجالات الحياة كلها، وتمول من ميزانية الدولة كل المؤسسات، والخدمات الدينية (مثل المعابد اليهودية، والمساجد، والمدارس الدينية الحكومية، وغير الحكومية، والمقابر، والحمامات الدينية). لا توجد في دولة عبدة العجل كنيسة رسمية أو دين "رسمي" كما هو الحال في إنجلترا، أو النرويج مثلا، لكن يوجد ما هو أكبر من ذلك، إنه الدولة الدينية شكلا وعمقا، سماء وأرضا، ترابا وبحرا، حجرا وشجرا... تمتلك الصهيونية اليهودية هيمنة قانونية ورمزية على الأديان الأخرى مثل الإسلام والمسيحية، وعلى كل المؤسسات بل إن هذه الأخيرة تابعة لها، وإن اختلفوا حول بعض الجزئيات البراغماتية بين يساريهم، ويمينييهم.

تتجلى النزعة الدينية المتطرفة في كل أشكال الحرب التي تخوضها هذه الدولة المارقة ضد المسلمين بالوكالة من طرف الغرب الصهيوصليبي، فيستهدفون المساجد أثناء الصلاة، والبيوت وخصوصا مع الآذان، سواء في آذان المغرب في رمضان، أو مع السحور، تصرفاتهم ممنهجة عقديا لا عشوائيا، إنها استراتيجية الإخضاع بالقوة والقهر، غايتها الترهيب، وقتل كل روح معنوية تعتمد على الإسلام ورموزه من صلاة، وصيام، وقيام، فلسان حالهم يقول لنا: ها نحن نضربكم فليأت ربكم لينقذكم؟ نحن نضربكم في مساجدكم ونتبول عليها، نخربها، نمزق كتبكم، نحتقر أئمتكم، ونسجنهم، بل ونجردهم من ثيابهم، نكسر صوامعكم، ونهدمها على رؤوس مؤذنيكم، معنا لا أمان لكم، ولا خوف منكم، ولا من ربكم وإلهكم، الذي تعبدون، فنحن نقطع عليكم وعليه الاتصال ببعضكم في صلاتكم، وفي بيوتكم، وفي مساجدكم، نحن نهين رموزكم الدينية كلها بدون استثناء، نحن نقوض كينونتكم، ونمحو عناصر هويتكم الإسلامية، نحن لا نعترف بقداسة مقدساتكم، وسنرسلكم إلى جحيمنا نحن.... يريد المتطرفون إدخال الصدمة النفسية على النفوس، يريدون إيصالنا إلى مرحلة اللاعودة في علاقتنا مع ربنا، ودينا بإدخال الشك فينا تجاهه، وتجاه نصرته، ومعيته نظرا لضعف معرفتهم بمكنون ديننا، بل إن كل ما يقومون به ومنذ سنوات يعيدون فيه استثمار ردات فعلنا ضد جرائمهم مرة أخرى، وثالثة، ورابعة.... ضدنا، وضد إخواننا، وكأننا بلداء بدرجة مارشال.

يريد أصحاب النزعة المتطرفة قلب معايير رؤيتنا، وضوابط حكمنا المعياري، فإذا استعمروا فتلك حرية، وإذا قاومت فأنت إرهابي؟ وإدا حاصروا وقاومت فأنت خارق للقوانين؟ وإذا حرقوا، وسجنوا، واغتصبوا، واستنكرت فأنت مخالف للعهود؟ والهدف البعيد القريب عندهم هو دفعك للاستسلام، والهجرة، والهروب، يريدون مسح المعنى العقدي والوجودي من قلوب وعقول المؤمنين بقدسية الأماكن المقدسة، وبأحقيتهم في أرضهم بممارسة كل أشكال الشر المطلق. أما هم فيلعب الدين عندهم دورًا رئيسيًا في السياسة الداخلية والخارجية. إنهم يرون وفق معتقدهم أن الضفة الغربية هي يهودا والسامرة التوراتية، "الأرض المقدسة" التي وعد الله بها الشعب اليهودي، "أرض آبائنا" التي "تحررت" ولم "تُفتح" في حرب الأيام الستة (1967). ينكر اليهود حق أي حكومة إسرائيلية، حتى الحكومة التي تمثل أغلبية في البرلمان، مخالفة أمر الله، وإعادة أجزاء من الأرض المقدسة إلى "غرباء" (فلسطينيين وسوريين) في إطار اتفاقية الأرض مقابل السلام. لا يريدون سلاما إلا بالقوة كما يقولون الآن، وهو نفسه ليس سلاما بل هدنة استعداد لمزيد في الإجرام، وهل دام أي سلام تأسس على الظلم المستند إلى القوة؟ إنها سردياتهم التي حاولوا تسريبها إلى عقول الناشئة المسلمة منذ عقود، ونجحوا من خلالها في استبلاد البعض، واستدراج البعض بحسن نية هذا البعض، أو بحسن عمالته، أو خوفه أو طمعه، ولولا أن القرآن يتلى في كل بقاع الأرض ما بقي لنا شيء، فهو الوحيد الذي يفضح طبيعتهم يوميا وخمس مرات في اليوم، وفي صلاة الجمعة، وبصوت مرتفع في كل رمضان يوميا، بل وفي أجل الأوقات، وأهدئها حيث يرتفع منسوب التركيز، وتقل المشوشات الذهنية، حيث الاعتكاف ،والتهجد للتأمل، ذلك أنه كلما قرأت كتاب الله تقرأ مباشرة عن طبيعة عناد، وظلم، وضلال، واستبداد هؤلاء القوم.

يعرف القوم كل القوم قوة هذا الكتاب لذلك توجهوا لإيجاد تأويلات لآياته تخدم أجنداتهم، وشرعوا في تفكيك عراه، ومهاجمة مصدر قوة هذه الأمة بواسطة رعاع من الجهلة، أو العملاء، أو الذين تلتقي مصالحهم بمصالح عدو الأمة ككل، جمعوا بين الجهل، والجرأة، والبلادة، والعمالة من منطلقات فكر الحشيش الحداثي، أو الحقوقي المعاصر الذي لا يعترف لهذه الأمة بأي شيء، فجعلوا بعض أهلها من ضعاف النظر يركبون سفينة التصهين، لكن هيهات هيهات لما توعدون، إن موت أهلنا حياة، واضطهادنا عدل، وسرقة أراضينا بقاؤها، وتفكيك ديننا تجميعه، وتشتيتنا وحدتنا.... نحن الأمة التي تنهض بالمتناقضات، أما إن بقي الحال على ما هو عليه بدون تناقض، واضطهاد، وسرقة.... فإننا الأمة التي تركن إلى النوم في حالة الاستقرار، والاستمتاع... استمروا ليستيقظ مارد الحق، والعدل، والقوة، والنصر، والإسلام فينا..... استمروا في الداخل والخارج.... انتظروا فإنا منتظرون... وخطابنا هذا ليس خطاب استسلام، ولا خطاب تخدير، ولا خطاب.... إنه خطاب نستبشر به من خلال قوله عز وجل: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ"، سورة المنافقون: 8. لكن كيف؟ ومتى؟ ومن؟ وأين؟..... علمها عند الله.

يُعدّ الكيان الصهيوني، برغم تزيينه بمصطلحات كـ "الديمقراطية"، كياناً فلسفياً عقدياً متطرفاً، يرفض التأمل الاعتراف بكونه دولة علمانية، ويؤكد أنه "دولة دينية شكلاً وعمقاً" تحركها العقيدة

التوراتية المتطرفة في حربها وسياستها (اعتبار الضفة الغربية يهودا والسامرة التوراتية). فلسفياً، يُعتبر استخدامه لمصطلحات العدالة والديمقراطية مجرد "أفيون فكري" لإخفاء طبيعته الحقيقية التي تقوم على السرقة والقتل والوحشية الممنهجة. في المقابل، يمثل الإيمان بأن (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) الأصل العقدي الذي يواجه وهم السيادة المطلقة.

سيكولوجياً، تعتمد استراتيجية هذا الكيان على الوحشية الممنهجة، حيث تستهدف المساجد والمقدسات لغرض إحداث "الصدمة النفسية" و**"قتل الروح المعنوية"** للمؤمنين، ومسح المعنى العقدي لوجودهم. وينتقد التأمل البلادة الفكرية لدى بعض النخب التي تقع فريسة لهذه المخدرات الفكرية. لكن في الوقت نفسه، يرى التأمل أن الأمة "تنهض بالمتناقضات"، وأن هذا الاضطهاد والسرقة هو ما يوقظ فيها "مارد الحق والعدل" بدلاً من الركون إلى النوم.

بيداغوجياً، يؤكد التأمل أن القرآن الكريم هو الأداة التربوية الوحيدة التي تفضح طبيعة الأعداء يومياً وتمنع التبعية الفكرية، مشدداً على ضرورة الوعي بالمكر المغلّف ورفض الاستسلام والتخدير. ويدعو المنهج التربوي إلى الاستبشار بالعزة، مع الالتزام بالعمل الجاد لتجسيد البديل الحضاري، وعدم الوقوع في فخ "ركوب سفينة التصهين" الفكرية.

التأمل القرآني الخامس: سيكولوجيا الهويات النووية: اضطراب المرضى ونشوة التدمير الذاتي

(إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ (92))

الآية 92 من سورة الأنبياء

(وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (46))

الآية 46 من سورة الأنفال

يتم التلاعب بكل المكونات الجامعة في جسم الأمة الإسلامية لإحداث مزيد من الاختراق، والتصدع، بهدف التفكيك المؤدي للإضعاف، ثم للسيطرة، حدث هذا في العراق، ويحاولون مع تركيا، وحدث في السودان، ويحاولون مع اليمن، ويركزون كثيرا على شمال أفريقيا. لذلك استخدموا معول العرقية للهدم، فالإخوة المتنوعون المتحدون تحت راية الإسلام يشكلون خطرا على المشروع التوسعي التفكيكي. وعليه، وجب استثمار التنوع، وقلبه خلافا وتمايزا تنازعيا، حتى يرتفع منسوب العرقية لدى مكونان النسق الموحد. بداية بتفكيك العناصر الجامعة وهي الإسلام، واللغة العربية، والثقافة الإسلامية، والشروع في تقزيم دورها، وتبخيسها، حتى يسهل بالمقابل تضخيم مكونات النسق واحدا واحدا، ثم المرور من بعد ذلك إلى التفكيك السياسي الذي يعني تفكيكا اقتصاديا، واجتماعيا، وانهيارا أخلاقيا مبنيا على نزعات الهويات النووية المتنوعة التي هي في الأصل غير متضاربة، لكن يجب إيصالها إلى مستوى العداء المتبادل. وقد كان خطاب الإسلام منذ الوهلة الأولى إنسانيا لا قوميا، وحاول العرب أنفسهم جعله قوميا، أو قبليا، لكن سرعان ما ينقلب المسلمون بعد معاناة من التفريق إلى الأصل التجميعي في فترات متعددة من التاريخ الإسلامي، الذي بالتأكيد ليس تاريخا عربيا، بل تاريخ كل الشعوب المسلمة.

اشتهر الغرب منذ زمن بعيد، ومعه الصهاينة بتوظيف ما يفكك عدوهم الأول وهو الإسلام، فاتجهوا لتفكيك خطابه، ومهاجمة أصوله وفروعه، وبث الشك في عناصره المجردة والملموسة، كما ركزوا على تنوع معتنقيه من إثنيات مختلفة لخلق كل أشكال العداوة بينهم، وبين إخوتهم في الدين، واستثمروا المال، والمعرفة، والسلاح، وبعض خونة الداخل، وبعض الجهلة إضافة إلى كثير من المرتزقة الذين يعيشون على موائد النزاعات والفرقة، بل وجعلوا عدد من الرويبضات قادة فكر، وسياسة، وبحث تحت الطلب. لا يمكن فصل المغرب عن هذه الموجة من التفكيك أبدا. إن التوجهات العرقية التي ينبذها الغرب في داخله، ويرفضها، ويحاربها هي بالضبط ما يريد لنا، وإن تجميع عبدة العجل في أرض الإسراء من مختلف الإثنيات مع السعي الحثيث لتجميعها تحت لواء التصهين محمود، لكنه مرفوض، ويجب قطع دابره، إن كان تحت لواء الإسلام خارج الدائرة الغربية. يتم استغلال الانتماءات العرقية، التي بالمناسبة لا تنتهي، لأنها تبدأ بتفكيك المشترك لتصل إلى تفكيك الأسر، بل إلى تفكيك الأنفس عبر التاريخ البشري لإذكاء الحروب، وتفكيك الامبراطوريات، والسطو على مقدرات الأمم المفككة. وكما تستغلها القوى

العدائية للمسلمين في الخارج، تستغلها كذلك الأحزاب السياسية والحركات الإيديولوجية، لأنها هي الأدوات التفكيكية، إن بوعي أو بدون وعي للسطو على السلطة، وتقويض الحكم، والاستيلاء عليه عرقيا وصولا إلى انهيار الدولة.

لا تستغربوا أن يكون السلاح هو نفسه الذي كان في ما مضى من الزمن، وهو اللعب على حبل مظلومية عرق ما أو جماعة ما.. ورغم أن كل المواطنين مظلومون يتم تضخيم عرق معين ومظلوميته، أو الحديث عن تهميش إثنية معينة، وإن كان كل المواطنون مهمشين، ومن إثنيات مختلفة، لكن بالمقابل يتم تضخيم التهميش الخاص بإثنية معينة على حساب باقي مكونات المجتمع، فتعمل القوى المؤدلجة على استثمار كل ذلك سياسيا، وتعميق الفجوة بين مكونات المجتمع لخرق سفينته حتى وإن غرق الكل، فلا شيء يوقف المضطربين سيكولوجيا، المعتنقين للأدوات التمزيقية إلا أن يجدوا وحدة الصف أصلب، وأقوى، وأوعى، بل إن مرضى الإيديولوجيات العرقية عبر التاريخ... ألمانيا، وما وقع في أفريقيا، وما وقع في أمريكا، وما عاناه الأفارقة... دليل على أن السياسة عندما يتسلط عليها مؤدلج، مضطرب، نفسيا لا تنتج إلا الدمار. وغالبا ما تبدأ هذه النزعات التفكيكية من خارج الوطن لأنها في الغالب تكون وليدة أجندات تدافعات سياسية على المستوى العالمي، وكلما كان وعي الناس عاليا بخطورة التفكيك، وممانعا تجاهه، كلما قاوموه وانتصروا عليه، والعكس صحيح، لذلك فإنه ينجح في المناطق الأقل علما وتعلما، والأكثر هشاشة اقتصاديا وعلميا.

تعرف الأمم العالمة معنى السعادة في إطار الكل المتنوع لذلك تجدها تسعى إلى الاتحادات الكبرى ذات التنوع الإثني، واللغوي، والديني، وتعتقد الأمم المتخلفة بقدرة العرقيات على النجاح، مع العلم أن العرقيات حتى بيولوجيا قاتلة، لأن خرابها مما اجتمع على إثابته العلم الدقيق، والعلوم الإنسانية. وفي إطار التفكيك يتم توظيف التاريخ توظيفا شيطانيا، وبشكل انتقائي ظالم، وغير علمي، فيستدعي المضطرب نفسيا كل ما يجعل عرقه الآري، أو العربي، أو الصيني، أو الصربي، أو اليهودي، أو الأمازيغي، أو الأفريقي، أو .... عرقا خالصا نظيفا متميزا فوق كل باقي الإثنيات. ولا يخفى على لبيب أن هذا هو الطريق الواضح البين لنشر الكراهية بين مكونات المجتمعات الإنسانية، فيربو منسوب الكره بين مكونات المجتمع التي ستسعى في مرحلة موالية إلى الدفاع عن نفسها، كما سيسعى المضطرب للاستيلاء على ما يعتقد أنه حقه، وينتزعه من غيره، فتنشأ الميلشيات العرقية المسلحة، وتبدأ دوامة الحروب الأهلية بين مكونات نسق كان قويا متماسكا، لكنه في مرحلة ما تدهور وعيه، وارتفع منسوب بلادة مكوناته، وتسرع أهله حيث وجب أن يتريث. هكذا ستتفكك الدول لتتدخل القوى الداعمة لتفكيك المفكك، تحت مسميات براقة، للسطو على الإخوة المتنازعين المضطربين تحت مسميات صهيوصليبية واستعمارية من مثل حفظ حقوق الأقليات. وأمامنا كثير من بقاع العالم وعبر التاريخ التي تفككت بدوافع نفسية عرقية بالأساس، وبعد مرور أزمنة رجعت للاتحاد بعدما سقت أرضها بدماء شباب، وشيوخ، ونساء، وأطفال أبرياء، لم يكونوا إلا وقودا لتحقيق هلوسات المرضى النفسيين، من الساسة والإيديولوجيين المرضى، الذين وصل بهم الحد إلى خوض حروب للتطهير العرقي، وخوض حروب انفصال متعددة تأتي على الأخضر واليابس.

هكذا يفقد الإنسان إنسانيته ويتحول إلى وحش يأكل أخاه الإنسان تحث ذريعة العرقية المقيتة، والأصوب هو أن يسعى مع أخيه إلى تدبير اختلافهما تحت راية المصالح المشتركة والقيم الجامعة، أن يسعى كل واحد منها إلى احترام خصوصية الآخر، لا أن يسطو هذا على هذا. لا يمكن ضمان تطور المجتمعات إلا إذا سعينا دائما وأبدا وعلى الدوام إلى التجديد فيما نسميه الهوية الوطنية التي تجمع تعددنا وتنوعنا، لا تنسوا يوغوسلافيا، والصومال، ورواندا، والسودان..... لابد من سعي مكونات المجتمع، وساسته الأصحاء، لا المرضى النفسيين، من السعي إلى تقوية المشترك، وإجراء مصالحات، وبناء عدالة اجتماعية لا تميز بين فلان وعلان، فلا سلام ولا أمن ولا تطور في كل خطاب يستثمر في الأفكار التي تركز على العرق أو القبيلة أيا كانت، عوض القيم المشتركة التي تجمع بين مكونات المجتمع، لا بد من نشر خطاب التآلف لا التنازع. يحتاج المتنازع حوله إلى الحوار، لا خوض حروب بليدة لا نفع فيها لكل مكونات المجتمع، فالانتقام يولد الانتقام، والسب يولد السب، والجهل يولد الجهل.... والجهال لا يتحاورون بل يتحاربون، خصوصا عندما تكون نسبة المشترك كبيرة وكبيرة جدا، مما يحيل على أن العناصر المتحاربة إما مريضة، أو جاهلة، أو عميلة. ومما أجج هذا في هذا العصر، الدور السلبي لوسائل التواصل الاجتماعي خصوصا حينما يسطو عليها، أو ينشط فيها كل مضطرب لا يفكر إلا في الانتقام، أو السيطرة، أو السلطة، تقوده في ذلك نفسه المهتزة إلى كل أنواع السلوكات المدمرة لمجتمعه، مع إحساسه بنشوة الانتصار، وهو مهزوم، فسبيل التدمير يشمله، ويشمل ما يعتقد أنه عدوه، فلهيب النار يحرق كل شيء.

لا تستغربوا أن تجدوا أن الدعوات التفكيكية لها من الانتشار ما لا تمتلكه الدعوات العقلانية، لأنها دعوات عصبية عرقية عاطفية لا تحتاج إلى التفكير، بل تكون الاستجابة إليه آلية من طرف عموم الناس، باستثناء خاصتهم الذين يخضعونها لميزان ما فوق العاطفة وهو العقل، والمصلحة، والمصير. نحتاج في وسائل التواصل الاجتماعي إلى بناء تصور جديد للتعامل الحذر معها، لأنها حقل كبير من الألغام، والناشطين فيه، لا نعلمه كلهم، بل فقط قلقة قليلة هي نفسها قد تقع تحت تأثير نقرات الإعجاب، والدعم المادي من عناصر مجهولة، ومؤسسات محترفة اخترقت كل شيء، لا تفرحوا بالإعجاب بل فكروا لماذا؟ وكيف؟ ومن؟ نحتاج منصات حوار، ومنصات ربط الجسور بين مكونات مجتمعنا التي يهاجمها التفكك، نحتاج إعلاما يناضل بمحتوى راق يضمد الجراح، ويبني التفاهمات، ويرى بالذوق، ويجمع الأمة المغربية، ولا يفرقه بالقدح في أي مكون من مكوناتها. نحتاج إلى أنشطة ثقافية مشتركة بين كل مكونات المجتمع المغربي تثمن كل موروثه، لا يحس فيه أي واحد منا بالغبن، ونحتاج إلى إتقان لغة الواجبات لا فقط لغة الحقوق، نحتاج إلى رؤية جامعة لنا مانعة لاختراقنا، وتدمير كياننا، نحتاج إلى أن نتصالح مع كل مكوناتنا بدون عقد تفوق، ولا نقص، نحتاج لمواجهة التفكير المفكك إلى تفعيل كل المؤسسات، التي يمكن أن تدعم، وتشجع، وتحمي تنوعنا في وحدتنا سواء في التعليم أو العدل، أو الثقافة أو أي مؤسسة أخرى، يمكن أن نتجاوز مأزق التفكيك، فقط برؤية تركيبية تحترم كل عناصر هويتنا الممتدة شمالا، وجنوبا، وشرقا، وغربا. نحتاج إلى سن القوانين التي تمنع من التوظيف السياسي للمشترك للسطو على غيره. نحتاج أن نكون بشرا يحترم بعضنا بعضا أيا كان انتماؤنا، وأن نصنع وطنا للجميع، لا

لفئة معينة على حساب غيرها. هذا ما أعتقد أنه سبيل ولو نسبيا لاجتناب أخطاء الماضي، وأخطاء دول سبقتنا نهجت نفس النهج، ووصلت إلى الباب المسدود، والتفكيك المقصود.

يؤسس القرآن لفلسفة اجتماعية مفادها أن (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً)، وأن التنازع (وَلَا تَنَازَعُوا) هو الطريق الأكيد للفشل وذهاب القوة الوجودية. فلسفياً، يمثل مسلك التفكيك العرقي والإيديولوجي استراتيجية ممنهجة تهدف إلى قلب التنوع إلى نزاع مدمر، عبر تفكيك العناصر الجامعة (كالإسلام واللغة)، وتضخيم الهويات النووية القاتلة. ويثبت التأمل أن الأمم المتقدمة تدرك أن العرقيات بيولوجياً قاتلة وأن النجاح يكمن في الاتحادات الكبرى التي تحترم التنوع في إطار الوحدة.

سيكولوجياً، تنبع الدعوات التفكيكية من اضطراب نفسي، حيث يصف التأمل مروجيها بـ "المرضى "الذين يجدون نشوة الانتصار في سلوك مدمر يحرق الجميع. الدعوات العرقية عاطفية وتستغل مظلومية الجماعات وتضخيمها لتحقيق الاستجابة الآلية عند الجمهور. لذا، فإن مواجهة هذه الأيديولوجيات تتطلب قوة صف ووحدة صلبة توقف جنون "المضطربين نفسياً".

بيداغوجياً، ندعو إلى تبني منهج تربوي شامل يقوم على تقوية المشترك وضرورة تجديد الهوية الوطنية لتكون رؤية جامعة لجميع المكونات. ويشدد على أهمية التوعية ضد بلادة الوعي وخطورة التسرع، ويدعو إلى إتقان لغة الواجبات بدلاً من التركيز المطلق على الحقوق، وإلى سن القوانين التي تحظر التوظيف السياسي للمشترك العرقي، كأدوات أساسية لضمان التطور وتفادي أخطاء الماضي.

التأمل القرآني السادس: سيكولوجيا الشوفينية: نقد الصفاء الموهوم وتحرير الأنا من قلق الهوية

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ (13))

الآية 13 من سورة الحجرات

لا شيء يقض مضجع العرقيين القوميين من التصور الفلسفي الإسلامي للهوية، ولا شيء يقف في الشرق والغرب أمام ضيق الهويات، وعنفها، وعنصريتها من شساعة وامتداد التصور الاسلامي للهوية الإنسانية، بحيث أن ما تسعى إليه التصورات الفلسفية الغربية المعاصرة من نشر للثقافة الإنسانية المتعددة باعتبارها الجامع بين بني البشر، يعتبر واقعا متحققا في التصورات والمجتمعات الإسلامية، ومنذ زمن بعيد على ما قد يتخلله من أخطاء، فكل المجتمعات الإسلامية متعددة، يتعايش فيها الأبيض، مع الأصفر، مع الأسود، مع الأحمر، مع المسلم، مع اليهودي، مع البوذي، مع الملحد وفق مبدأ التعارف الإسلامي، يتحدث فيها الناس لغاتهم المختلفة بدون حرج ولا تضييق، ووفق ضوابط دقيقة تمنح للكل حريته التي عليها أن تحترم تخوم الشعوب، والمعتقدات، والتقاليد المتعايشة في الرقعة الإسلامية، وفقط فوق أرض الإسلام عاش التسامح يمشي برجلين دما، ولحما، وعظاما، ولا عبرة ببعض التوجهات المتشددة التي سطت في مراحل معينة على الإسلام، وأرادت أن تجعل منه قوميا، أو مذهبيا يقصي غيره، ألا ترون أن الآية أعلاه واضحة وضوح الشمس، في أن الأصل هو التعارف، وأن الأتقى في هذه الآية هو من ينفتح على غيره، وإن كان مخالفا له خلقة، ومعتنقا لمعتقدات أخرى، وله تقاليده، وعاداته، ولغته، ألا ترون أن صيغة الجمع تنفي كل استثناء، شعوبا، وقبائل.... بدون ذكر خصوصياتها نظرا لأن صيغة الجمع جامعة للمتشابه، والمختلف، والمتناقض؟

ما أفسحه من تصور، وما أروعه من عمق لا عمق بعده. لكن لماذا تتم معاداة الإسلام من طرف القوميين كل القوميين بدون استثناء عربا وغيرهم. وهذا يشترك فيه القوميون في كل البلدان بما في ذلك البلدان الغربية، فما وجدت بحكم تجربتي عدوا أشرس على المسلمين في ألمانيا من الأحزاب ذات النزعة القومية العرقية، والسبب هو أن هذا الدين لا يعترف بتفوق أي عرق حتى العربي، ولا يؤمن بضيق الهويات، ولا بنقائها، ولا بتميزها، بل يعتبرها تفقيرا للإنسان ثقافيا، بل هوياتيا، وانغلاقا إجراميا في حق مخلوق متعدد ومختلف، بل سماها جاهلية منتنة، أي خبيثة، وخبثها نابع من كونها سبب الفتن والحروب بين بني الإنسان، فالخطاب القومي الهوياتي يرفض الآخر، وإن لم يصرح به، بل يضمر رفضه للآخر حتى إذا تمكن قام بالتهجير، والتقتيل، والتصفية العرقية باحثا عن صفاء عرقه الموهوم، ممارسا كل أشكال الإبادة في حق الأعراق الأخرى، وما تاريخ العالم المعاصر عنا ببعيد. إن التصورات الهوياتية القومية

العرقية أيا كان أساسها منغلقة على كل ما تعتقد أنه لا يدخل في ما تعتقد أنه هويتها الصافية النقية، وهْما غير الموجودة واقعيا وعلميا.

يسطو الخطاب العرقي الهوياتي على النفوس فيحولها من بشر منفتح، متعلم، متعارف لا حدود لأفقه في التفكير، والتعليم، والتطوير، والكينونة إلى بشر مبرمج منغلق، فقير، جاهل، بل متخلف مع الاعتقاد بالتفوق الراجع للعرق. يحول التصور العرقي مواقفنا بنيويا، ونفسيا، وسلوكيا، واجتماعيا إلى متطرفين ضد ما يختلف عنا، فالهوية هنا منغلقة في التصور العرقي الفاسد لأنه فاسد علميا وواقعيا، بل ومفسد نفسيا، واجتماعيا، واقتصاديا، بل ووجوديا، وقد كانت هذه التصورات وبالا على البشرية منذ الأزل، والنموذج الألماني والقومية العربية، والقومية التركية..... وما حدث في أمريكا وفي آسيا ولا زال يحدث في كثير من بقاع العالم من الصراعات العرقية نابع من سيطرة مضطربين نفسيا على نفوس الضعفاء، وتحويلهم إلى قنابل عرقية تزدري من يختلف عنها شكلا، أو لونا، أو لغة، أو أرضا، أو دينا. ونظرا لاختراق الإسلام لهذا التصور وتقويضه المستمر في آيات عديدة لدعوى تفوق أي عرق على غيره، فإنه من البداهة أن يشوش على التصورات القومية في ادعاء التفوق والتميز، لأنه ببساطة يربط التميز بالأداء فوق الأرض لا بالشكل، أو اللغة، أو اللون، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً"، سورة النساء: 1.

إن صلابة الهوية متعلقة بالتعامل، والتعارف على المختلف عنك، وأنت لا تتميز عنه لا شكلا، ولا لونا، ولا لغة، لأن كل هذه العناصر موروثة أو طارئة على هويتك الحقيقية، وهي أنك إنسان وكفى. بل إن ما أنت عليه الآن ليس هو ما ستكون عليه غدا لا شكلا، ولا مضمونا، بل إن أجدادك أنفسهم لم يكونوا كما تعتقد، بل لقد تغيروا، وتحولوا، واختلفوا، حتى وصلت أنت على شكلك الذي أنت عليه، بعد أن مررت بتغيرات وتحولات وتطورات لامست جيناتك، وثقافتك، ولونك، ولغتك، ومعتقداتك، أنت الآن لست إلا حلقة من حلقات تطور البشرية، ولن تتوقف عندك، فتوقف عن الادعاء بأنك عرق خالص غير متغير ولا متحول، وأنك متفوق، ومتميز، ولا أحد يشبهك، استيقظ من الوهم الذي تبنيه، والسردية التي تحكيها، وتؤمن بها، لإنك ذاهب إلى الخسران مع كل أقوام الأرض، بل ومع رب أقوام الأرض والسماء.

إن دعوة الإسلام للانفتاح ومعرفة الآخر تهدد جفاف وجفاء وتحجر التصورات الإثنية، وتدخل عليها من التعديلات ما يرفعها إلى مستوى التصورات الإنسانية، تدخل عليها قيم التسامح والتواضع وتساويها بغيرها، وتحفظها من عبث أهلها من المرضى الشوفينيين، وتزود أهلها بأدوات مواجهة التطرف العرقي أيا كان، ولو كان عربيا هاشميا. إن الإسلام باعتباره فلسفة حياة المتعايشين لا يعترف بالثابت إلا عقديا، أي مجموع ما تؤمن به تجاه الله من ألوهية، وتجاه الناس من تعايش، ويستوعب تنوع الأعراق واختلافها حتى أنك لا تجد فوق الأرض دولا تتعايش فيها الأعراق، واللغات، والأديان مثل ما تجده في الرقعة الإسلامية، التي تعكس أرقى أشكال التآلف والتآخي بين الشعوب المسلمة، ولن تجد في أي مكان فوق الأرض عبادة تجمع كل الشعوب والطبقات الاجتماعية على اختلاف لغاتها، وألوانها، وفقرها، وغناها، من شعيرة الصلاة والحج، حيث يذوب كل شيء أمام رب الأرباب، فكلكم لآدم وآدم من تراب. ما

أروع تسامح، وقوة، وتفوق فلسفة الحياة في الإسلام، وما أضعف وأوهن السرديات الاختزالية المقفرة والمفقرة.

إن الانتماء للإسلام انتماء علوي روحي أخلاقي، وليس عرقيا، وإن تعدد الناس لغة ولونا آية من آياته، لينظر هل نحن بالفعل نرتقي بتصوراتنا إلى ما فوق المظاهر والشكليات، ونعانق المجردات الأخلاقية ذات الأبعاد العملية التوجيهية، والمؤطرة لكل سلوكاتنا، أم نبقى أسيري مظاهرنا الخداعة. لا يقصي الإسلام الثقافات، ولا اللغات، ولا الألوان لكنه يرفض سطوتها على بعضها، ولا يعتبرها جوهر الإنسان، بل جوهره الحقيقي هو معتقده، وسلوكه الإيجابي مع غيره، جوهر الإنسان هو ما يتجلى في سلوكاته تجاه مكونات الوجود، وواجد الوجود، وكلما كانت السلوكات سيئة كان الجوهر مدخولا. وإنه لمن الغرابة أن يقع البعض في ادعاء الصفاء العرقي، والتفوق العرقي مع أن الهويات العرقية مكتسبة، وليست فطرية، فهب أنني لما ولدت من أصول رحمانية قرب مراكش تكفلت بي أسرة صينية، وعشت هناك، وكبرت هناك، ودرست هناك، هل سأكون رحمانيا، أم صينيا؟ إن الهوية تبنى من خلال عمليتي التثقيف، والتنشئة، والتربية، وبمؤسسات اجتماعية مختلفة كالأسرة، والمدرسة، ووسائل التواصل الاجتماعي... إن قوة الإسلام بناء على ذلك تكمن في تحرير الإنسان من ضيق لغته إلى سعة لغات متعددة، ومن ضيق قومه إلى سعة الإنسانية، ومن ضيق عرقه إلى سعة التعارف الواسعة سعة الأرض على جميع القوميات، والنظر إليها على أنها تجليات آيات الله، إنه تصور لم تصله بعد أية فلسفة على الإطلاق فما بالك بالتصورات العرقية المتخلفة، والمتحجرة، والمتكلسة.

كم كنت سعيدا، وأنا أجول في المراكز الإسلامية التي تضم أتراكا، وبوسنيين، وباكستانيين، وألمانا، وفرنسيين، وعربا من كل الدول العربية، وأمازيغا، وأكرادا، وأفارقة نضحك كلنا، ونحتسي الشاي، والحريرة، أو أية أكلة لأي بلد آخر، ويأتي عندك الإفريقي، أو الألماني، أو الأمريكي بلون عينيه الزرقاوتين، وبشرته الفاتحة، أو الداكنة، ويقول لك: أخي كيف حالك؟ لا تستطيعون فهم عمق أحاسيسنا أبدا ما دمتم متقوقعين، لا تستطيعون فهم ما أقوله إلا إذ عشتم غنى التعدد في إطار الأخوة الإسلامية الرائعة، بل قد يأتي عندك في إفطار رمضان قسيس أو راهب يفطر معك في المسجد، أو حتى ملحد يريد من باب الفضول أن يكتشف، وتأكل معه، وتشرب، وتتحدث معه، وتقول له اجلس هنا فنحن سنصلي، وبعد ذلك نكمل الحديث.... ما أروع ما عشته حيث سعة الإسلام تشمل كل أقوام الأرض، لذلك فالإسلام معادلة صعبة، عالية، سامقة، لا قبل للإيديولوجيات العرقية بها، ولا بسموها، لأنها ربانية المصدر، والوسيلة، والهدف.

هكذا يقف الإسلام حاجزا أمام تحقيق أهداف المضطربين نفسيا في ادعاء نقاء العرق، وصفائه، وتفوقه، فكيف لا يعادونه؟ إنه يفكك أوهامهم، ومركزية ما يدعون، وعصي على التكيف مع السرديات الهجينة أداء، والضعيفة مضمونا، والهزيلة أداة. وقد يلجأ المضطرب نفسيا وعرقيا إلى حيلة قلب الانفتاح على الغير إلى اعتباره خيانة للقومية، وهي حلية مهترئة حتى الانهيار، لأن الانفتاح على الغير يضمن الانتماء الفعلي، والرمزي إلى مكونات الوطن، بل ويغنيها بالمتعدد، والمشترك مع الغير، أما الانغلاق الهوياتي فهو

سيرورة من الإقصاء تبدأ مما هو ماكرو، لتصل إلى إقصاء أقرب الناس إليك لاختلافه معك شكلا، أو لونا، أو لغة، بل ستقصيه ولو خالفك فقط رأيا، فكيف نقارن ما يتأسس على الإقصاء بما يتأسس على التقارب، والمجاورة، والضم، والتوسيع! كيف نقارن ما يغني بما يفقر! كيف نقارن ما يأتي به عقلاء العالم بما يأتي به المضطربون! فلا تكاد تجد دعوة قومية عرقية وراءها إنسان طبيعي تأسيسا، لكن قد تجد من أتباعه ضحايا كثر عن حسن ظن وثقة. لا يريد منا الإسلام أن نعيش القلق الوجودي بالتساؤل هل نحن عرب؟ أم صرب؟ أم أمازيغ، أم صينيون أم .... لا تهم هذه التسميات إلا في حيز ضيق جدا، الحقيقة هي أنك إنسان وكفى، وفوق عرقيتك، ولغته وثقافتك، بل عليك أن تسعى أن تصبح فوق ما خلقت عليه كأمريكي، أو مغربي، أو...

إن أفقك أيها الإنسان هو الإنسانية بتخلقها الإسلامي الذي يحترم الكل، بضوابط تراعي تعدد المكونات للنسق العام. وقد يعاني الإسلام نفسه من نزعات فقهية، أو عرقية، أو لغوية تحاول جاهدة جعله ضيقا، حرجا، صلبا، متجمدا، ومتكلسا، وعليك قبل الحكم على أي تصور أن تعرف عن صاحبه، فأكيد ستجده متكلسا ومتصلبا، أسقط تكلسه وتصلبه النفسي على ديننا الحنيف. إن التصورات العرقية للهوية بهذا المعنى لم تستفد من تاريخ الإنسانية، أو أنها أدوات في يد غيرها، لأنه بالنظر إلى تاريخ الإنسان لا يمكن اعتبارها إلا انتكاسة إلى الوراء، بل هي إدبار، وفرار من الحاضر والمستقبل، إلى الخلف، بل هي انقلاب لتعددية الإنسان إلى واحدية واهمة وموهومة، إنها إدبار ونكوص إلى ما قبل المجتمعات المعاصرة، لأنها تعبر عن حالة العجز عن الانفتاح على المختلف والمخالف، بالالتجاء إلى تضخيم مميزات الأنا الصافية النقية غير الموجودة لا علميا، ولا واقعيا، إنها تعبير عن ذهول نفسي أمام تعدد وجودي مركب عبر عن نفسه بالاشتغال بآليات الرفض، والتقوقع، وادعاء التفوق لإعادة التوازن لنفوس لا تثق في نفسها، أو تدعي تفوقها.

إن كل ذلك يجعل الإسلام في مرمى القوميين، لأنه يوقفهم أمام عجزهم، ويطلب منهم ما يرفضونه، لعجزهم عن الاشتغال على ثقافتهم، وأنفسهم، وممارسة الانفتاح على المختلف معهم. كم من مرة وأنا أشتغل في ألمانيا، هاجمنا القوميون، الآريون، المعتقدون بصفاء الجنس الآري، وأرادوا بعنصريتهم المقيتة الاعتداء علينا ظلما وعدوانا، وكانوا يصرخون بأصوات مرتفعة اخرجوا من أرضنا، نحن ألمان، نحن أفضل منكم، لماذا تستعمروننا؟ ابقوا في بلدانكم... هذا يذكرني بما أشاهده على الفيسبوك من صراع الديكة بين قوميين عربا وأمازيغ بدون أدنى احترام لبعضهم البعض، خصوصا وأنهم يعيدون نفس السردية العرقية نفسها، والمصطلحات نفسها، بل والتهديدات نفسها التي تعرضت لها شخصيا مرات عديدة في ألمانيا، حتى أنني في إحدى المرات اتصلت بالشرطة التي أخرجتني من ورطة العرقية المقيتة، فأقول في نفسي العرقية ملة واحدة. فهي داء لا يقف أمامه إلا دواء الإسلام، لذلك يهاجمه مدعو العرقية بكل الطرق والأساليب. إن خطاب العرقيين كله تهديد، وتسفيه، وتنكيل رمزي، وسب وشتم...، وهو مقيت كما قال رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو قلق سواء كان صينيا، أو عربيا، أو أمازيغيا، أو آريا... ليس الإسلام منافسا لكم أيها العرقيون، بل إنه يحميكم من أمراض أنفسكم، يهذب تصوراتكم

وأفعالكم، ويفتح أمامكم ما تغلقه عليكم عصبياتكم الشيطانية. حي على الانفتاح، وبعدا للانغلاق، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم.

يقدم الإسلام فلسفة أنثروبولوجية تُفكك كل أسس التفوق العرقي، حيث يؤكد أن التنوع في (شُعُوبًا وَقَبَائِلَ) هو غاية وجودية لـ (لِتَعَارَفُوا)، وأن المعيار الأوحد للكرامة هو (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

فلسفياً، الإسلام هو أفق إنساني واسع يحرر الإنسان من ضيق قومه، بينما يمثل الخطاب القومي العرقي "جاهلية منتنة" و**"انغلاقاً إجرامياً"** يسعى لـ "الصفاء العرقي الموهوم" الذي هو باطل علماً وواقعاً.

سيكولوجياً، تنبع النزعات العرقية من اضطراب نفسي وعجز عن الانفتاح على المختلف، مما يدفع الأفراد إلى تضخيم مميزات الأنا غير الموجودة لإعادة التوازن لنفوس لا تثق في نفسها. هذا الانغلاق يحول الأفراد إلى "بشر مبرمج منغلق"، ويجعل الإسلام في مرمى هجوم هؤلاء "المرضى الشوفينيين" لأنه يوقفهم أمام عجزهم ويفكك أوهامهم المركزية.

بيداغوجياً، الإسلام هو "دواء" يقف أمام "داء العرقية"، ويدعو إلى منهج تربوي عملي يقوم على الانفتاح والتآلف، ويظهر هذا في شعائر الحج والصلاة التي تُذيب الفوارق. ويتطلب هذا المنهج التوعية ضد التصلب النفسي الذي يسقط على فهم الدين، وتفعيل الحوار وبناء الجسور في وسائل التواصل الاجتماعي، وإتقان لغة الواجبات، كأدوات أساسية لتهذيب التصورات ونصرة "الهوية الإنسانية الشاملة".

التأمل القرآني السابع: بيداغوجيا الوعي التاريخي: كيف نحمي الجيل من "مخدرات" الإعلام الصهيوصليبي؟

وصلتني رسالة من صديق على الفيسبوك يخبرني فيها أن أستاذا لمادة الاجتماعيات في مكان ما، في المستوى الإعدادي، يقول له، ولتلامذته آنذاك، أنه لن يناصر الفلسطينيين لأنهم باعوا وطنهم، وهذه العبارة كنت أرددها كذلك وأنا مراهق في سن 16 وربما حتى 20 سنة، تحت تأثير الرواية التي حبكها عبدة العجل المتصهينون في بداية بناء سردياتهم الاستعمارية، ومحاولة تبرير طردهم الممنهج لأصحاب الأرض الحقيقيين. لقد استطاع الإعلام الغربي وبعض متصهيني الداخل التأثير على مواقفنا، ونحن مراهقون، متسرعون، وجاهلون، وتبنينا بدون وعي رواية الظالم، وحملنا المظلوم الذنب، بل وجعلناه مسئولا عن استعمار غيره له، وأعفينا أنفسنا من كل المسئولية، ولو كانت معنوية، وهكذا كنا نناصر الأعداء، ونسهل لهم مهمة الاختراق، لكن ما أن نضجنا وبدأنا نقرأ بكل اللغات الممكنة، وعمقنا معرفتنا بالتاريخ حتى بدا لنا عمق التجهيل والتضليل الذي كنا ضحاياه، خصوصا وأن التيارات القومية والإسلامية التي كانت تناصر القضية الفلسطينية تم ربطها في مخيلة الناس بالخوف، والإرهاب، والانقلابات، والعنف نتيجة سياقات جد معقدة آنذاك و.... وصلنا إلى نتيجة مفادها أن أدوات التخدير والتضليل تدفع إلى تبني الظلم مكان العدل، وتساعد على تبرير التخاذل عوض العمل على نشر الوعي التاريخي، وتضلل الناس عوض أن تهديهم إلى الحق الأبلج واقعيا، والمغطى تضليلا بسرديات واهية تفعل المستحيل من أجل تزوير الماضي، والحاضر، والمستقبل.

إن الحقيقة التاريخية التي نراها بأم أعيننا الآن، التي هي نفسها التي سادت منذ النكبة، وهي الطرد الجماعي والقسري، والتقتيل والتهجير الممنهج، حتى وصلنا الآن إلى مستوى قياسي يقول فيه رئيس دولة رعاة البقر، ورئيس دولة عبدة العجل أن على أهل رباط عسقلان الخروج إلى بلد آخر، وعلى البلدان المجاورة أن تستقبل أصحاب الأرض لصالح شعب بدون أرض، وتم تزيين عملية الطرد والقهر بالاقتصاد، وتطوير المنطقة، والحال أن الأمر يتعلق بالاستيلاء عليها إلى الأبد. إن سياسة التضليل وتشويه الوعي التاريخي سلاح صهيوصليبي امبريالي منذ زمن بعيد وبامتياز، ويكفي فقط الرجوع إلى السياسات الاستعمارية في كل بلداننا، وقد تلتقي الروايات الاستعمارية العجلية مع أهواء النفوس المتخاذلة، أو الجاهلة، أو العميلة لاغتيال الحق الفلسطيني، وقبره نهائيا، وهذه القضية بالضبط تحتاج لمن ينخرط فيها دفاعا عن الحق، أو على الأقل السكوت، وعدم مناصرة الظلم، وكل ميل عن هذين الموقفين سيؤدي حتما إلى تبني موقف مبني على فخ الروايات المبتورة، أو الكاذبة المختصرة، والمختزلة، والظالمة. إذا كنت لا مباليا فابق لا مباليا، ولا تقف موقفا، أو تنشر فكرة لا تعرف أصلها، ولا آثارها، قال تعالى: "**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**"، سورة الإسراء: 36. فكيف لشعب باع عن طيب خاطر أن يستمر في المقاومة، ودفع دم أطفاله، وشيوخه، وشبابه، ونسائه ثمنا ليبقى على أرضه،

ويسترجع المسلوب منها؟ يا للعجب من عمق بلادتنا! لا تعدو مبررات عدم النصرة إلا سقوطا أخلاقيا يبرر عمق أزمة وجودنا، وضعف معرفتنا، واستقلالنا في اتخاذ قراراتنا.

إن صياغة: "لن أدافع عن الفلسطينيين لأنهم باعوا أرضهم..."، صياغة لغوية سيكولوجية أكثر منها صياغة لغوية موضوعية، وتحيل ضمنيا على العجز الذي يسكننا، والهوان الذي أصابنا، والجهل الذي غزانا، تحيل على تناقض الرزمة الأخلاقية القيمية التي تسكننا من قيم التعاون، والتآزر، والأخوة، مع ضعف موقفنا، بل عمالته، ووقوفه مع العدو ضد الأخ في الدين، والأرض، واللغة، والمصير المشترك. ندرك يقينا أننا نتحمل مسؤولية دماء إخواننا المسلمين، وندرك بعمق واجب النصرة كواجب عقلي، وإنساني، وشرعي، وندرك ضعفنا، بل وخذلاننا، فنبحث سيكولوجيا عن مبرر يجد قبولا نفسيا في دواخلنا كي نشرعن للخذلان، ونحفظ أنفسنا من تأنيب ضمائرنا إن كانت لا تزال تنبض بالحياة. لا حيلة للنفس غير الواعية إلا الإسقاط على رأي فرويد كي يتحمل الضحية وزر كل شيء بما فيه خذلاننا. هكذا نتورط قانونيا، وشرعيا، وحقوقيا، وأخلاقيا، ولا بأس في هذا الإطار من خفض مستوى حس الانتماء العقدي، والإنساني، والقومي.... بل لا تتعجبوا أن تجدوا أن هذه السيرورة السيكولوجية ذهبت أبعد من ذلك عند بعضنا الذين وصلوا إلى مستوى أخطر من الهوان، والخذلان، بحيث يحملون الضحية المسؤولية عن القتل، بل ويطلبون منها الاستسلام للعدو، بل أن تضع يدها في يد عدوها لتسلمه نفسها، وأرضها، وسلاحها، في انسلاخ تام من المروءة، أو أدنى درجات تحمل المسؤولية. لقد ذهب بعض المرتزقة إلى حد قول أن الفلسطينيين يستحقون ما وقع لهم، وأن عبدة العجل قاموا بما هو واجب عليهم القيام به، نعم هكذا تم اختراق برامج الأدمغة الغارقة في الفيروسات الفكرية، التي تحتاج إلى مضادات فكرية أقوى، وأعدل، وأصح، فما بني على باطل يبقى باطلا طال الزمن أو قصر، والأيام دول.

نحتاج بناء على ذلك لعقول نقدية تفكك الروايات، والسرديات التاريخية، تواصل التوعية بقضايا الأمة مجموعة، وبقضايا كل وطن على حدة، نحتاج إلى شباب شغوف بالقراءة لا بالاستماع للجاهز، فالجاهز ملفوف بالمخاطر، وغارق في التمويه، ويتم إعداده من أجل التشويه، ولا شيء أعمق وأصعب من تشويه الفكر المؤدي لتشويه الفعل، فيغدو الفرد حاملا لأفكار عدوه، مقاوما لأفكار، وأعمال إخوته وبحسن ظن، انتبهوا نحتاج بالفعل إلى التريث في كل شيء أثناء التعامل مع ما يقال، ويكتب، وينشر في الكتب، خصوصا في وسائل التواصل الاجتماعي التي صارت مصدرا مهما للمعلومات التي نبني عليها الأحكام، ومن تحكم فيها تحكم في كل ما يخرج منها، وإلا نشأ جيل بالمقلوب، يفكر بالمعكوس ضد نفسه، وأمته، وبلده حاملا بين جنبيه نفسا جبانة، ضعيفة الزاد، أو حاملة لزاد فاسد ومفسد. أيها الناس إن التخاذل مشاركة في الظلم أيا كان السبب، ولا مبرر له. انتبهوا فسواء فهمتم أم لم تفهموا فربنا قال: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"، سورة الإسراء: 1. ونحن نؤمن أيما إيمان بأن المنطقة مباركة في قوتها، وأهلها، ومقاومتها، وأنها مكان تم اصطفاؤه لوصل الأرض بالسماء، ومهبط الأنبياء، وأن نهاية كل ظلم فيها يتولاه ربنا، وربها، وربكم بحكمة بالغة لأنه كما في الآية سميع بصير، فقط انظر في أي

جانب تريد أن تكون، مع عبدة العجل الظالمين، أم مع المؤمنين الصابرين المرابطين، ولا وجود لمنزلة بين المنزلتين. شكرا للمهندسة المغربية ابتهال التي فضحت أقزام العرب، أغنياء الحروب، وأقزام الغرب الصهيوصليبيين، منفذي الحروب.

تتلخص الرؤية الجامعة في أن الجهل التاريخي المُغلف بالسرديات الاستعمارية يشكل أزمة وجودية وأخلاقية عميقة، إذ يحوّل التخاذل عن نصرة المظلوم إلى عمل "مُشرعن" عبر آلية نفسية دفاعية تُعرف بـ"الإسقاط"، حيث يُحمَّل الضحية مسؤولية خذلان المُتخاذل، مما يريح الضمير ويُعفي الذات من واجبها. فلسفياً، يُعتبر هذا التخاذل مشاركة في الظلم وسقوطاً أخلاقياً لا يقبل منزلة بين المنزلتين، ويؤكد على أن الوعي التاريخي النقدي هو شرط للاستقلال المعرفي والأخلاقي وضمان لقرار مستنير (وفقاً للآية: السمع والبصر والفؤاد).

وبيداغوجياً، تتطلب مواجهة هذا الاختراق الفكري تنمية "عقول نقدية" لدى الشباب، تُعلي من شأن القراءة والتحقق وتتخذ مبدأ "التريث" في التعامل مع المعلومة الجاهزة (خاصةً من وسائل التواصل الاجتماعي)، لضمان عدم نشأة جيل يحمل أفكار عدوه ويفكر "بالمقلوب" ضد مصلحته وكرامته.

تأملات في الهدايات الإلهية

التأمل القرآني الأول: بيداغوجيا التوسط

- يبعدك الأكل الكثير عن التركيز والتفكير بعمق: الأكل نعمة والإفراط فيه نقمة ومبعد عن التقرب إلى الله؛

- يسرقك الإدمان بكل أشكاله من ربك ؛

-المعاناة العاطفية الناشئة عن ماض جميل أو سيء قد ذهب، ومستقبل قريب أو بعيد لم يصل. تستدعيهما يوميا في حياتك لإفساد حاضرك: يبعدانك عن القرب من الله، ويجعلانك تحاكم الأقدار بما لا يليق، ولا يبني نفسا مطمئنة؛

-الذنوب بكل أنواعها جزء منك وليس هي أنت، فلا تضخمها فتقترب من الشر، وتبتعد عن الخير، تضخيم الذنوب واختزال نفسك في أخطائك يبعدك عن رحمة الله في نفسك، ويجعل ظنك بربك ظن سوء أكثر منه ظن خير، فيربو فيك جانب التمرد على جانب التذلل والطاعة؛

-الابتعاد عن العلم والقراءة وتدبر القرآن، يجعل مصادر معرفتك أحادية لا تعكس الوجود المركب مما هو ميتافزيقي، ومادي، فيغدو منهجك قاصرا، ومصادرك ناقصة، ونتائج تدبرك مدخولة؛

-كل أشكال التبذير المادي أكلا، وشربا، وركوبا، واستهلاكا يحولانك لمبذر للجهد، والمال، والوسائل، والأوقات... التوسط في كل شيء هو الطريق إلى الله، والشطط في كل شيء هو الطريق إلى الشيطان؛

-سلوكاتك وعاداتك اليومية إن قولا أو فعلا: الكلام الكثير، النميمة، الغيبة، الحكم على الناس، ومصائرهم، وأفعالهم بلعب دور القاضي، كل هذا يقربك من الشيطان، ويبعدك من الديان؛

-اقترب من كل متدبر، وكل إيجابي متوازن، وكل عامل مجتهد، وابتعد عن أضدادهم، وإذا ابتليت بهم فأعطهم بالقدر الذي تحفظ به أمنك النفسي الموصل إلى الله، غير المضر بالبشر؛

-معاشرة بعض المخلوقات مثل القطط والحيوانات الأليفة فيه آيات متعددة يمكن أن تفيدك في القرب من الله، ففي كل ذي كبد آية أو آيات؛

-تعود على لحظات خلوة لنفسك، تتأمل فيها في الخلق، والطبيعة، ونفسك، والوجود، فالابتعاد عن مشوشات التركيز يقرب إلى الله؛

حاول أن تتعامل مع هذا كله للرقي والقرب من الرحمن، فكلنا ذلك الرجل المخطئ، وكلنا ذاك الرجل الذي يريد السلامة في الدنيا والآخرة .

وعليه، فإن القرب من الله موصل إلى جدلية التوازن والمسؤولية. إن القرب من الله (الرقي الروحي) هو نتيجة للتوازن (التوسط) بين المادة والروح، وهو عملية مستمرة تتطلب مسؤولية واعية تجاه الذات والعالم. فلسفياً، يُعتبر الشطط والإفراط في أي شيء مادي (الأكل، التبذير) أو عاطفي (الماضي والمستقبل) هو الطريق إلى المعيق الروحي (الشيطان)، بينما التوسط في كل شيء هو الطريق إلى الله .

ووجود الإنسان مركب، يتطلب معرفة غير أحادية تأخذ في الحسبان الميتافيزيقي والمادي (العلم وتدبر القرآن).

ونفسياً، نشدد على خطر الإسقاط الذاتي السلبي، حيث أن تضخيم الذنوب واختزال الذات في الأخطاء يحول دون الشعور برحمة الله ويُرسّخ ظن السوء بالخالق، مما يغذي التمرد بدلاً من التذلل. كما أن المعاناة العاطفية (الماضي أو المستقبل) هي آليات هروب تسرق الحاضر وتمنع السلام النفسي. لذلك، فإن الطريق يكمن في تقبل الذنوب كجزء خارجي (ليست هي أنت) والسعي للحفاظ على الأمن النفسي عبر الخلوة والتأمل.

وبيداغوجياً (سلوكياً/تربوياً)، يُطرح المنهج كوسيلة عملية لتحقيق القرب، عبر ما يلي:

أولاً: تنقية السلوكيات اليومية من مبعدات القرب (الكلام الكثير، النميمة، الحكم على الناس).

ثانياً: الانتقاء الإيجابي للبيئة الاجتماعية (معاشرة المتدبر، الإيجابي، المتوازن، والابتعاد عن أضدادهم).

ثالثاً: التأمل في الآيات الكونية (الخلق، الطبيعة، المخلوقات الأليفة) كأدوات للتركيز والوصل الروحي. في الختام، نقر بأن الجميع خطّاء ويسعى للسلامة، وأن القرب من الرحمن هو غاية قابلة للتحقق عبر هذه الإجراءات الواعية.

التأمل القرآني الثاني: صورة الله كعدسة لتشكيل الذات والوجود

إن الصورة التي طورناها عن الله، أي مجموع ما نؤمن به عن الله، أعتبره مركزيا، بل وجوهريا بشكل نسقي. إنه أمر بالغ الأهمية، لأن مجموع ما اعتبرناه صحيحا تجاه الله عز وجل من أفكار هو الذي يحدد ما نؤمن به في كل شيء آخر. أي أننا إذا استدخلنا صورة مشوهة عن الله، أو معكوسة أو سلبية فإن باقي الصور الوجودية الملامسة لكل الأشياء والأشخاص من حولنا ستتشوه. فإذا كان الله عندي عدلا، سأرى العدل يجتاح العالم، وإن بدا لي الظلم سائدا، والعكس صحيح، وإن اقتنعت أن الله شديد وغير رحيم، تجلت لي الشدة في كل الأفعال، والأقوال، والأحداث. فرؤيتنا مبنية على شبكة قناعاتنا واعتقاداتنا وصورنا التي تلبست بها عدسات رؤيتنا ذات الأصل الجواني، ففهومنا وأحكامنا على الأشياء التي تقع خارج ذواتنا تأتي من داخلنا، وغالبا لا نهتم بداخلنا اهتمامنا بما يقع خارج ذواتنا. وصدق من قال: "كن جميلا ترى الوجود جميلا". فالذي يمتلك نظارات مشروخة، أو مضببة، أو مظلمة سيرى الوجود مضببا، أو مظلما، أو مشروخا.

ولا أستبعد أن تكون صورتنا عن أنفسنا هي نتاج صورتنا عن الله، فإذا رأيت الله بشكل مشوه تأكد أنك سترى نفسك، ومحيطك مشوهين، ولا يمكن فصل صورتنا عن الله بنوع إيماننا به، فإيمان تقي نقي سالم يرى الكمال في الله، يرتفع معه عندنا من منسوب جودة صورتنا عن أنفسنا ومحيطنا، وإذا كانت رؤيتنا لله فقيرة افتقرت رؤيتنا للوجود بأكمله بما فيه أنفسنا، أما من كان الله خارج حساباته، فليس له بديل إلا أن يكون تجليا واضحا قويا لإبليس، فدواخل نفسك لا تحتمل الفراغ، فإما الله أو من دونه.

تتسلل نظرتنا لله إلى كل جزئيات حياتنا حتى لأبسط فعل، فنرى الله، ويده، وتدخله في كل حركاتنا، ولا تتعجب أن غيرك لا يرى الله في تفاعلاته اليومية، بل يرى الصدفة، أو يرى ذكاءه، أو يرى العبث هو سيد الموقف، فدواخله يسكنها الفراغ الإلهي. وعليه، ننقسم بين مستحضرين وعابدين لله، وبين من جعل إلهه الصدفة، أو العبث، أو نفسه متجلية في ذكاءه. وبناء عليه، يغتني المؤمن إيمانا، ويزداد التائه تيها، ويفتقر أفقه الميتافزيقي إلى أبعد حد. إن صورة الله التي نحمل في أفئدتنا لا تجعلنا نشعر بالعجز، ولو كنا عاجزين، بل تسمو بنا إلى مدارج أعلى تستقر فيها آليات التعامل مع الوضعيات التي نصل فيها إلى حدودنا القصوى، فالله هنا وهناك في كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل الوضعيات جميلها، وقبيحها. وعليه، يأمرنا عز وجل أن ندعوه لتجاوز محنة هي في حكم حساباتنا تحتاج أكثر من الدعاء، فلا يزيد إلا أن يخبرنا ادعوا، وبلغوا، ولا يغرنكم ما ترون، فما لا ترون أعظم، وأكبر، وأقوى، وما يهمني منكم هو هذا بالضبط تسليم أمركم في حال النعمة لله، وتسليم أمركم في حال النقمة والشدة له تعالى. وسيرا على هذا النهج تنقلب عند المؤمنين أحكامهم على كل شيء رأسا على عقب، فما يراه غيرهم انتصارا يرونه وهما، وما يرونه وهما يراه غيرهم انتصارا. إنه نوع من امتزاج العالم العلوي، مع العالم الدنيوي، وهو ما قد يسميه الدنيويون بالتخدير، فالمؤمن عندهم مخدر ويتناول حشيش الأديان، وهو عند نفسه مؤمن

بوعي، وتفكر، واختيار، وإرادة، والمدمن الحقيقي على الحشيش الصلب هو من اعتقد في نفسه وغيرها، وترك ربه جحودا، أو رياء، أو استكبارا، أو مكرا.

إنهما إطاران توجيهيان متناقضان يحملان صورتين مختلفتين عن الله، الله الفاعل في الوجود، والمعبود الحق، والإله باعتباره صدفة، أو عبثا، أو ذكاء ذاتيا. الأول يفكر، ويؤمن، ويعمل، ويعبد، والثاني يفكر، ويؤمن، ويعمل، ويعبد، إلا أن أفكارهما، وإيمانهما، وأعمالهما، وعبادتهما مختلفة حد التناقض، والسبب الجوهري هو الصورة التي يحملها كل واحد منهما عن الله. إذا كانت فكرتنا عن الله فقيرة، فإننا نصبح أفقر. إذا جعلنا أنفسنا إلهًا ضعيفًا، وعاجزًا في أفكارنا، ولا يتحكم في كل شيء حتى التفاصيل الأخيرة، فإننا نرى أنفسنا عاجزين، ونشعر بالإرهاق من الظروف والأزمات من حولنا. إذا كان إلهنا بلا قيمة، فنحن نعتبر أنفسنا بلا قيمة؛ إذا كنا نؤمن بالكذب عن الله، فإننا نؤمن أيضًا بالأكاذيب عن أنفسنا، على سبيل المثال.

إن الصورة المُستدخلة عن الله هي المركز النسقي الذي يحدد جودة رؤية الإنسان لنفسه وللوجود ككل. فلسفياً، يُعتبر هذا التصور بمثابة إطار توجيهي متناقض؛ فإذا كانت صورة الإله تتميز بالكمال والعدل، يرى المؤمن العدل في العالم حتى وسط الظلم الظاهر، وتسمو به هذه الصورة ليتجاوز عجزه نحو مدارج أعلى حيث يستقر التسليم المطلق لله في حالتي النعمة والنقمة. أما من كانت صورته عن الإله مشوهة أو غائبة (استبدال الإله بالصدفة، أو العبث، أو الذكاء الذاتي)، فإنه يرى الوجود مشوهاً ومضطرباً، ويعيش حالة من الفقر الوجودي والفراغ الروحي.

نفسياً، نؤكد أن إدراكنا للأشياء الخارجية ينبع من دواخلنا (الأصل الجواني)؛ فالذي يرى الله عدلاً، يشعر أن العدل يجتاح العالم. وعلى النقيض، فإن صورة الله المشوهة تولد بالضرورة صورة مشوهة عن الذات والمحيط، وتؤدي إلى العجز والإرهاق من الظروف، لأن الذات لا تحتمل الفراغ الإلهي. فالإيمان بصورة كاملة عن الله يرفع من منسوب جودة صورتنا عن أنفسنا، بينما الإيمان بالكذب عن الله يؤدي للإيمان بالأكاذيب عن الذات، مما يحول المؤمنين إلى مُستحضرين لله وعابدين بوعي، ويحوّل الغافلين إلى مدمنين على الحشيش الصلب (المادية والعبث) جحوداً أو استكباراً.

بيداغوجياً (إدراكياً)، نرى ضرورة العناية بالداخل ومراقبة شبكة القناعات والمعتقدات التي تشكل عدسة الرؤية. المهمة الأساسية هي تنقية الصورة الإلهية عبر التفكير والتدبر الواعي، لضمان ألا تظل أحكامنا على العالم نابعة من أفكار مشروخة. هذا الإطار يوجه الإنسان للبحث عن يد الله وتدخله في كل جزئيات الحياة، حتى أبسط الأفعال، مما يغني الأفق الميتافيزيقي للمؤمن باستمرار، في مقابل فقر الأفق لدى التائه.

التأمل القرآني الثالث: مثلث الاستقرار الوجودي: المعيقات، الثقة، العمل

إن الثقة في الله جزء من إيماننا، وهي بذلك معرضة يوميا لهزات مختلفة. وعليه، وجب العمل المستمر على رعايتها، وصيانتها، ودفعها للنمو والتطور، ونمو الثقة في الله نمو كمي، بحيث تتكاثر وتتعدد مجالاتها، وعدد المرات التي نجددها في اليوم يكثر ويتزايد، أما تطورها فهو كيفي، أي أنها تصبح سلاحا سيكولوجيا فعالا في أية وضعية تعترضنا، تتهاوى أمامها كل الضربات والخيبات، ونخرج بها أقوى بعد كل حادث، وتتمدد في دواخلنا بحيث نصبح لا نثق إلا في الله، لا في غيره، مهما كان الأمر صعبا، أو بسيطا، كبيرا، أو صغيرا. ولا يمكن أن تنمو ثقتنا في الله فقط بمجرد استحضار الله، بل إن أكبر وسيلة يمكن أن تساعدنا في ذلك هي دوام عزمنا وعملنا المستمر للخروج من مناطق الراحة، التي يرافقها الخمول، والرتابة، والعمل على تجريب الجديد، ودخول المغامرات. إن إيمانا غير محفز على العمل، إيمان لا ثقة فيه، أو أنها ثقة مهتزة، أما إتيان الأعمال الجديدة ففيه ممارسة للحرية، التي هي إرادة ربانية الأصل فيها أن تولد العمل، ولو بغرس فسيلة والقيامة تقوم، ثقة مطلقة في نتائج الغرس ولو في يوم القيامة، وهي ثقة في أوامر الله، التي ليس من ورائها إلا التطور والنمو. فعندما ندخل تجربة جديدة تلاحقنا تحدياتها، ونقف عند حدودنا القصوى، ونظن أننا انتهينا، وأننا انهزمنا، فإذا بنا نجد منافذ جديدة، وطرقا مديدة، كلها من عطاء الله بعدما ظننا انقطاعها. إنه عطاء تزكو به ثقتنا في الله، فنحمد الله أن خرجنا سالمين غانمين، أو بخسائر لا بخسارة مطلقة.

إن محننا هي وقود ثقتنا، بل الماء الذي تسقى به فتربو إلى أن تصل مستوى الثقة المطلقة. الثقة بالله هي ما يجعلنا نثق في عقولنا، وفي الوقت نفسه نشك فيها، نثق فيها لأنها كانت وراء إتيان أفعالنا وقراراتنا، ونشك فيها لأنها عجزت لحظة احتياجنا لها لإخراجنا من أزمتنا، التي نشأت عن تعقلنا، وفعلنا، وبدأ بعضنا ينظر إلى بعض، فإذا بحدث جديد، في مكان قريب أو بعيد يغير المعادلات التي شكلت الحاجز أمام عقولنا، عقولنا تدفعنا للعمل وتوصلنا إلى القلق لأنها لا تعلم الغيب وما سيحصل برغم حساباتها المتعددة، ولا تستحضر دائما أن عقولا أخرى تعمل، وتخطط في اتجاه معاكس، قد نصل سيكولوجيا إلى اليأس، لكن الترياق الميتافزيقي هو ثقتنا المطلقة بالله، الذي نعتقد بل نثق في تدبيره الكلي للكون، والعالم الصغير والكبير، تجعلنا ثقتنا في الله نحب الله حبا لا حب بعده، لأننا ندرك بها، أنه بالفعل يتدخل في الوقت الذي يريد هو، بالطريقة التي يريد هو، إلهنا ما أعدلك، ما أحكمك. قال عز وجل في قربه منا: "ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمت الله قريب من المحسنين"، سورة الأعراف: 56. وقال كذلك: "هو أنشاكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب"، سورة هود: 61 .

تعتبر الثقة في الله هي السلاح السيكولوجي الفعال الذي ينمو ويتطور بالعمل والتجربة، وتتجسد فلسفته في ضرورة الخروج من الرتابة والخمول (مناطق الراحة). فالإيمان الذي لا يحفزه العمل المستمر

ودخول التجارب والمغامرات الجديدة هو إيمان مهتز أو لا ثقة فيه. هذا الفعل يمثل ممارسة للحرية (الإرادة الربانية) وينتج عنه ثقة مطلقة في أوامر الله وفي نتائج العمل، حتى لو بدت مستحيلة (غرس فسيلة عند قيام الساعة). الثقة المطلقة تنبع من الإيمان بالتدبير الكلي لله للكون، وهي ما يجعل المؤمن يحب الله "حباً لا حب بعده" لتدخله في الوقت والطريقة التي يريدها.

ونفسياً، تُعد المحن والأزمات هي الوقود والماء الذي تسقى به الثقة حتى تصل إلى مستوى الثقة المطلقة. إنه التناقض النفسي بين العقل الذي يدفع للعمل ويوصل إلى القلق لأنه لا يعلم الغيب، وبين الترياق الميتافيزيقي المتمثل في الثقة المطلقة بالله. هذه الثقة هي ما يجعل المؤمن يثق في عقله (لأنه اتخذ القرار) ويشك فيه في الوقت ذاته (لأنه عجز لحظة الأزمة). الثقة المطلقة هي التي تُمكن المؤمن من مواجهة اليأس والخروج من التجارب سالماً غانماً أو بخسائر لا بخسارة مطلقة، مما يوسعها لتصبح شاملة لا تثق إلا في الله وحده.

بيداغوجياً (سلوكياً/تنموياً)، نقدم من خلال تأملنا منهجاً عملياً لتطوير هذه الثقة. لا تنمو الثقة بمجرد الاستحضار الذهني، بل عبر التعود على العمل المستمر لتحدي الذات ودخول التجارب الجديدة. عندما يواجه الإنسان حدوده القصوى في التجارب، يكتشف منافذ وطرقاً مديدة من عطاء الله بعد ظن الانقطاع، وهذا الكشف العملي هو ما يزكي الثقة ويرفع مستواها الكيفي. كما أن الثقة هي ما يجعل المؤمن يثق في عقله ويشك فيه، مما يعلمه التواضع المعرفي والاعتراف بحاجة العقل للتدبير الإلهي الشامل.

التأمل القرآني الرابع: القرب من الله والإحساس بالبعد عنه

يحس كل مؤمن صادق في إيمانه في لحظات معينة بأنه بعيد عن الله، ربما هجره الله، مما يحدث في جوانيتنا فراغا عميقا، إذ تأتي لحظات على الناس لا يشعرون فيها بالله، ويتساءلون أين الله؟ هل بالفعل هو معي أم لا؟ وإن لم يكن، كيف لي أن أقترب منه اقترابا لا بُعد بعده؟

لا أعتقد أن هناك طريقة واحدة للاقتراب من الرحمن الرحيم، فكل واحد قد يجد طريقه الخاص، ويشترك مع الناس في الطريق العام. وإذا كنا نسعد كثيرا باللقاء بأحبتنا في مكان ما، وزمان ما، وطريقة ما، فإن هذا النهج نفسه يسري على علاقتنا بالله، قال ربنا: "إذا أتاني يمشي أتيته هرولة" كما في الحديث. إن القرب من الله والإحساس به يستدعي الذهاب إليه، مواعدته، في كل الأزمنة، والأمكنة، والطرق المختلفة المتاحة أمامك. تفيض عيناك بالدموع، ويطير قلبك فرحا عندما ترى من تحب، وتعانقه، وهل تظن أن اللقاء بالله بعيد عن هذه الأحاسيس؟ لا أبدا، بل إن الله يبادل أحباءه حبهم وزيادة. قال تعالى: "**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه**"، سورة المائدة: 54. إن القرب من الله يرتبط في بعض الأحيان بقدرتنا على التغلب عما نحب، والامتناع عنه، وفعل ما يحب الله، فقد يستقر حبنا على حب ما لا يحبه الله، فنصبح بين خيار أن نفعل ما نحب، أو نظفر بحب الله بالامتناع عما لا يحب، وقد نفشل في بعض الأحيان، وننجح في أحايين أخرى، نفشل عندما تغلبنا شقوتنا، ونفضل ما لا يحب الله عما يحبه الله، لكن الرائع والغريب والجميل هو كون الله عز وجل لا يغضب، لتفضيلنا الناتج عن غلبة نفسنا علينا، وتحريك الشيطان لنزواتنا، بل يغضب لو أن هذا التفضيل مستحكم فينا في كل أفعالنا، ونابع من دواخل قلوبنا، وليس فقط من هفواتنا، حب الله لنا كبير لأنه عز وجل يعلم ضعفنا، وقوة دوافعنا، وحيل شياطيننا، فيقابل الخطأ بالحلم. لذلك أقول دائما لمن يشك في الله أن يتكلم مع الله في لحظات ضعفه في الصلاة، وقراءة القرآن، وفي الليالي في الخلوات. إنه يسمعنا ويحاورنا، إذ تحس وأنت تتأمل ليلا في آية ما أن السكينة تتنزل عليك، وأن الأفكار تفيض عليك، وأن الكون جميل بجمال خالقه، وأن فرحا يشع في دواخلك. تحس بأن يد الله تداعب كل مكوناتك بتأثير بليغ لم يحدث إلا بعد أن وفرت له الشروط.

إننا نحب ونكره، والله يحب ويكره، لكن حبا وكرها يليق به هو عز وجل، ألم تقرأ قوله عز وجل عن بني إسرائيل: "**فلما آسفونا انتقمنا منهم**"، سورة الزخرف: 55. إنه عز وجل غضب، تأسف، انزعج، ألم تقرأ : - "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِن أَحَدِكُمْ كانَ علَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ منه وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فأيِسَ منها، فأتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، قدْ أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ، فَبيْنَا هو كَذلكَ إذَا هو بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فأخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ."، رواه البخاري ومسلم. يريد الله منا أن نستحضره في حياتنا لا أن نعبده عبادة المقهور، بل عبادة من يحبهم ويحبونه، عبادة المحبين لا فقط عبادة المرهوبين. ولكي تستحضر ربك اخرج من دائرة من يستحضر غير ربه مكان ربه، ليعطيه عطايا ربه، وهو أمر مستحيل، استحضار الله معناه العمل المتواصل، وطلب التسديد منه بأن تخاطبه عز وجل قائلا: هذا جهدي فوفقني بفضلك ومنتك. بمعنى أن

تثبت أنك قوي كبير في معترك الحياة، وفي مواجهة التحديات أشخاصا، وجماعات، ومشاكل، ومع ذلك فإنك أمامه محتاج وضعيف، وإن كنت ناجحا، غالبا، ويشهد لك غيرك بالسطوة، والغلبة، والقوة.

إن المقترب من الله لا تهمه آراء الضعفاء مثله فيه، بل يتصاغر أمام العلي الكبير. هكذا تثبت له أنك لا تحمل ذرة كبر في دواخلك، وأنك في الوقت نفسه قوي كما أرادك. وهكذا تثبت لنفسك أنها قوية حيث يجب أن تكون قوية، ومتواضعة حيث يجب أن تكون متواضعة. إن القرب من الله مجال تتحكم فيه الجزئيات والجوانيات أي أنه مرتبط بدقائق الأفعال، والأقوال، وغير منفصل عن عمق المشاعر والوجدانيات. لا يريد الله منك أن تطور بنجاحاتك أفكار استعلاء تتحول إلى مشاعر استكبار، ثم تتعمق، لتصبح معتقدات عميقة في شخصيتك، بمعنى أنه قد تتحول الأفكار لتصبح أكاذيب، إيمانية، صادقة، عميقة عمق المعتقدات، وفي الاتجاه نفسه لا يريد منك أن تطور عقد النقص المبنية على أفكار كاذبة، تطور في دواخلك معتقدات إيمانية عميقة عمق المعتقد، وتؤدي بك إلى كره نفسك، ووضعك، وأفعالك بل قد تسوقك إلى كره ربك، لأن حالة الضعف والهوان هي حالة فقر معرفي، ووجداني، وسلوكي عام. لهذا كان منهج ربنا، قوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا"، سورة البقرة: 143. فتوسطوا تقتربوا من ربكم الكريم.

يا أيها المؤمن، إن الإحساس بأنك بعيد عن الله ليس علامة هجر، بل هو شعور طبيعي يراود الصادقين في إيمانهم. طريقك لتجاوز هذا الفراغ الروحي ليس واحداً، ولكنه يبدأ بالمبادرة والمواعدة الواعية، فالله يقابل سيرك إليه بالمهرولة، والعلاقة به ليست عبادة خوف، بل عبادة محبة متبادلة (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ).

فلسفياً، القرب يتجسد في تفضيل ما يحبه الله على ما تحبه نفسك. لا تخف من هفواتك، فالله يحلم عليك ويعلم ضعفك. لكن الخطر يكمن في أن يصبح تفضيل المعصية معتقداً مستحكماً في قلبك.

نفسياً، لتحقيق هذا القرب، يجب عليك أولاً أن تحقق التوازن الذاتي (الوسطية): ارفض أن تُطور أفكار استعلاء (كبر) من نجاحاتك، وفي الوقت ذاته، لا تسمح لعقد النقص أن تقودك لكره نفسك. أنت مطالب بأن تثبت قوتك أمام التحديات، وفي اللحظة ذاتها، أن تعترف أمام الله بضعفك واحتياجك المطلق لفضله. خاطب الله في لحظات ضعفك (في الصلاة والخلوة)، فهناك تنزل السكينة وتأتيك الإجابات.

إدراكياً وعملياً، كن قوياً حيث يجب أن تكون قوياً، ومتواضعاً حيث يجب أن تكون متواضعاً. الوسطية (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) هي المنهج الذي يضبط سلوكك ومشاعرك، ويحميك من التطرف في الكبر أو الذل. توسط تقترب من ربك الكريم.

التأمل القرآني الخامس: الكفايات المحققة للنصر

خمس كفايات مضافة إلى الدعاء هي أساس الخيرية في الأفعال الموصلة إلى العالم العلوي الرباني والمحققة للنصر:

(ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ (17))

الآية 17 من سورة آل عمران

توضح هذه الآية في سورة آل عمران خصائص أفضل الناس وأفضل الأفعال المؤدية إلى أفضل النتائج في الدنيا والآخرة. وأن العباد الذين جمعوا هذه القدرات حصلوا صفة العبودية الخالصة لله: "وبشر عباد"، وحصلوا الجزاء الأخروي كاملا مكمولا. لقد تصدرت خاصية الصبر مجموع الكفايات التي يجب على المؤمن التحلي بها، وقبل ذلك استدخالها وتعلمها حتى تصبح جزءا من شخصيته، فما الصبر؟ ولماذا الصبر؟ وكيف نحصل كفاية الصبر؟

معلوم أن الصبر هو القدرة النفسية العميقة على الانتظار، مع تدبير متأن للمشاعر المرتبطة بفعل الانتظار أيا كانت نتائجه، بل والصبر على نتائج الانتظار نفسه، بل والصبر على الصبر كذلك، ولقد جاء في آية أخرى: "اصبروا وصابروا". يتضح من خلال الآية الكريمة أن الصبر فيه قوة تحمل، ومرتبط بالوجدانيات المؤلمة، ومتعلقاته سيكولوجية مشدودة لأفعال واقعية مؤلمة، أو ممتدة في الزمن، أكاد أقول أن الصبر جهاد النفس ضد نزوعها نحو التسرع، وتجنب الألم، وكأن الأصل في الوجود هو الألم لذاك يجب أن توافقه، وتواكبه كفاية أعلى منه، وتستوعبه، بل وتستحود عليه، وهي الصبر. فالجنة إذن بعيدة عن كل متسرع في الحكم، وكل متسرع في الانتقام، وكل متسرع في الأداء، وكل متسرع في القصاص، وكل متسرع في أي مجال من المجالات، لأن التسرع معناه استسلام النفس لنزعاتها الإبليسية، التي تؤدي لظلم الناس، والخلق، والنفس. لا يريد الله من عباده الحقيقيين أن يكونوا عفويين يحترفون ردود الأفعال، بل يريدهم متزنين، صابرين، ومتصبرين، حتى يبلغ الصبر منتهاه، ليستطيعوا اتخاذ القرارات الصحيحة في حياتهم ومماتهم.

تخفي كفاية الصبر عمقا سيكولوجيا مهما وجب الانتباه إليه، يمكن أن أطلق عليه مسمى رد الفعل الكلبي، أو الإشراط الكلاسيكي كما هو عند بافلوف وواتسون في علم النفس السلوكي، لا يريدنا الله أن نحترف ردود الأفعال مثل الحيوانات، فيستطيع أعداؤنا التنبؤ بسلوكاتنا المستقبلية، والإجهاز علينا، بل يريدنا مرنين، حتى يصعب على أعداء الله تصنيفنا، والتنبؤ بردات أفعالنا. وعليه، فردات فعل كلب بافلوف لا تليق بالمسلم.

ترتبط كفاية الصبر إذن بتطوير قدرتنا على الانتظار وجعل الآخر في حيرة كاملة وطول انتظار. لأن انعدام الصبر معناه الوقوع في التسرع، الذي يعني الوقوع في الأخطاء القاتلة على جميع المستويات من المستوى المجهري، إلى المستوى العام، أو الأكبر، وفي كل الوضعيات. إن التسرع متاح لأي أحد، أما الصبر فكفاية عالية ومكتسبة، لذلك كانت من خصائص عباد الله الحقيقيين. يمكن أن نقول بأن الصبر فيه

ذكاء، والتسرع فيه بلادة، كما أن الصبر قريب من الصواب، والتسرع هو نفسه خطأ، يكاد أن يكون الصبر من الإيمان، والتسرع من الشيطان، الصبر يتضمن قوة إرادة، ودقة تنظيم، وقوة تحمل، ودقة تخطيط، والتسرع عكسه، بالتمام والكمال. ومن أجمل ما يمكن أن نلاحظه في حياتنا اليومية مع أبنائنا، وطلبتنا، وأزواجنا، وأصدقائنا، وأسواقنا.... أننا نبتلى بهم وبأفعالهم، ويبتلون بنا وبأفعالنا، ولو استثمرنا وضعياتنا المعيشية اليومية المأزومة، لنتعلم منها الصبر، لوصلنا إلى درجات عليا في هذه الكفاية، وتقربنا بذلك من مستوى عباد الله. يبتلينا الله في الواقع ليطور كفاياتنا، ونحن نزداد بعدا بتعميق تسرعنا عوض تطوير صبرنا. إن أهم ما يجب أن تتسلح به الأمة في هذه الفترة العصيبة من اعتداءات الصهيوصليبية هي الصبر المربوط بالذكاء، وليس الاستقالة، والتنازل عن قضاياها، نحن الآن في فترة نحتاج فيها إلى صبر يخفي نفاذ صبرنا. وصدق عز وجل عندما قال قبل الرباط: "**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا لعلكم تفلحون**"، سورة آل عمران: 200. لا يفترق الفلاح، والصبر، والرباط .

بعد كفاية وخصلة وقيمة الصبر جاء الدور على كفاية الصدق، والصبر مقرون بالصدق، فأكثر الناس معاناة هم الصادقون، وهم أيضا من يتعلم الصبر أكثر من غيرهم. ففضيلة الصدق بعد أن تتحول في دواخلنا إلى معتقد راسخ، وتتلبس بها سلوكاتنا، تتحول إلى كفاية ملازمة لنا، ولأن الصدق فضيلة عالية، ورتبتها سامقة، فإنه لا يستطيع الهابط، أو الرخيص، أو البليد التلبس بها، لأنها تستدعي ذكاء من جهة، وقوة داخلية من جهة ثانية، واستغناء عن الناس من جهة ثالثة، إذ الصادق لا يعادي الحقيقة من أجل السقوط في ضدها، والذليل يخافها، ويهرب منها لهوان جوانيته، وسطحية تفكيره، وتعلقه بغيره. ولا يجب أن نغفل أن الصدق يورث عداوة أعداء الحق، وتابعيهم من رعاع الجهل، والخوف، والطمع، فثمن الصدق باهض، وثمن الصادقين لا يقدر، لأنهم فوق المساومات، وقريبون من الحق عز وجل، ولا تتعجبوا إن لاحظتم في الحياة الدنيا أن الصادقين غالبا ما يخسرون الكثير للحفاظ على سلامة الحق في دواخلهم، وسلامة أنفسهم من أدران الأغبياء. إن الصادقين قوم صابرون، والصابرون يقينا صادقون. وعليه، فإن اجتماع الفضيلتين باعتبارهما كفايتين دليل على أن الله بمنطوق الآية أعلاه، يستجيب أدعية أجود الناس في الفضائل العميقة، أولئك الذين يتألمون من أجل البقاء صادقين، ويصبرون من أجل تحمل أثمنة الخذلان، والبهتان، والبلادة، والمساومات. لا يتحمل الصادقون العيش بنقص في الثقة في أنفسهم وجماليتها، ولا يستطيعون العيش بتناقض قيمها. قد يرى الناس أن الصادقين غير عاديون، ولا يتنازلون عن صدقهم، وقد يصنفونهم تصنيفا متطرفا، لكنهم يحبونهم لأن في حال ما احتاجوا صدقهم، فوجدوهم، وشهدوا على الناس، وعلى أنفسهم بالصدق، وإن كان على حساب مصالحهم.

يا أيها السالك، إن النصر الحقيقي في الدنيا والآخرة يتأسس على خمس كفايات جوهرية، يتصدرها الصبر والصدق. هذه الكفايات هي المنطق الإجرائي للعبودية الخالصة الموصلة إلى العالم العلوي الرباني.

فلسفياً، الصبر ليس مجرد تحمل، بل هو كفاية عليا مكتسبة وجهاد للنفس ضد نزوعها نحو التسرع وتجنب الألم، وهو بمثابة قوة تحمل تدرك أن الألم أصل في الوجود. التسرع هو استسلام للنزعات

الإبليسية التي تؤدي إلى الظلم، بينما الصبر هو صواب وذكاء يتضمن دقة تخطيط وقوة إرادة. أما الصدق، فهو معتقد راسخ وقيمة سامقة ترفض المساومات، وثمنها باهظ لأنه يورث عداوة أعداء الحق وتابعيهم. الصادقون هم قوم صابرون بالضرورة.

نفسياً، الصبر هو ضد رد الفعل الكلبي (الإشراط الكلاسيكي)؛ فالله لا يريدك أن تكون عفوياً محترفاً لردود الأفعال يمكن لأعدائك التنبؤ بها والإجهاز عليك. بل يريدك مرناً يصعب تصنيفه، مما يتطلب تطوير القدرة على الانتظار وإبقاء "الآخر في حيرة كاملة". المحن والأزمات اليومية مع الأبناء والزملاء هي استثمار إلهي لتطوير هذه الكفاية في دواخلك. الصدق أيضاً يتطلب قوة داخلية واستغناء عن الناس، لأن الصادق لا يعادي الحقيقة من أجل الهوان أو الخوف، ولهذا، لا يتحمل الصادقون العيش بنقص في الثقة في أنفسهم أو بتناقض في قيمهم.

بيداغوجياً وعملياً، يجب على الأمة في الفترة العصيبة أن تتسلح بالصبر المربوط بالذكاء وليس بالاستقالة أو التنازل عن القضايا. الصبر والصدق هما وقود الأدعية المستجابة؛ فالله يستجيب لأدعية أجود الناس في الفضائل العميقة، أولئك الذين يتألمون ليصبروا على تحمل أثمان البهتان والخذلان من أجل الحفاظ على سلامة الحق. لا يفترق الفلاح، والصبر، والرباط (اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

التأمل القرآني السادس: سيكولوجيا الفرح المتسق وتفكيك "دين اللادين" في احتفالات التفلت

بين الاحتفال بالعيد والاحتفال بالمناسبات

ما معنى أن نحتفل بالعيدين الفطر والأضحى؟

هل الاحتفال بالعيد كأي احتفال؟

غالبا ما يرتبط مضمون كلمة الاحتفال بالتجمعات التي يخرج فيها الإنسان من حال المراقبة الذاتية متحررا من القيود الاجتماعية، ويسمح لنفسه، ويسمح له سياق الاحتفال بإتيان الأفعال العفوية، بل باختراق ضوابط المجتمع، والأعراف، والتقاليد السائدة كيفما كان مصدرها، إنه لحظة تفلت ونوع من الهروب من قبضة المجتمع، وضوابطه، والتفريغ على النفس. يتضمن الاحتفال إبراز الوجه الآخر للذات الذي تقمعه قواعد المجتمع، وكأنه نوع من رجوع الذات إلى نفسها، وتضخيمها، وجعلها فوق ما توافق عليه المجتمع، واعتبره خطوطا حمراء. هكذا على الأقل ما لاحظته في الاحتفالات في الشرق والغرب. فهو بهذا المعنى هروب من المجتمع في المجتمع بإظهار الذات لنفسها، ولو في شكل تمرد يتم التسامح معه باعتبار سياق الاحتفال. يكثر في الاحتفالات التزاحم والصخب، والكلام المتجاوز للأعراف، وربما الخمر، والتقارب بين الأجساد، والصفير، والصراخ، والحركات المثيرة، واللباس المتحرر، أو المميز، أو الغريب.....، وكأنها لحظات يقصد بها التمتع باللحظة دون التفكير في أي شيء آخر. في مثل هذا النوع من الاحتفال اقتحام للمحظور، بحيث تنزاح النفس بنفسها إلى ممارسة الممنوعات، لتتحرر من الحدود كيفما كانت، وكأني بها تجمعات ذات طابع ديني بنكهة قوانين دين اللادين، ربما يمكن أن نتحدث عن العودة إلى حالة الطبيعة قبل القوانين والأديان، التي شرعت كثيرا من الضوابط الثقافية والاجتماعية، إنها تجمعات غايتها التمتع في أقصى درجاته إن كان ممكنا. وعليه هل يمكن اعتبار الأصل هو حالة الانضباط، أو حالة التفلت؟ لن أبحث الآن عن جواب لهذا السؤال، بل أقول بأن الاحتفال يمكن أن يكون بشكل آخر، فسحة نفسية، واجتماعية، وهادفا في الوقت نفسه.

يعمق العيد في الإسلام التدين لأنه لا يعتبر التدين قناعا يمكن أن نزيله في أي وقت نشاء، بل ينطلق من كون التدين حقيقة هوية المؤمنين به كدين، تستيقظ في الصباح على التكبير، وتذهب لتصلي، وتكبر معلنا منذ بداية اليوم ألا شيء أكبر من الكبير المتعال، تحتفل بنكهة تعبدية، فيها فرح، وبشاشة، ولقاء الأحباب، وأكل، وشرب، وأناشيد، ونكت، و.... لا مجال لإخراج الجماعة عن ضوابطها. أما أنت كفرد، فيمكنك أن تخرج عن الضوابط كما تشاء بمفردك، بينك، وبين ربك، واعلم أن خروجك معناه خروج، وكل خروج هو دخول، الخروج من التدين يعني الدخول لتدين من نوع آخر، ولو للحظات فقط، وإن كان هذا الدين دين إبليس.

يا أيها المؤمن، إن النظرة الشائعة للاحتفال (في الشرق والغرب) هي لحظة تَفَلُّت وهروب من قبضة المجتمع وقواعده، حيث يتم تضخيم الذات وإظهار الوجه الآخر الذي تقمعه الضوابط، مع اقتحام

متعمد للمحظورات بدافع التمتع باللحظة دون تفكير. هذا النوع من الاحتفال يمكن وصفه بأنه تجمعات ذات طابع ديني بنكهة قوانين دين اللادين (أو العودة إلى حالة الطبيعة).

فلسفياً، يقدم العيد في الإسلام إطاراً بديلاً. هو ليس انسلاخاً من التدين بل تعميق له وتأكيد على الهوية. الفرق الجوهري هو أن العيد في الإسلام هو احتفال بنكهة تعبدية، حيث يبدأ اليوم بالتكبير ليعلن أن "لا شيء أكبر من الكبير المتعال". العيد يدمج الفرح والمرح واللقاءات الاجتماعية (الأكل، الشرب، الأناشيد) ضمن الضوابط، دون الحاجة إلى إخراج الجماعة عن قواعدها.

نفسياً، هذا المفهوم يضمن فسحة نفسية واجتماعية هادفة دون أن يخلق صراعاً بين الذات المقموعة والقواعد الاجتماعية. العيد يحقق التفريغ والتعبير عن الفرح دون أن يدفع الفرد إلى التورط في التمرد السلبي. لكن، يُشار إلى أن أي خروج عن التدين (حتى لو كان لحظياً وفردياً) هو دخول لتدين آخر (دين إبليس)، مما يجعل المؤمن مسؤولاً عن الحفاظ على يقظته حتى في أوقات الفرح.

بيداغوجياً (سلوكياً)، العيد هو ممارسة للاستمرارية في التدين. إنه يُعلم المؤمن أن التدين ليس قناعاً يمكن إزالته، بل هو حقيقة للهوية تُستيقظ وتُعاش في كل الظروف، حتى في أوقات الفرح والبهجة. الهدف هو دمج الفرح الروحي والمادي في إطار متزن لا يسمح بانتزاع الضوابط أو الانجرار وراء الصخب المتجاوز للأعراف، بل تعميق الوعي بالتكبير.

التأمل القرآني السابع: سوسيولوجيا الهوان

لم أجد مثالا واحدا واضحا للطمع البليد من طمع دولنا، والمتخاذلين من بني جلدتنا. فهم لا يفعلون شيئا، ويطمعون في الحصول على كل شيء. إنني أعتقد أن الجبن يولد الطمع، والبخل كذلك، بل والخوف، وقد اجتمعت كلها فينا، وجعلتنا نطمع فيما لا نستحق، الطمع في دولة فلسطينية، واسترجاع الأراضي بالتمني فعل غير عقلاني، وغير منطقي، وغير واقعي، وطمع بليد، فمتى نالت الشعوب استقلالها بالتنديد، أو بالتشديد على المقاومين. إن هذا الطمع البليد الذي يسكننا خلق طمعا عنيدا، وعتيدا، وكبيرا في نفوس أعدائنا، فطمعوا في كل شيء، في الأرض، والخيرات، والسماء، والماء، ورجالنا، ونسائنا، وأطفالنا، بل وأشجارنا، وحجارتنا... لا شيء أصبح خارج دائرة طمعهم الكبير، لأن طمعنا بليد وجبان. هكذا لا نطور لا شعورا صحيا، ولا سلوكا صحيحا.

يحيل الطمع كذلك ضمنيا على الجشع فنحن جشعون، لدرجة أننا نريد أن نحصل على كل شيء، دون أداء ثمنه من أرواحنا، ودمائنا، وأموالنا، بل جشعنا البليد أوهمنا بأننا يمكن أن نحصل على كل شي دون فعل أي شيء، ولأنهم فهموا جشعنا البليد، وطمعنا الجبان فقد نهجوا معنا السلوك الذي يوافقه وهو الكذب، فكما يقول المثل الشعبي المغربي: "لا يغلب الطماع إلا الكذاب"، فقد كذبوا علينا، ويكذبون علينا، وسيكذبون علينا لأنهم علموا يقينا بأننا نريد الحقوق دون أداء أثمنتها.

ومن غرائبنا أنهم كلما كذبوا علينا زاد طمعنا، وجشعنا البليد، وبالمقابل زاد طمعهم، وجشعهم العنيد، والعتيد، وكأني بطمعنا يزداد بلادة، ويزدادون قوة، لأننا بمزيد طمعنا نرفع من مستوى تنازلاتنا وبلادتنا، وننشط بذلك طمعهم وجشعهم إلى أقصى الحدود، إنها معادلة الطمع البليد، والطمع العتيد، والكذب الشديد بين قوم كسالى وجبناء، وقوم مجتهدين وكذابين، بين قوم يضحون بأموالهم ودمائهم من أجل نيل ما لا يملكون، وقوم ينبذون كل مقاوم من أجل أرضه التي أخرج منها ظلما وعدوانا. حتى أضحت بلادتنا لا بلادة تضاهيها، وجبننا لا جبن يوازيه، إذ أضحى شكر عدونا لنا، ومدحه لجبننا، وجشعنا تحت مسميات التعاون، يعتبر إنجازا خارقا، لقد جبنا حتى استحيى الجبن من جبننا، وتمنى لو غير اسمه، وتلبس بنعت غير نعته. إننا نحن المسئولون عن بلادتنا وضعف همتنا، وانتفاخ طمعنا البليد، واستبلاد غيرنا لنا. لا أحد غيرنا، نحن من قرر أن يدفن رأسه في التراب، ويعطي مؤخرته للهواء ظنا منه أنه بفعله هذا يؤدي واجبه.

لا يعاكس الطمع والجشع البليد إلا الكرم في التضحيات، وغير هذا وهم بليد، وطريق العاجز، لذلك كان الذين يجتهدون بأموالهم وأنفسهم في كل المعتقدات أفضل من غيرهم، وفي ديننا هم الفئة التي لا تموت أبدا، لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون. يقابل الطمع البليد من جهة النقيض الكرم الشديد، ومن جهة العدو الجشع العتيد، فنحن ما بين أن نكون كرماء في التضحيات، أو شحيحين فيها مع طمع بليد. وتخفي فكرة الطمع البليد الجبان عدم الثقة في الله، وتضخم الثقة في غيره. لا يرى الطامع في غير الله للآخرة مكانا، ولا للجزاء زمانا، ولا للحساب وقوعا، وبالمقابل يرى أن كل ما يريد هو عند عدوه، جبان في

الدنيا، وجبان في تحصيل الآخرة. لا يصنعون دنياهم، ويريدون أن تأتيهم، ولا يصنعون آخرتهم، لأنهم في عمقهم يشكون فيها. بل ربما طمعهم البليد أوحى إليهم بأنهم خالدون فيها. كما شل طمعهم وجشعهم البليد عقولهم وقلوبهم، فأضحوا لا يطلبون إلا المزيد من الاستسلام، والانتظار، والتنازل عسى أن يتحقق لهم طمعهم بالحصول على كل شيء، دون أداء أي شيء. ويوما ما سيشعر هؤلاء الطماعون، البخلاء بأنهم بقوا لوحدهم، غادرهم كل محيطهم، فالطامع فيهم سيرمي بهم، والكرماء من بني جلدتهم سيحاسبونهم، وهل جزاء الذل إلا الذل.

يا أيها المتأمل، إن جوهر أزمة التخاذل يكمن في الطمع السياسي البليد؛ وهو رغبتنا الجشعة في الحصول على كل شيء (كالاستقلال أو استرجاع الأرض) دون أداء أي ثمن من التضحيات بالأموال والأرواح.

فلسفياً وأخلاقياً، الطمع البليد هو فعل غير عقلاني، غير منطقي، وغير واقعي. ينبع هذا الطمع من اجتماع الجبن والبخل والخوف، ويولد في المقابل طمعاً عنيداً وعتيداً في نفوس الأعداء الذين يطمعون في كل شيء (الأرض، الخيرات، البشر). المعادلة أصبحت بسيطة: طمعنا البليد يرفع من مستوى تنازلاتنا وبلادتنا، ويُنشّط جشعهم إلى أقصى الحدود، ويقابل بكذب شديد منهم، استناداً للمثل: "لا يغلب الطماع إلا الكذاب". المقابل الوحيد لهذا الطمع هو الكرم الشديد في التضحيات، فالعاجز هو من اختار طريق الوهم البليد.

نفسياً، الطمع البليد يحيل على عدم الثقة في الله، وتضخيم الثقة في غيره. هذا الجبن يجعل الأفراد جبناء في الدنيا (لا يصنعون دنياهم) وجبناء في تحصيل الآخرة (يشكون فيها). الطمع والشح يشلّ العقول والقلوب، ويجعل الفرد يطلب المزيد من الاستسلام والتنازل ظناً منه أن هذا سيحقق له مطالبه دون جهد. بلادتنا هذه هي قرارنا نحن، حيث قررنا "دفن الرأس في التراب".

بيداغوجياً (سلوكياً)، نحن المسؤولون عن بلادتنا وضعف همتنا وانتفاخ طمعنا. لا أحد غيرنا. الخروج من هذه الحلقة المفرغة يكمن في فهم أن جزاء الذل هو الذل، وأن الحل ليس في التنديد، بل في التضحية والكرم، فـ "الذين يجتهدون بأموالهم وأنفسهم" هم الفئة التي لا تموت أبداً، وهم النقيض الكامل للطمع والجشع. يجب علينا تطوير شعور صحي وسلوك صحيح يقوم على بذل الثمن لنيل الحق.

فهرس الآيات والأحاديث

الآيات من 1 إلى 5 من سورة البقرة 11
الآيتان 3 و4 من سورة البقرة 13
الآيتان 6 و7 من سورة البقرة 16
الآيات من 8 إلى 10 من سورة البقرة 19
الآيات 14 و15 من سورة البقرة 23
الآية 9 من سورة يونس 26
الآيات من 111 إلى 115 من سورة المائدة 29
الآية 7 من سورة يونس 32
الآيتان 7 و8 من سورة التغابن 36
الآيات من 78 إلى 82 من سورة الكهف 40
الآية 37 من سورة هود 43
الآية 46 من سورة الإسراء 46
الآية 6 من سورة المائدة 49
الآية 19 من سورة ق 52
الآيات من 7 إلى 10 من سورة يوسف 56
الآية 26 من سورة الأعراف 60
الآية 16 من سورة الكهف 65
الآية 48 من سورة مريم 65
الآية 49 من سورة مريم 65
الآية 29 من سورة المطففين 72
الآية 47 من سورة الزخرف 72
الآية 34 من سورة المطففين 72
الآية 134 من سورة البقرة 75
الآية 33 من سورة الأنعام 78
الآية 108 من سورة الأنعام 78
الآيتان 4 و5 من سورة الفرقان 81
الآيات من 79 إلى 81 من سورة النمل 84
الآية 25 من سورة المائدة 99

الآيات من 155 إلى 158 من سورة النساء 103
الآية 7 من سورة النجم 113
الآية 1 من سورة الأعلى 113
الآية 20 من سورة الليل 113
الآيتان 32 و33 من سورة الدخان 121
الآية 6 من سورة ابراهيم 125
الآية 87 من سورة البقرة 128
الآية 91 من سورة البقرة 128
الآية 21 من سورة آل عمران 128
الآية 112 من سورة آل عمران 128
الآية 155 من سورة النساء 128
الآية 24 من سورة المائدة 128
الآية 60 من سورة المائدة 131
الآية 22 من سورة الأنفال 131
الآية 13 من سورة الحشر 134
الآية 2 من سورة الحشر 136
الآيتان 100 و 101 من سورة البقرة 139
الآية 155 من سورة النساء 139
الآية 98 من سورة النساء 141
الآية 7 من سورة الإسراء. 151
الآية 18 من سورة الأنبياء 154
الآية 114 من سورة طه 159
الآية 29 من سورة مريم 162
الآية 41 من سورة آل عمران 162
الآيات من 38 إلى 43 من سورة الحاقة 164
الآية 100 من سورة يوسف 167
الآية 36 من سورة البقرة 167
الآية 89 من سورة النحل 171
الآية 102 من سورة النحل 171
الآية 89 من سورة النحل 174
الآية 89 من سورة النحل 177

الآية 157 من سورة الأنعام 180
الآية 6 من سورة النمل 186
الآية 151 من سورة البقرة 186
الآية 164 من سورة آل عمران 186
الآية 241 من سورة البقرة 191
الآية 28 من سورة الأحزاب 191
الآية 34 من سورة النساء 194
الآية 53 من سورة الحجر 198
الآية 28 من سورة الذاريات 198
الآية 221 من سورة البقرة 201
الآية 188 من سورة البقرة 204
الآية 79 من سورة آل عمران 208
الآية 2 من سورة الأعراف 210
الآيات من 113 إلى 115 من سورة التوبة 213
الآية 23 من سورة الأنبياء 216
الآيتان 100 و101 من سورة الكهف 218
الآية 73 من سورة الفرقان 218
الآيتان 125 و126 من سورة طه 218
الآية 131 من سورة طه 221
الآية 60 من سورة الفرقان 224
الآية 40 من سورة النساء 227
الآية 217 من سورة البقرة 230
الآية 100 من سورة آل عمران 230
الآية 149 من سورة آل عمران 230
الآية 2 من سورة الممتحنة 230
الآية 118 من سورة آل عمران 230
الآية 39 من سورة يونس 233
الآية 84 من سورة النمل 233
الآية 33 من سورة التوبة 236
الآية 28 من سورة الفتح 236
الآية 9 من سورة الصف 236

الآية 109 من سورة البقرة 236
الآية 54 من سورة النساء 236
الآية 92 من سورة الأنبياء 244
الآية 46 من سورة الأنفال 244
الآية 13 من سورة الحجرات 248